صفحات من تاريخ
الحروب الصليبية

التحصينات الحربية وأدوات القتال

فى العصر الأيوبى بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

تأليف
د. مرفت عثمان

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

التحصينات الحربية وأدوات القتال

© دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

19 شارع امتداد رمسيس (2) ـ أمام وزارة المالية
مدينة نصر ـ القاهرة
تليفاكس: 24024612 ـ 24051498
e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

الطبعة الأولى: المحرم 1431 هـ / يناير 2010 م
رقم الإيداع: 20278 / 2009
الترقيم الدولي: 3 - 83 - 6276 - 977 - 978

■ صفحات من تاريخ الحروب الصليبية ■

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبى بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

تأليف

د. مرفت عثمان حسن على

تقديم

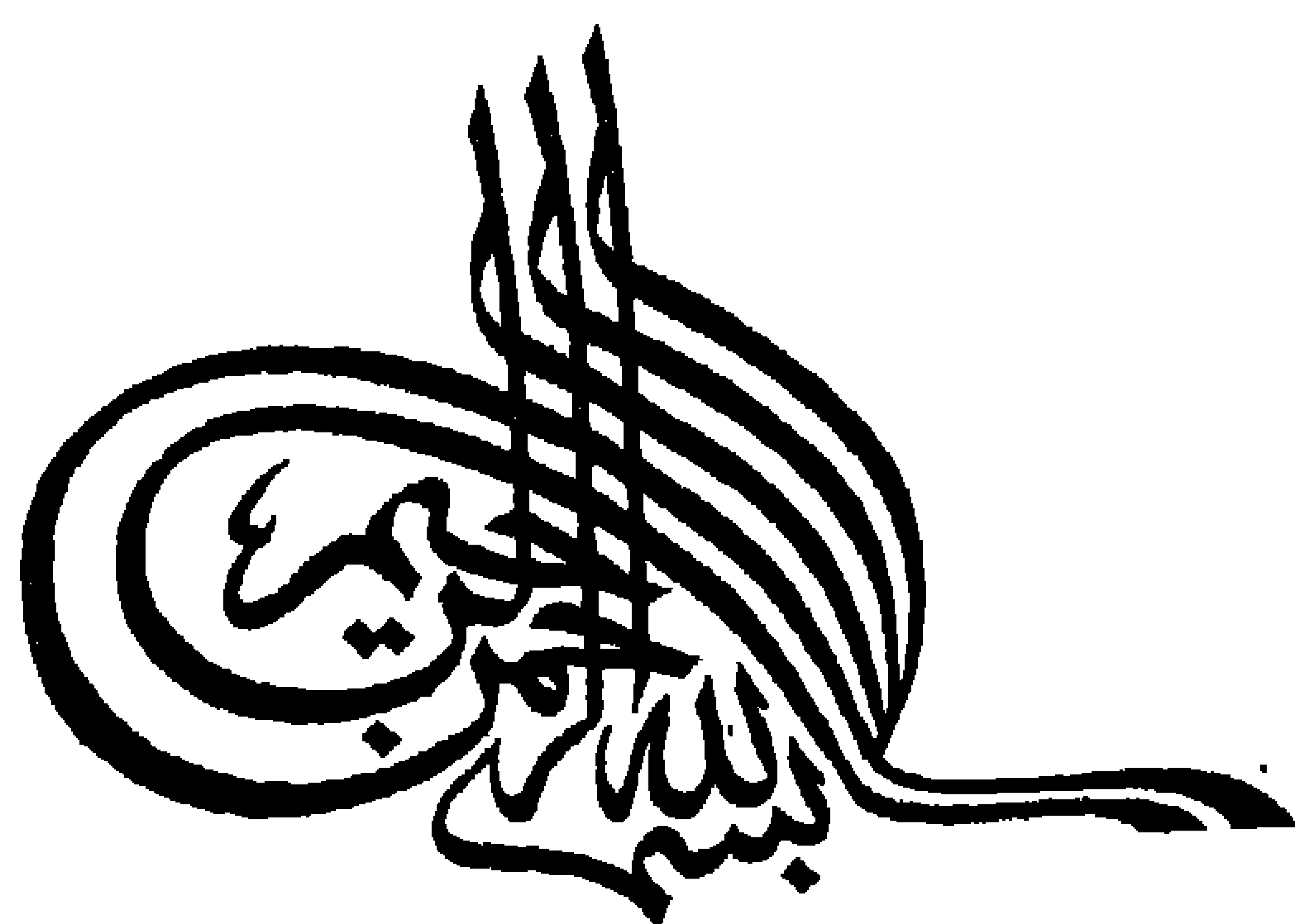
د. عبد العزيز محمود عبد الدايم

دار العالم العربي

DAR AL-AALAM AL-ARABI

بيانات الفهرسة المكتبية
(إعداد إدارة الشئون الفنية بدار الكتب المصرية)

على، مرفت عثمان حسن.
التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي
بمصر والشام زمن الحروب الصليبية /
تأليف مرفت عثمان حسن على؛
تقديم عبد العزيز محمود عبد الدايم . ـ
ط 1 . ـ القاهرة: دار العالم العربي، 2010.
404 ص؛ 24 سم . ـ
(صفحات من تاريخ الحروب الصليبية)
تدمك 3 83 6276 977 978
1. الحروب الصليبية في مصر
2. الدولة الأيوبية
3. مصر ـ تاريخ ـ العصر الأيوبي
أ. العنوان
ب. السلسلة
ديوي 953.07393
عبد الدايم، عبد العزيز محمود (مقدم)


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى روح أبى الطاهرة تغمده الله برحمته..

إلى أمى الحبيبة، واحتى الخضراء، التى سارت معى على درب الحياة، ورأيت بعينيها الأمان والاطمئنان، والتى تحملت معى الكثير من العناء والشقاء، والتى استقطعت من حقها الكثير، أطال الله عمرها بالخير..

أهدى إليها هذا العمل، فلها جزيل الشكر والامتنان.

جزاهما الله كل خير

محتويات الكتاب

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد..

فلاشك أن ظاهرة البحث عن التحصينات الحربية وأدوات القتال لاتزال تفتقر إلى مزيد من الجهد والبحوث، والغريب فى أمر هذه التحصينات أنها لا تقتصر على بلد دون آخر من البلاد، وإنما كانت تعم كافة البلاد، خاصة فى وقت كان لابد من وجودها فيه، ألا وهو وقت الحروب الصليبية التى تأثرت بها كل البلاد والعباد، سواء فى مصر أو بلاد الشام، وما لبثت أن تركت بصماتها واضحة فى أحوال المجتمع وأوضاعه، مما جعل منها سمة هامة من سمات العصر الأيوبى الذى اشتهر فى التاريخ الإسلامى بعصر الحروب الصليبية.

وتكمن أهمية الموضوع فى أنه يمثل جانب الربط والتضمين بين التحصينات الحربية وأدوات القتال وأهمية وجودهما مع بعضهما باعتبارهما دليلًا قائمًا لا يتطرق الشك إلى شهادته بأى حال من الأحوال بأنهما الأساس فى نجاح معظم الحروب التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين فى عصر البطل العظيم «صلاح الدين» بصفة خاصة، وعصر خلفائه بصفة عامة.

وقد أقدمت على هذا العمل الشاق الباحثه/ مرفت عثمان، فمثل هذه الدراسات تحتاج إلى جهود فريق من الباحثين المتمرسين، ولكن الباحثة قد اشتُهرت بالجدية والمثابرة والكفاية، ما جعلها أهلًا للنهوض بهذه الدراسة الضخمة.

وأنا لا أريد أن أطنب فى الثناء على الجهد الذى بذلته الباحثة، وإنما أترك للقارئ وحده أن يستشف مدى هذا الجهد فى كل صفحة، بل فى كل سطر من سطور هذا العمل الكبير.

والله ولى التوفيق

أ.د. عبد العزيز محمود عبد الدايم
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآثار ـ جامعة القاهرة

المقدمة

على الرغم من قصر المدة الزمنية التى عاشتها الدولة الأيوبية فى مصر والشام واليمن - ثمانون عامًا (567 هـ/ 1171م - 648هـ / 1250م) - إلا أنها تركت بصمات واضحة فى شتى نواحى الحياة المختلفة، خاصة فى مجال العمارة الحربية، فقد ازدهرت أيما ازدهار وصرف عليها غالبية ميزانية الدولة، فشيدت القلاع على الثغور المصرية والشامية لصد هجوم الصليبيين.

والحق أن الدولة الأيوبية وجهت كل قوتها إلى النواحى الحربية، حيث كان هناك صراع دائم بينها وبين الصليبيين فى الشام، وعلى الرغم من ضراوة القتال الذى دار فى هذه الفترة إلا أن ذلك لم يمنع من الاتصال الحضارى بين الصليبيين والمسلمين، ذلك الاتصال الذى كان له أثره الواضح على عمارة وفنون الشرق والغرب معًا.

وتكمن أهمية موضوع البحث فى أنه يشمل جانب الربط والتضمين بين كلٍّ من التحصينات الحربية وأدوات القتال فى العصر الأيوبى، فكم هو مفيد ذلك الجانب فى معرفة أدوات القتال التى كان يستخدمها المسلمون فى حصار القلاع وتسلق الأسوار والحصون ومعرفة الأدوار المختلفة للقلاع.

هذا والسبب الأساسى فى اختيار هذا الموضوع، هو ندرة وجود بحث مستقل بذاته قد طال بكلماته جانب الربط والتضمين، فقد كان كل بحث يتحدث عن عنصر بذاته فقط، سواء فى التحصينات الحربية بمفردها مثل قلعة الجبل أو أسوار «صلاح الدين» أو غير ذلك، وهذا الكلام ينطبق على بلاد الشام التى تحتوى على العديد من الأبراج والأسوار والقلاع حتى أدوات القتال، فكل هذه العناصر أدمجتها مع بعضها البعض، وجمعتها فى موضوع واحد ألا وهو التحصينات الحربية وأدوات القتال فى العصر الأيوبى فى مصر والشام زمن الحروب الصليبية.

أما المنهج الذى اتبعته فى دراسة هذا الموضوع فقد قسمته إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية البحث وسبب اختياره ليكون موضوعًا لنيل درجة الماجستير، ودراسة المقدمة تعتبر المدخل لأهم المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها.

فالفصل الأول: حمل عنوان «الأخطار الداخلية والخارجية في العصر الأيوبى»، وقد تحدثت فيه عن الأحوال السياسية فى الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية وكيف أثرت هذه الأحوال السياسية على تفكير الغرب فى الحروب الصليبية ومجيئها إلى الشرق، فتحدثت عن الحملة الصليبية الأولى ثم حركة الجهاد الإسلامى التى حمل رايتها عظماء المسلمين أمثال «شرف الدولة مودود»، «نجم الدين إيلغازى»، ثم «عماد الدين زنكى» وغيرهم، هذا وقد تحدثت عن الحملات الصليبية التى جاءت فى العصر الأيوبى وتصدى لأحدها البطل «صلاح الدين الأيوبى» الذى قضى على الأخطار التى واجهته فى الداخل، وبدأ فى الاستعداد لمواجهة الصليبيين، فتصدى لهم وهزمهم فى حطين، ودخل مع ملوك أوروبا فى حملة صليبية سميت الثالثة، وعقد مع ملكهم «ريتشارد قلب الأسد» صلح الرملة فى سنة (588 هـ / 1192م)، وبعد كفاح رائع وجهاد توفى وخلد الزمن اسمه إلى الآن، عقب ذلك تولى مسيرة الكفاح خلفاء «صلاح الدين الأيوبى» واستمر الجهاد ضد الصليبيين.

وأتبعت ذلك بالإشارة إلى الحملات الصليبية من الخامسة إلى الحملة الصليبية السابعة وموقف سلاطين الدولة الأيوبية من هذه الحملات.

أما الفصل الثانى: من الدراسة فقد حمل عنوان « التحصينات الحربية فى مصر ».

وقد تحدثت فيه عن التحصينات الحربية فى مصر، فتناولت بالدراسة سور القاهرة وأبوابه، وقلعة «صلاح الدين» بمصر وأسباب بنائها، بالإضافة إلى الثغور الحربية فى مصر مثل قلعة المقس، وقلعة البرلس، وتحصين مدينة تنيس والمنصورة ودمياط والإسكندرية، أضف إلى ذلك قلعة جزيرة الروضة.

هذا وقد أفردت جزءًا للحديث عن التحصينات الحربية بشبه جزيرة سيناء، فعرجت بالحديث على قلعة «صلاح الدين» بجزيرة فرعون وأسباب بنائها وتخطيطها، بالإضافة إلى قلعة الجندى (رأس الجندى)، وقلعة أيلة، وذكرت الأسباب التى دعت «صلاح الدين» إلى الاهتمام بشبه جزيرة سيناء وبنائه لهذه القلاع، فقد كانت شبه جزيرة سيناء مسرحًا لمعظم العمليات الحربية التى خاضتها الدولة الأيوبية، وإحدى المنافذ المهمة لقوافل التجارة والحجاج.

أما عن **الفصل الثالث**: من الرسالة فقد حمل عنوان «التحصينات الحربية فى بلاد الشام» وتحدثت فيه عن أهم الدوافع التى أدت إلى تشييد الحصون والقلاع، كذلك تحدثت عن القلاع حسب أهميتها العسكرية.

هذا وقد تحدثت عن القلاع الأيوبية سواء الباقية منها مثل قلعة حلب وقلعة دمشق وقلعة عجلون (الربض)، وتحدثت عن القلاع المندثرة مثل قلعة شميميس وقلعة الطور وغيرهما من القلاع كما ستوضح الدراسة.

وقد أوضحت أيضًا أهم المقومات المعمارية ومميزات العمارة فى التحصينات الحربية، بالإضافة إلى التأثيرات التى تأثر بها «صلاح الدين» فى هذه التحصينات، هذا إلى جانب التأثيرات المختلفة التى أخذها الصليبيون من العرب، وأهم الأدوار التى كانت تقوم بها القلاع فى أوقات الحرب.

أما عن **الفصل الرابع**: فيحمل عنوان «أدوات القتال فى العصر الأيوبى»، وتناولت بالدراسة فى هذا الباب مقدمة عن صناعة الأسلحة وخزانة السلاح، بعد ذلك تحدثت عن أنواع الأسلحة التى كان يستخدمها الجيش الإسلامى فى العصر الأيوبى بدءًا من الأسلحة الفردية والأسلحة الرشقية والأسلحة الجماعية وفنون استخدامها، هذا بالإضافة إلى أدوات القتال الأخرى كالقسى بأنواعها والمنجنيق بأنواعه وآلات الحصار المختلفة، وانتهاء بأن الخيل هو الآخر كان يرتدى أسلحة دفاعية؛ لأنه كان له الدور الأساسى فى المعركة إلى جانب المحارب المسلم.

كما تحدثت فى هذا الباب عن النظام الحربى المتبع فى الحروب وفئات الجيش الإسلامى، بالإضافة إلى الخطط والأساليب التى كان يتبعها المسلمون فى القتال، وكيف كانوا يختارون وقت القتال، مما سبق يتضح أن أدوات القتال هى العامل الأساسى فى كل معركة حربية دارت بين كلٍّ من المسلمين والصليبيين، حيث إننا وجدنا أنها لعبت دورًا أساسيًّا، خاصة النار اليونانية التى كان لها الفضل فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى بعض المعارك الحربية، خاصة فى حرق أبراج الصليبيين التى كانوا يفخرون بها زهوا أنها لا تحرق ولا تؤثر فيها النار، ولكن الله عز وجل نصر المسلمين باختراعهم لهذا السائل الذى تحدث عنه «الطرسوسى» فى كتابه التبصرة.

أما الفصل الخامس: فيحمل عنوان «الأسطول ودوره فى العصر الأيوبى»، وفيه تحدثت عن الأسطول بصفة عامة والأسطول الأيوبى بصفة خاصة، وأهم الإصلاحات التى قام بها

«صلاح الدين» فى مجال الأسطول، هذا وقد أشرت إلى مراكز صناعة السفن فى مصر فى العصر الأيوبى وتطرقت إلى الحديث عن أنواع المراكب الحربية الأيوبية؛ أى أنواع سفن الأسطول الحربى المختلفة، بالإضافة إلى معدات السفن الحربية التى كان لا بد أن تتوافر عند القتال فى البحر.

هذا وقد أشرت إلى نشاط البحرية الأيوبية، بالإضافة إلى المراحل التى مر بها الأسطول الأيوبى فى مصر، لكن بعد وفاة «صلاح الدين» مرت البحرية بمرحلة ضعف، ثم عاد النشاط وبدأ يدب مرة أخرى فى الأسطول الأيوبى، ولعب الدور الأكبر فى الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة.

هذا وقد اعتمدت على العديد من المصادر والمراجع المختلفة التى أفادتنى فى البحث موضوع الدراسة والتى كان لزامًا علىَّ الرجوع إليها.

ومن أهم المصادر التى اعتمدت عليها، أبو المحاسن يوسف رافع بن تميم بن عُتبة بن محمد بن عتاب الأسدى المعروف بـ «ابن شداد» والملقب ببهاء الدين، ولد فى الموصل سنة 539هـ/ 1145م، وتوفى فى حلب سنة 632هـ/ 1235م، وقد سجل سيرة «صلاح الدين» فى كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، والذى ينقسم إلى قسمين: القسم الأول تناول مولد «صلاح الدين» ونشأته وأخلاقه وصفاته، أما القسم الثانى فتناول الناحية السياسية والحربية لعهد «صلاح الدين» منذ توليه الحكم فى مصر وجهاده ضد الصليبيين حتى وفاته، ويعتبر كتاب ابن شداد وثيقة تاريخية مهمة؛ لأنه شارك «صلاح الدين» معاركه الحربية، كما شاهد الأحداث، وكان مستشارًا لـ «صلاح الدين الأيوبى».

ومن المؤرخين الذين أرخوا أيضًا للدولة الأيوبية، القاضى جمال الدين محمد بن سالم الحموى المعروف بـ «ابن واصل» (ت 697هـ/ 1297م)، فى كتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب منذ قيامها إلى نهايتها على أيدى المماليك، هذا وقد عاصر معظم ملوك الدولة الأيوبية، وقد شاهد ابن واصل بنفسه الأحداث حينًا وتتسم أيضًا أخباره بالوثائق الرسمية.

وهذا الكتاب يقع فى ستة أجزاء، الأول منها تناول وصول «صلاح الدين» لحكم مصر أما الجزءان الثانى والثالث فقد تناولا عصر السلطان «صلاح الدين» وأولاده وفترة حكم السلطان «العادل الأول» إلى سنة (615هـ/ 1218م)، وتناول الجزء الرابع عصر السلطان «الكامل محمد»، وتناول الجزءان الخامس والسادس عصر «الصالح نجم الدين أيوب» وابنه

الملك المعظم «توران شاه» ومرحلة قيام الدولة المملوكية، وهو من الكتب التى تحتوى على تاريخ مفصل ودقيق للدولة الأيوبية وسلاطينها جميعًا.

هذا ومن المصادر العربية التى اعتمدت عليها كتاب «الكامل فى التاريخ» لـ «ابن الأثير الجزرى» (555هـ / 1160م - 630هـ / 1238م)، ويعد كتاب الكامل من أضخم كتب التاريخ ذات القيمة الثرية الغنية بالمعلومات المختلفة والتى ينهل منها الباحث دون حساب، فهو من أكثر الكتب تنظيمًا فى المكتبة العربية.

هذا بالإضافة إلى ما كتبه المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بـ «أبو شامة» (ت665هـ/ 1267م)، فى كتابه «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، والذى تناول فيه تاريخ الدولة النورية والأيوبية فى عصر السلطان «صلاح الدين» عن طريق ذكر الأحداث الحولية سنة بسنة أخرى، فهو تناول الأحداث بشرح وإسهاب، وتطرق إلى كل ما يتعلق بالدولة النورية، كما تحدث عن تاريخ السلطان «صلاح الدين» ومجيئه إلى مصر والمراحل التى مر بها إلى أن وصل للحكم بعد وفاة الخليفة الفاطمى «العاضد»، وبدء جهاده ضد الصليبيين.

هذا بالإضافة إلى كتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى» للعماد الأصفهانى (519هـ ـ 1125م/ 597هـ –1200م)، والذى ولد بأصفهان وتوفى فى دمشق، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب «محمد محمود صبيح»، وهو يعتبر سجلًا حافلًا لما قام به «صلاح الدين» من جهاد وحروب ضد القوى الصليبية فى المنطقة من عام (583هـ / 1187م ـ 589هـ / 1192م)، ومن الكتب التى استفدت منها أيضًا كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لـ «سبط بن الجوزى» وهو سبط شمس أبى المظفر يوسف قزاؤغلى، ولد فى عام 582هـ/ 1186م، فى بغداد، وكان أبوه عبدًا تركيًا ودرس فى مسقط رأسه وأصبح مدرسًا وكاتبًا بدمشق وتوفى عام 654هـ/ 1257م، وكتابه من بدء الخليقة وينتهى بعام 1256م.

ولأنه كان مقيمًا فى دمشق فقد تحدث فى هذا الكتاب عن مراحل النـزاع بين مصر والشام لكنه وجه عناية خاصة للأحداث التى كانت دمشق مسرحًا لها بحكم تواجده فيها، ويعتبر من الكتب القيمة فى المكتبة العربية.

هذا ومن أهم الكتب العربية أيضًا والتى كانت عونًا لى فى الدراسة موضوع البحث كتاب «الأنيق فى المناجيق» لابن أرنبغا الزردكاش (كان حيًا سنة 867هـ)، تحقيق الدكتور/ «إحسان هندى»، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات الحربية والعسكرية، إذ أن هذا

الكتاب يعد شاهدًا على ما كان للعرب من فضل فى مجال علم الحروب وآلاتها واستخدام الأسلحة الثقيلة، فإنه دليل قاطع على أن العرب ما فرَّطوا فى العلوم من شىء، وأسهموا فى كل مجال وأبدعوا وابتكروا فى كل علم، هذا وقد بذل المحقق من الجهود الكبيرة ليأتى هذا الكتاب فريدًا فى نوعه مفيدًا فى موضوعه شيقًا فى محتواه.

هذا ويشتمل الكتاب على وضع مقدمة فى استخدام المنجنيق والأسلحة الثقيلة عند العرب المسلمين، بالإضافة إلى شرح الرسوم التى حوتها المخطوطة التى أوردها «أرنبغا الزردكاش» وحققها الدكتور/ «إحسان هندى» وعلق عليها وشرح العبارات والكلمات الفنية أو الغامضة حسب سياقها فى النص، هذا وقد أفدت إفادة كبيرة من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لشيخ المؤرخين «تقى الدين أحمد بن على المقريزى» (ت845 هـ/ 1442م)، فى مجلدين (جزأين)، فقد تحدث عن الخطط فى الفسطاط ومن نزل بها وذكر الآثار الواردة بها وأبواب مدينة مصر وما كانت عليه القاهرة وبناؤها فى عهد الدولة الفاطمية وذكر مسالكها وسورها وأبوابها المختلفة، بالإضافة إلى حديثه عن خزائن السلاح، هذا وقد ذكر ما صارت إليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها، وذكر قلعة الجبل أيضًا، بالإضافة إلى أن هذا المصدر المهم كان قد ذكر كل صغيرة وكبيرة تخص مصر، فقد ذكر المساجد على مر العصور الإسلامية المختلفة، بالإضافة إلى المدارس أيضًا التى بنيت فى أماكن متفرقة من مصر المحروسة، هذا إلى جانب الخنقاوات والأربطة والخنادق والمقابر وغير ذلك.

فـ«المقريزى» بحق يعتبر موسوعة مهمة لدارسى التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية فى كافة العصور ومختلف النواحى، ومن أهم الكتب التى اعتمدت عليها كتاب قوانين الدواوين لـ«الأسعد بن مماتى» (ت 606هـ/ 1209م)، ناظر الدواوين وناظر ديوان الجيش فى عهد «صلاح الدين» وهو أحد وزراء الدولة الأيوبية البارزين والذى يمكن اعتباره بحق من الكتب الفريدة فى بابها، العظيمة فى قيمتها، فهو يصف لنا حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى على وجه التقريب.

هذا وقد ذكر مصر وفتوحها وأخبارها وخلجانها وجسورها وترعها، لكن الذى يهمنا هنا هو أنه تحدث عن الأسطول وسماه الأسطول المنصور، وذكر أسماء بعض سفن الأسطول على عصر العهد الأيوبى منها الطريدة والحمالة والشلندى وغيرها، وكل ما كتبه «ابن مماتى» فى كتابه قوانين الدواوين يعتبر وثائق من الطراز الأول؛ لأنه تقلب فى كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المسئولين.

ومن الكتب المهمة أيضًا كتاب «تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء ونشر أعلام الأعلام فى العُدد والآلات المُعينة على لقاء الأعداء»، تأليف «مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى» المتوفى سنة 589هـ/ 1193م، والذى ألفه لـ «صلاح الدين الأيوبى» وحققه «كلود كاهين»، فقد تحدث عن أدوات القتال حيث ذكر السيف بأنواعه وتطرق إلى ذكر أدوات القتال الأخرى كالقسى وأصنافها وخصائصها وصفة عملها، والرمح وأنواعه وخصائصه، بالإضافة إلى جميع أدوات القتال وطريقة عمل كل أداة وكيفية التراكيب المختلفة، أما عن النفوط فقد تحدث عن جميع أنواع النفوط وطريقة بل وسر عملها وتركيب كل منها.

هذا وقد أفدت أيضًا إفادة كبيرة من بعض رسائل الماجستير والدكتوراه أهمها رسالة الدكتوراه لأستاذنا الدكتور/ «عبد العزيز عبد الدايم»، وهى «الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر مع دراسة عن فن القتال البحرى فى عصر سلاطين المماليك»، فقد تحدث عن الأسطول وأهميته وأنواع السفن المختلفة ومعداتها بالإضافة إلى حديثه عن فن القتال البحرى.

ومن الرسائل العلمية أيضًا التى أفدت منها رسالة للدكتور/ «حسين عليوة»، ألا وهى « السلاح المعدنى للمحارب المصرى فى عصر سلاطين المماليك».

فقد أفدت منها فى معرفة أنواع الأسلحة المختلفة فى العصر الأيوبى، والتى استمر استخدامها فى العصر المملوكى.

هذا بالإضافة إلى رسالة دكتوراه أخرى لـ «أسامة سيد على أحمد»، وعنوانها «الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى».

وقد أفدت منها فى معرفة العناصر المعمارية المهمة التى نقلها الصليبيون عن العرب فى حصونهم والعوامل التى أثرت فى سقوط القلاع، بالإضافة إلى أنه تحدث عن أدوات القتال والأسلحة المختلفة مثل الأبراج والكباش وسلالم الحصار والمنجنيق وغير ذلك.

ومن أهم الرسائل التى أفدت منها إفادة كبيرة رسالة ماجستير لأجفان الصغير وعنوانها «القلاع فى فترة الحروب الصليبية ودورها الاقتصادى والاجتماعى والإدارى عند المسلمين فى بلاد الشام»، فقد استفدت منها فى معرفة النواحى الحضارية للقلاع، أما عن الدور الاقتصادى للقلاع فقد كان مهمًّا جدًّا بوصفها محطات تجارية ومستودعات لحفظ المواد التموينية والغذائية ولعبت دورًا محوريًّا فى حفظ المياه فى الخزانات والصهاريج وحفظ الخيول والمواشى، بالإضافة إلى الأدوار المختلفة الأخرى كالدور الاجتماعى وغير ذلك.

هذا بالإضافة إلى أننى أفدت أيضًا من خاتمة هذه الرسالة فى معرفة دوافع بناء القلاع عند المسلمين، وأهمية الأسوار والمتاريس ومميزات معظم القلاع الشامية.

هذا وقد استفدت أيضًا من بعض المقالات العلمية التى وردت فى المجلات العلمية المختلفة منها مقال بعنوان «الإعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة» للدكتور/ «صلاح الدين البحيرى» بالمجلة التاريخية المصرية، العدد الحادى والعشرون، وهو قد تحدث عن هزيمة البيزنطيين فى موقعة ملاذكرد، وكيف أن السلاجقة استولوا على آسيا الصغرى، هذا وقد تحدث أيضًا عن البابوية التى قد سنحت لها الفرصة للانتقام من الدولة السلجوقية عندما حلَّ بها الانهيار والتفتت والذى حلَّ أيضًا بالخلافة الفاطمية بمصر، وتحدث عن مقدمات الحملة الصليبية الأولى ودعوة البابوية لها فى الغرب الأوروبى.

هذا وقد استفدت أيضًا من مقال مهم للدكتور/ «عبد الرحمن زكى»، وعنوانه «القلاع فى الحروب الصليبية» بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، فهو يتحدث عن القلاع، ولماذا شيدت الحصون، ومراحل بناء القلاع وأهم مميزات القلاع وتقسيمها حسب الأهمية العسكرية، سواء لتأمين طريق الحج أو لتحصين المدن الساحلية والقلاع الإستراتيجية، هذا بالإضافة إلى أنه تحدث عن الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية بالإضافة إلى حديثه عن أثر العمارة العربية على الغرب.

أما مقالته التى تحمل عنوان «بين قلاع العرب وقصورهم»، المجلة، العدد الخامس، فقد أفادتنى كثيرًا، فالجزء الخاص الذى أفادنى هو قلاع الأيوبيين فى الشام واهتمامهم بها إلى جانب أنه تحدث عن قلعة حلب وقلاع شرق الأردن وتبادل الأساليب المعمارية بين الشرق والغرب، وقد كان له مقال أيضًا بعنوان «صناعة السيوف الإسلامية فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى»، المجلد الخامس بالمجلة التاريخية، والتى يتحدث فيها عن السيوف المختلفة وأنواعها ومواطن صناعتها ويشير إلى موطنها الأصلى ويذكر أنه الهند، هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات التى سوف يرد ذكرها فى قائمة المصادر والمراجع، إضافة إلى العديد من المراجع الأجنبية المختلفة التى سيرد ذكرها فى القائمة الخاصة بالمصادر والمراجع.

هذا وقد ألحقت بالبحث موضوع الدراسة بعضًا من الصور والأشكال لتوضيح بعض المفاهيم الخاصة بالبحث وذلك فى مجلد خاص.

هذا بالإضافة إلى الخاتمة التى حملت العديد من النتائج الخاصة بالبحث موضوع الدراسة...

■ الفصل الأول

الأخطار الداخلية والخارجية فى العصر الأيوبى

توطئة

فى بداية الحديث عن هذا الجزء المهم من تاريخ العصور الوسطى بوجه عام، وتاريخ الدولة الأيوبية بوجه خاص، لا بد أن أذكر أنى لست بأول من تعرض للكتابة والحديث عن هذا الجزء المهم من تاريخ العصور الوسطى بل هناك من المؤرخين العلماء من حفروا بأقلامهم، ونقبوا بجهودهم عن هذه الحقبة المهمة من تاريخ العصور الوسطى، وتحدثوا عن المخاطر المختلفة التى تعرضت لها الدولة الأيوبية سواء بالداخل أو بالخارج، ودور قوادها وسلاطينها فى حمل راية الجهاد ضد هذه الأخطار التى واجهتهم، فتاريخ الأيوبيين يمثل صفحة مضيئة ومشرقة فى تاريخ الإسلام، ويمثل عصر جهاد وأمجاد وبطولات وانتصارات حاسمة كان قد توجها «صلاح الدين الأيوبى» البطل والقائد العظيم.

هؤلاء المؤرخون منهم القدامى[1] ومنهم المحدثون[2].

الأحوال السياسية فى الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية

قامت الدولة العباسية فى سنة (132هـ / 751م)، وقد توالى على عرشها عدد من الخلفاء العظام، أمثال«المنصور» و«المهدى» و«الرشيد» و«المأمون» فحافظوا على كيانها وأملاكها وردوا عنها غارات الروم الشرقيين وأحرزوا ضدهم الانتصارات الكثيرة[3]، ثم تولى الخلافة

(1) أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، ابن شداد، كتاب سيرة صلاح الدين المسماة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، إبراهيم الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب.

(2) سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، والسيد الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبى والمملوكى جزءان، أحمد مختار العبادى، فى التاريخ الأيوبى والمملوكى، مؤسسة شباب الجامعة، عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبى... وغيرها من المراجع الحديثة.

(3) مزيد من التفاصيل عن الدولة العباسية انظر محمد بك الخضرى، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ط الحلبى 1930، د/ السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب (3) العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة 1398هـ عبد المنعم ماجد: العصر العباسى: مكتبة الأنجلو 1973، د/ حسن أحمد محمود، د/ أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى: دار الفكر العربى بدون تاريخ.

من بعدهم عدد من الخلفاء أقل شأنا وأضعف شخصية فاستبد بأمورهم الوزراء والقواد، وانفصل عن الدولة فى القرن الثالث كثير من أطرافها.

فقامت فى المغرب الأقصى دولة الأدارسة، وفى إفريقية دولة الأغالبة، واستقل بمصر الطولونيون ثم الإخشيديون، وباليمن الزياديون ثم ورثت دولة الفواطم ملك الأغالبة فى نهاية القرن الثالث الهجرى، ولم تلبث أن فتحت مصر وجعلتها مقر حكمها فى منتصف القرن الرابع الهجرى ثم ضمت إليها ملك اليمن وبلاد المغرب والشام(1).

وفى المشرق قامت الدولة الطاهرية(2) ثم الدولتان الصفارية والسامانية(3)، وهى دول استقلت بأطراف الدولة العباسية الشرقية خلال القرن الثالث الهجرى، وفى منتصف القرن الرابع قوى شأن البويهيين الشيعة(4) ودخلوا بغداد نفسها، واغتصبوا السلطة فى أيديهم، ولم يصبح للخليفة العباسى فى عهدهم إلا الصفة الرسمية والمكانة الروحية، هكذا نجد أن شرق البحر المتوسط وما يليه من الأقاليم الآسيوية قد خضع فى النصف الأول: من القرن الحادى عشر الميلادى لقوتين:

الأولى: مسيحية رمزها الإمبراطورية البيزنطية.

الثانية: إسلامية شيعية رمزها الدولة الفاطمية.

ويقابل هاتين القوتين الخلافة العباسية فى بغداد، تلك التى حل بها الضعف والانهيار وسيطر عليها البويهيون الشيعيون تمام السيطرة(5)، مما سبق يتضح لنا أنه لم يكد القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى يشرف على منتصفه حتى كانت الدول الإسلامية تبدو وكأنها جدار يوشك على الانقضاض والانهيار نتيجة تعدد الخلافات فى الأندلس ومصر والعراق(6).

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبى والمملوكى، الجزء الثانى، دار المعارف 1967م، ص3.

(2) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، الطبعة الأولى سنة 1988م، 1409هـ ص13.

(3) عبد النعيم محمد حسنين، دولة السلاجقة، الناشر من مكتبة الأنجلو المصرية 1975م، ص12.

(4) فتحى أبو سيف، المرجع السابق، ص113، عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص9.

(5) السيد الباز العرينى، مصر فى عيون الأيوبيين، مطبعة الكيلانى الصغير، القاهرة 1960م، ص5.

(6) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ص4، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1999م، ص16.

ومما هو جدير بالذكر أن هناك ثلاث ظواهر قوية جديرة بالملاحظة لا بد من ذكرها كان لها أثر فى تاريخ الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس قبيل الحروب الصليبية، وهى:

(1) ظهور قوة الأتراك السلاجقة.

(2) ظهور قوة الفاطميين.

(3) ظهور الدولة البيزنطية، وهى القوة الثالثة فى الشرق الأدنى.

أولًا: ظهور قوة الأتراك السلاجقة

عندما قدم السلاجقة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، أنقذوا الخلافة العباسية[1] وساعدوا الخليفة العباسى على التخلص من نفوذ البويهيين الشيعة[2]، ولم يلبث السلاجقة أن لموا الشمل وضموا الشتات فأخضعوا لنفوذهم بلاد الفرس والشام وآسيا الصغرى[3]، فأصبح السلاجقة بذلك حماة السنيين، وعدة الخلافة العباسية، وأداتها الحربية فى مهاجمة أعدائها من البيزنطيين والفاطميين[4]، فدولة السلاجقة هى القوة الإسلامية الحقيقية التى كانت تسيطر على شئون الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ وأوائل القرن السادس الميلادى [5]، هذا وقد استولى السلاجقة على جانب كبير من ممتلكات كل من البيزنطيين والفاطميين، وتوغلوا فى آسيا الصغرى، فأقام السلطان السلجوقى ملك شاه مملكة تمتد من إقليم ما وراء النهر إلى الأناضول والشام كله بما فى ذلك دمشق وحلب وأنطاكية[6].

وقد برز من ملوك السلاجقة العظام ثلاثة، وهم «طغرل بك» (429هـ/ 1037م ـ 455هـ

---

(1) عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص9.

(2) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص15.

(3) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص4 ـ 5.

(4) السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص 5.

(5) يجمع معظم المؤرخين على أن السلاجقة يرجع أصلهم إلى الأتراك الغز (أمة عظيمة من الترك) الذين ظهروا فى التاريخ كمجموعة تركية للإمبراطورية التركية فى القرن السادس الميلادى، والسلاجقة أحد فروع القبائل التركمانية الغزية.

لمزيد من التفاصيل انظر: عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، النهضة المصرية 1959 م ص16، د/ محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ط1، 2001م، ص29.

محمد محمود إدريس، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى 1983م، دار الثقافة والطباعة والنشر، ص15، عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص17.

(6) السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص5.

1063م) [1]، «ألب أرسلان» (455هـ / 1063م ـ 465هـ / 1072م) [2]، «ملك شاه» (465هـ / 1072م ـ 485هـ / 1092م)، وقد قنع هؤلاء فى سياستهم الداخلية بالسلطان الدنيوى الفعلى وتركوا للخليفة العباسى كل مظاهر السيادة الاسمية والروحية[3].

سياسة السلاجقة الخارجية

أما عن سياستهم الخارجية وخاصة مع دولة الروم الشرقية، فقد لجئوا إلى السيف وجعلوه الحكم بين الدولتين وأحرزوا ضد هذه الدولة انتصارات كثيرة متتالية، كان أهمها النصر الذى أحرزه «ألب أرسلان» على الإمبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس» (460هـ / 1068م - 463هـ / 1071م) فى موقعة ملاذكرد سنة (463هـ / 1071م) [4]، والتى انتهت بأسر الإمبراطور البيزنطى وهو جريح[5].

هكذا تقدم المسلمون لأول مرة فى أملاك الدولة البيزنطية[6] واستولوا على أجزاء واسعة من آسيا الصغرى وضموها لأملاكهم، هذا مما ترك صدًى خطيرًا فى نفوس ملوك وأمراء أوروبا، وبانقضاء عهد سلاطين السلاجقة العظام تفككت وحدة الدولة السلجوقية[7] وانهارت، إذ أنه بوفاة السلطان السلجوقى «ملك شاه» (485هـ / 1092م)، دب النـزاع بين أبناء البيت السلجوقى إذ أعلن «تتش» أخو «ملك شاه» وأمير الشام الحرب على «بركياروق» ابن «ملك شاه»، انتهت بانتصار «بركياروق» على عمه «تتش» سنة (489هـ / 1096م) بالقرب من الريّ[8]، حيث لقى «تتش» مصرعه[9]، وتطورت الأحداث مرة أخرى حيث تفككت

(1) تعتبر سنة 429هـ / 1037م هى بدء قيام دولة السلاجقة من الناحية العملية، أما من الناحية النظرية فقد كان السلطان السلجوقى فى هذا الوقت بحاجة إلى تفويض شرعى من الخليفة العباسى، لمزيد من التفاصيل انظر: د/ محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى، ص51، عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص11، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ج1، ط2، دار الثقافة للطباعة والنشر 1404هـ / 1984م، ص35.

(2) محمد محمود إدريس، المرجع السابق، ص28.

(3) السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص16 ـ17، جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية ص5.

(4) محمد عبد العظيم أبو النصر، المرجع السابق، ص87.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة 1978م، ص85.

(6) محمد أبو النصر، المرجع السابق، ص87.

(7) محمد أبو النصر، المرجع نفسه، ص111.

(8) محمد محمود إدريس، المرجع السابق، 29.

(9) المقريزى، تقى الدين أحمد بن على المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1934م، جزءان، الجزء الأول 3 أقسام، الجزء الثانى قسمان، ج1، ق1، ص34 ص35ص41، انظر أيضًا سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص107 ، 113.

ممتلكات «تتش» بالشام نتيجة لنـزاع نشب بين ولديه «رضوان» و«دقاق»[1]، إذ أراد كل منهما أن يستأثر بملك أبيه وجده وكان «رضوان» يحكم فى حلب، على حين سيطر «دقاق» على دمشق وديار بكر والجزيرة[2]، وانحاز إلى «رضوان» قبيلة كلاب العربية، و«سكمان بن أرتق التركمانى» صاحب سروج[3]، على حين انضم إلى «دقاق» صاحب أنطاكية «ياغى سيان»[4]، و«الغازى الأرتقى»، ولم يلبث «ياغى سيان» أن تحول إلى جانب «رضوان» وجرت الاستعدادات، وبينما الأحداث فى سيرها متوالية، جاءت الأنباء بقدوم الصليبيين، فتفرق المتنازعون وتوجه كل منهم إلى إمارته لحمايتها من الصليبيين، وبذلك انهار ما حدث من المحالفات.

ثانيًا: ظهور قوة الفاطميين

أسقط الفاطميون ملك الأغالبة[5]، وبعد أن أسقطوا ملكهم ورثوه مع أسطولهم،

(1) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص88.
(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص107 – 113.
(3) السيد الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص6.
(4) عبد العزيز محمود عبد الدايم، بيت المقدس فى العصر الأيوبى، القاهرة 1989م، ص65.
(5) من المؤكد أن دعاة الإسماعيلية كانوا يعملون بصبر وجلد لتنتشر دعوتهم فى ربوع الأرض وليسقطوا الخلافة العباسية، وقد كان اليمن وشمال إفريقيا أهم الأمكنة التى وجهوا لها عنايتهم، ونجحت دعوتهم فى المكانين، غير أن الشمال الإفريقى كان أهم للدعوة من جهة أنه يتمتع بالإضافة إلى عزلته بانفساحه واتصاله بمصر، وكان لهم داعية شهير اسمه أبو عبد الله الحسين بن أحمد وشهرته أبو عبد الله الشيعى وكان باليمن، وفى إفريقيا أعلن عبد الله أنه يدعو إلى أبو عبيد الله المهدى من نسل على بن أبى طالب وأنه يقيم بالشام ونجحت دعـوة أبو عبد الله بإفريقيا نجاحًا عظيمًا، وفى خلال هذه الانتصارات مات أبو عبيد الله المهدى، وقامت الدعوة لابنه عبيد الله المهدى وسرعان ما ازدادوا قوة وانتصروا على أعدائهم من العباسيين الذين سلطوا عليهم الأغالبة بقيادة زيادة الله بن الأغلب فهزمهم المهديون، وتولى عبيد الله المهدى زمام الأمور بالقيروان وكانت دول إفريقيا الثلاث تتدهور واحدة بعد الأخرى وتضعف قواها فورثها العبيديون جميعًا وقد بدءوا بتونس فأسقطوا ملك الأغالبة ومدوا نفوذهم إلى الجزائر وأسقطوا ملكهم (ملك آل رستم)، فمراكش حيث قضوا على بقايا الأدارسة، ودان لهم الشمال الإفريقى.
لمزيد من التفاصيل عن الفاطميين، انظر، فرحات الدشراوى، الخلافة الفاطمية بالمغرب، نقله إلى العربية حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994م، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة 1981م ص326، 384، الداعى إدريس عماد الدين المتوفى 872هـ / 1488م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق محمد البعلاوى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1985م، أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الطبعة السابعة، ج4، مكتبة النهضة المصرية، 1984م، ص291.

واستطاعوا أن يواصلوا نشاط الأغالبة بالبحر الأبيض المتوسط وأن يوسعوا نفوذهم فى الشمال الإفريقى ويتطلعوا إلى فتح مصر[1].

زحف الفاطميين إلى القاهرة

تطلع الفاطميون منذ سنيهم الأولى إلى مصر، ولم تكد تظهر دولتهم بشمال إفريقيا حتى أخذوا يعدون العدة للزحف على الشرق، إذ كانت مصر تمر بمرحلة من الفوضى والاضطراب خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية (292هـ / 906 م)، وقيام الدولة الإخشيدية (323هـ / 935م)، إذ عادت فى تلك الفترة إلى سلطان العباسيين[2].

وفى خلال هذه الفترة قام الفاطميون بمحاولات ثلاث لاحتلال مصر، ولكنها فشلت إلا المحاولة الثالثة، التى نجحت فى بدايتها ثم فشلت، بعد ذلك تولى الإخشيديون حكم مصر ولكنهم ضعفوا فى نهاية حكمهم، وانتهز الفاطميون فرصة ضعفهم، وبادروا بفتح مصر، وتجمعت الظروف للفاطميين، وآلت الخلافة الفاطمية إلى «المعز لدين الله» وأعاد المعز للبلاد الأمن والرخاء والاستقرار، واستطاعت الخلافة الفاطمية فى عهد «المعز» أن تمتد غربًا حتى وصلت المحيط الأطلسى وقضت على بقايا الأدارسة وعلى سلطان القبائل بمراكش على أثر ضعف الأدارسة، وكانت جيوش الخلافة يقودها «جوهر الصقلى»[3]، وتمكّن «المعز» وقائده «جوهر الصقلى» من فتح مصر بسبب ضعف واضطراب الإخشيديين، وضعف الدولة العباسية، فرحب الشعب المصرى بالفتح الفاطمى لمصر[4].

ثالثًا: ظهور الدولة البيزنطية

تعتبر الدولة البيزنطية القوة الثالثة فى الشرق الأدنى[5]، رغم أنها تعرضت قبيل الحروب الصليبية لتغييرات بالغة الأهمية، نظرًا لتطور الموقف فى الشرق الأدنى، ذلك أن انتصارات السلاجقة[6] بقيادة «ألب أرسلان» على البيزنطيين بقيادة الإمبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس» فى موقعة ملاذكرد (مانزيكرت) (463هـ / 1071م)[7]، وبحق كانت هذه

(1) أحمد شلبى، المرجع السابق، ج4، ص292.
(2) أحمد شلبى، المرجع نفسه، ج4، ص293.
(3) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص326، 384.
(4) أحمد شلبى، المرجع السابق، ج4، ص295، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ص284، 326.
(5) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص6 ص7، السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص7، 8.
(6) سعد محمد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن دراسة تاريخية أثرية إستراتيجية، دار البشير، 1987م، ص30.
(7) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، 1998م، ص6، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص85.

الواقعة كارثة عظمى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية[1]، غير أن هناك من المؤرخين من يعتبر أن هزيمة الإمبراطورية البيزنطية فى «ملاذكرد» من أسود أيام تاريخ بيزنطة الطويل[2]، إذ فقدت الإمبراطورية البيزنطية فى ساحة القتال خير ما عندها من قوات، فاستولى السلاجقة بقيادة «سليمان بن قطلمش»[3] على آسيا الصغرى فخسرت بيزنطة بذلك مصدرًا كانت تستمد منه معظم قواتها، ولم يبق للإمبراطورية البيزنطية حين تولى عرشها «ألكسيوس كومنينوس»[4] 474هـ / 1081م من الأملاك فى آسيا الصغرى سوى سواحل البحر الأسود وبعض المدن الداخلية المتناثرة[5].

الحروب الصليبية: تعريفها ـ أسبابها وظروفها

شهدت العصور الوسطى عامة والقرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلاديان خاصة، حركة من أخطر الحركات فى تاريخ الإنسانية ألا وهى الحروب الصليبية، لما تمخضت عنه تلك الحروب من النتائج الفعالة فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية[6]، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب[7]، هذا ويمكن القول بأن الحروب الصليبية ما هى إلا حركات كبرى ظهرت فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى، واتخذت طابع الهجوم الحربى على بلاد المسلمين، وخاصة بلاد الشام بقصد امتلاكها، وقد ظهرت هذه الحركة من طبيعة الأوضاع الفكرية والاقتصادية والدينية، التى سادت غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر، واتخذت من استغاثة نصارى الشرق بالأوروبيين ضد المسلمين ستارًا دينيًّا لتعبر عن نفسها تعبيرًا عمليًّا

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د/ السيد الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت، ج1، الطبعة الثانية، 1980م، ص110.

(2) صلاح الدين البحيرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الحادى والعشرون، 1974م، ص122.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص111.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص119، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص97.

(5) لمزيد من التفاصيل عن الدول البيزنطية انظر نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية تعريب د/ حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / 1369هـ 1950م، ص384 ص387، انظر أيضا، د/ حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، سنة 1403هـ / 1983م، دار النهضة العربية، ص229، 235.

(6) حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى، الطبعة الأولى، القاهرة 1947م، ص15.

(7) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص22، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص63.

واسع النطاق[1]، هذا وقد عرَّف الدكتور «زيادة» الحروب الصليبية على أنها «حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمدت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب، ومن توغل الفتوح العربية الإسلامية الأولى فى أطراف الإمبراطورية البيزنطية، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وجزر البحر المتوسط»[2]، والواقع أن الذى فكَّر فى الحروب الصليبية وقام بها هو الغرب المسيحى وبتوجيه أولى من البابوية، والهدف هو الاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين[3]، وبخاصة مدينة القدس وقبر المسيح «عيسى بن مريم» فى بيت لحم القريب من القدس[4].

أصل الحروب الصليبية والظروف والأسباب التى أدت إليها

لا شك أن أصل الحروب الصليبية كلها عند البابوية، حيث كان هدفها تقوية العالم المسيحى، وتفاصيل ذلك أنه عندما استنجد الإمبراطور البيزنطى «ألكسيوس الأول كومنينوس» (474هـ / 1081 م – 512 هـ / 1118م) بالبابا «أربانوس الثانى» (إيربان) (481هـ/ 1088م – 493هـ/ 1099م) ضد الهجمات المتتابعة المتزايدة التى تعرضت لها الدولة البيزنطية، وخاصة من الأتراك السلاجقة[5] الذين اكتسحوا أملاكها حتى إنهم هددوا القسطنطينية نفسها[6]، وسنحت الفرصة للبابوية لتحقيق أهدافها، وقد نجحت فى اختيار الوقت المناسب خاصة بعد التفتت الذى طرأ على وحدة الإمبراطورية السلجوقية الإسلامية فى أعقاب وفاة السلطان السلجوقى «ملك شاه»، بالإضافة إلى الضعف الذى أصاب الخلافة الفاطمية فى مصر[7]، واستجابة لهذا الاستنجاد دعا البابا «أوربان الثانى» فى اجتماع دينى عقد فى كنيسة كليرمونت[8] فى 488هـ / 1095م الغرب الأوروبى إلى مساعدة

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص26.
(2) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط1 القاهرة 1961م، المقدمة، ص ز، ص ح.
(3) حسن حبشى، المرجع السابق الأولى، ص15، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص6، على حسن الخربوطلى، مصر العربية الإسلامية منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، 1963م، ص260 –261.
(4) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى، 1987م، ص 267.
(5) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص64.
(6) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص88.
(7) صلاح الدين البحيرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية، ص124.
(8) ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص170، صلاح البحيرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية، ص124، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، تحقيق عصام محمد شبارو، ط1، 1988م، ص124، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص6، الخربوطلى، المرجع السابق ص261، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية، إبريل 1960م، ص5.

البيزنطيين[1]، هكذا جاءت الدعوة إلى الحروب الصليبية لتحقيق آفاق وآمال عريضة فقد كانت أول حادثة أوروبية عامة[2] قد جمعت جميع طوائف الشعب الأغنياء منهم والفقراء، والمعدمين، الأمراء والنبلاء من جميع أنحاء أوروبا.

الحملات الصليبية على الشرق

الحملة الصليبية الأولى (490هـ/ 1097م ـ 492هـ/ 1099م)

يعتبر كثير من المؤرخين والباحثين أن الحملة الصليبية الأولى، كانت حملة فرنجية الطابع على بلاد المسلمين، إذ استجاب لنداء البابا نحو 150 ألفًا من الفرنج والنورمنديين[3] من جميع أنحاء البلاد الأوروبية، ففى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى غزت الشواطئ السورية حملة أوروبية[4] عرفت بالحملة الصليبية الأولى، هذا وقد كتب لهذه الحملة النجاح والنصر على المسلمين، إذ كان من نتائجها أن تكونت فى الشرق مملكة وإمارات ثلاث[5]، الثلاث منها فى بلاد الشام والواحدة فى شمال غربى الجزيرة الفراتية، وهذه الإمارات حسب ترتيب ظهورها هى إمارة الرها (ربيع الأول 491هـ / فبراير 1098م)، إمارة أنطاكية (رجب 491هـ / يونيو 1098م)، مملكة بيت المقدس (شعبان 492هـ / يوليو 1099م)، إمارة طرابلس (ذو الحجة 502هـ / يوليو 1109)[6]، هكذا سقطت القدس فى أيدى الصليبيين فى عام 492هـ / 1099م[7]، وباستيلاء الصليبيين على بيت المقدس تحقق لهم الهدف الأساسى من الحروب الصليبية[8]، وقد كان السبب الأساسى فى نجاح الحملة الصليبية

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص127، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص64.

(2) محمد عبد الله عنان المحامى، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1934م، ص96، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص6.

(3) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجى، راجعه جبرائيل جبور، الجزء الثانى، بيروت 1959م، ص224.

(4) الخربوطلى، المرجع السابق، ص262 – 263.

(5) ذكرنا أنه أصبح للصليبيين فى الشرق مملكة وثلاث إمارات، إمارة إنطاكية فى الشمال التى امتدت على ساحل البحر الأبيض إلى جبال طوروس وشمال الشام، وإمارة الرها على الفرات التى امتدت من مرعش إلى منبج فى الجنوب، وإمارة طرابلس التى نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذًا لها على الساحل، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان، ثم مملكة بيت المقدس الممتدة من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، لمزيد من التفاصيل انظر حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص10.

(6) حامد غنيم، المرجع السابق، ص122 ـ123.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص73، سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص41 ـ 42.

(8) السيد الباز العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول، دار النهضة العربية 1963م، ص 277.

الأولى هو تفكك العالم الإسلامى[1] وانقسام دولة السلاجقة، وحرمان المسلمين من زعيم يوحِّد كلمتهم ويجمع قواتهم تحت رايته، ويقودها ضد الصليبيين[2].

حركة النهوض وبداية الجهاد الإسلامى

من المؤكد أن سقوط القدس، واحتلال الصليبيين لسواحل الشام، وإنشاء الإمارات الصليبية كان له رد فعل عنيف فى العالم الإسلامى، وإذا كان الملوك والأمراء قد تقاعسوا عن الدخول فى حرب مع المحتلين نتيجة الخلاف والانقسام بينهم، فقد أخذت جماهير المسلمين تتحرك مطالبة بالقيام لحرب المعتدين[3]، هذا وقد أشعل نار الحماس الدينى[4] عند المسلمين ما فعله الصليبيون فى الأراضى المقدسة من المذابح والاعتداء على المقدسات الإسلامية، وجباية الأموال من المسلمين، فضلاً عن تعرضهم لنهب قوافل التجار المسلمين.

كل هذا أثار عواطف المسلمين وحفزهم للتجمع تحت راية الجهاد، وكان أول من رفع راية الجهاد ضد الصليبيين هو «شرف الدولة مودود» (502هـ/ 507هـ - 1108م/ 1113م)[5] أمير إمارة الموصل وكان أخو السلطان «محمد السلجوقى»، وهو أول من أدرك أن القضاء على الصليبيين لا يتم إلا إذا تحالف أهل الشام وأهل العراق ليصبحوا يدًا واحدة[6]، عمل «شرف الدولة مودود» على جمع الأمراء حوله للخروج للجهاد[7] وكانت هذه أول مرة يتجمع فيها هذا العدد من الأمراء لقتال الصليبيين، ولهذا تعتبر هذه الحملة فاتحة عهد جديد فى تاريخ الشرق الإسلامى فى هذا العصر، ونقطة التحول من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم، وكان ذلك عام (503هـ/ 1110م - 504هـ/ 1111م)[8].

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الأولى انظر، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص192 ـ194، فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، الطبعة الثالثة، بيروت 1985م، ص75،114.

(2) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص6.

(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص268.

(4) حسين مؤنس، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، القاهرة، 1959م الطبعة الأولى ص13، انظر أيضًا فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص199 ـ201.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة 1382هـ/ 1963م، ص17 ـ19، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص78.

(6) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص121.

(7) انظر:

W.B. Stevenson: The crusades in the East, Cambridge 1907, P91.

(8) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص123 ـ 125.

جمع «مودود» جنوده واقتحم أراضى إمارة الرها فى بلاد الجزيرة، وخرَّب كثيرًا من بلاد الأرمن الساكنين هناك، وأسر عددًا من جنود صليبيين فكان هذا فاتحة لحركة النهوض الإسلامية والتجمع لحرب الفرنج[1]، لكن الزمن لم يمهله حتى يقضى على الفرنج أعداء الإسلام، فقد قتل فى الجامع الأموى بدمشق فى يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة 507هـ / 1113م، تسلم راية الجهاد بعد «شرف الدولة مودود» رجل من حلفائه شاركه معظم حملاته وتشبع من فكرة الجهاد وهو «نجم الدين إيلغازى» صاحب ماردين[2] من بلاد الجزيرة، ودخل الأراضى التى كان يسيطر عليها الصليبيون، والتقى بقوة صليبية عند بلدة قسطون غرب معرة النعمان جنوب حلب سنة 513هـ / 1119م، وانتصر عليها «نجم الدين إيلغازى» وكان لانتصاره على الصليبيين رد فعل قوى فى بلاد الإسلام، ولم يمهل القدر «إيلغازى» على مواصلة الجهاد؛ لأنه قتل عام سنة 516هـ/ 1122م، وتسلم راية الجهاد من بعدة الأمير «آق سنقر» صاحب الموصل[3] والد «عماد الدين زنكى» وجد «نور الدين محمود» ولكنه قتل هو الآخر عام (520هـ / 1126م)، وتسلم راية الجهاد ضد الصليبيين وقام بالدور الأكبر «عماد الدين زنكى» (521هـ / 1126م - 541هـ / 1146م) الذى كان أعظم هؤلاء جميعًا[4] كبير أمراء السلاجقة، وأتابك الموصل[5] والعراق[6] والذى نجح فى استعادة مدينة الرها[7] من الصليبيين (رغم ما هى عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.
(2) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص134.
(3) كان هناك بعد إيلغازى وقبل آق سنقر صاحب قلعة خرتبرت نور الدولة بلك بن برهام بن أرتق وصاحب حلب تمرتاش انظر شاكر أبو بدر: المرجع السابق، ص 46 ـ 47.
(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 78.
(5) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر (دمياط والمنصورة) مطبعة النيل، القاهرة، مارس، 1945م / 1364هـ، ص6، عبد المنعم ماجد العلاقات بين الغرب والشرق فى العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت سنة 1966م، ص154.
(6) شاكر أبو بدر، المرجع السابق، ص 57، حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، سنة 1948م، ص22.
(7) ابن واصل، (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، 5 أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953م، ج1، ص94، ابن الأثير، أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين، المتوفى سنة، 630هـ، الكامل فى التاريخ، إدارة الطباعة الميترية 1348هـ، حوادث 539هـ، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص593، ماجد، المرجع السابق، ص156، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص25، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص7، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص78.
W.B. Stevenson, op.cit, P150.

على طالبيها)[1] بعد حصار دام 28 يومًا فى سنة (539هـ / 1144م)[2]، واعتبر ذلك فتح الفتوح بالنسبة للمسلمين، وبالنسبة للصليبيين كانت الخطوة الأولى فى هدم البناء الذى شيده الفرنج بالشرق[3].

الحملة الصليبية الثانية (542هـ / 1147م - 544هـ / 1149م):

من المؤكد أن الذى دعا الغرب الأوروبى للقيام بحملة صليبية جديدة هو استرداد المسلمين لإمارة الرها، فقد كان لهذا السبب رد فعل قوى فى أوروبا وحافز لإرسال الحملة الصليبية الثانية[4]، وفى أثناء وصول تلك الحملة، كان قد مات «عماد الدين زنكى» وخلفه ابنه «نور الدين محمود»[5] فى حكم الشام، واتخذ مدينة حلب مقرًّا له، وسار على نهج أبيه فى مكافحة الصليبيين[6]، نزلت الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام، وكان هدفها الأول استرداد الرها من أيدى المسلمين[7]، لكن الحملة باءت بالفشل[8] قبل أن تصل إلى سوريا ولم تنجح فى الوصول إلى دمشق، وفقد الصليبيون ثلاثة أرباع قوتهم الأصلية؛ لأنهم انحرفوا عن هدفهم الأصلى، فقد كان صاحب دمشق الحليف الوحيد للصليبيين ضد «نور الدين محمود» ولكن «نور الدين محمود» أسرع للاستيلاء على إمارة دمشق، وكانت تلك الإمارة وصاحبها «معين الدين آنر»[9] معادية لجبهة الجهاد ومحالفة فى أحيان كثيرة للفرنج كما سبق أن ذكرنا، وبضم دمشق سنة (549هـ / 1154م)[10]، أصبحت جبهة الجهاد عريضة واسعة، تشمل بلاد العراق والجزيرة الفراتية بما فى ذلك الموصل وبلاد الشام، ومضى «نور الدين محمود» يعمل

---

(1) ابن واصل، ج1، ص94، ابن الأثير حوادث سنة 539هـ، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص593.

(2) فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص200_201.

(3) فايد عاشور، المرجع السابق، ص201، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص78.

(4) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمى محمد، راجعه محمد مصطفى زيادة، جزءان، القاهرة 1962م، ج1، ص36-37، 52، 53، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص157، حسن حبشى، المرجع السابق، ص50.

(5) فيليب حتى، المرجع السابق، ص234.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص79.

(7) حسن حبشى، المرجع السابق، ص54، السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص26.

(8) آرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة الباز العرينى، القاهرة 1960م، ص14، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص157.

(9) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر (تاريخ أبو الفدا) دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 4مجلدات فى جزأين، ج3، ص29، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص158.

(10) فيليب حتى، المرجع السابق، ص234، السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص6_7.

أكثر من عشر سنوات مناضلاً للصليبيين فى كل جهة وناحية من نواحى الشام، بعد أن عمل على اتحاد قوى المسلمين وبناء دولة إسلامية موحدة وقوية.

«نور الدين محمود» بين الفاطميين والصليبيين والاستيلاء على مصر

ذكرنا فى الصفحات السابقة ظهور الفاطميين وتمركزهم فى القاهرة، ولكن نتحدث عنهم الآن بصورة أخرى حيث نتحدث عن قوتهم فى البداية ثم ضعفهم الذى أطمع فيهم الفرنج وتتوالى الأحداث كما يلى، بداية يجب أن نوضح أن الدولة الفاطمية نشأت فى بلاد المغرب سنة (296هـ / 909م)، وامتد سلطانها فى أواسط القرن الرابع إلى مصر سنة (358هـ / 972م)[(1)] ومن ثم أخذت تنازع الخلافة العباسية زعامة العالم الإسلامى فى الناحية الدينية[(2)]، بدأ الفاطميون حكمهم فى مصر وعملوا على نشر المذهب الشيعى، وكانت قد ازدهرت فى بداية عهدها، واتسعت حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة، بالإضافة إلى إفريقية (تونس)، واستمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة «المستنصر» سنة (465هـ / 1073م)، ثم توالت عليها الأزمات والمصائب والكوارث نتيجة استخدامهم طوائف مختلفة من الجند والتنازع فيما بينهم، حتى انتهت البلاد إلى حالة من الضعف والاضطراب اللذين هويا بها إلى الانحطاط والفوضى، ونتيجة ضعف الخلفاء الفاطميين استبد الوزراء بأمور الحكم، حتى سُمى العصر الفاطمى الثانى بعصر الوزراء العظام[(3)]، واستمر النزاع إلى عهد الخليفة «العاضد» آخر الخلفاء الفاطميين، والذى بدأ حكمه باغتيال «طلائع بن رزيك» سنة 556هـ / 1161م[(4)] وأقام مقامه «أبا شجاع العادل» الذى نازعه «شاور» فى الوزارة سنة 558هـ / 1163م وغلبه وقتله وتولى الأمر مكانه[(5)]، وكان ينافس «شاور» فى الوزارة «ضرغامٌ»، الذى كان أميرًا لفرقة من الجند تسمى «البرقية»[(6)].

(1) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، الجزء الأول، تعليق حسين مؤنس، دار الهلال، ط1 1920م، ط2 1958م، ص102.

(2) السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص6 – 7.

(3) كان أول الوزراء بدر الجمالى 465هـ – 487هـ، ثم الأفضل بن بدر الجمالى 487هـ ثم شرف المعالى بن الأفضل 487هـ – 515هـ ثم أبو عبد الله محمد المأمون البطائحى 515هـ – 525هـ، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص104.

(4) كان الصالح بن رزيك وزير العاضد صاحب مصر قد ولاه الصعيد الأعلى من ديار مصر، ثم ندم على توليته، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الشافعي)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1948م، ج2، ص156 ـ 157.

(5) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص40.

(6) لمزيد من التفاصيل انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص152، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص143، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص271.

التنافس بين الوزيرين «شاور» و«ضرغام» وتدخل «نور الدين» والصليبيين

أدرك «نور الدين محمود» فى بداية الأمر أن توحيد الجبهة الإسلامية لمحاربة الصليبيين لن يكتمل إلا بالاستيلاء على مصر لغناها بالمال والرجال[1]، فأراد أن يبسط نفوذه عليها[2] وكان هدفه من ذلك وحدة مسلمى الشام والجزيرة وإقامة وحدة كبرى مع مصر[3]، وقد سنحت له الفرصة عندما تنافس الوزيران «شاور» و«ضرغام» على حكم مصر[4]، مما أدى إلى وقوع الصدام المسلح بينهما[5] واستنجاد كلٌّ من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية للاستيلاء على مصر[6]، فاستنجد «ضرغام» بالصليبيين، وفر «شاور» إلى الشام واستنجد بـ«نور الدين محمود» صاحب دمشق[7]، وحرص «نور الدين» على ألا تفلت من يده هذه الفرصة؛ لأنها تقربه من الغرض الذى يرمى إليه وهو التعجيل بالقضاء على الدولة الفاطمية[8] وضم مصر إلى بلاد الشام للوقوف فى وجه الصليبيين، وانتهز كلٌّ من الصليبيين والنوريين الفرصة للتدخل فى شئون مصر، إذ تنافس كل من «نور الدين محمود»، و«عمورى الأول» ملك بيت المقدس حول الفوز بديار مصر[9].

حملات «نور الدين محمود» والصليبيين على مصر

بدأ «نور الدين محمود» يرسل الحملة تلو الأخرى إلى مصر للظفر بها[10].

(1) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص79.
(2) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم (البيزنطيين)، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة 1991م، ص129.
(3) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص79.
(4) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص7.
(5) عبد السلام عبد السلام، دليل متحف الآثار بكلية الآداب، الإسكندرية 1959م، ص23.
(6) عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص161.
(7) انظر:
Amin Maalouf, The crusades through Arab eyes, Translated by Jon Roth S Child, 1983, P160.
(8) النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية 1926م، ج28، ص332 - 333، السيد الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص24.
(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص694.
(10) انظر:
Paul Deschampes, les châteaux de croisês en terre sainte le crac des chevaliers, texte, paris, 1934, p24.

الحملة الأولى

كانت أولى تلك الحملات فى جمادى الأول 559هـ / إبريل 1164م وقد أرسلها «نور الدين محمود» صاحب حلب ودمشق مع «شاور» الذى استنجد به ضد خصمه «ضرغام»، وكانت هذه الحملة بقيادة «أسد الدين شيركوه»[1] الذى صحب معه ابن أخيه «صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب»[2] وكان «أسد الدين» عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة[3]، وعندما اقترب وصول جيش «نور الدين» إلى مصر علم «ضرغام» بذلك وأصابه الفزع والهلاك والهلع؛ لأن الجيش الفاطمى فى حالة لن تمكّنه من أى مواجهة عسكرية، فأرسل يطلب من الصليبيين بقيادة «عمورى الأول» مساعدتهم للوقوف ضد جيش «نور الدين» مقابل أن يدفع له مبلغا سنويًا من المال[4]، ووافق «عمورى»، وبدأ يعد العدة للسير إلى مصر، لكن «شيركوه» أسرع وسبقه فى الوصول إليها سنة 559هـ / 1164م، ولما وصل «شيركوه» إلى بلبيس[5] خرج «ضرغام» مع جنوده وأخيه «ناصر الدين» لملاقاة «شاور».

---

(1) أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان، الملقب بـ«الملك المنصور»، أسد الدين عم السلطان صلاح الدين، وشيركوه لفظ أعجمى تفسيره بالعربية أسد الجبل، فشير تعنى أسد، وكوه تعنى جبل، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ترجمة 277، ص176، انظر أيضًا ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، هامش 1، ص7، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص41، المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين والخلفا، تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد، الجزء الثالث، القاهرة 1393هـ / 1973م، ص266، ماجد، العلاقات، ص161.

(2) أبو الشكر أيوب بن شاذى بن مروان الكردى، الملقب بالملك الأفضل نجم الدين، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قبيلة الروادية أحد بطون الهذبانية، نشأ هو وأخوه أسد الدين شيركوه ببلدوين من أرض أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، ودخلا بغداد وخدما مجاهد الدين بهروز فى بغداد فبعث أيوب إلى قلعة تكريت وأقام بها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وهو أصغر منه سنا واتفق أن شيركوه قتل رجلا بتكريت فطرد هو وأخوه أيوب من قلعتها، فمضيا إلى عماد الدين زنكى صاحب الموصل فآواهما وأقطعهما إقطاعا عنده ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك وأنعم عليه بأمره، واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه وخدمه، فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين فتمكنا فى دولته، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ترجمة 104، ص232، المقريزى، تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية 1270هـ ج2، ص233.

(3) أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص331.

(4) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص33.

(5) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص41، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص98، ابن العديم، كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق د/ سامى الدهان، دمشق الشام 1954م، ج2، هامش 4، ص316، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص80.

W.B. Stevenson, The crusades in the east, P188.
Amin Maalouf, The crusades through Arab eyes, P163.

دار قتال عنيف وأمكن لـ«شاور» وقوات «شيركوه» أن توقع الهزيمة بـ«ضرغام»، وقتل «ضرغام» وأخوه فى هذه المعركة وعاد «شاور» وزيرًا ولقب بالملك «المنصور» وتمكَّن من منصبه[1]، وكتب له الخليفة «العاضد» سجلاً بتفويض الوزارة، فى هذا الوقت نزل «شيركوه» بجنده بظاهر القاهرة[2] منتظرًا أن يفى «شاور» بما وعد به «نور الدين»، وهو أن يكون لـ«نور الدين» ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العسكر، ويكون نائبه مقيمًا بعساكره فى مصر[3] ويتصرف بأمر «نور الدين» واختياره[4]، لكن «شاور» غدر به[5] وعاد عما كان قرره مع «نور الدين»، وأمر «شيركوه» بالعودة إلى الشام[6]، وطلب «نور الدين» من «شاور» أن يؤدى ما تم الاتفاق عليه، ولم يجبه «شاور» إلى طلبه فأرسل «شيركوه» نوابه إلى بلبيس فتسلموها وصار يحكم الأقاليم الشرقية، واتخذ بلبيس مقرًا لقيادته وتحصن بها[7]، عندئذ بادر «شاور» بالاتصال بالفرنج ودعاهم إلى إخراج «شيركوه» وجيشه بالقوة ووعدهم ببذل الأموال الكثيرة إذا نجحوا فى إرغام «شيركوه» على الانسحاب من مصر، رحب «عمورى»[8] بالدعوة وأسرع بالخروج على رأس جيشه واتجه به فى سنة 559هـ / 1164م نحو مصر، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا بلبيس وحاصروها، وحماها «أسد الدين» وعسكره ثلاثة شهور[9]، وعندما أحس «نور الدين محمود» بما يتهدد جيشه فى مصر من أخطار، عمل على إحكام الضغط على أملاك الصليبيين فى الشام، وأرسل الأعلام التى غنمها فى معاركه مع الفرنج إلى «شيركوه» ليضعها على أسوار بلبيس، فرآها الصليبيون، وفكروا فى الانسحاب من البلاد، وانتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على أن يجلو كل منهما عن مصر فى آن واحد.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص332.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335، ابن العديم، زبدة حلب، ص317، الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص27.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن جابر الحضرمى الإشبيلى الأصل التونسى ثم القاهرى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج4، ص88.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ص316 ـ 317.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335.

(6) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج9، ص85.

(7) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص41، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص139 ـ140.

(8) انظر:

W.B Stevenson, The crusades, PP188 – 189

(9) ابن واصل مفرج الكروب، ج1، ص139 ـ140، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص337.

الحملة الثانية

رحل كلٌّ من الصليبيين و«شيركوه» إلى بلاده وكل منهما تحدثه نفسه بالرجوع مرة أخرى إلى مصر، ولما غدر «شاور» بـ«نور الدين محمود» ورجوعه عن عهده واتفاقه معه فكر «نور الدين محمود بن زنكى» سنة (562هـ / 1166م)، أن يرسل «شيركوه» إلى مصر ليملكها، وسير معه جماعة من الأمراء[1] وصحب «أسد الدين» معه ابن أخيه، ثم سار إلى الديار المصرية وعبر النيل عند إطفيح[2] بالجانب الغربى ونزل بالجيزة[3] مقابل مصر، فأقام فيها ما يقرب من الخمسين يومًا، وعندما علم «شاور» بذلك أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم، وقد ذكر «ابن واصل» أنهم أتوه على الصعب والذلول، وحملهم على ذلك أمران: أحدهما: الطمع فى تملك الديار المصرية، وثانيهما: الخوف من تملك العساكر النورية لها، وعلموا أنه إن ملكها «نور الدين» واستضافها إلى البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام، وأنه سيستأصلهم وتصير بلادهم فى وسط بلاده[4]، سار «أسد الدين» إلى الصعيد وعسكر فى مكان يعرف بـ «البابين»[5]، ثم لحقت به العساكر المصرية والفرنج والتقى الفريقان عند

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص148، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص363، ماجد، العلاقات، ص161، أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1348هـ / 1929م، ط1، ج5، ص317.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ص322، ابن واصل، مفرج الكروب، ص149.
إطفيح بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل فى شرقية لمزيد من التفاصيل انظر ياقوت الحموى، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى، معجم البلدان، المجلد الأول، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1374هـ / 1955م، ص218، وقيل أيضًا إنها مدينة قديمة كانت تسمى فى العصر اليونانى «أفروديتو بوليس» لمزيد من التفاصيل انظر ابن العديم، زبدة حلب، هامش 4، ص322 – 323، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج5، ص317، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص100، ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، ص132.

(3) الجيزة فى لغة العرب الوادى أو أفضل موضع فيه، والجيزة بليدة فى غربى فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهى من أفضل كور مصر، لمزيد من التفاصيل انظر الحموى، معجم البلدان، ج2، بيروت 1375هـ / 1956م، ص200، وذكر بن تغرى بردى أن الجيزة معناها الجانب والناحية، وجمعها جيز، لمزيد من التفاصيل انظر النجوم الزاهرة، ج5، ص348، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص132، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص100.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص149.

(5) ابن الأثير، الباهر، ص133، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص323، ابن واصل، ج1، ص150، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص364، المقريزى، تقى الدين أحمد بن على المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1934م، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1914م، ج1، ق1، ص43، الدواداری، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداری، كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب)، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء السابع، القاهرة 1972م، ص27، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص64.
Lane Pool (s), Saladin, putnan, London, 1926, pp88 –89

البابين[1]، ودارت معركة عنيفة انتصر فيها «شيركوه» وأكثر من عدد القتلى والأسرى[2]، سار «أسد الدين شيركوه» بعد ذلك إلى الإسكندرية ففتحها وتسلمها بدون قتال ثم ترك عليها «صلاح الدين الأيوبى»[3]، وعاد «شيركوه» إلى الصعيد فتملكه وجبى أمواله[4].

انتهز الفرنج فرصة رحيل «شيركوه» إلى الصعيد فهاجموا الإسكندرية وحاصروا «صلاح الدين»، واشتد حصارهم وقل الطعام إلى أن علم «شيركوه» بذلك فأسرع إلى الإسكندرية وأنقذ الموقف، وطلب الفرنج الصلح فوافق «شيركوه» على ذلك، وكان أن اشترط عليهم عدم إقامتهم فى البلاد فوافقوا على ذلك، فرحل «شيركوه» إلى الشام، أما الفرنج بقيادة «عمورى» اتفقوا مع «شاور» على الآتى:

(1) أن يكون لهم بالقاهرة شحنة[5] (حاكم ينوب عن «عمورى» فى ضبط البلد وتصريف شئونها).

(2) أن تكون أبوابها فى يد فرسانهم ليمتنع «نور الدين» عن إنفاذ عسكر إليهم[6].

(3) كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويًّا من دخل مصر[7]، ثم عاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم[8].

الحملة الثالثة

نقض الصليبيون شروط الصلح مع «شيركوه»؛ لأنهم طمعوا فى مصر فأتوا إليها فى سنة أربعة وستين وخمسمائة[9] (564هـ / 1169م)، وأخذوا بلبيس[10] وساروا إلى القاهرة فقاتلوها[11]، ولما علم «شاور» بقدوم الفرنج إلى مصر أصابه الخوف والفزع؛ لأنه أيقن أن

(1) انظر:

Amin Maalouf, The crusades, p166

(2) هذه العبارة قريبة عند كل من ابن الأثير، ابن واصل، ابن تغرى بردى، ابن العديم، الدواداري.

(3) السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص64.

W.B. Stevenson, The crusades, p191

(4) ابن الأثير، الباهر، ص134، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص394، ابن واصل، ص152.

(5) ابن واصل، ج1، ص152، ابن العديم، ص324، أبو شامة، ج1، ق2، ص365، ابن الأثير، الباهر، ص134.

(6) سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص102.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص81.

(8) أبو شامة، ج1، ق2، ص366، ابن واصل، ج1، ص152، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص324.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص359.

(10) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص103.

(11) ابن العديم، ج2، ص326، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص157.

الصليبيين جاءوا هذه المرة لأنهم طامعون فى احتلال مصر، عندئذ قرر أن يتصدى للفرنج ويقاتلهم، فأمر «شاور» بإخلاء القاهرة (الفسطاط) من سكانها ثم أحرقها بهدف عرقلة الصليبيين، فظلت النار تعمل فيها مدة أربعة وخمسين يومًا[1]، وعندما علم الخليفة «العاضد» بما حدث من حريق الفسطاط فأدرك خطورة الموقف وأيقن بأن الفسطاط على وشك التسليم للصليبيين، ومن هنا استغاث الخليفة «العاضد» بـ«نور الدين محمود» لينقذه وبلاده من أيدى الفرنج، وهنا جاء على لسان «ابن الأثير»: «أرسل الخليفة «العاضد» إلى «نور الدين» يستغيث به ويُعرِّفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال: هذا شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»[2]، فاستجاب «نور الدين» لاستنجاد الخليفة به؛ لأنه كان قد وعده بثلث بلاد مصر، وأن يكون «أسد الدين» مقيمًا عندهم، فبعث «نور الدين» جيشًا إلى مصر بقيادة «شيركوه»[3] ومعه ابن أخيه «صلاح الدين» [4]، وفى هذه المرة استاء «صلاح الدين» من نزوله إلى مصر[5] وهو لا يعلم أن هذه هى البداية بالنسبة له، هذا ويشير إلى ذلك «ابن الأثير» فى قوله «أحب «نور الدين» مسير «صلاح الدين» وفيه ذهاب بيته، وكره «صلاح الدين» المسير وفيه سعادته وملكه»[6]، وسار «أسد الدين شيركوه» إلى مصر، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم[7]، ذلك أن «عمورى» أدرك خطورة الموقف وآثر الانسحاب حتى لا يقع بين نارين، وهما جيش «نور الدين»، والوزير «شاور»، فانسحبوا دون الاشتباك فى قتال[8]، عائدين إلى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوه[9]، دخل «شيركوه» الأراضى المصرية دون قطرة دماء واستقبله الخليفة بالترحاب والإكرام[10]، أبدى «شاور» غضبه لإكرام الخليفة لـ«أسد الدين شيركوه» وبدأ

(1) ابن واصل، ج1، ص157.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص99، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص326، ابن الأثير، الباهر، ص138.
(3) ابن الأثير، الباهر، ص132.
(4) انظر:
W.B. Stevenson, The crusades in the East, p193
(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص43.
(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص100، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص45، ابن الأثير، الباهر، ص139، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص159.
(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص327.
(8) الخربوطلى، المرجع السابق، ص180.
(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص171.
(10) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص100 ـ 101، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص138 ـ 139.

يدبر له المكائد، ولكن «صلاح الدين» تمكن من القبض عليه وأمر الخليفةُ بقتله[1]، وولى الخليفة العاضد «شيركوه» وزيرًا[2] وأبلغ فى إكرامه، وسماه الملك «المنصور»[3] وجعله قائدًا عامًّا لجيوشه فى 564هـ / 1168م، ولكن القدر لم يمهله بالتمتع بالوزارة، إذ توفى يوم السبت الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخر سنة أربعة وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام[4] 564هـ / 1169م من توليه الوزارة[5].

«صلاح الدين» وزيرًا للخليفة «العاضد» الفاطمى

بعد وفاة «شيركوه» كان من المتوقع أن يختار الخليفة «العاضد» للوزارة أحد رجال الدولة الفاطمية، ولكنه اتخذ خطوة جريئة وعهد بالوزارة إلى «صلاح الدين الأيوبى»[6] سنة

(1) ابن واصل، ج1، ص163.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص35، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص342 ـ 343، المقريزى، تقى الدين أحمد ابن على المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة-الفاطميين الخلفا، تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة 1973م، ج3، ص302، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص389، ابن الأثير، الباهر، ص140، العماد الحنبلى، المؤرخ الفقيه الأديب أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى،، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدس، ج4، ص211.

Amin Maalouf, The crusades, p170.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص351، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص163، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص46.

(4) ابن كثير، الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى، البداية والنهاية، مطبعة السعادة ج12، ص256، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص328، ابن الأثير، الباهر، ص140، ابن واصل، ج1، ص168، ماجد، العلاقات، ص164، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص176 ترجمة 277، ابن خلدون، العبر، ج5، ص282.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص165، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص256، ابن الأثير، الباهر، ص 141، الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوى، 1996م، ص9، العبادى، التاريخ الأيوبى والمملوكى، ص43، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص108.

W.B. Stevenson, The crusades in the East, p194

(6) اتفق أرباب التاريخ أن صلاح الدين كان منذ مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت وهو ابن نجم الدين أبى الشكر أيوب بن شاذى بن مروان الكردى، أحد بطون الهذبانية، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص563، المقريزى، الخطط، ج2، ص233، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص42 ـ 43، النويرى، ج28، ص343، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص27، المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 308 ـ 309، الحنبلى، شفاء القلوب، ج4، ص211، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص108، ماجد، صلاح الدين، ص43.

565هـ/ 1169م، ابن أخى «شيركوه» ظنًّا منه أنه إذا ولى هذا الشاب القليل الشأن يستطيع أن يمارس سلطته كخليفة؛ لأنه ليس له عسكر ولا رجال[1]. فلما حضر «صلاح الدين» فى قصر الخليفـة خلع عليـه الوزارة[2]، ولقب بالملك «الناصر»[3]، وعاد إلى دار «أسد الدين» فأقام بها[4].

لم يكن منصب الوزارة وقتـئذ منـصبًا يتهـافـت عليـه الطامحون، إذ كان هذا المنصب مليئًا بالمصـاعب والأخطـار، فقد كان «صلاح الدين» وزيرًا سنيًّا فى دولة شيعية للخليفة «العاضد»، ونائبًا لسيده «نور الدين محمود» فى وقت واحد[5]، مع أن ذلك لم يكن بدعًا أن يتولى أحد السنيين الوزارة للخليفة الفاطمى الشيعى؛ لأنه حدث أن تقلد الوزارة زمن الفاطميين وزراء سنيون من حين لآخر[6].

الأخطار الداخلية التى واجهت «صلاح الدين» عند بداية توليه الوزارة

عانى «صلاح الدين» فى بداية عهده بالوزارة كثيرًا من الصعوبات، فقد أعلن القواد الفاطميون سخطهم على تولى أحد رجال «نور الدين» الوزارة دونهم، فأعلنوا مقاطعتهم له؛ لأنهم اعتبروا «صلاح الدين» دخيلاً عليهم فاستمروا فى تدبير المؤامرات.

أولاً: مؤامرة «مؤتمن الخلافة جوهر»

هو رئيس حراس القصر، وكان خصيًّا أسود اسمه بالكامل «مؤتمن الخلافة جوهر»[7]،

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص406.

(2) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص47، ابن كثير، ج12، ص256، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، أيضًا انظر، ج5، ص253، ابن الأثير، الباهر، ص141 ص142، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص568، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص108، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص169.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص43، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص47، ابن خلدون، ج5، ص283، ابن واصل، ج1، ص169.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، أبو شامة، ج1، ص406، المقريزى، الخطط، ج2، ص233، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص168.

(5) الخربوطلى، المرجع السابق، ص182.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس فى العصر الأيوبى، ص83، الوزراء الستة فى العصر الفاطمى هم أبو الفضل جعفر بن فرات، الحسن بن على اليازورى، خطير الملك محمد بن اليازورى، رضوان بن الولخشى، على بن إسحاق بن السلار، عباس بن يحيى بن باديس.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص174 ـ175، الدواداري، ج7، ص44، شفاء القلوب، ص11.

وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر[1]، فقد دبر مؤامرة للتخلص من «صلاح الدين»[2] فقام بالاتصال سرًّا بالصليبيين[3] فى بيت المقدس يدعوهم لنصرته، فإذا خرج «صلاح الدين» لمواجهتهم يقوم «مؤتمن الخلافة» وأتباعه بإعلان الثورة فى الداخل، ويكون الموقف فى صالحهم، وفى الوقت نفسه يتخلصون من «صلاح الدين»، وتكون البلاد بين الفرنج وبينهم يقتسمونها[4] وكان كاتب الرسالة يهوديًّا[5] من الرهط، ولكن رسالة «مؤتمن الخلافة» إلى «عمورى» وقعت فى يد «صلاح الدين» الذى رأى أن يستأصل الشر من جذوره[6]، ولم يتردد «صلاح الدين» فى قتل «مؤتمن الخلافة»، ولذلك أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه وأتوا برأسه سنة أربعة وستين وخمسمائة[7] الأربعاء الخامس والعشرون من ذى القعدة[8]، 20 أغسطس 1169م.

ثانيًا: مؤامرة الجند السودان (وقعة بين القصرين)

ثار الجند السودان ثورة عارمة نتيجة مقتل زعيمهم وكبير رجال القصر «مؤتمن الخلافة»، وكان عددهم يزيد على خمسين ألفًا[9]، ندب إليهم الملك «الناصر صلاح الدين» «أبا الهيجاء السمين»[10]، ووقعت الحرب بين الفريقين بين القصرين[11] بالقاهرة، واشتد القتال بين الفريقين، استمر ذلك يومين وصاروا كلما لجئوا إلى محلة أحرقت عليهم، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك وانتقلوا إلى الجيزة، ولكن «صلاح الدين» أرسل إليهم أخاه «توران شاه»[12] فى طائفة

(1) على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى طبعة بولاق، ج1، ص19، ماجد، صلاح الدين، ص68.

(2) سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص110، ابن خلدون، العبر، ج5، ص283.

(3) ابن خلدون، العبر، ج5، ص283.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص174 ـ 175، أبو شامة، ج1، ص450.

(5) سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص110.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.

(7) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص360، ابن كثير، ج12، ص257 ـ 258، المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص312، ابن واصل، ج1، ص174 ص175.

(8) ابن واصل، ج1، ص174 ص175، عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.

(9) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص19، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص451، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص179.

(10) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.

(11) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص361، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص45 ـ 46.

(12) توران شاه، معناه ملك الشرق، انظر ماجد، صلاح الدين، ص70.

من العسكر فأعمل فيهم السيف، فلم يبق منهم إلا الشريد وضعف أمر «العاضد» فأصبح لا حول له ولا قوة، وفى أثناء تلك الأحداث ولى «صلاح الدين» على القصر خصيًّا أبيض من رجاله المخلصين الذين يثق بهم وهو «بهاء الدين قراقوش»[1].

الأخطار الخارجية التى واجهت «صلاح الدين» وهو وزير

وصول حملة صليبية جديدة إلى دمياط

لا شك أن نجاح «نور الدين محمود» فى الاستيلاء على مصر[2] بدأ يثير المخاوف عند الصليبيين، ذلك لأن الإمارات الصليبية أصبحت محصورة بين الشمال الشرقى والجنوب الغربى، مما أصاب الفرنج بالخوف والفزع فأيقنوا بالهلاك[3]، ومن هذا المنطلق فكر «عمورى» فى أن يقوم بإعداد حملة صليبية لغزو مصر، فأرسل سفرائه إلى ملوك أوروبا يستنجد بهم، ولكن ملوك أوروبا كانوا منصرفين إلى مشاكلهم الخاصة، لكن «عمورى» لم ييأس، فاتصل بالإمبراطور البيزنطى «مانويل كومنين»، إمبراطور الدولة البيزنطية، فلبى «كومنين» الاستجابة، وذلك لأنه كان قد أحس بالخطر الذى يهدد دولته من جهة حلب ودمشق، والذى كان ينظر بعين الخوف إلى التوسع النورى فى مصر[4].

أسرع الإمبراطور البيزنطى بإرسال أسطول[5] بيزنطى بقيادة «أندرونيك كونستفانو»[6] إلى «عمورى» وتوجهوا جميعًا إلى دمياط من الديار المصرية[7] فلما وصلت الحملة إلى دمياط

(1) هو الأمير أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى، الملقب «بهاء الدين»، كان خادم صلاح الدين وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه، وصلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه.
وقراقوش هو لفظ تركى تفسيره بالعربية العقاب الطائر المعروف، وبه سمى الإنسان.
لمزيد من التفاصيل، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص254 ـ 255، ترجمة رقم 516، انظر أيضًا ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج9، ص103.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص130.

(3) ابن واصل، ج1، ص197، حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص132.

(4) حسن حبشى، المرجع السابق، ص134 ـ 135.

(5) سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص112، وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشى، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م، ص116.

(6) عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص131، وفى مراجع أخرى (الكسيوس كونتستفانوس)، انظر وليم الصورى، ص117.

(7) وليم الصورى، الحروب الصليبية، ص117 ـ 118.

علم «صلاح الدين» فانزعج لذلك، وأدرك أنه لو خرج إلى دمياط للدفاع عنها فقد يثير رجال القصر وأتباع الفاطميين الفتن والاضطرابات، وينقضون على بقية جيشه، ويستعيدون سلطانهم من جديد، وأدرك أنه لو بقى فى القاهرة فقد ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط، لكن لم يلبث أهل دمياط أن استغلوا ظاهرة جريان النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطى الضرر[1]، هذا بالإضافة إلى مساعدة «نور الدين» حيث هاجم بعض حصون الصليبيين فى الشام لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط وذلك بإرسال الإمدادات إرسالاً يتلو بعضها بعضا[2] فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها[3]، هكذا فشلت الحملة فى اقتحام ثغر دمياط، وانسحبت السفن البيزنطية من دمياط فى (565هـ - 1169م)، بعد أن عجز بحاروها عن السيطرة عليها والتحكم فيها[4]، فرجعوا إلى بلادهم مهزومين يتملكهم الأسى والحزن[5] فكانوا موضع المثل «خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين»[6]، وأعلن الخليفة الفاطمى «العاضد» سروره لنجاح «صلاح الدين» فى صد الصليبيين فأغدق عليه المال والسلاح، كما أبدى المصريون سرورهم[7].

هكذا يعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول مهمة فى تاريخ الشرق الأدنى، وانتهزها «صلاح الدين» فرصة، وبدأ خطة الهجوم ضد الصليبيين، فأغار على الرملة وعسقلان وهاجم داروم (دارون)[8] وغزة فى عام (566هـ / 1170م)، ثم عاد إلى القاهرة، غير أن «نور الدين» لم يكترث لما فعله «صلاح الدين»؛ لأن اهتمامه كان منصبًا على إسقاط الخلافة الفاطمية وإعلان الخلافة العباسية فى مصر[9].

---

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص214 ـ215.

Stevenson, The crusades in the East, pp196 – 199

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص15 ـ17، ابن الأثير، حوادث سنة 565هـ، ج9، ص105.

(3) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص48 ـ49.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص131.

(5) وليم الصورى، الحروب الصليبية، ج4، ص127.

(6) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج9، ص105، سيد على الحرير، الأخبار السنية، ص113.

(7) ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، الخربوطلى، المرجع السابق، ص183 ـ 184.

(8) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص114.

Stevenson, The crusades, p199

(9) السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص36 ـ 37.

سقوط الخلافة الفاطمية

عندما تولى «صلاح الدين» الوزارة الجديدة، كان موزَّع الولاء، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان وزيرًا للخليفة «العاضد الشيعى» وهو فى الوقت نفسه قائد لجيش «نور الدين» صاحب الشام السنى، ونائب عنه فى مصر، ونظرا لأنه كان سنيًّا متعصبًا فقد كان يتصرف بالحكمة والحذر، على الرغم من أن «نور الدين» كان يبعث إليه ويستحثه على إسقاط الخلافة الفاطمية نتيجة لتعصبه لسنيته، وأيضًا لأن الخليفة العباسى كان قد طلب منه ذلك، فقد كان «صلاح الدين» ينتظر الفرصة الملائمة لذلك؛ لأنه كان أعلم بأحوال مصر من نور الدين، إذ كانت تحيط به الأخطار والمصاعب من جميع الجهات فى الداخل والخارج، لكن استمرار «نور الدين» فى الإلحاح على «صلاح الدين» فى القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية، «يلزمه ذلك إلزاما لا فسحة فيه»[1]، اتخذ «صلاح الدين» خطوات لتنفيذ ذلك، فقد بدأ بالقضاء على قواد جيش الخليفة «العاضد»[2] ورجال قصره ذوى النفوذ الواسع فى القصر، فبدأ يستبد بهم ويقضى عليهم إلى أن أبعدهم عن القاهرة إلى الصعيد، أيضًا عمل «صلاح الدين» على محاربة المذهب الشيعى، وفى الوقت نفسه عمل على إرضاء الشعب المصرى، وأغدق الأموال على رجالات الدولة، وملأ مناصب الدولة برجال يثق هو بهم[3] فمال الناس إليه وأحبوه[4]، وقويت نفسه على القيام بإضعاف أمر «العاضد»[5] وأزال شعار الدولة الفاطمية[6]، هكذا سنحت الفرصة لـ«صلاح الدين» فى أن ينفذ أمر سيده «نور الدين»، فقد عزم على قطع[7] الخطبة للخليفة الفاطمى، فلما كان يوم الجمعة الأول من المحرم سنة سبعة وستين وخمسمائة، أمر «صلاح الدين» الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة «العاضد»[8] وإقامة الخطبة للخليفة العباسى «المستضىء بأمر الله»، ففعلوا ذلك.

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص200 ـ 201، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص44، عاشور، ج2، ص698.

(2) ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة سنة1964م، ص48 ـ 49، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص86.

(3) ابن شداد، النوادر، ص49، الخربوطلى، مصر العربية الإسلامية، ص182.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص335، ج6، ص18، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص684.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص172، 174.

(6) على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص43.

(7) انظر:

Gaston wiet, L Egypt Arable Histoir de la Nation Egyptienne, IV, Paris, 1973, P309.

(8) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول، ج3، من سنة 547هـ إلى سنة 700هـ، دار الكتب العلمية وبيروت، لبنان، ص49.

هذا وتشير المصادر إلى أنه تم إسدال الستار على الدولة الفاطمية فى هدوء على حد قول «ابـن الأثـير»: «ولم ينتطـح فيـها عنزان»[1] فى أول جمعة من المحرم 567هـ / 10 سبتـمبر 1171م[2].

من هنا، عمل «صلاح الدين» على محو آثار الدولة الفاطمية[3]، وكان هذا بمنزلة إعلان رسمى بنهاية الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومات دون أن يعلم بسقوط الدولة الفاطمية سنة 567هـ / 1171م، هكذا بعث «صلاح الدين» إلى سيده «نور الدين» من يخبره بتحقيق أوامره، كما بعث إلى الخليفة العباسى فى بغداد يبشره بعودة الخطبة له على منابر مصر، وعم الفرح[4] والسرور وبعث الخليفة لـ «صلاح الدين» وسيده «نور الدين» الخلع[5]، ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين[6].

الصعاب التى واجهت «صلاح الدين» بعد زوال الخلافة الفاطمية

لا شك أنه بإعلان سقوط الدولة الفاطمية بدأ «صلاح الدين» يواجه مصاعب كثيرة من جانب أتباع الفاطميين فى مصر، فلم يرض المخلصون من الشيعة فى مصر بزوال الخلافة الفاطمية، هذا فضلاً عن أنه كان يوجد عدد كبير من أتباع النظام القديم الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل «صلاح الدين».

مؤامرة «عمارة اليمنى»

لعل أكبر المحاولات التى اشتركت فيها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد، والتى كانت تستهدف إحياء الخلافة الفاطمية[7] وإعادتها إلى ما كانت عليه سنة 569هـ / 1174م، هى محاولة «عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر»[8] الذى قاد لواءها، واشترك معه القاضى

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص156، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص698.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص492، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص111، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص570.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص699، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص43.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص699.

(5) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الصفحة نفسها..

(6) ابن الأثير، الكامل، حوادث 567هـ، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص46.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص705، عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين، ص76، الخربوطلى، ص238.

(8) سعيد عاشور، ج2، ص705.

«العوريس» داعى دعاة الشيعة[1] و«عبد الصمد الكاتب» وبقايا الجند السودانيين، وخدم القصر[2] وغيرهم[3]، وعندما شعر المتآمرون بضعفهم، اتصلوا بقوة خارجية لتنفيذ مؤامرتهم وكانت تتمثل فى الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية)[4]، وهى القوة الشيعية الكبرى بالشام[5]. ولم يكتف المتآمرون بذلك، إنما اتصلوا أيضًا بالصليبيين واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر، كذلك اتصل المتآمرون بـ«وليم الثانى» ملك صقلية[6] ليهاجم أسطوله الإسكندرية[7] فى الوقت الذى يغزو الصليبيون فيه مصر من الناحية الشرقية، وقد اختار المتآمرون فرصة غياب «توران شاه» أخى «صلاح الدين» فى اليمن، وكانوا قد اتفقوا على تعيين الخليفة والوزير بحيث لم يبق أمامهم سوى التنفيذ[8].

لكن المتآمرين ما لبث أن انكشف أمرهم؛ لأنهم كانوا قد أشركوا معهم فى هذه المؤامرة الكبرى الفقيه الواعظ «زين الدين على بن نجا» الذى أطلع «صلاح الدين» على خطوات هذه المؤامرة[9]، فلم يكد «صلاح الدين» أن يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين وانتقم من زعمائهم وصلبهم (569هـ / 1174م)[10]، ونفى سائر الثوار إلى الوجه القبلى[11]، وكانت هذه أكبر مؤامرة تعرض لها «صلاح الدين»[12].

ثورة «كنـز الدولة» بأسوان

بعد أن قضى «صلاح الدين» على الفتنة الكبرى ما لبثت أن اشتعلت من جديد نار الفتنة

(1) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص119.

(2) ابن خلدون، العبر، ج4، ص80.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص705.

(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص53 ـ 55، الحنبلى، شفاء القلوب، ص11.

(5) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص70 ـ 71.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص598، مفرج الكروب، ج2، ص12، 14، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص65،

Lane – pool (s), saladin, pp126-127.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص705.

(8) لمزيد من التفاصيل انظر فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص49.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص706، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص76 ـ 77، الخربوطلى، المرجع السابق، ص239.

(10) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص706.

(11) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 77 ـ 78.

(12) فايد حماد، المرجع السابق، ص50.

فى الصعيد بأسوان وقوص، وكان يرأسها نجاح «كنز الدولة»[1]، وكانت هذه الثورة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية وذلك فى 570هـ / 1174م[2]، أدرك «صلاح الدين» خطورة ثورة الصعيد، حتى إنه فكر أن يذهب بنفسه للقضاء عليها، ولكن خاف من تجدد الفتنة والثورات فى القاهرة، فقرر أن يبعث إليهم أخاه «العادل سيف الدين أبى بكر»[3] الذى استطاع أن يقضى على هذه الفتنة[4] ومحو آثارها.

«صلاح الدين» وموقفه من «نور الدين»

بعد القضاء على الدولة الفاطمية كان على «صلاح الدين» أن يحدد موقفه من سيده «نور الدين محمود»، فقد ذكرنا سابقًا أن «صلاح الدين» هو أحد قواد «نور الدين» ويمثله فى مصر، وكان «صلاح الدين» طموحًا يميل إلى المحافظة على ما فى يده من سلطة ونفوذ، وكان «نور الدين» يعتبر «صلاح الدين» نائبًا عنه فى مصر، بينما «صلاح الدين» يتخطاه حينما يبعث للخليفة العباسى فى بغداد يخبره بسقوط الخلافة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية فى مصر[5]، وكان «صلاح الدين» حريصًا على ألا يغضب «نور الدين» ويثير مخاوفه منه، وألا يعرض نفسه لعداء «نور الدين»، لذا حرص «صلاح الدين» على الدعاء «لنور الدين» بعد الخليفة العباسى، كما نقش اسم «نور الدين» على النقود[6]، لكن «نور الدين» شعر أن «صلاح الدين» لم يعد نائبًا عنه فى حكم مصر، وأدرك أن «صلاح الدين» بدأ يرسخ قواعد دولة أيوبية جديدة فى مصر، وتمنى «نور الدين» أن يقضى على أطماع «صلاح الدين» وهى ما زالت فى بدايتها، ولكن دون جدوى؛ لأنه قد مات قبل تحقيق أمنيته[7]، وتؤكد جميع المصادر التاريخية أن «صلاح الدين» حزن حزنًا شديدًا لوفاة «نور الدين».

(1) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص57، أبو شامة، الروضتين، ص598، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص396، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص62، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص707، ابن خلدون، العبر، ج5، ص288.

(2) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص56، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص80.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص58، سعيد عاشور، ج2، ص707.

(4) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص56، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص71.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص699.

(6) الخربوطلى، المرجع السابق، ص240.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص161.

اتهامات المؤرخين لـ «صلاح الدين»

يتهم المؤرخون «صلاح الدين» أنه جحد فضل سيده «نور الدين»، ويستدل على ذلك أنه استدعى أسرته من الشام ليقطع كل صلة بينه وبين دولة «نور الدين»[1].

الاتهام الأول:

عندما ذهب «صلاح الدين» لمقاتلة الصليبيين وحصاره حصن الشوبك[2] 567هـ / 1170م، فلما علم بمجيء «نور الدين» لمساعدته رجع إلى مصر[3]، محتجًا باضطراب شئون مصر الداخلية[4]، مما أثار غضب سيده «نور الدين»[5].

الاتهام الثانى:

حدث أن اتفق «صلاح الدين» و«نور الدين» على حصار حصن الكرك[6] 568هـ / 1171م، ومقاتلة الصليبيين، فحاصر «صلاح الدين» الحصن وعندما علم بقدوم «نور الدين» فك الحصار، ورجع إلى مصر محتجًا بمرض والده[7]، وحاول إرضاء «نور الدين» ولكن «نور الدين» لم يقبل عذره[8].

الاتهام الثالث:

فيذهب إلى أن «صلاح الدين» بعث جيشًا لفتح النوبة بقيادة أخيه «شمس الدولة توران شاه بن أيوب» فى أواخر سنة (568هـ / 1172م)، لكن «صلاح الدين» اكتشف أن بلاد النوبة فقيرة قليلة الجدوى، فأرسل أخاه «توران شاه» إلى اليمن سنة (705هـ/ 1174م)، حيث

(1) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج9، ص113، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص183، المقريزى، ج1، ق1، ص48.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص700.

(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص701.

(4) لأمور بلغته أن ثورة العلويين تنذر بالاشتعال فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته، انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص701.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص112 ـ 113، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص223، محمد كرد على، خطط الشام، المطبعة الحديثة بدمشق 1925م، ج1، ص41، المقريزى، الخطط، ج2، ص233، أبو الفدا المختصر، ج3، ص52.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص222.

(7) ابن خلدون، العبر، ج5، ص285.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121، خطط الشام، ج1، ص41 – 42، المقريزى، الخطط، ج2، ص233، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص48، ابن كثير، ج12، ص268، الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ص61.

أخضعها وضمن تبعيتها لـ «صلاح الدين»[1] حتى تكون ملجًا لـ «صلاح الديـن» إذا طـرده «نور الدين»[2].

لكن «صلاح الدين» منذ أن تولى الحكم، وهو يعمل بكافة الطرق والوسائل على إرضاء سيده «نور الدين» ولم يتحول عن إخلاصه ووفائه له دائما، فهو كان حريصًا دائمًا على ذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة العباسى، ولم يقطع عنه الهدايا، حتى ما كان يوجد فى خزائن الخليفة «العاضد» من نفائس لم يأخذها «صلاح الدين» بل بعثها إلى سيده «نور الدين»، أضف إلى ذلك أنه نقش اسم سيده «نور الدين» على العملة، وأن له العذر فى الامتناع عن مساعدة سيده «نور الدين»؛ لأنه كان يقع بين الفتن والاضطرابات كما ذكرنا آنفا.

الأوضاع فى بلاد الشام بعد وفاة «نور الدين»

كان لوفاة «نور الدين محمود بن زنكى» رد فعل شديد فى بلاد الشام[3]، فقد خلف «نور الدين» على الحكم ابنه الملك «الصالح إسماعيل» الذى لم يكن إلا طفلاً صغيرًا[4] لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره[5]، فقد بدأ النزاع حول ما تركه «نور الدين» من ميراث (تركة)، وبدأت فترة مليئة بالفوضى والاضطراب[6]، ذلك لأن أمراء كل من دمشق وحلب والموصل كانوا قد طمعوا فى الاستئثار بالسلطة وملك بلاد الشام[7].

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص703.
(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص118، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص53، محمد كرد على، خطط الشام، ص41-42.
(3) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص55، العبادى، المرجع السابق، ص45، الخربوطلى، المرجع السابق، ص243.
(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص24، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص54 - 55، ابن الأثير، الباهر، ص162، عمر الإسكندرى، أ.ج سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى، 1990م، ص45.
Gaston wiet, op.cit, P311.
(5) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص55، القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، ج4، ص165، جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقاتها الخارجية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق 1989م / 1410هـ ص39، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص24، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص712.
W.B. Stevenson, The crusades in the East, p208
(6) جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية، ص39.
(7) محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص49.

استولى «سيف الدين غازى الثانى بن قطب الدين مودود أتابك» على الموصل، وأعلن نفسه أميرًا على الجزيرة، ثم طمع بعد ذلك فى أن يضم حلب إليه[1]، أما حلب فكان أكبر قوادها شأنًا هو «شمس الدين على بن الداية»[2]، أما دمشق فقد سيطر عليها «شمس الدين بن المقدم»[3]، وتنافس الأمراء الثلاثة فيما بينهم لتحقيق هدف واحد هو ضم «الصالح إسماعيل» إليهم، والفائز بضمه هو الذى تتحقق له السيطرة على بلاد الشام كلها، أدرك «صلاح الدين» وهو بمصر أن هذا الفراغ[4] الذى تركه «نور الدين» بعد وفاته لا بد أن يملأه رجل تحبه القلوب وتثق به، ومن هنا التزم «صلاح الدين» طريق الحكمة حتى يحقق أغراضه[5]، وهى القضاء على أسباب الخلاف، ووضع حد للتمزق والفرقة بين المسلمين والعمل على جمع شملهم وتوحيد كلمتهم حتى يستطيع أن يوحد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين الذين استغلوا اختلاف كلمة أمراء الشام[6]، وحدث أن نزل الفرنج يقصدون بانياس، فخرج إليهم «شمس الدين محمد بن المقدم»، وراسلهم ومنح إليهم أموالاً طائلة ليكفوا عن مهاجمة بلاده، وقد اتفق معهم على الهدنة وأن يحصل الصليبيون منه على خراج[7] وإطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق[8]، وكان «صلاح الدين» قد علم بما دار بين «ابن المقدم» والفرنج فأنكره واستعظمه ولم يعجبه، فاستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم[9]، وقال «إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة وضاقت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام[10] وطمعت الكفار فى البلاد»[11].

---

(1) فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص56.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص712.

(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

Stevenson, the Grusades, p208

(4) محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص49.

(5) كرد على، خطط الشام، الجزء والصفحة أنفسها، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص9، 11، ابن الأثير، الباهر، ص163.

(6) ابن شداد، النوادر، ص50، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص605، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص163، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ص24 ـ 25، المقريزى، السلوك، ج1، ص58.

(7) محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص50.

(8) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص713.

(9) سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص18، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص715، هامش 4، محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص50.

(11) ابن واصل، ج2، ص17، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص715، هامش 4.

وقد حانت الفرصة لـ «صلاح الدين» لتحقيق أهدافه السابقة الذكر عندما تنازع أمراء الشام، واستعانوا بقوى خارجية للحد من التنازع القائم بينهم، فاستنجد أمراء حلب بالصليبيين، و«سنان» زعيم الإسماعيلية الحشيشية، بينما استنجد أمراء دمشق بـ «صلاح الدين الأيوبى»(1)، فاستجاب «صلاح الدين» لندائهم، ووجدها فرصة ذهبية لتحقيق ما تصبو إليه نفسه، وهو كما ذكرنا توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين وقتالهم، ولكنه نجح فى السيطرة على الموقف قبل أن تقدم هذه القوات إلى الشام(2)، فتوجه «صلاح الدين» فى 570هـ / 1174م إلى الشام(3)، واستولى على دمشق بغير مانع، وأبطل المكوس التى كانت تؤخذ منها(4)، وأعلن «صلاح الدين» أنه جاء إلى الشام لتربية الملك «الصالح إسماعيل» رعاية لعهد والده(5) وأنه أحق بتربيته من أى شخص آخر.

استولى «صلاح الدين» على حمص وحماة(6)، وعندما حاصر حلب أيقن «إسماعيل بن نور الدين» أن «صلاح الدين» جاء لينزع منه السلطة، لذا منعه من دخول حلب فاضطر «صلاح الدين» إلى حصار حلب والاستيلاء عليها بالقوة(7)، مما اضطر «الصالح إسماعيل» والحلبيين إلى طلب الصلح(8) من «صلاح الدين» لكن «صلاح الدين» كان قد خلع طاعة «الصالح إسماعيل» وحذف اسمه من الخطبة والسكة(9)، بعث «صلاح الدين» يخبر الخليفة العباسى بما لجأ إليه خصومه من الاستغاثة بالصليبيين والباطنية الذين يعتبرون أعداء الإسلام(10)، وأنه قضى عليهم واستأصل شأفتهم فأنعم عليه الخليفة العباسى «المستضىء» بلقب سلطان مصر والشام(11)، وهذا يعنى أن بلاد الشام ينبغى أن تخضع لـ «صلاح الدين»

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص714.
(2) الخربوطلى المرجع السابق، ص243 ـ 244.
(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص233، السلوك، ج1، ق1، ص58، ابن الأثير، الباهر، ص163، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص 236.
(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص716.
(5) المقريزى، الخطط، ج2، ص233.
(6) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ص59، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص716 ـ 717، ماجد، العلاقات، ص167.
(7) لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص716، 718.
(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص33 ـ 34، آرنست باركر، الحركة الصليبية، ص215.
(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص719.
(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118، آرنست باركر، المرجع السابق، ص 215 ـ 216.
(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118، آرنست باركر، المرجع السابق، ص215 ـ 216، انظر أيضًا سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص719.

وعليه يقع عبء توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، كان هذا إيذانًا بقيام الدولة الأيوبية بصفة رسمية، ونهاية تبعية «صلاح الدين» للدولة النورية بالشام[1].

بعد أن وافق «صلاح الدين» على الصلح، واستولى على حلب إلى جانب المعرة وكفر طاب[2]، وسلمت إليه بارين بالأمان وسار إلى بزاغة واستولى عليها سنة 571هـ / 1175م[3]، ثم قام بفتح منبج[4] واستولى على عزاز[5] ثم أخذ مصياف وهى بلد الباطنية[6]، وقد كان «صلاح الدين» حسن الحظ، فقد خلصته الأقدار من جميع أعدائه، فقد مات «سيف الدين غازى» أمير الموصل سنة 578هـ / 1182م، وتبعه «إسماعيل بن نور الدين» بعد فترة من الوقت، ومرة أخرى قام صراع عنيف بين القواد النوريين، فرأى «صلاح الدين» أن الوقت قد حان ليبسط سيادته على بلاد الشام فحارب النوريين ونجح فى القضاء عليهم، وتوحيد كلمة المسلمين، هكذا انتهى الدور الثانى لـ «صلاح الدين» فى بلاد الشام، والذى كان قد بدأ بوفاة «نور الدين»، وبعده ظهر «صلاح الدين» بمظهر أكبر حاكم إسلامى فى الشرق الأدنى، ونشر نفوذه فى بلاد الشام والجزيرة، واستعد لجمع وتوحيد القوات الإسلامية تحت لوائه للدخول فى الصراع النهائى مع الصليبيين، ثم عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها بعد أن تزوج من أرملة «نور الدين»، وكان مسيره إلى مصر فى ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة[7].

الاستعدادات البرية والبحرية التى قام بها «صلاح الدين» لمواجهة أخطار الصليبيين

بعد أن قضى «صلاح الدين» على الأخطار التى واجهته فى بلاد الشام قرر العودة إلى مصر[8]، وذلك للقيام بالاستعدادات الحربية وتحصين القاهرة[9]؛ لأنه كان يتوقع هجومًا

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118.
(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص719.
(3) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.
(4) المقريزى، الخطط، ج2، ص233، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ص60، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص117، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص721.
(5) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ص60.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص117، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص722.
(7) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص723.
(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص52، عمر الإسكندرى، المرجع السابق، ص245.
(9) العبادى، المرجع السابق، ص50.

صليبيًّا بيزنطيًّا ضد مصر، فعمل على تقوية الجبهة الداخلية بتطهير البلاد من الجواسيس والخونة الذين يتعاملون مع العدو[1] لمواجهة الأخطار الخارجية المتمثلة فى الصليبيين.

فقد كانت أعمال «صلاح الدين» فى مجالين

أولها: المجال الحربى البرى. ثانيهما: المجال الحربى البحرى.

أولًا: المجال الحربى البرى

كانت أعمال «صلاح الدين» فى هذا المجال هى عمل تحصينات قوية للدفاع عن القاهرة بوجه خاص ومصر بوجه عام حتى يأمن عليها من اعتداءات الصليبيين، مثل بناء سور كبير ضخم حول القاهرة (مصر) بدلاً من سور القاهرة الذى كان قد تهدم حتى أصبح لا يرد داخلاً ولا خارجًا على حد قول «ابن أبى طى»[2] ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل[3]، فتولى ذلك الأمير «بهاء الدين قراقوش الأسدى» وشرع فى بناء القلعة، وحفر حول السور خندقًا عميقًا وحفر فى القلعة بئرًا عميقًا يضمن لمن فيها الحصول على الماء[4]، هذا بالإضافة إلى تحصيناته الحربية فى شبه جزيرة سيناء[5].

ثانيًا: فى مجال البحرية

بذل «صلاح الدين» جهودًا جبارة للعمل على إحياء البحرية العربية، حتى يستطيع أن يتخذها كسلاح مضاد للعدوان الصليبى، الذى امتدت أخطاره إلى المدن الساحلية المصرية[6]، فأمر بتعمير الأسطول[7]. هذا بالإضافة إلى أنه عمل على بث روح الجهاد فى

(1) نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد الأيوبيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م، ص125.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص448، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص91.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص52، 54، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص63، فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص70.

(4) نظير حسان سعداوى، المرجع السابق، ص91، 108، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين الأيوبى وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر 1960م، ص 31، 33.

(5) لمزيد من التفاصيل عن التحصينات الحربية (المجال الحربى البرى) فى مصر انظر الفصل الثانى من الرسالة.

(6) العبادى، المرجع السابق، ص46.

(7) لمزيد من التفاصيل عن الأسطول وإصلاحات صلاح الدين به انظر الفصل الخامسن الرسالة، الأسطول فى العصر الأيوبى، المقريزى، السلوك، ج1، ص73، المقريزى، الخطط، ج1، ص359، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص199، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص729.

نفوس المسلمين، فقد عمل على محاربة المذهب الشيعى، فأنشأ المدارس لتدريس المذهب الشافعى، وتدريس الفقه وتعاليم الدين الإسلامى[1]، هكذا قام «صلاح الدين» بسلسلة من الأعمال والاستعدادات الحربية والبحرية على الرغم من أنه كان فى استطاعته بفضل إمكاناته الكثيرة فى مصر أن يحارب الصليبيين مباشرة فى فلسطين، ولكنه فضل أن يعمل على تقوية جيوشه، وأساطيله، وتوحيد الجبهة الإسلامية المتمثلة فى مصر والشام.

«صلاح الدين» والصليبيون

نشأ «صلاح الدين الأيوبى» فى بلاد الشام، التى كانت بمنزلة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين، حيث نشأ فى عصر كان الجهاد هو الهدف الأول فيه عند الأمراء، الذى بدأه «شرف الدولة مودود» ثم «نجم الدين إيلغازى»، ومن بعده «عماد الدين زنكى» ثم «نور الدين محمود» الذى تولى راية الجهاد من بعده، فعمل على توحيد الجهود وإقامة وحدة إسلامية تضم البلدان العربية التى تتعرض باستمرار للخطر الصليبى وهى مصر والشام والعراق، فمن الطبيعى أن يتشرب «صلاح الدين» روح الجهاد، ليس هذا فقط بل أصر إصرارًا شديدًا على تنفيذها حتى آخر لحظة فى حياته، وأول ما يثير الانتباه فى حروب «صلاح الدين» وجهاده ضد الصليبيين هو أنها مرت بمرحلتين.

المرحلة الأولى

التى امتدت من سنة 570هـ/ 1174م – 582هـ/ 1186م، وهو الدور الذى لم يغفل فيه «صلاح الدين» أمر قتال الصليبيين مطلقًا على الرغم من أنه لم يقم حتى ذلك الوقت بحرب حاسمة لفتح بلادهم[2]، كان «صلاح الدين» قد اشتبك مع الصليبيين فى هذه المرحلة فى عدة غارات قبل أن تكتمل استعداداته البحرية والعسكرية، فقد هاجمهم عند الكرك والشوبك[3]، ووصل إلى عسقلان 573هـ/ 1177م، وأغار عليها ومنها سار إلى الرملة[4] ثم إلى مرج عيون، وانتصر على الفرنج عام 575هـ/ 1179م[5]، وفى عام 574هـ/ 1178م اشتبك «صلاح الدين»

(1) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، 88 – 89، العبادى، المرجع السابق، ص47، عمر الإسكندرى، المرجع السابق، ص245 – 246، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط1، القاهرة 1961م، ص30.
(2) السيد الباز العرينى، المرجع السابق، ص66.
(3) آرنست باركر، المرجع السابق، ص226.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص141.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص75.

مع الفرنج وهزمهم عند مخاضة الأحزان (بيت الأحزان) هزيمة نكراء على أساسها اضطر ملك بيت المقدس «بلدوين الرابع» لعقد هدنة مع «صلاح الدين» سنة 576هـ/ 1180م[1] لمدة عامين.

المرحلة الثانية

فهى تمتد من 582هـ/ 1186م - 588هـ/ 1192م، وتعتبر هذه المرحلة هى أهم المراحل فى حياة «صلاح الدين»، ففيها تحول من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، والدخول مع الصليبيين فى معارك حاسمة خلدت ذكرى «صلاح الدين».

«صلاح الدين» والجهاد ضد الصليبيين

نجح «صلاح الدين» فى إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء مرهوبة الجانب، تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوبًا إلى بلاد أرمينية شمالاً، ومن برقة غربًا إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقًا، وورث أيضًا أملاك الدولة الفاطمية فى مصر، والدولة الأتابكية فى بلاد الشام، وأصبح قائدًا، بل زعيمًا لجبهة إسلامية متحدة القوى أمام القوى الصليبية المتنافرة فى بلاد الشام.

ونحن قد بينا أن «صلاح الدين» عقد هدنة مع ملك بيت المقدس «بلدوين الرابع» سنة 576هـ/ 1180م، وبعد وفاته تولى الوصاية على «بلدوين الخامس» ملك بيت المقدس «ريموند الثالث» صاحب طرابلس[2].

اضطر «ريموند الثالث» إلى تجديد الهدنة بينه وبين «صلاح الدين»[3] لمدة أربع سنوات (579هـ/ 1184م - 583هـ/ 1188م)، لكن فى هذه الفترة برز رجل من الفرنج يسمى «أرناط[4] ريجنالد دى شاتيون» صاحب حصن الكرك والشوبك[5]، وعرف عن «أرناط»[6]

(1) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص66 ـ 67، السيد الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص68، آرنست باركر، الحروب الصليبية، ص228، الخربوطلى، المرجع السابق، ص269.

(2) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص65.

(3) وليم الصورى، الحروب الصليبية، تعليق د/ حسن حبشى، ج4، ص256.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص70، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية 1990م، دار المعرفة الجامعية، ص32، عبد اللطيف حمزة، صلاح الدين بطل حطين، دار الفكر العربى، 1958م، ص104 ـ 105، الباز العرينى، الأيوبيون، ص73.

(5) جرجس قام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص48.

(6) كان أرناط قد جاء إلى الشام مع لويس السابع ملك فرنسا، ووقع فى أسر نور الدين محمود سنة 555هـ/ 1160م، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فتزوج من وريثة حصن الكرك، وبذلك أصبح صاحب الكرك، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص649، عبد الدايم، المرجع السابق، ص91، الباز العرينى، الأيوبيون، ص73.

Stevenson, op.cit, pp189 – 214.

الشجاعة لدرجة التهور والاندفاع والغدر والخيانة، إلى جانب أنه كان أشد عداء للمسلمين وأكثرهم تعطشًا لسفك دمائهم[1].

وكان من «أرناط» أن نقض الهدنة التى كانت بين مملكة بيت المقدس و«صلاح الدين»، والتى كانت تنص على تمتع التجار من كلا الطرفين بالحرية التامة فى الذهاب والعودة من مصر إلى بلاد الشام[2]، وهذه الهدنة قد استفاد منها «أرناط»؛ لأنه جنى منها ثروات طائلة من المكوس التى يفرضها على القوافل التى تمر به، غير أن «أرناط» هجم على قافلة مصرية، كانت مارة بالكرك من بلاد الشام إلى مكة، فاستولى على ما تحمله من تجارة وسلع، ولم يكتف بذلك[3] بل عمد إلى غزو البحر الأحمر للاستيلاء على قلعة أيلة[4] التى تقع على بحر الحجاز ومداخله، ومهاجمة المدينة المنورة[5] ودخولها، هذا بالإضافة إلى السيطرة على البحر الأحمر لاحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى[6]، وعندما وصل هذا الخبر الملك «العادل» بمصر، أمر بإعداد أسطول تحت قيادة الحاجب «حسام الدين لؤلؤ»[7] الذى نجح فى هزيمة الصليبيين، عندما نزل إلى أيلة فظفر بمراكب العدو وحرقها وأسر جنودها، ثم سار إلى عيذاب[8] وانتصر عليها وأسر جميع أهلها، عدا «رينو» الذى لاذ بالفرار[9]، لكن «صلاح الدين» أقسم ألا يغفر له ما فعله[10] وإن وقع «أرناط» فى يده فسوف يقتله.

---

(1) السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص106.

(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص743.

(3) انظر:

Steven Runciman, A history of the crusades ،VII, cambridg, 1951, p436

(4) إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 33 ـ 34.

Amin Maalouf, op.cit, p186.

(5) ابن الجوزى، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى المشهور بسبط ابن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ط1، 1952م، مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر أباد الدكن، الهند، ط1، ق1، ص369.

W.B. Stevenson, op.cit, pp 240, 241.

(6) ابن واصل، ج2، ص 127،130، أبو شامة، ج2، ص27، سعيد عاشور، ج2، ص758، حسنين ربيع، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية (ندوة تاريخ البحر الأحمر) جامعة عين شمس 1979م، ص 109 – 110.

(7) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص369.

Steven Runciman, The crusades, VII, p437

(8) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص128.

(9) حسنين ربيع، ندوة البحر الأحمر، ص110 ـ 111، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص759.

(10) أبو شامة، ج2، ص75، ابن واصل، ج2، ص185، سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسها.

موقعة حطين الكبرى (583هـ - 1187م)

لا شك أن الخطوة المنطقية التى يجب أن يتبعها «صلاح الدين» هى القيام بهجوم إسلامى شامل على مملكة بيت المقدس التابعة للصليبيين، خاصة بعد الأعمال العنيفة التى فعلها «أرناط» صاحب حصن الكرك الذى يشرف على طريق التجارة والحج بين مصر والشام والحجاز، هذا هو ما ذكره المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم على الصليبيين وإن كان من المعروف أن حادثة «أرناط» لا تعدو أن تكون السبب المباشر فقط، وأن «صلاح الدين» لم يقم بهذا العمل الهجومى إلا بعد أن استكمل استعداداته الحربية والبحرية كما رأينا.

أعلن «صلاح الدين» حركة الجهاد وتزعمها ضد الصليبيين فرأى أن يتجنب تجمعات الصليبيين بالساحل فى صفورية[1] قرب عكا، وهاجم الصليبيين بالقرب من صفورية وانتصر عليهم[2] ولم يمض وقت قليل حتى تمكن من الاستيلاء على طبرية[3] حتى يجبر الصليبيين على الخروج من صفورية[4] مركز تجمعهم، واستولى على طبرية 583 هـ / 1187م[5]، غير أن أمراء الصليبيين اجتمعوا فى عكا وقرروا الزحف من صفورية إلى طبرية[6]، وفرح «صلاح الدين» عندما تحرك الصليبيون إلى طبرية، ثم عسكر غربى طبرية وبالتحديد عند قرون حطين[7] الغنية بالمراعى والماء[8] حتى ينعم هو وجنوده

---

(1) قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، الطبعة الثانية 1994م، بيروت، لبنان، ص 315 ـ 316.

(2) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص392، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص773.

Stevenson, the Crusades, p244.

(3) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص71، فيليب حتى، المرجع السابق، ج2، ص237.

(4) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص147.

Amin Maalouf, op. cit, p191.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص176، حوادث سنة 583هـ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص32، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص76 أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص71 ـ 72، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص392.

(6) آرنست باركر، المرجع السابق، ص232، أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، ص54.

(7) انظر:

Runciman, the crusades, VII, p457, Amin Maalouf,op.cit, p191.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص189، ابن كثير، الإمام الحافظ المؤرخ المفسر عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى، البداية والنهاية فى التاريخ، مطبعة السعادة، ج12، ص 320 ـ 321، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص93، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص775، ماجد، العلاقات، ص169.

عن موقعة حطين انظر أيضا:

Runciman, The crusades, VII, p457, Joshua Prawer, Histoire du Royaume latin de Jerusalem second edition, tome II, Paris 1970, pp 9-10.

بالظل والماء الوفير عند بحيرة طبرية[1] والأردن، بينها كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية الثقيلة طريقًا وعرًا لا ماء فيه، فى وقت اشتدت فيه حرارة[2] الشمس فى شهر يوليو، ووصلوا منهكين[3] متعبين عند تل حطين[4] وطلعوا إلى تل حطين والنار تضرم حولهم فهلكوا وتساقطوا من التل[5]، وانتهز «صلاح الدين» الفرصة عندما حل ظلام الليل، وأحاط بالجيش الصليبى ثم دار القتال بين الفريقين، وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا[6] بعد أن كبدوا الصليبيين خسائر فادحة فى الأرواح، والمعدات، وأسر المسلمون الملك «جاى لوزجنان»، والبرنس «أرناط» صاحب الكرك[7] ولم ينج إلا القومص «ريموند» كونت طرابلس الذى هرب إلى مدينة صور[8]، وبعد أن رأى «صلاح الدين» الأسرى قتل «أرناط» بيده[9]؛ لأنه كان قد أقسم على قتله[10] لمحاولته الاعتداء على المدينة المنورة وقبر الرسول[11].

كانت واقعة حطين كارثة عظيمة على الصليبيين؛ لأنهم خسروا فيها خسائر فادحة منها زهرة شبابهم وفرسانهم، وعلق المؤرخ «ابن الأثير» على هذه الواقعة بقوله «وكان من يرى

(1) انظر:

Runciman ,The crusades, p244.

(2) انظر:

Runciman., The S crusade, VII, p457.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص190، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص776، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص37، ماجد، العلاقات، ص169.

(4) انظر:

Stevenson, The crusades, p246.

(5) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص393.

(6) انظر:

Heinrich von sybel, History and literature of the crusades, translated from the German and edited by lady Duff Gordon with an index, London ،New York, 1861, p71.

(7) ابن شداد، عز الدين محمد بن على بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة، دمشق 1991م، ج1، ق2، ص398.

(8) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص73، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص94ـ 95.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص93.

Runciman., The crusades, VII, pp457- 458.

(10) انظر:

Amin Maalouf, op. cit, p191, Heinrich von sybel, op,cit, p72 ،W.B. Stevenson op.cit, p274.

(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص195، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص79، ماجد، العلاقات، ص170.

القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى»[1]، بعد ذلك اتجه «صلاح الدين» إلى الاستيلاء على المدن الساحلية[2] التى تربط الصليبيين بموطنهم فى غرب أوروبا، فيحصرهم فى داخل الشام، فضلاً عن أن احتلاله للمدن الساحلية سوف يسهل عليه الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام[3].

استولى «صلاح الدين» على عكا ويافا وصيدا وبيروت وجبيل[4]، وحيفا وعسقلان[5] وغزة[6]، ولم تستعص عليه سوى مدينة صور الحصينة[7] المنيعة فى أسوارها وأبراجها.

بعد ذلك رأى «صلاح الدين» أن يتجه إلى الداخل نحو مدينة بيت المقدس، فعرض على أهلها تسليم المدينة على أن يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم، ولكن أهل بيت المقدس رفضوا ذلك العرض[8]، فأقسم «صلاح الدين» على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف[9] وتطهير أولى القبلتين، وثالث الحرمين ومسرى رسول الله ﷺ [10] من الوجود الصليبى، فتقدمت جموع المسلمين للتطوع والجهاد من أجل طرد الصليبيين، وتزعم حركة المقاومة ضد الصليبيين[11] «باليان بن بيرزان» صاحب الرملة[12]، وبعد حصار مدينة القدس (بيت المقدس) وشدة بأس المسلمين، اتفق الصليبيون على إرسال جماعة من أمرائهم وأعيانهم

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص178، ابن واصل، ج2، ص192، رانسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص739 ـ 740، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص780، عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص169.

(2) مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1998م، ص220، عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص171.

(3) مصطفى العسقلانى، عسقلان ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1992م، ص146.

(4) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص396.

(5) مصطفى العسقلانى، عسقلان، ص136، ابن واصل، ج2، ص209 ـ 210.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص179، ماجد، العلاقات، ص171 – 172.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص181، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص82، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص 400 ـ 401.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص98.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص787.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص92، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص84 ـ 85، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص403.

(11) انظر:

Lane – pool (s), Saladin and the fall of kingdom of Jerusalem, Beirut 1946, p226.

(12) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص211.

فى طلب الأمان وتسليم القدس[1] بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين والسماح لمن يشاء بمغادرتها، وفى ذلك يقول «العماد الأصفهانى»: «طار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من بها رعبا وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفًا من جيش الإسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت... وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وأيس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج»[2]، وكانت هذه الشروط نفسها هى التى سبق أن عرضها «صلاح الدين» على أهل بيت المقدس، ورفضوها[3]، هكذا دخل «صلاح الدين» مدينة بيت المقدس[4] فى ليلة الإسراء 27 رجب سنة (583هـ/ 1187م)، واستولى عليها استيلاء كاملا[5]، وكانت معاملته للأسرى الفرنج معاملة يملؤها التسامح والكرم. بعد ذلك اتجه «صلاح الدين» بعد فتح القدس إلى فتح الحصون الباقية، فاستولى على الشوبك والكرك، وقلعة كوكب والشقيف وصهيون ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبلة واللاذقية[6]، ولم يبق فى يد الفرنج سوى صور وهى المدينة الوحيدة الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية وطرابلس التى لم يبق منها سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرسوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية، وأنطاكية التى لم يبق من المناطق التابعة لها سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب[7].

(1) أبو الفدا، المختصر، ج3، ص72 ـ 73، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1346هـ/ 1927م، ص139.

(2) العماد الكاتب الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م، ص117.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص789.

(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص98.

(5) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص66، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص84 ـ 85، ابن واصل، ج2، ص215، ابن شداد، المحاسن، ص82، الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص85، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص791، ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص98 - 99، مجلة القدس، العدد 11، نوفمبر 1999م / رجب 1420هـ، ص114، د/ مصطفى حسن محمد الكتانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثانى 1990م، ص362، مها يسرى محمد، معرة النعمان، ص221، ماجد، العلاقات، ص171 ـ 172، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص45.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص94 ـ 95، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص94 ـ 95.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص805، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص113.

الحملة الصليبية الثالثة

أحدثت هزيمة الصليبيين فى حطين ثم سقوط بيت المقدس فى يد «صلاح الدين» رد فعل عنيف فى الغرب الأوروبى[1]، مما دفع البابوية إلى الإعداد لحملة صليبية ثالثة[2] للانتقام مما حل ببيت المقدس والصليبيين بالشام على يد «صلاح الدين»[3]، هذا وقد ساهم فى تلك الحملة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم «فريدريك بارباروسا» إمبراطور ألمانيا، و«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا، و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا[4]، وتعتبر هذه الحملة من أكبر الحملات الصليبية فى عدد جيوشها وأساطيلها، كما أنها تمثل حقبة من أروع الحقب وأشدها إثارة فى تاريخ الغرب والشرق[5]، كان أول من تحرك بجيشه إمبراطور ألمانيا «فريدريك بارباروسا»، فكان أسرع إلى العمل مع كبر سنه، فتحرك فى 585هـ/ 1189م، وبصحبته ثانى أبنائه «فريدريك» أمير سوابيا[6] على رأس جيش قوى من أوروبا ووصل إلى آسيا الصغرى ودخل القسطنطينية ومنها اتجه بطريق البر عبر آسيا الصغرى، ولكنه غرق فى نهر صغير فى قيليقة[7] وهو نهر كاليكادنوس[8] أثناء مسيره من طرسوس صوب أذنة وأنطاكية 586هـ / 1190م[9]، هذا ولم يلبث أن أفلت زمام الجيش الألمانى الكبير عند وفاة قائده فاختل النظام، وعجز «فريدريك السوابى» ابن الإمبراطور الراحل عن السيطرة على الجند، وفضل «فريدريك السوابى» أن يتجه برجاله صوب عكا لمشاركة بقية طوائف الصليبيين فى حصارها 586هـ / 1190م[10]، هذا وقد كان هدف الحملة الصليبية الثالثة التى

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق الجزء والصفحة نفسها، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) فيليب حتى، المرجع السابق، ص238-239.

Prawer, Histoire Du Royaume, tome II, pp9 –10.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص811.

(4) انظر:

Zoe oldenbourg, the crusades, Translated from the French by Anne Carter, New York (without date),p525.

(5) فيليب حتى، المرجع السابق، ص239.

(6) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص812.

(7) سعيد عاشور، المرجع السابق الجزء السابق نفسه، ج2، ص817.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص115.

(9) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص817، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص116.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص156، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص819.

لمزيد من التفاصيل عن قواد الحملة الصليبية الثالثة انظر:

Joshua Prawer, Histoire du Royaume, pp 11-17.

خرجت من صور، هو احتلال عكا والتوجه بعدها لاسترداد بيت المقدس من «صلاح الدين»[1]، فنجد أن «فيليب أوغسطس» ملك فرنسا، و«ريتشارد» ملك إنجلترا قد اتخذا الطريق البحرى وظلا عامًا كاملاً فى جزيرة صقلية، فوصلا إلى عكا فى 12 ربيع الأول 587هـ / 20 إبريل 1191م[2]، هذا بالإضافة إلى ارتفاع روح الصليبيين المعنوية فى الشام بعد أن أطلق «صلاح الدين» سراح ملكهم «جاى لوزجنان» ملك بيت المقدس[3]، وحاصر الصليبيون عكا[4] حصارًا شديدًا إلى أن وصل «ريتشارد قلب الأسد» إلى عكا فى 13 جمادى الأول 587هـ / 8 يونيو 1191م[5]، وقد وصف «ابن شداد» «ريتشارد» قائلاً «إنه شديد البأس عظيم الشجاعة، قوى الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحروب»[6]، وعلى الرغم من أن المسلمين تمكنوا من مقاومة الحصار مدة سنتين كاملتين (585هـ / 1189م – 587هـ / 1191م)، ورغم استبسالهم فى صد هجمات الأعداء عنهم، إلا أن المدينة سقطت أخيرًا فى جمادى الآخر 587هـ / يوليو 1191م، وذلك لطول مدة الحصار المضروب عليها وعدم وصول الإمداد إليهم[7]، وبعد سقوط عكا[8] اعتذر «فيليب أوغسطس» بالمرض وأبحر من صور فى 587هـ / 1191م، قاصدًا «برنديزى» فى إيطاليا[9] تاركًا المهمة لـ«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا[10]، أما «ريتشارد» فقد واصل زحفه واستطاع أن يستولى على شاطئ

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص116.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص118.

(3) أسر جاى لوزجنان فى معركة حطين ووقع على نفسه عهدا بأنه سوف يبحر إلى بلاده، وأنه لن يشهر السلاح على المسلمين، غير أن جاى لوزجنان نكث العهد وأجاز له التحلل من اليمين إذ تعتبر فى نظر الكنيسة يمينا باطلًا؛ لأنها بذلت لغير مسيحى، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، النوادر، ص153، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص47، 50، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص116 – 118.

(4) انظر:

Zoe Oldenbourg, The crusades, p531, W.B. Stevenson, op. cit, p261.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص120.

(6) ابن شداد، النوادر، ص161.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص120.

(8) انظر: Zoe Oldenbourg, op. cit, p536.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص835، ولكن يرى حسين مؤنس فى كتاب أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة 1987م، ص270، أنه أبحر من ميناء عكا فى 588هـ / 8 يونيو 1192م، انظر سعيد عاشور، ج2، ص 835، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص124.

(10) لمزيد من التفاصيل عن عكا وسقوطها، انظر ابن واصل، ج2، ص355 ـ 362.

فلسطين من عكا إلى يافا ثم اتجه نحو عسقلان يريد أخذها قاعدة عسكرية[1]، وعندما علم «صلاح الدين» خشى من أطماع الصليبيين، فاضطر إلى تخريب عسقلان[2] إذ قال «إن موت أحد أبنائى أحب إلى نفسى من تخريب عسقلان»[3]، فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التى كانت من الممكن استغلالها فى مهاجمة مصر، ولم ينجح «ريتشارد» إلا فى استرداد أرسوف[4] ويافا وقيصرية وحيفا[5]، ثم حاول «ريتشارد» أن يسترجع بيت المقدس ولكنه فشل فى كل محاولاته، واضطر أن يعقد الصلح مع «صلاح الدين» (صلح الرملة) شوال 588هـ / نوفمبر 1192م[6]، نتيجة وصول أخبار سيئة لـ «ريتشارد» من إنجلترا تفيد أن أخاه «حنا» قام بفتنة ضده، الأمر الذى تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده خوفًا على مصير عرشه[7]، أضف إلى ذلك أن «ريتشارد» مرض مرضًا شديدًا كان قد أشرف منه على الهلاك[8].

تم عقد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين فى 22 شعبان 588هـ / 2 سبتمبر 1192م[9].

أهم شروط صلح الرملة

(1) أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا

(1) ابن واصل، ج2، ص363، مصطفى العسقلانى، عسقلان ودورها فى الصراع الصليبى، ص143.

(2) ابن واصل، ج2، ص369، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص192، المقريزى، السلوك، ج1، ص106، مصطفى العسقلانى، عسقلان، ص143، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص843.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص192، ابن شداد، النوادر، ص186 ـ 187، ابن واصل، ج2، ص369، عسقلان، ص143.

(4) اشتبك الصليبيون مع الجيش الأيوبى فى معركة فاصلة دارت فيها الحرب بين الفريقين فانهزم الجيش الأيوبى، هذا وتعتبر معركة أرسوف وهزيمة المسلمين فيها نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص841، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص127.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص126.

(6) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص436 ـ 437، سعيد عاشور، ج2، ص843، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص200، مصطفى العسقلانى، عسقلان، ص159، سوسن سليمان يحيى، تجديد صلاح الدين الأيوبى للعمائر الإسلامية فى بيت المقدس، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الخامس، ص297.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص861.

(8) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج5، ص105.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص862، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص133.

وأرسوف[1]، أما عسقلان فتكون للمسلمين[2]، فى حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين[3].

(2) أما الأماكن المقدسة فنصت الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأى ضريبة مقابل ذلك، وفى الوقت نفسه أعلن «صلاح الدين» أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل[4]، وبعد إتمام هذه الاتفاقية يحلف عليها الطرفان[5].

بعد اتفاقية صلح الرملة أحرز «صلاح الدين» نجاحًا باهرًا فى منع الحملة الصليبية الثالثة من تحقيق الهدف الذى خرجت من أجله، وهو الاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين، فبعد هذه الاتفاقية عاد «صلاح الدين» إلى القدس وعمل بعمارة أسوارها وترميم حصونها، ثم رحل إلى دمشق مارًّا بنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت، وما لبث أن أصلح أمور أجنادها وشحنها بالرجال والعتاد[6].

غير أن «صلاح الدين» لم يلبث بدمشق طويلاً، فقد أصابه مرض الحمى، وتوفى[7] فى صفر 589هـ / مارس 1193م[8]، ودفن فى دمشق بعد أن قضى حياته كلها فى كفاح وجهاد ضد أعداء الإسلام فقد كان أعظم ملوك زمانه[9].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403، مصطفى العسقلانى، عسقلان، ص159.
Zoe Oldenbourg, The crusades, p540, W.B. Stevenson, pp269 – 270.
(2) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص83.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403، مصطفى العسقلانى، عسقلان، ص159، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1990م، ص56.
(4) المقريزى، السلوك، ج1، ص110.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403 ـ 405، المقريزى، السلوك، ج1، ص110، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص862.
(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص240، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص407.
(7) انظر:
W.B. Stevenson, op.cit , p 287
W.B. Stevenson, Ibid, p287.
(8) الدواداری، كنز الدرر، ج7، ص114، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص437، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص135، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية د/ نبيه أمين فارس، منير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1948م، ص155.
Zoe Oldenbourg, The crusades,op.cit, p554.
(9) الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلة تبحث فى آثار الوطن العربى وتاريخه، عدد خاص عن دمشق، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية، العدد الخامس والثلاثون 1985م، ص403.

خلفاء «صلاح الدين الأيوبى» والأخطار التى واجهتهم

أوصى «صلاح الدين» بالسلطنة من بعده لابنه «الأفضل نور الدين على» الذى كان موجودًا مع أبيه بدمشق، أما الابن الثانى وهو «العزيز عثمان» الذى كان بمصر وقت وفاة أبيه فقد احتفظ بها، أما الابن الثالث وهو «الظاهر غازى» فقد أخذ حلب وشمال الشام، أما «العادل» أخو «صلاح الدين» فقد منحه أخوه بعض الإقطاعات الثانوية المتفرقة مثل الأردن والكرك إلى جانب الجزيرة وديار بكر[1]، ونظرًا لسوء تصرفات الملك «الأفضل» فلم يكن مرغوبًا فيه بعد أن انتقلت إليه السلطنة بوصية من أبيه[2].

حدث انقسام فى البيت الأيوبى والذى أدى إليه هو بطانة السوء التى التفت حول الملك «الأفضل»، رغم ميل أبناء «صلاح الدين» إلى الاتفاق والوفاق فيما بينهم[3] فخرج الملك «العزيز» من مصر إلى دمشق فى محاولة لانتزاعها من أخيه «الأفضل» سنة 590هـ/ 1194م، مما دفع «الأفضل» إلى الاستنجاد بعمه الملك «العادل»، وكما ذكر بعض المؤرخين «أفضى إليه بأسراره وشاهد الملك العادل اختلال أحواله، ولم يعجبه سيرة وزيره «ضياء الدين بن الأثير»، وكان الملك «العادل» يجبه الملك «الأفضل» بالتحذير منه، وهو لا ينزل عنه ولا يبرأ منه»[4]، هذا وقد حال الملك «العادل» دون وصول «العزيز» إلى دمشق وانسحابه عائدًا إلى مصر[5] ليعاود الكرة من جديد بعد عام، إلا أن «العادل» حال دون وصوله إلى دمشق من جديد بعد أن حرَّض أمراء «العزيز» على تركه والعودة إلى مصر[6]، تمكَّن «العادل» بذكائه الشديد أن يسيطر على الموقف إذ كان ذا مكر شديد وخديعة، صبورًا ذا أناة وتؤدة[7]، فانتهز فرصة أن يدب النزاع بين أولاد «صلاح الدين» وأن يكون حكمًا بينهم مما مكنه من فرض كلمته عليهم ليصبح سيد الموقف، وقد ساعدته الظروف، فقد توفى الملك «العزيز عثمان» فى السابع والعشرين من المحرم سنة 595هـ/ أواخر نوفمبر 1198م[8]، وانتقل حكم البلاد إليه

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص378ـ379، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص136.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص226، ابن الأثير، الكامل، حوادث 589هـ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص876.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص38ـ39، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص118.
(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص43ـ44، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص123.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص71.
(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص137.
(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص71.
(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص82 ـ 83، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص95، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص143ـ144.

وأعطى «الأفضل» سميساط بعد أن أنزل به الهزيمة، وبذلك أعيد توحيد البلاد من جديد تحت زعامة الملك «العادل»، وانتظمت البلاد فى حكمه واستقرت قواعده، وقد قسَّم «العادل» حكمه على أبنائه فأعطى ابنه «الكامل محمد» حكم مصر، و«المعظم عيسى» دمشق، و«الأشراف موسى» حران، و«الأوحد» ميا فارقين، وأصبح على «العادل» مواجهة الصليبيين، وحماية الأراضى الإسلامية، بعد أن نجح «العادل» فى توحيد البلاد بدأ يهتم بتحصين ثغور مملكته، لا سيما ثغر دمياط؛ لأنها قفل الديار المصرية[1]، إذ بنى «العادل» مدينة العادلية جنوبًا وشحنها بالمقاتلين، والآلات الحربية وعمل على تقوية برج السلسلة، وكان فى هذا الوقت قد عزم الصليبيون على غزو مصر بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة مصدرها مصر[2].

الحملة الصليبية الرابعة

دعا البابا «أنوسنت الثالث» (595هـ/ 1198م ـ 613هـ / 1126م) الغرب الأوروبى إلى القيام بحملة صليبية رابعة لاسترداد بيت المقدس، وشجع الأوروبيين على ذلك ما حدث من التنازع بين أبناء «صلاح الدين» حول تقسيم الدولة الأيوبية[3]، لكن هذه الحملة سرعان ما أخفقت بسبب أنها اتخذت القسطنطينية[4] طريقًا لها بدلاً من النزول فى مصر للسيطرة عليها، وتسببت الحملة فى إضعاف الصليبيين فى الوقت الذى كانت فيه قوة الإسلام فى الازدياد[5].

الحملة الصليبية الخامسة

لم ينس الصليبيون والغرب الأوروبى بيت المقدس[6]، فأرسل البابا «أنوسنت الثالث» (لوثر أوف سيجنى) (585هـ/ 1189م – 613هـ/ 1216م) إلى السلطان «العادل» الأيوبى يحذره بما سوف يحل من الغضب، ويحثه أن يتنازل فى هدوء عن بيت المقدس[7]، لكن البابا

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص195.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص188، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص183 ـ 184.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص139.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص891، 894، آرنست باركر، الحروب الصليبية، ص201، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص213، 219، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ج1، ص11، هامش1.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص139، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص189.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص258.

توفى سنة (613هـ / 1216م)، وتولى مكانه البابا الجديد «هونريوس الثالث» (الكاردينال سنسيوس) (613هـ/ 1216م ـ 635هـ / 1227م)[1] الذى لم يمهل الرغبة فى استعادة بيت المقدس، فبعد توليته البابوية ببضعة أيام كتب إلى الملك «حنا دى برين» الذى تزوج من «ماريا» ابنة «عمورى الثانى» ملك قبرص وبيت المقدس، وأصبح له حق المحاربة من أجل عرش بيت المقدس[2]، وفعلا اجتمعت جموع الصليبيين بعكا، فقرروا أن يقصدوا مصر أولاً ثم بعدها لا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد[3]، وتقرر أن تكون مدينة دمياط هى المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه؛ لأنها قفل الديار المصرية[4]، خرجت الحملة الصليبية الخامسة من عكا (615هـ / 1218م) بقيادة الملك «حنا دى برين» فوصلت أمام دمياط فى صفر 615هـ / مايو 1218م[5] فحاصرت دمياط 9 أشهر، فاستولت على برج السلسلة[6] أهم الحصون المائية لحماية دمياط من جهة البحر[7].

ولما علم السلطان «العادل» باستيلاء الصليبيين على برج السلسلة على حد قول بعض المؤرخين «تأوه تأوهًا شديدًا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنًا ومرض من ساعته»[8]، ومات يوم الخميس سابع جمادى الآخر 615هـ / 1218م حزنًا وكمدًا[9]، وبعد وفاة «العادل» استقل الملك «الكامل» بحكم مصر، وإخوانه، «المعظم عيسى» فى دمشق، و«الأشرف موسى» فى حران، و«الأوحد» فى ميا فارقين[10]، عندما علم الصليبيون فى الغرب بهذا النصر أرسلوا المدد بقيادة الكاردينال «بلاجيوس» الذى وصل إلى مصر فى 615هـ /

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص923.
(2) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص140.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص921.
(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص109.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص269، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص164.
(6) كان على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ، تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح إلى الديار المصرية، انظر المقريزى، السلوك، ج1، ص188، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، ميخائيل عواد، المآصر فى بلاد الروم والإسلام، مجلة المقتطف، ج3، من المجلد الرابع بعد المائة، مارس 1944، 6 ربيع الأول 1363هـ، ص40، 42.
(7) انظر:
Wiet, L'Egypt Arabe, pp345-364
(8) المقريزى، السلوك، ج1، ص189 ـ 190، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص119، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص593، ابن واصل، ج2، ص275 – 276، سعيد عاشور، ج2، ص926.
(9) المقريزى، السلوك، ج1، ص190، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص196 ـ 197.
(10) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص142.

1218م[1] مندوبًا عن البابا وقائدًا على الصليبيين فى حملتهم على مصر[2]، وأخذ الملك «الكامل» يعمل على عرقلة الصليبيين فاشتبك معهم عند العادلية الذى كان معسكرًا بها وحدث النصر والهزيمة لكل من المسلمين والصليبيين[3]، وحدث أن نزل الصليبيون بالدلتا، فأعقب نزولهم حالة من الفوضى إذ نزحت من سيناء الشرقية بعض قبائل البدو والأعراب لتستفيد من حالة الفوضى بعد نزول الصليبيين بالدلتا، فقطعوا الطرق وأغاروا على القرى، ونهبوا وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج[4]، على أن الخطر الداخلى الأكبر الذى هدد الملك «الكامل» أثناء تصديه للصليبيين على حدود دمياط، هو تعرضه لمؤامرة من بعض كبار أمرائه وعلى رأسهم «عماد الدين أحمد بن على» ويعرف بـ«ابن المشطوب»، الذى كان أكبر أمير بمصر[5]، وكان هدف المؤامرة هو عزل «الكامل» وإحلال أخيه الصغير «الفائز» بدلاً منه لصغر سن «الفائز»، مما يتيح الفرصة لـ«ابن المشطوب» للسيطرة عليه وعلى الحكم، مما أدى إلى إضعاف عزيمة «الكامل» فى أول الأمر، وانقسام جيشه ثم هروبه من معسكره فى العادلية قاصدا أشموم طناح[6]، لكن الله عز وجل لطف بالمسلمين، ذلك أن الملك «المعظم عيسى» استجاب لنداء أخيه «الكامل» وحضر إلى أشموم طناح، وعلى حد قول «ابن الأثير»: «فقوى به قلبه، واشتد ظهره، وثبت جناحه، وأقام بمنزله»[7].

واستطاع الأخوان أن يتخلصا من أعدائهما، فقبض «المعظم عيسى» على «ابن المشطوب» وأرسله إلى الشام[8]، أما «الفائز» فطلب منه «المعظم» أن يسير إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق رسولاً عن الملك «الكامل» ليقضى لهم بعض المهام، وعلى حد قول بعض المؤرخين «بسبب إرسال عساكر الإسلام لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج»[9].

تقدم الجيش الإسلامى مرة أخرى لمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمياط، لكنه فشل فى

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص927.
(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص142.
(4) ابن الأثير، الكامل، حوادث 614هـ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص929.
(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص143.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ص196.
(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، حوادث، 614هـ المقريزى، السلوك، ج1، ص197.
(8) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص230 ـ 231.
(9) المقريزى، السلوك، ج1، ص197، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231.

زحزحتهم عن مكانهم أمام دمياط[1]، وحدث فجأة تغير فى سياسة «الكامل» تجاه الصليبيين، ففتح باب المفاوضات بينه وبينهم وعرض عليهم أسخى عرض يمكن التقدم به وهو رد بيت المقدس وجميع ما كان «صلاح الدين» استرده من بلاد الساحل، ما عدا الكرك والشوبك لأهميتها الإستراتيجية، وتسليم صليب الصلبوت الذى كان «صلاح الدين» أخذه لما استولى على بيت المقدس، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة، وذلك فى مقابل أن ينسحب الصليبيون من الأراضى المصرية[2]، قبل «حنا دى برين» قائد الحملة هذا العرض السخى الذى يحقق غرض الحملة[3]، ولكن المندوب البابوى «بلاجيوس» رفضه[4].

وأخذ الملك «الكامل» يكرر عرضه على الصليبيين مرة بعد مرة، نظرًا لسوء موقفه وانخفاض فيضان النيل مما هدد البلاد بالمجاعة، ورغبة «المعظم» فى العودة إلى الشام، بالإضافة إلى سوء موقف حامية دمياط[5].

لم يجد السلطان «الكامل» من وسيلة إلا الجهاد بعد أن رفض الصليبيون عروضه بسبب إصرار «بلاجيوس»[6]، وسقطت دمياط فى أيدى الصليبيين بعد حصار استمر تسعة أشهر كاملة، وبعد سقوط دمياط اتجه الملك «المعظم» إلى الشام، حيث أمر بتخريب بيت المقدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها إلا برج داود... فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط[7].

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص144.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص932، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص284 ـ 285، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص190.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص144.

(4) يعتقد أن المدن الإيطالية كانت من وراء هذا الرفض، فقد رأت فى احتلال الدلتا مكسبًا تجاريًا ضخمًا يفوق استرداد بيت المقدس وهناك سبب آخر، ففى اعتقاد بلاجيوس عدم جدوى الدخول فى اتفاق مع المسلمين خصوصًا بعد أن قام الملك المعظم عيسى بتدمير استحكامات بيت المقدس وأسوارها حتى لا يستفيد العدو منها فى حالة إعادتها لهم إذا ما تم توقيع الاتفاق، المقريزى، السلوك، ج1، ص204، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص932، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص286 ـ 287، سهير محمد إبراهيم نعينع، جبلة ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1994م، ص225.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص933، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص145.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص145.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ص204.

حُققت مكاسب طائلة بدخول الصليبيين دمياط 616هـ / 1219م[1]، بعد ذلك قرر الصليبيون منازلة القاهرة واغتروا بما حصلوا عليه من مكاسب ورفضوا سماع الملك «الكامل» ودخلوا وسط مثلث تحيط به المياه من جهات ثلاث، بحيرة المنزلة شرقًا، وفرع دمياط غربًا، والبحر الصغير جنوبًا، تلك الأرض التى تفيض بالمياه أثناء ارتفاع منسوب النيل، فدخل الصليبيون تلك الأرض 618هـ / 1221م، وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، فقد كان لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل[2].

هذا فى الوقت الذى نقل «الكامل» معسكره من فارسكور إلى قبالة طلخا، حيث خيم بالمنزلة[3] التى شيدها على الشاطئ الشرقى للنيل فى مقابلة طلخا، وأطلق عليها اسم «المنصورة»[4] تفاؤلاً بها من الانتصار على الصليبيين، انتهزها «الكامل» فرصة فأمر بقطع كل السدود وكان الماء زائدًا جدًّا فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم وأرادوا العودة إلى دمياط فوجدوا أن المسلمين قطعوا الطريق عليهم[5]، هكذا ساء موقف الصليبيين فى دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور فلم يبق أمامهم سوى الصلح بعد أن عاينوا الهلاك فأرسلوا إلى السلطان «الكامل»[6] يعرضون عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج من مصر مقابل السماح لهم بالخروج من مأزقهم سالمين[7]، ووافق «الكامل» على الصلح للأسباب الآتية؛ لأنه كان يتوقع وصول «فريدريك الثاني» إمبراطور ألمانيا لنجدة الصليبيين، ويخشى من اشتداد الأمر على المسلمين الذين

(1) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص168 سهير محمد، جبلة، ص225، مرآة الزمان، ج3، ق2، ص603.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ص207، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص146.

(3) انظر:

Runciman, op.cit, VIII, p168.

(4) بنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفرق البحرين الآخذ أحدهم إلى دمياط، الفاصل بينها وبين جيزتها والأخرى إلى أشمون طناح ومصبه فى بحيرة تنيس، ونزل فيها بعساكره وبنى عليها سورًا على بحر النيل، عن بناء مدينة المنصورة زمن السلطان الكامل، انظر ابن واصل، ج4، ص33، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص122، حسنين ربيع، النظم المالية، ص70.

(5) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص129، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241 ـ 242، المقريزى، السلوك، ج1، ص207 ـ 208، أبو شامة، الروضتين، ص129، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص298، 300، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.

(6) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.

(7) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.

لازموا القتال سنوات طويلة وهم فى مواجهة الصليبيين[1] لكن على شرط أن يبعث إليه الصليبيون برهائن من ملوكهم[2] لا من أمرائهم، فأرسل الصليبيون عشرين من كبرائهم من بينهم الملك الصليبى «حنا دى برين» والمندوب البابوى «بلاجيوس»، فى حين بعث «الكامل» إليهم مقابل ذلك ابنه.«الصالح نجم الدين» ومعه جماعة من خواصه[3]، وأخيرًا تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى (19 رجب 618هـ / 7 سبتمبر 1221م).

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة للحصول على بيت المقدس وتوابعها من المدن والحصون مقابل الجلاء عن دمياط، فاضطروا إلى الجلاء أخيرًا دون مقابل[4].

فقد ذكر «ابن الأثير» فى ذلك «أن الله تعالى آتى المسلمين ظفرًا لم يكن فى حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها»[5].

الحملة الصليبية السادسة

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل وعقد هدنة بين الطرفين الصليبى والإسلامى، ولم تكن هذه آخر حملة وصلت إلى الشرق، فقد وصلت إلى الشرق حملة صليبية أخرى فى أواخر عهد الملك «الكامل» هى الحملة الصليبية السادسة[6]، والتى تميزت بطابع غريب[7]؛ لأنها كانت حملة ملعونة من البابوية[8] ولم تحظ بعطف البابوية مثل الحملات الصليبية السابقة أو اللاحقة، وتذكر معظم المصادر التاريخية أن الحملة الصليبية السادسة تميزت بسمة خاصة عن الحملات الصليبية التى خرجت من أوروبا، وهى تطفح بروح العداء[9] ضد المسلمين؛

---

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص940، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص147.

(2) سعيد عاشور،، المرجع السابق، الصفحة نفسها ، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص342، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص129 ـ 130، المقريزى، السلوك، ج1، ص208، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص300 ـ 301.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص148.

(5) ابن الأثير، الكامل، حوادث، ج9، 614هـ.

(6) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط1، 1998م، ص132.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص957،960.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص959.

(9) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.

لأن إمبراطور الحملة «فريدريك الثانى» نشأ فى صقلية مركز الحضارة الإسلامية فشب محبًّا للمسلمين وحضارتهم[1].

وأحداث هذه الحملة هى أنه فى 624هـ / 1227م، ساءت العلاقة بين الملك «المعظم عيسى» صاحب دمشق وبين أخويه الملك «الكامل» والملك «الأشرف موسى» فاستنجد «المعظم» بـ«جلال الدين خوارزم شاه»[2] سلطان الدولة الخوارزمية يستعين به على أخيه «الكامل»[3]، واتصل «الكامل» بالإمبراطور «فريدريك» ليستعين به ضد أخيه «المعظم عيسى» ووعده أن يتنازل له عن القدس وبعض مدن الساحل فوصل «فريدريك الثانى» إلى عكا 625هـ / 1228م[4]، واتفق وصول الإمبراطور «فريدريك» بعد وفاة الملك «المعظم عيسى» الذى توفى 624هـ / 1227م[5]، ولم يعد الملك «الكامل» فى حاجة إلى معونة الإمبراطور «فريدريك الثانى»[6]؛ لأن الظروف أصبحت فى صالحه، لكن الإمبراطور «فريدريك» كان قد استعطف الملك «الكامل» فى عقد الصلح حتى يعود إلى الغرب الأوروبى مرفوع الرأس، ويحقق النصر على البابا والكنيسة التى ناصبته العداء[7]، وعقدت بينهم معاهدة يافا[8] التى كانت من أغرب المعاهدات فى تاريخ العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين.

أهم شروط معاهدة يافا:

(1) أن يتم تسليم القدس على شرط أن تبقى خرابًا ولا يجدد سورها[9].

(2) أن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى

(1) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص152.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص222، رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص133.

(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص 228، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص194 ـ 195.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص690.

(6) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص141، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص965، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص153.

(7) شهد الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى نزاعًا حادًّا بين البابوية والإمبراطورية المقدسة، استمر من 1057م حتى 1250م تقريبًا، ومر بأدوار عديدة تخرج عن نطاق بحثنا، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص949 ـ 962.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص156.

(9) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 241، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص230، سعيد عاشور، ج2، ص967.

المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام المسلمين[1].

تم عقد اتفاقية يافا فى 627هـ/ 1229م، وبمقتضى تلك الاتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، كان من الطبيعى أن تثير هذه المعاهدة عوامل السخط على كل من الطرفين وخاصة المسلمين، فيذكر «ابن واصل» و«المقريزى»: «أنه لما تم تسليم القدس إلى الفرنج وقع فى أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين وأنكروا على الملك «الكامل» هذا الفعل، واستشنعوه منه، على حين قال الفرنج إن الإمبراطور «فريدريك» نزل إلى حد المفاوضة مع المسلمين بدلاً من محاربتهم»[2].

هكذا نجح «فريدريك الثانى» باتفاقه مع الملك «الكامل» فى تحقيق مكسب كبير للفرنج لم تستطع الحملات الصليبية الثالثة والرابعة والخامسة أن تحققه، باسترداد بيت المقدس دون عناء[3].

«الصالح أيوب» وتوحيد الدولة الأيوبية

لا شك أن وفاة السلطان «الكامل» 635هـ/ 1238م، كان سببًا فى تفكك الدولة الأيوبية، فقد دب النزاع بين أبناء البيت الأيوبى، الملك «العادل الثانى» الذى ولاه أمراء مصر السلطة حتى يكون خليفة لأبيه، وبين أخيه «الصالح نجم الدين أيوب» الذى كان موجودًا بالشام فى ذلك الوقت، وعظم عليه ذلك لأنه الأخ الأكبر[4]، وما لبث «الصالح أيوب» أن غادر الشام ليستولى على مصر، لكن «الناصر داود» صاحب الأردن والكرك عندما علم بخروج «الصالح أيوب» إلى مصر قبض عليه واعتقله، وبعد فترة وجيزة أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون بلاد الشام لـ«الناصر» وأن تكون مصر لـ«الصالح أيوب».

فى ذلك الوقت استاء كبار أمراء البيت الأيوبى من «العادل الثانى» لاشتغاله باللهو والفساد[5]، فكان منهم أن قبضوا عليه وعزلوه فى نهاية 637هـ/ 1240م، واستدعوا بدلاً منه «الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل»، الذى دخل القاهرة وأصبح سلطانًا على مصر

(1) ابن واصل، الجزء والصفحة أنفسهما، ج4، ص 241، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص230.

(2) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654، المقريزى، السلوك، ج1، ص230، ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 243، سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص242، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص156.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص158.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص304 ـ 305.

(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص294، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص54.

(637هـ / 1240م- 647هـ / 1249م[1])، وذكر «ابن واصل»: «أن الملك «الصالح نجم الدين أيوب» دخل قلعة الجبل، وفرح الناس بقدومه»[2].

تطورت الأحداث فى بلاد الشام بسبب النـزاع الذى اشتد بين أبناء البيت الأيوبى، خاصة بين «الصالح إسماعيل» و«الصالح أيوب» فى وقت كانت فيه الدولة الأيوبية فى حاجة إلى التعاون والاتحاد لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التى تتمثل فى:

(1) الوجود الصليبى، وحملة صليبية جديدة إلى الشام[3].

(2) تعرض بلاد الشام لغزو جموع الخوارزمية[4].

(3) اقتراب خطر المغول.

فى خضم هذه الأحداث المتلاطمة نجح «الناصر داود» فى الاستيلاء على بيت المقدس وإخراج الفرنج منه[5]، وذلك بعد وصول حملة صليبية جديدة على بلاد الشام 637هـ / 1239م.

تطورت الأحداث مرة أخرى عندما تولى «الصالح نجم الدين أيوب» السلطة فى مصر، فاستاء من ذلك «الصالح إسماعيل» صاحب دمشق، وفى هذا الوقت أرسل للصليبيين وطلب معاونتهم له ضد «الصالح أيوب» فى مصر، و«الناصر داود» فى الأردن، الذى وقف إلى جانب «الصالح أيوب»، وتعهد لهم بإعادة بيت المقدس إليهم[6]، بالإضافة إلى عسقلان[7] وطبرية، مما أثار عليه الرأى العام الإسلامى، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين الذين انسحبوا إلى عسقلان، وكانوا قد عقدوا صلحًا مع «الصالح أيوب» سلطان مصر 638هـ / 1240م. لكن ما لبث أن دب النـزاع مرة أخرى بين «الصالح أيوب» وعمه «الصالح إسماعيل» فى دمشق، فاستنجد «الصالح إسماعيل» بالفرنج وسانده «الناصر داود» صاحب الأردن، وما لبث «الصالح أيوب» هو الآخر أن استعان بالخوارزمية[8]، كان الأمر قد انتهى باقتحام الخوارزمية بيت المقدس فى 642هـ / 1244م واستولوا عليه. ثم دخلوا مع الصليبيين فى

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص319، 321.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص 266، ابن الأثير، الكامل، حوادث 637هـ.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص986.

(4) لمزيد من التفاصيل عن الخوارزميين انظر أسامة زكى زيد، الخوارزميون ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد30، 1982م.

(5) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص247، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص164.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص322، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص304 ـ 305.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص165.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

معركة حاسمة وانتصروا عليهم فى موقعة غزة 642 هـ / 1244 م، التى كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين (583 هـ / 1187م)، حتى أطلق عليها الأوروبيون «حطين الثانية»[1]، لكن نتيجة لسوء العلاقات بين الخوارزمية و«الصالح أيوب» لم يسمح لهم بالإقامة فى مصر وطردهم منها، واستطاع أن يقضى عليهم. ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبيين فتمكن من هزيمتهم واستولى على طبرية وعسقلان 645هـ / 1247م، فنجح فى استعادة الدولة الأيوبية ووحدتها[2] وأصبح سلطانًا على القاهرة ودمشق وبيت المقدس.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

من المؤكد أنه كان لاستيلاء المسلمين على بيت المقدس 624هـ / 1244م رد فعل قوى فى الغرب الأوروبى، فقامت البابوية بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة، لكن ظروف الغرب الأوروبى كانت تحول دون أن يلبى معظم ملوك وأمراء أوروبا تلك الدعوة.

فما لبث أن استجاب لها «لويس التاسع» ملك فرنسا الذى لقب بـ«القديس» نتيجة لتقواه وورعه، فأعد حملة صليبية كان معظمها من الفرنسيين، بارحت الحملة أوروبا لتصل إلى ميناء ليما سول فى قبرص فى 642هـ / 1248م[3]، ثم اتجهت من قبرص إلى مصر[4] ونزلت قريبًا من دمياط واستولت عليها دون مقاومة 647هـ / 1249م[5]. عندما علم «الصالح أيوب» بذلك أسرع بالمجىء من دمشق إلى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ولكنه توفى فى 647هـ / 1249م[6]، دون أن يقوم بالدفاع عن مصر ضد الصليبيين بعد أن ترك ولدًا لم يخلف غيره هو ابنه المعظم «توران شاه»[7].

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص999.
(2) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص168.
(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1007، السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص166.
(4) عبد الحميد العبادى، محمد مصطفى زيادة، إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، ط3، ص168.
(5) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.
(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص331، المقريزى، السلوك، ج1، ص333، الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص382، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص179، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1015، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص274.
(7) توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبو بكر الأمير نجم الدين أيوب، كان أبوه قد ولاه حصن كيفا فى الشرق، ثم كان يستدعيه فلا يجيبه، فلذلك كان يكرهه، ولذلك لم يوص إليه بالملك، مع أنه لم يخلف ولدا غيره، لمزيد من التفاصيل انظر العينى، بدر الدين محمود العينى، عقد الجمعان فى تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د/ محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب 19878م، ج1، ص23، انظر د/ محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ص280ـ 281.

«شجرة الدر» و«توران شاه» والصليبيون

استطاعت «شجرة الدر» زوجة «الصالح نجم الدين أيوب»[1] أن تسيطر على الموقف فأخفت نبأ وفاة زوجها «الصالح نجم الدين أيوب»، وعملت على تدبير أمور الدولة وشئونها وإصدار المراسيم إلى أن يصل المعظم «توران شاه»[2] فهو شاب مستهتر عديم الخبرة كان ينوب عن والده فى حصن كيفا[3] وديار بكر[4].

ورغم كل الاحتياطات والتكتم الشديد تسرب خبر وفاة السلطان لا إلى المصريين فحسب بل وصل إلى الصليبيين أيضًا[5]، لذلك رأى «لويس التاسع»[6] أن يسرع بالهجوم على مصر منتهزًا تلك الظروف السيئة التى أصبحت فيها البلاد[7]. لكن المماليك البحرية بقيادة «بيبرس البندقدارى» الذى أكثر «الصالح أيوب» من شرائهم أنقذوا الموقف وانقضوا على الصليبيين[8] فى دروب المنصورة وقتلوهم.

ثم وصل «توران شاه» إلى مصر ونزل فى قصر أبيه وبدأ محاربة الصليبيين، فأمر بتجهيز عدة سفن فى المنصورة ونقلها على الجمال وهى مفككة وأعاد تركيبها وشحنها بالمقاتلين والإمدادات لقطع طريق الإمدادات الصليبية القادمة من دمياط إلى موقع معسكرات الفرنج[9]، وحدث القتال بين الفريقين، واشتدت الضائقة بالفرنج لانقطاع الإمدادات عن دمياط[10]، واضطر الفرنج إلى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة، على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بيت المقدس عوضًا عنها فلم يلب أحد مطلبهم، واضطر «لويس» إلى التقهقر نحو

---

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1016.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص353، 357، سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص252، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص281.

(3) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص180، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1017.

(4) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص180، المقريزى، الخطط، ج2، ص236، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص256.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص131.

(6) انظر:
Villehardouim and de joinville, Memorise of the crusades, London, J.M Rent, sons LTD, New York, E.P. Dutton, co. 1Ne 1908, pp 135-140.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1020.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص353، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص134.

(10) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص181.

دمياط فطارده المسلمون حتى فارسكور[1]، وقضوا على جيشه، وأسر «لويس التاسع»[2] وسيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، حيث سجن فى دار ابن لقمان[3] كاتب الإنشاء «فخر الدين إبراهيم بن لقمان»[4] بالمنصورة، ولم يهتم المسلمون بأمر دمياط؛ لأنهم اعتقدوا أن استردادها أصبح أمرًا سهلاً مفروغًا منه، لذلك كان تركيزهم على الممتلكات الصليبية بالشام، لكن «لويس» أجاب أنه لا سلطان على الصليبيين بالشام، ورفض أن يعترف للمسلمين بأى حق فى الممتلكات الصليبية، قرر «توران شاه» طلب مبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسى[5] أو أن يكون تسليم دمياط ثمنًا لفداء الملك «لويس» نفسه، وقد وافق «لويس»، وأبرمت معاهدة بينه وبين «توران شاه» بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات، وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح[6]، وما لبث «توران شاه» أن قتل فى المحرم 648هـ / 1250م قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية مع الصليبيين[7]، وأهم ما ترتب على مقتل «توران شاه» فى تاريخ مصر والشرق الأدنى هو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية فى مصر والشام[8].

(1) لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016، 1020.

(2) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص254.

(3) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص181، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص303، الدواداری، كنز الدرر، ج7، ص384، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص135، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1024، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص85.

(4) العينى، عقد الجمعان، ج1، ص19.

(5) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1025.

(6) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1025.

(7) عزل الملك المعظم توران شاه جميع من كان بيده مقاليد الحكم من أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس وبموته انقرضت الدولة الأيوبية، انظر أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص181، العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج5، ص141، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص254 ـ 255، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص89.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1025.

■ الفصل الثانى

التحصينات الحربية بمصر فى العصر الأيوبى

مقدمة

استحوذت التحصينات الحربية بمصر على قلم الكثير من العلماء والباحثين، حيث حظيت القاهرة بالنصيب الأكبر من اهتماماتهم، فى حين استأثرت قلعة الجبل وأسوار «صلاح الدين» باهتمام كثير من الدراسات والبحوث من الناحيتين التاريخية والأثرية، فقد كانت الظروف السياسية والأخطار الخارجية التى أحاطت بالدولة الأيوبية هى العامل الأساسى فى تشييد كثير من العمائر الحربية خاصة فى مصر والشام، فشيدت القلاع والأبراج والأسوار، هذا بالإضافة إلى تشييدها داخل البلاد وعلى حدود مصر وفى الموانى كالإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما وأشتوم والبرلس وبلبيس والسويس وشبه جزيرة سيناء وغيرها[1]، هذا وقد اهتم المسلمون بأمور التحصينات الحربية على مر العصور الإسلامية، نظرًا لتعرض الأماكن الإسلامية فى مصر مثل دمياط وتنيس والفرما وغيرها من الأماكن الحساسة التى يمكن أن تتعرض لهجوم الروم، ولكن يبدو أن الإجراءات الدفاعية التى اتخذت فى ثغور مصر (دمياط، تنيس، الفرما وغيرها) كانت مؤقتة وليست دائمة، إذ كانت تقل العناية بها بمجرد زوال خطر الروم الذين هاجموا دمياط وتنيس أكثر من مرة، كان آخرها فى عام 357هـ/ 967م[2]، وتعد البداية الحقيقية لتحصين عواصم مصر الإسلامية هى فى العصر الفاطمى 358هـ/ 968م[3]، وعندما تولى «صلاح الدين» حكم البلاد، بدأت القاهرة تشهد مظاهر من الرقى والتقدم، وقد امتد حكم الأيوبيين لمصر ثمانين عامًا فقط، ورغم هذه المدة القصيرة، إلا أن القاهرة شهدت تطورًا معماريًا هائلاً فى المنشآت الحربية والمدنية على السواء[4].

(1) عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب جامعة جنوب الوادى بقنا، العدد الرابع 1995م، ص245.

(2) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37، المقريزى، الخطط، ج1، ص176، 182.

(3) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن فى العصور الإسلامية، الطبعة الأولى 1989م، ص93.

(4) أحمد فكرى، خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب، 1970م، ص163.

إلا أن أهم ما اشتهرت به فترة حكم الأيوبيين هى التحصينات الحربية[1] من قلاع حصينة وأسوار ذات أبراج مستديرة[2].

المقومات المعمارية فى التحصينات الحربية

فى بداية تناولى الحديث عن التحصينات الحربية لا بد من معرفة الفرق بين كلٍّ من الحصن والقلعة والبرج، نظرًا لأن معظم المراجع العربية لا تفرق من الناحية اللغوية أو المعمارية بين القلعة والحصن والبرج وقد حذت المراجع الأجنبية حذو المصادر العربية، فأطلقت على معظم العمائر الحربية لفظ Fortress أو Fort، ويندر أن تذكر كلمة Citadel على القلعة، وTowerعلى البرج أو Curtain أو Walls على الأسوار الحربية[3].

الحصن[4]

الحصن هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أى اعتداء من داخل البلاد أو خارجها، ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف فى العصور الوسطى باسم «الحصون»، مثال ذلك أسوار مدينة بغداد والقيروان والقاهرة وغيرها الكثير[5]. والحصن هو مركز الحكم التقليدى، مهما كانت قيمة الحاكم من القوة أو الضعف، وكان يحيط بهذا المقر المبانى التى تحصن المدن أو القرى، والتى يجب أن تتميز عن الأسوار العادية وذلك باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة القصد منها الحماية والتحصين والمراقبة، وهذه المبانى هى الأبراج والسقاطات والمراقب، التى يجب أن يتواجد

(1) سعاد ماهر محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، الطبعة الأولى، الناشر دار البيان العربى، 1985م، ص917، توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة العصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية، الجزء الثانى، يوليو 1969م، ص235ـ 236.

(2) عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، حسن الباشا وآخرون، ص230.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص819.

(4) حصُن المكان يحصن حصانة فهو حصين منيع والحصن كل موضع حصين لا يوصل إلى ما فى جوفه والجمع حصون، وحصن حصين من الحصانة، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج16، ص275.
وقيل إن الحصن نوعان، واحد يشكل بناء منفصلاً قائمًا بذاته يبنى على السواحل أو طرق القوافل أو فى المراكز العسكرية الحساسة المشرفة أو على حدود البلدان وثغورها، وآخر تابع لبناء سور أو خان أو قصر أو مدينة يسيطر على البوابات أو يحتل الأركان، انظر عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية 1408هـ/ 1988م، ص133.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص819.

فيها باستمرار حامية من العسكر والجند، بل كثيرًا ما يوجد بداخلها عدد كبير من المدنيين الذين يقومون بالخدمات العامة وخاصة داخل أسوار المدن[1].

القلعة[2]

هى استحكام حربى يبنى فى منطقة إستراتيجية، كالجبل أو التل أو الروابى الصخرية أو على سواحل البحار، ومهمة هذه المبانى قاصرة على المراقبة والدفاع ضد أى اعتداء خارجى، ومن ثم فهى بالضرورة لا بد أن تتكون من مجموعة من الأبراج والمراقب والمزاغل وما إلى ذلك من المبانى الحربية[3]، كما تمتاز القلعة بأن ساكنيها من الغسكر والجند فقط، ولم يقم المدنيون بها، وعلى ذلك نستطيع القول بأن الحصن يمكن أن يشتمل على قلعة أو أكثر ضمن مبانيه، أما القلعة فهى وحدة معمارية قائمة بذاتها، قد تكون منفصلة عن الحصن أو بداخله شريطة أن يكون الموقع المقامة عليه موقعًا إستراتيجيًّا[4].

البرج[5] Tower

هو عبارة عن بناء حربى مربع أو مستدير الشكل يبرز عن الجدار والأسوار، ويحتوى البرج على مساقط Machicoullis ومراقب Glacis ومزاغل Arrow - Slits لرمى السهام، ولذلك فإنه يتحتم أن تزود أسوار القلاع والحصون بعدد مناسب من الأبراج، ومن ثم فإن حجمها يكون عادة صغيرًا لتعددها[6]، فقد كانت الأبراج تقوم بدور رئيسى فى الدفاع[7]،

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، على مر العصور، ج2، ص820 ـ 821.

(2) القلعة صخرة عظيمة تتقلع عن الجبل، والقلعة الحصن الممتنع فى الجبل وجمعه قلاع، وهى بسكون اللام حصن مشرف وجمعه قلوع، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص164.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص821.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(5) البرج فى اللغة تباعد ما بين الحاجبين، وكل ظاهر مرتفع برج، وإنما قيل للبروج بروج لظهورها وبيانها وارتفاعها، والبروج هنا الحصون واحدها برج، وبروج سور المدينة، والحصن بيوت تبنى على السور، وبروج الحصن ركن والجمع بروج وأبراج، وقد تبنى الأبراج مستقلة كخطوط أمامية للمراقبة وإرسال الإشارات، انظر ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص211 ـ 212، (بيج) جون بيرتون، البرج فى العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبنانى، بيروت 1402هـ / 1981م، ص57، عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت 1408هـ / 1988م، ص79، محمد أمين، المصطلحات المعمارية، ص21.

(6) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص821.

(7) أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة سنة 1992م.

فهى من العناصر المعمارية المهمة[1] والتى تكون خارجة عن الأسوار الملتصقة بها وبارزة عنها ومتباعدة بعضها عن بعض بمسافات مقدرة بالنسبة إلى مرامى الأسلحة التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت[2].

الخندق

يعد الخندق من العناصر الدفاعية المهمة لأى قلعة أو حصن أو مدينة يتم تحصينها ضد الغزاة، فهو عبارة عن حفر عميق فى أرض سور حصن أو قلعة فى أسفل تكسيه مجسم الدروة، ويصنع من أجل زيادة ارتفاع هذا المجسم وحفظه من تسلق الأعداء[3].

التحصينات الحربية فى غضون الحملات الصليبية

مع مجيء الصليبيين إلى الشرق خاصة الحملة الصليبية الأولى 491هـ/ 1097م، كانت ظاهرة بناء القلاع والحصون فى غرب أوروبا أخذت تنمو وتتطور فى ظل النظام الإقطاعى حتى أطلق على ذلك العصر اسم «عصر القلاع»[4]، وقد شيد «بلدوين» أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (494هـ/ 1100م -511هـ/ 1117م)، قلعة حصينة فى أيلة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام، هذا بالإضافة إلى تشييد قلعة أخرى فى جزيرة «فرعون» أمام قلعة أيلة فى خليج العقبة، ولذلك تمكن من الإشراف على شبه جزيرة سيناء، ثم هاجم مصر[5]، وقد شهدت هذه المرحلة تقدمًا كبيرًا فى تشييد الحصون والقلاع فى الحروب الصليبية خاصة بعد سقوط بيت المقدس للمحافظة على المملكة اللاتينية[6].

هذا وقد هاجم الصليبيون مصر وغزوها عدة مرات، فقد كان لنشاطهم البحرى دور كبير فى البحر المتوسط، من هنا صار ولا بد من الاهتمام والعناية بالتحصينات الحربية

(1) أمل محفوظ جمعة، العمائر الحربية فى عصر محمد على بالقاهرة، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة 1999م، ص333.

(2) أمل محفوظ، العمائر الحربية، ص333.

(3) يوجد خندق أمام قلعة صلاح الدين الأيوبى وهو خندق اصطناعى قام بحفره عمال صلاح الدين الأيوبى، لمزيد من التفاصيل انظر أمل محفوظ أحمد جمعة، العمائر الحربية، ص342.

(4) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، القاهرة 1969م، ص51.

(5) عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية، ص252.

(6) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص66 ـ 67، سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس عشر 1969م، ص35 ـ 36.

والثغور المصرية، ففى عهد الخليفة «الآمر» الفاطمى (517هـ/ 1123م)، حدثت تجديدات فى سور الإسكندرية، بالإضافة إلى التجديدات التى حدثت فى عهد «الصالح طلائع» فى مدينة بلبيس 554هـ/1159م، وقد أورد «المقريزى» ما نصه «وفى سنة أربعة وخمسين وخمسمائة بنى الملك «الصالح طلائع بن رزيك» على بلبيس حصن من لبن»[1].

ونظرًا لقوة تحصين هذه المدينة وصمود «شيركوه» الذى تحصن بها فى خلال مهاجمة الصليبين لمصر، فقد صمدت المدينة ثلاثة شهور أمام حصار الصليبيين لها، حتى اضطر الصليبيون إلى فك الحصار والعودة إلى بلادهم[2].

سور القاهرة وأبوابها

تاريخ بناء سور القاهرة

ذكرنا سابقًا أن سبب حرص «صلاح الدين» على إقامة التحصينات الحربية القوية بمصر تخوفه من هجمات الشيعة الفاطميين[3] بمصر[4]، وقيل تخوفه من الصليبيين[5]، وقيل أيضًا تخوفه من شيعة الفاطميين والصليبيين معًا[6]، ويبدو بل من الواضح أن «صلاح الدين» كان يخشى مهاجمة الصليبيين للقاهرة بعد هجومهم عليها فى عام 564هـ/ 1168م، ومن المؤكد أن الصليبيين هاجموا القاهرة بعد أن تبينوا ضعف تحصيناتها الحربية[7].

فعندما تولى «صلاح الدين» الوزارة كانت أولى الحملات الصليبية على مصر فى وزارته عام (566هـ/ 1169م)، من هنا أسرع «صلاح الدين» بالاهتمام بالتحصينات الحربية بمصر، بعد أن أدرك صعوبة الدفاع عن القاهرة والفسطاط فى وقت واحد، أضف إلى ذلك أن

(1) عن بلبيس انظر، المقريزى، الخطط، ج2، ص183 ـ 184، مزيد من التفاصيل عن بلبيس انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج9، ص70– 75 (أن مادة البناء الرئيسية فى بلبيس سواء الحربية أو غيرها كانت من اللبن).

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص131 ـ 132، جمال الدين الشيال، المجمل فى تاريخ دمياط، ص216، 218.

(3) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص89، حسنى نويصر، دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة 1996م، ص9.

(4) المقريزى، الخطط، ج2، ص203، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص87، مجلة العمارة العدد 7، 8، المجلد الثانى 1940م، ص393.

(5) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص90.

(6) بول كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة وتقديم د/ أحمد دراج، مراجعة د/ جمال محرز، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974م، ص32، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص5.

(7) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص256.

«صلاح الدين» أدرك صعوبة تشييد سور لكل واحدة منهما؛ لأنه لو شيد لكل واحدة منهما سورًا مستقلًا[1] لاحتاجت كل منهما إلى قوات منفردة للدفاع عنها[2].

ذكر «المقريزى» فى كتابه «أنه فى عام 572هـ أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بذراع العمل، فتولى ذلك الأمير «بهاء الدين قراقوش الأسدى»، وشرع فى بناء القلعة، وحفر حول السور خندقًا عميقًا، وحفر واديه وضيق طريقه»[3]، هذا وقد ذكر «المقريزى» فى خططه «اعلم أن القاهرة مذ أسست عمل سورها ثلاث مرات، الأولى وضعه القائد «جوهر»، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش «بدر الجمالى» فى أيام الخليفة المستنصر، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى «بهاء الدين قراقوش الأسدى» فى سلطنة الملك «الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب» أول ملوك القاهرة»[4].

والسور الأول كان من لبن وضعه «جوهر» القائد فأدار السور، وسماه المنصورية إلى قدم «المعز لدين الله» من بلاد المغرب إلى مصر ونـزل بها فسماها القاهرة[5]، أما السور الثانى الذى بناه أمير الجيوش «بدر الجمالى» فى سنة ثمانين وأربعمائة وجعل السور من لبن، وأقام الأبواب من حجارة[6]، أما السور الثالث ابتدأ فى عمارته السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى سنة ستة وستين وخمسمائة فهو يومئذ على وزارة «العاضد لدين الله»، فلما كانت سنة تسعة وستين وقد استولى على المملكة انتدب لعمل السور الطواشى «بهاء الدين قراقوش الأسدى» فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن، وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة

(1) الشافعى، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى، الروضتين فى أخبار الدولتين، ج1، طبعة جديدة بمطبعة وادى النيل، القاهرة 1287م، ص268، عبد الرحمن زكى، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس – إبريل 1969م، ج2، مطبعة دار الكتب، 1971م، ص624 ـ 625.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص268، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص85 ـ 86.
هذا ويذكر الدكتور أسامة طلعت فى رسالته للماجستير أنه يمكن تحديد تاريخ صدور الأمر ببناء السور ليحيط بالقاهرة والفسطاط بالفترة ما بين 16 ربيع الأول سنة 572هـ / 23 سبتمبر 1176م – 22 شعبان 572هـ / 25 فبراير 1177م، لمزيد من التفاصيل انظر أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص42.
انظر Lane-pool(s), A history of Egypt in the Middle Age, London 1901, p195.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص63.

(4) المقريزى، الخطط، ج1، ص377.

(5) المقريزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(6) المقريزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

سورًا واحدًا فزاد فى سـور القـاهرة، أمـا عن الخندق الذى يحيط بسور القاهرة فقد انطم أثره[1].

وفى عام 577هـ/ 1181م شرع الأمير «بهاء الدين قراقوش» فى حفر خندق حول السور حتى لا يسهل مهاجمته من الخارج[2]، غير أن سور القاهرة لم يكتمـل بنـاؤه فـى عهد السلطان «صلاح الدين»، وكل ما اكتمل هو السور الشمالى والذى كان يبدأ من غرب باب الفتوح ويتجه حتى شاطئ النيل الشرقى عند حصن المقس ثم يتوجه جنوبًا ليدور حول الفسطاط[3].

ويعلق «أبو شامة» على عدم اكتمال بناء السور فى عهد السلطان «صلاح الدين» بقوله «وتـوفى السلطـان وقد تبقى من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة ووظائف نفقاتها مستدرة»، وهذا يعنى أن البناء استمر فى السور بعد وفاة السلطان «صلاح الدين»[4].

ويبدو أن عدم اكتمال بناء السور فى عهد «صلاح الدين» يرجع إلى أن الحروب التى خاضها السلطان «صلاح الدين» ضد الصليبيين قد استنـزفت أموالاً طائلة من ميزانية الدولة مما أخَّر عليه بناء بعض المنشآت[5]. وفى عام (596هـ/ 1199م) صدرت الأوامـر مـن الملـك «الأفضل على بن صلاح الدين» إلى الأمير «بهاء الدين قراقوش» بأن يكمل ما تبقى من سور القاهرة، حيث كان «الأفضل» يستعد فى القاهرة لمواجهة السلطان «العادل» الذى كان قد خرج من دمشق قاصدًا الديار المصرية للاستيلاء على الحكم[6]، غير أن بعض أمراء القاهرة تركوا الملك «الأفضل» وفتحوا أبواب القاهرة أمام السلطان «العادل» فدخل وسيطر على زمام الحكم فيها، وقد شرع السلطان «الكامل» فى إقامة سور حول القاهرة على أن يكون أساسه من الأحجار وباقيه من الطوب، غير أن هذا السور لم يرد فى كتابات المؤرخين مثل «أبى شامة» «والمقريزى» وغيرهما[7].

(1) المقريزى، المصدر السابق، الجزء نفسه، ص380.

(2) المقريزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص78.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص350، المقريزى، الخطط، ج1، ص380، الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد 1923م، ص230.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص688، عيد محمد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، دكتوراه، جمعة الزقازيق فرع بنها كلية الأداب 1993م، ص287

(5) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص291.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص181.

(7) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص292.

إن ما شرع فيه السلطان «الكامل» كان يتمثل فى إتمام السور الذى بدأه السلطان «صلاح الدين» على يد وزيره «بهاء الدين قراقوش» ومن الأسوار الأخرى التى بنيت فى العصر الأيوبى السور الذى أقامه الملك «الصالح نجم الدين أيوب» حول قلعة جزيرة الروضة، وكان محكم البناء[1].

وبنظرة عامة للعمارة الحربية فى القاهرة زمن الأيوبيين، نجد أن القاهرة كانت محصنة بشكل كامل فى تلك الفترة من خلال أسوارها وقلعتها وأبوابها المتبقية من العصر الفاطمى[2].

حدود أسوار «صلاح الدين»[3]

لا تزال أجزاء كبيرة باقية من أسوار «صلاح الدين» على الرغم مما تعرضت له هذه الأسوار من إزالة وتخريبات، وتشبه الأجزاء الباقية من السور الآن فى تخطيطها العام مثلثًا قاعدته فى الشمال ورأسه فى الجنوب، وبضلعه الشرقى قلعة الجبل، فالسور من الجهة الشمالية أولاً يقع فيه باب الفتوح حتى ينتهى عند برج المقس (باب الحديد أو ميدان رمسيس)[4]، ومن الشرق باب النصر حتى ينتهى عند برج الظفر فى الركن الشمالى؛ أما السور الشرقى فيبدأ من باب الظفر فى الشمال ويمتد جنوبًا حتى ينقطع عند منطقة باب الوزير وكان يتقدمه خندق كبير وعميق.

السور الجنوبى ويبدأ من قلعة الجبل، وبدايته حاليًّا من ميدان السيدة عائشة، ويمتد جنوبًا حتى يخترق تلال عين الصيرة وحفائر الفسطاط، وينتهى عند باب القنطرة على النيل.

أما عن السور الغربى فقد أراد «بهاء الدين قراقوش» أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة، ولكن وفاة «صلاح الدين» حالت دون ذلك[5].

هذا وتحتوى أسوار «صلاح الدين» هذه على مجموعة من الأبراج والأبواب[6] اتخذت من

(1) عبد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص292.

(2) حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص8، سعاد ماهر وآخرون، القاهرة فى ألف عام، ص36.

(3) عن أسوار صلاح الدين انظر أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص199، 218.

(4) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص29 ـ 30.

(5) آمال العمرى، على الطايش، المرجع السابق، ص30.

(6) عن الأبراج والأبواب انظر أيضًا أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين.

الحجر، ويتكون كل برج من طابقين وسطح علوى مكشوف محاطة حافته، والسور أيضًا بمجموعة من الشرفات، واحتوت هذه الأبراج والأبواب على عناصر معمارية مختلفة، فهى فى تخطيطها العام المعمارى تكون مثمنة المسقط ومغطاة بقبة حجرية وفتح بكل ضلع من أضلاع المثمن دخلة معقودة مقبية، وبكل منه فتحة مزغل (برج الظفر، وبرج درب المحروق)[1]، أو قاعدة متعامدة غطت المساحة المربعة الوسطى (الدرقاعة)، إما بقبة حجرية (أول برج غرب الظفر، وأول برج جنوب الظفر، وأول برج جنوب الباب الجديد) أو بقبو متقاطع (برج الزاوية، وأول برج شرق باب النصر، وثانى برج جنوب الباب الجديد، وباب المحروق)، هذا ويتعامد على المساحة الوسطى المربعة (الدرقاعة) ثلاثة أذرع (حجرات رماية) بكل منها فتحة مزغل، وغطت هذه الأذرع إما بأقبية طولية (أول برج غرب برج الظفر، برج درب المحروق، برج الظفر، أول برج جنوب برج الظفر، والباب الجديد، وأول برج جنوب الباب الجديد) أو بقباب ضحلة (الطابق العلوى لأول برج جنوب برج الظفر).

أما الأبواب، (الباب الجديد، والباب المحروق، وباب القرافة) فتميزت بأنها ذات مداخل منكسرة، كما انفرد الباب الجديد بظهور عنصر معمارى حربى جديد وهو القنطرة المتحركة التى تصل بين الباب وضفة الخندق الذى يتقدمه بحيث ترفع عند التهديد بالهجوم، وتعتبر هذه القنطرة أقدم مثل إسلامى، كما كان يغلق على هذا الباب أيضًا متاريس حديدية، وهى عبارة عن قضبان حديدية قوية تنتهى من أسفلها بسنان حادة الحراب، وتنـزلق بثقلها الكبير رأسيًّا لتسد فتحة الباب عند الضرورة، بالإضافة إلى السقاطات التى توجد فى المساحة المحصورة بين امتداد فتحة الباب والدخلة المعقودة.

بالإضافة إلى هذه العناصر المعمارية ذات الصفة الحربية السابقة، وجدت أيضًا عناصر أخرى مثل الخندق الذى يتقدم السور الشرقى، والأبواب السرية التى تقع على جانبى كل من برج الظفر وبرج درب المحروق، والهدف منها هو أن يخرج الجنود منها لشن هجمات مضادة على الأعداء عند تعرض القلاع والأسوار للحصار[2].

«ابن تغرى بردى» يتحدث عن سور القاهرة

ذكر «ابن تغرى بردى» فقال تحدث «المقريزى» فى خططه على ذكر سور القاهرة فقال إن

(1) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص42.

(2) لمزيد من التفاصيل، انظر آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص42 ـ 43، أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص199، 235.

السور الثالث ابتدأ فى عمارته السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى عام (566هـ / 1170م)، وهو يومئذ على وزارة «العاضد لدين الله»، فلما كانت (569هـ / 1173م)، وهو سلطان مصر انتدب لعمل السور «الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى» فبناه بالحجارة وقصد أن يجعل على القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر، وبنا قلعة المقس وعندها انقطع السور وكان فى أمله مد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة)، وزاد فى السور (سور القاهرة) قطعة مما يلى باب النصر إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة، وكذلك لم يتهيأ له أن يصل إلى سور قلعة الجبل بسور مصر (مصر القديمة).

وأقول ـ أى «المقريزى» ـ «إن السور الذى أنشأه «صلاح الدين» حول مدينة القاهرة لا تزال بعض أجزائه قائمة إلى اليوم فى الجهات الآتى بيانها:

أولاً: فى المسافة بين باب الشعرية (باب العدوى) وبين باب البحر (ميدان باب الحديد)، توجد أجزاء قائمة من السور البحرى وسط المبانى المشرفة من الجهة البحرية على شوارع بين الحارات والشنبكى والطبلة.

ثانيًا: يمتد بناء السور البحرى من شارع الأمير «فاروق» تجاه حارة المسطاحى متجهًا إلى الشرق حتى يتقابل مع باب الفتوح ثم باب النصر، وبعد هذا الباب يتجه السور أيضًا إلى الشرق فى مسافة طولها 300متر، وينقطع فى نهاية تلك المسافة عند شارع برج الظفر.

ثالثًا: جزء من السور الشرقى يبدأ من برج الظفر، ويسير إلى الجنوب 400متر، ثم ينقطع تجاه شارع الفواطم بقسم الجمالية.

رابعًا: جزء من السور الشرقى قائم فى المسافة من درب المحروق إلى قرب تربة الأمير «طراباى الشريف» التى بباب الوزير الخارجى.

خامسًا: جزء من السور الشرقى قائم بين مكان الخانقاة النظامية، وبين جامع السبع سلاطين إلى أن يتصل بسور القلعة».

أما عن سور مدينة مصر الآن (الفسطاط) فلم يبق منه إلا بعض أجزاء متقطعة تبدأ من مجرى العيون (عند انعطافها نحو الشرق إلى القلعة) ثم تتجه نحو الجنوب شرقى تلول عين الصيرة وشرقى الموقع القديم لمدينة الفسطاط ثم تميل إلى الغرب، حيث تنقطع أجزاء من السور فى الجنوب الشرقى لقصر الشمع تجاه كوم غراب[1] بمصر القديمة.

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص176 ـ 177، هامش 7.

أبواب القاهرة

للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من جوانبها الأربعة بابان، ففى الجنوب باب زويلة[1] وباب الفرج، وباب النصر، وباب الفتوح، أما من الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها الجبل فيوجد بها بابان هما باب القراطين (الباب المحروق)، وباب البرقية، أما من الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك باب السعادة[2]، وباب القنطرة[3].

قلعة «صلاح الدين» بالقاهرة (قلعة الجبل)

تعددت الآراء واختلفت حول أسباب بناء قلعة الجبل بالقاهرة، ومن أهم تلك الآراء والأسباب ما يلى:

أولاً: يُرجع البعض السبب الحقيقى فى بناء تلك القلعة إلى نشأة «صلاح الدين» وسط البيت الزنكى[4]، فقد كان ملهمًا ومسترشدًا بما شهده منذ حداثته فى سوريا، حيث استقر

(1) أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم، وتسميه العامة «بوابة المتولى»، حيث كان يجلس فى مدخله متولى الحسبة (القاهرة)، عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية، ص19.

(2) هو أول أبواب السور الغربى وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله، وأحد قواده لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نـزل بالجيزة وخرج «جوهر» إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة، عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية، ص19.

(3) كان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية، وقد عرف بذلك الاسم لأن «جوهر الصقلى» بنى قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقص عند مسيرة القرامطة إلى سنة 365هـ / 975م، وتسمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية، لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية، ص19، يمكن معرفة مزيد من التفاصيل عن أبواب القاهرة انظر د/ مصطفى عبد الله شيحة، الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى وحتى نهاية العصر الأيوبى، كلية الآثار جامعة القاهرة، ص89، 95، انظر د/ آمال العمرى ود/ على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص15، 26.

(4) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية (العصر الفاطمى والأيوبى)، القاهرة 1996م، ص44. انظر أيضًا:

Casanova, P., Histoie et description de la citadelle du caier, Mmaf VI (1891-1892), pp 509-781.

نقله إلى العربية أحمد دراج وراجعه جمال محمد محرز، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب سنة 1974م. انظر أيضًا:

Creswell, K.A.C., Archeolagical researches at citadel of cairo, Bifao(23) XXIII, (1924), pp 89-158.

Creswell, K.A.C., The Muslim Architecture of Egypt, Ayybids and early Bahrit Mamluks 1171-1326, Oxford 1959, p1-40.

الصليبيون بعيدين عن أوطانهم الأولى فأحاطوا كل مدينة ذات أهمية بسور خارجى، وبنوا داخله قلعة تأويهم وجنودهم وأهلهم إذا هددتهم ثورة داخلية فى المدينة، أو طرأ عليهم غزو خارجى يتمثل فى الخطر الصليبى[1]، هذا فضلاً عما شهده من قلاع حمص وحماة وحلب وقلاع الإسماعيلية[2].

هذا بالإضافة إلى أن التجارب دلت أكثر من مرة على ما تقوم به القلاع من دور حاسم وفاصل فى المعارك الحربية، حين تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة[3] حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعوا عنها الحصار[4].

ثانيًا: كانت القلعة جزءا من المشروع الكبير لـ «صلاح الدين»، وهذا المشروع يهدف إلى إحاطة مصر والقاهرة بسور لتحصين القاهرة ضد أى غزو خارجى متوقع من الصليبيين، أو من منافسيه[5]، سيده «نور الدين محمود بن زنكى» سلطان الشام[6] أو غيره.

ثالثًا: بنى «صلاح الدين» هذه القلعة لتكون مقرا ومركزا للجنود، وخزن السلاح، والتدريب على القتال، وهو الغرض الأساسى من بناء القلاع[7].

رابعًا: تتجه بعض الآراء الأخرى إلى أن سبب البناء يرجع لرغبة السلطان «صلاح الدين» فى اتخاذ القلعة مقرًا للإدارة والسكن بعيدًا عن قصور الفاطميين التى ترمز للشيعة، وما كان يصاحبهم من فساد فى الحكم؛ لأن القلعة كانت تشتمل على قسمين رئيسيين أحدهما على هيئة حصن فى شمال القلعة، والآخر للسكن فى جنوبها[8].

---

(1) عيد محمد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص287.

(2) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص89، نفس الكلام عند عبد الرحمن زكى، قلعة مصر فى عهد صلاح الدين إلى عهد فاروق الأول، ص4، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الطبعة الأولى، القاهرة 1997م، ص29.

(3) أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص29.

(4) حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص9، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص87، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، سلسلة الألف الكتاب الثانى 1969م، ص81، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص29، عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها أثرها، حسن الباشا وآخرون، ص481.

(5) آمال العمرى، على الطايش، المرجع السابق، ص44.

(6) المقريزى، الخطط، ج2، ص203، لمزيد من التفاصيل عن قلعة الجبل انظر جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد سيد، الناشر مطبعة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ / 1988م، ص227، 237.

(7) آمال العمرى، على الطايش، المرجع السابق، ص44.

(8) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص287، عن هذا السبب انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22.

الموقع

اختار «صلاح الدين» لبناء القلعة موقعًا متميزًا على نشز عال[1] من جبل المقطم[2]، أى أن القلعة بنيت على إحدى الهضاب العالية التى على امتداد الجهة الشرقية من القاهرة، ويفصل بينها وبين جبل المقطم حاليًا شارع صلاح سالم[3]. وفى ذلك يذكر «المقريزى»: «وأنشأ السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» قلعة الجبل على رأس الشرف المطل على القلعة[4]، وكان موضع القلعة قبل ذلك يشغله بناء يعرف بـ«قبة الهواء»[5]، وأسفله ميدان «أحمد بن طولون»[6] الذى كان يضم قبل بناء القلعة عددًا من الأبنية السكنية، والمساجد الصغيرة[7].

وبوجه عام، فإن القلعة كانت تشرف على ميدان «صلاح الدين» بالقاهرة[8] من الجهة الجنوبية، بينما كانت الفسطاط والقرافة تقع فى الجانب الجنوبى الغربى من القلعة، ويقع جبل المقطم فى الناحية الشرقية[9]، أما النيل فيقع فى الجهة الغربية منها.

اختلاف الآراء حول موقع القلعة

اختلفت الآراء حول اختيار «صلاح الدين» لموقع قلعة الجبل، فبعض الآراء ترى أن

---

(1) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، حققه د/ أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ص79، جرجس فام ميخائيل، مملكة بيت المقدس، ص40، حسنى نويصر، ص 9.

(2) تطل قلعة الجبل على ميدان صلاح الدين وقد عرف بميدان الرميلة السلطانى أو ميدان القلعة، وسمى أيضًا قره ميدان أى الميدان الأسود، وكان فى الجزء الشمالى من سوق الخيل تجاه مدرسة السلطان حسن وتعرف الرميلة اليوم بالمنشية، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج2، ص204، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص63، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار، المقدمة.

(3) آمال العمرى، على الطايش، المرجع السابق، ص45، عن قلعة الجبل، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص368 ص374، المقريزى، الخطط، ج2، ص201، 232، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص54، حاشية1.

(4) المقريزى، الخطط، ج1، ص124، ج2، ص204.

(5) المقريزى، الخطط، ج2، ص202، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار، ص32، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص1، سعاد ماهر وآخرون، القاهرة فى ألف عام، ص19.

(6) ميدان أحمد بن طولون أقامه الأمير أحمد بن طولون وخصصه للعبة الصوالجة، وقد كان للميدان الطولونى شهرة القصر الطولونى، لمزيد من التفاصيل انظر عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص286.

(7) المقريزى، الخطط، ج2، ص201.

(8) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص53 ـ 54، حاشية 1.

(9) المقريزى، الخطط، ج2، ص201.

السلطان «صلاح الدين» اختار مكانًا مرتفعًا للقلعة لا يقل عن 250 قدمًا، وهو اختيار يتوافق مع الطابع العسكرى للقلعة الذى وفر الحماية والأمن للبناء، ومما هو جدير بالملاحظة أن «صلاح الدين» وفق فى اختيار الموقع الذى بنيت عليه القلعة[1]. ويرى فريق آخر أن اختيار مكان القلعة لم يكن موفقًا؛ لأن جبل المقطم كان يشرف على القلعة من ناحية الشرق، الأمر الذى يجعل مهاجمة القلعة من هذه الجهة أمرًا ميسورًا[2]، ولكن هذا الرأى لم يأخذ فى اعتباره أن الوصول للمنحدرات الصخرية التى كانت شرق القلعة لم يكن سهلاً فى تلك الفترات[3]. وورد قول آخر إن اختيار «صلاح الدين» لموقع القلعة كان اختيارًا صحيحًا بدليل أن القلعة اتخذت بعد ذلك مكانًا للإدارة والحكم ليس فى العصر الأيوبى فحسب، بل فى العصور التالية، وهذا ما يؤكد حكمة «صلاح الدين» فى اختيار المكان الذى بنيت عليه القلعة[4].

هذا ويمكن القول بلا شك إن «صلاح الدين» وفق تمامًا فى اختيار مكان القلعة، إذ أنها بوضعها الحالى المرتفع حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافًا تامًّا، بحيث كانت حاميتها تستطيع أن تقوم بعمليتين حربيتين فى وقت واحد، هما إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها عن طاعة السلطان، ومقاومة ما عساه أن يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة، ولذا لا يمكن الاعتراض على «صلاح الدين» بأنه أساء اختيار مكان القلعة لتسلط المقطم عليها، إذ فى الواقع لم تكن هناك أسلحة معروفة فى هذا الوقت قادرة على قذف شحناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما أن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم فى قيظ الحر وصعوبة توفر الماء فى هذا المكان، وإذا افترضنا نجاح المهاجمين فى الاقتراب من أسوار القلعة فإن الخندق حولها كان يمنع من اقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقمة المقطم لا تيسر للمهاجمين أن يقوموا بحركات تكتيكية بشىء من الحرية[5].

والواقع أن قلعة القاهرة تعتبر ظاهرة غير عادية فى أسوار القلاع؛ لأننا لا نلاحظ لها سورًا كاملا يضمها بأبراجه واستحكاماته الحربية البارزة، والدليل على ذلك ما ذكره «المقريزى»

(1) عبد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص286، القاهرة فى ألف عام، ص19 ـ 20.
(2) كريزول، وصف قلعة الجبل، ترجمة جمال محرز وعبد الرحمن زكى، ص18 ـ 19.
(3) عبد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص287.
(4) عبد محمد على أبو زيد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(5) عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، ص481.

قائلاً «وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر، بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج الغلال»[1]، ويُدخل إلى القلعة من بابين أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له «الباب المدرج»، والباب الثانى باب القرافة[2].

تخطيط القلعة

تتكون قلعة «صلاح الدين الأيوبى» (قلعة الجبل) من قسمين مستقلين: القسم الشمالى الشرقى، وهو مستطيل غير منتظم الشكل (القسم الحربى)، ويبلغ طول ضلعه من الشرق إلى الغرب 650 مترًا تقريبا، ومن الشمال إلى الجنوب 317 مترًا تقريبًا، ويتعامد على هذا القسم (القسم الجنوبى الغربى)، وهو المقر السكنى (المدنى)، ويفصل بين القسمين حائط سميك يتوسطه برجان مستديران بينهما باب هو باب القلة، ويطلق على القسمين معًا اسم «القلعة»[3]، ولا شك أن تخطيط القلعة تطلب هندسة معمارية دقيقة أثبت فيها مهندسو القلعة القدرة الإسلامية الفائقة فى الهندسة المعمارية، هذا وقد ساعدهم على ذلك موقع القلعة فوق جبل المقطم[4].

وقد بنيت القلعة على مساحة شاسعة، وأحيطت بعدد من الأبراج التى وزعت على ثلاث جهات من القلعة، تتمثل فى الجهة الجنوبية التى اشتملت على ثمانية أبراج[5]، والجهة الشرقية

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص204.
(2) المقريزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.
(3) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص49.
(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق1، ص687.
(5) وهم على التوالى:
1) برج المقطم (أسطوانى).
2) برج الصفة (مستطيل).
3) برج العلوة (نصف دائرى).
4) برج الكركيليان (مربع).
5) برج غير مسمى (نصف دائرى).
6) برج الطرفة (مربع).
7) برج باب المطار (نصف دائرى).
8) برج المبلط (ثلاثة أرباع دائرة).

التى اشتملت على أربعة أبراج[1]، والجهة الشمالية التى اشتملت على خمسة أبراج[2]، أما الجهة الغربية فلم يكن بها أية أبراج، هذا وقد كان الباب الرئيسى للقلعة يُعرف بـ«الباب المدرج»[3].

هذا ويمكن القول إنه لتأمين القلعة من الناحية الشرقية قام السلطان «صلاح الدين» بحفر بهو أو خندق بين جبل المقطم وسور القلعة لمنع الأعداء من السيطرة على هذا الجانب، كما كانت مداخل القلعة منكسرة من أجل زيادة حصانة أبنيتها[4]، هذا وقد تم بناء القسم الأكبر من القلعة عام (579هـ/ 1183م). على يد «بهاء الدين قراقوش»[5]، وقد استخدم حجارة بعض الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة، كما أنه هدم المساجد وأزال القبور،

(1) ذكرت الدكتورة آمال العمرى والدكتور على الطايش فى كتابها العمارة فى مصر الإسلامية أنها ستة أبراج اثنان منها غير مسميان فتبدأ هذه الأبراج بـ:
1) برج المبلط الذى يشغله ناحية القلعة ويطل على الجهتين الجنوبية والشرقية.
2) برج الكوثر (نصف دائرى).
3) برج غير مسمى (نصف دائرى).
4) برج الأمام أو القرافة (نصف دائرى).
5) برج غير مسمى (نصف دائرى).
6) برج الرملة (ثلاثة أرباع دائرى).

(2) وهم:
1) برج الحداد (ثلاثة أرباع دائرة).
2) برج غير مسمى (نصف دائرى).
3) برج الصحراء (ثلاثة أرباع من الخارج ومستطيل من الداخل).
4) برج غير مسمى (نصف دائرى).
5) البرج المربع (مربع).
أما عن وصف هذه الأبراج وتخطيطها المعمارى انظر آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص50، 64.

(3) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص288، سمي الباب المدرج بهذا الاسم اشتقاقًا من درجاته المنحوتة فى الصخر ويعرف أيضًا بباب الدرفيل، كما عرف قديمًا بباب سارية الجبل الموجود إلى اليوم بداخل القلعة، لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، ص483.

(4) عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص5.

(5) أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص29، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22.

واستخدم أحجارها فى عملية البناء[1]، وظل العمل مستمرًا فى البناء حتى توفى «صلاح الدين» عام 589هـ/ 1193م[2].

هذا وينسب إلى «صلاح الدين» بناء الأبراج النصف دائرية بالقسم الشمالى الشرقى (الحربى) للقلعة، وهى بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية، بالإضافة إلى السور الذى يربط بينهما، كما يشير إليها النص التأسيسى الذى وجد على لوحة رخامية أعلى الباب المدرج، هذا وقد قيل إن السلطان «صلاح الدين» بنى دارًا له فى القلعة، وذكر «المقريزى» ذلك، وأضاف أن السلطان «صلاح الدين» كان يقيم بها بعض الأيام، وسكنها الملك «العزيز» فى أيام أبيه ثم انتقل إلى دار الوزارة[3].

الأعمال المعمارية فى عهد «الكامل»

عندما تولى الملك «الكامل» الأيوبى[4] الحكم أكمل بناء القلعة 604هـ/ 1207م[5]، وتحول إليها من دار الوزارة الفاطمية[6]، يمكن القول إن الأعمال المعمارية التى تمت فى عهد السلطان «الكامل» هى استراحة الأمراء التى كانت تقع بين باب القرافة والباب المدرج، وهى عبارة

(1) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص47، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص29، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22، أبو الحمد محمود فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، القاهرة 1409هـ/ 1989م، ص90.

(2) قام بأعمال النحت والبناء أسرى الفرنج الذين وقعوا فى يد صلاح الدين فى المعارك التى دارت بينه وبين الصليبيين، انظر عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية ص26، عبد الرحمن زكى، المجلة التاريخية، المجلد السابع، ص115.

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص203، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص85.

(4) حكم السلطان الكامل مصر من سنة 596هـ/ 1199م — 615هـ/ 1218م باسم السلطان العادل ثم من سنة 615هـ/ 1218م — 635هـ/ 1238م باسمه الشخصى، انظر آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص48.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص53 ـ 54، حاشية 1، المقريزى، الخطط، ج2، ص201، حسنين ربيع، النظم المالية، ص69، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، القاهرة 1950م، ص3، 8، عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية، ص27، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص29، سعاد ماهر، القاهرة فى ألف عام، ص19.

(6) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص48، جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله إلى العربية أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ/ 1988م، ص29 ـ 30، انظر أيضًا المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص169.

عن دركاة كان يجلس عليها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول على السلطان[1]، وإيوان القلعة[2]، والميدان السلطانى، وقاعة الصاحب، والإسطبل السلطانى[3]، وجامع القلعة، وأضيفت إلى القلعة أبواب أخرى، بالإضافة إلى الباب المدرج وهو باب القرافة وباب السر وغيرهما[4]، ويلاحظ أن هذه الأعمال قد تمت أثناء نيابة الملك «الكامل» عن أبيه فى حكم مصر[5]، وقد أحاط الملك «الكامل» القلعة بسور أقل ارتفاعًا من سورها الأول ثم أعدها للحكم عام 604هـ/ 1207م[6]، وكان الملك «الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب» هو أول من سكنها[7].

هذا بالإضافة إلى الأبراج الثلاثة الكبيرة التى تقع فى الجانب القبلى (الجهة الجنوبية) وهى برج الصفة، برج كركليان، برج الطرفة، والجزء الداخلى ببرج الصحراء بالجهة الشمالية والزيادة التى أضيفت لباب القرافة، هذا بالإضافة إلى الجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته، والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور[8]، وفى عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب» بنى القاعة الصالحية بالقلعة إلى أن احترقت 648هـ/ 1250م[9].

وبصفة عامة يمكن القول إن حركة العمران التى شهدتها القلعة طوال العصر الأيوبى قد أدت إلى زيادة حركة العمران فى المناطق المجاورة للقلعة[10].

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص204ـ 205.

(2) المقريزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسها.

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص204ـ 205.

(4) كريزول، وصف قلعة الجبل، ترجمة جمال محرز وعبد الرحمن زكى، ص89، حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، كلية الآثار جامعة القاهرة، ص9.

(5) المقريزى، الخطط، ج2، ص203، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص202، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص688.

(6) المقريزى، الخطط، ج2، ص212، 220، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية، ص129.

(7) القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص368، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص167، 169، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ص29، 41، أحمد فكرى، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس – إبريل 1969م)، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب 1970م، ص163.

(8) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص151.

(9) المقريزى، الخطط، ج2، ص236.

(10) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص289.

الباقى من قلعة الجبل

لم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بأبراجها وبعض الأبواب، وأهمها الباب المدرج إلى جانب كونه المدخل الرئيسى للقلعة فهو يحتوى على اللوحة التأسيسية لبناء القلعة فى عهد «صلاح الدين»، وتوجد هذه اللوحة بأعلى واجهة عقد الدهليز الموصل من الدركاة، وهى مكتوبة بالحفر البارز بالخط النسخى الأيوبى، ونصها «أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهر (الحرف الأخير غير موجود) بالعرمة (؟) التى جمعت نفعًا وتحصينًا (أو تحسينًا) وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينات (أو تحصينا) مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين «أبى المظفر يوسف بن أيوب» محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك «العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل» أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته «قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى» فى سنة تسعة وسبعين وخمسمائة»[1].

بئر القلعة

البئر المعروف بالحلزون الموجود بالقلعة من عمل «بهاء الدين قراقوش»، الذى حفر بئر ماء عميقة فى باطن الصخر وتقع حاليًّا خلف جامع «الناصر محمد» وتتكون من طابقين، العلوى عمقه 50 مترًا والسفلى 40 مترًا، تستخرج المياه منها[2]، قيل إن هذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها وتدور البقر فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ولها طريق إلى الماء ينـزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك حجر منحوت، ليس فيه بناء وقيل إن أرضها مسامته أرض بركة الفيل وماؤها كان عذبًا[3] فى أول الأمر، فلما أراد «قراقوش» تعميقها تداخلت معها عين مالحة أفسدت عذوبتها[4]، وهذه البئر وجدت فى

---

(1) حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص24، مجلة العمارة، العدد 7، 8، المجلد الثانى، ص 394، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، 969هـ/ 1969م، ص82.

(2) آمال العمرى، على الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص47 ـ 48.

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص204، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22، حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص25، أبو الحمد فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، ص91 ـ 92، حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1420هـ / 1999م، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع.

(4) حسنى نويصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص25.

القلعة حتى إذا حدث للقلعة حصار من عدو فى وقت ما وجد الماء فى داخل القلعة وأخذ منه المسلمون ما احتاجوا منه.

ملخص أعمال البناء فى القلعة عبر العصور

بنيت القلعة فى العصر الأيوبى بنوعين من الأحجار

أولهما:

مصقول الوجه وهو النوع الذى يرجع إلى فترة حكم «صلاح الدين الأيوبى»، وقد بنيت بهذه الأحجار جميع الأبراج النصف دائرية بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية بالإضافة إلى السور الذى يربط بينها، وقد تمت هذه الأعمال حتى 579هـ/ 1183م.

ثانيهما:

حجر مسنم السطح ويرجع إلى فترة حكم السلطان «العادل» الذى ينسب إليه برج الصفة وبرج كركليان وبرج الطرفة، والزيادة التى أضيفت إلى باب القرافة وبرج الرملة وبرج الحداد والبرج الكبير الذى لم يبق منه سوى قاعدته والبرج المربع فى الركن الشمالى الغربى، وكل هذا فى (604هـ/ 1207م)[1]، وغيرها من الزيادات والإضافات كما سبق أن ذكرنا، وهذه الأحجار بعضها مسنمة والبعض الآخر منها مصقول.

ومما يجب الإشارة إليه أن الأبراج التى بنيت فى عصر «صلاح الدين» كانت معظمها على شكل نصف مستدير، إذ كانت كبيرة وشبه مستديرة وصغيرة، أما التى أقيمت فى عهد الملك «العادل» فكانت مربعة القاعدة وتحتوى على ثلاثة طوابق، اثنان مسقوفان والثالث مكشوف، ولما كانت الأبراج المربعة كبيرة المساحة، لذلك فإن فتحات رمى السهام أكثر منها فى الأبراج المستديرة[2].

أبواب قلعة «صلاح الدين»

يحدثنا المؤرخ «المقريزى» عن أبواب قلعة «صلاح الدين»، فللقلعة بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج وبداخله يجلس والى القلعة، والباب الثانى باب القرافة، وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت، وبجانبها القبلى سوق للمأكل

(1) أسامة طلعت أسوار صلاح الدين، ص 208 كريزويل، وصف قلعة الجبل، ص100، عبد الرحمن زكى، العمارة العسكرية، ص 116 ـ 117.
(2) محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، ص108.

ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، وفى وسط الدركاة باب القلعة ويدخل منه فى دهليز فسيح يؤدى إلى الجامع الذى تقام به الجمعة ويمشى من دهليز باب القلعة فى مداخل أبواب رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب وإقامة دار العدل، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ويمر منها إلى باب القصر الأبلق، ومن بدء باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الخدمة الدائمة بالقصر، وكان بجانب هذه الرحبة محاذيًا لباب القصر خزانة القصر[1].

أسلوب الدفاع فى السور وسور القلعة

يمكن القول إن أسلوب الدفاع كان يقوم على أساس استخدام الأبراج وحجرات الرماية الملحقة بها وحجرات الرماية المستقلة والممشى العلوى للسور، وإذا ما تمكن العدو المهاجم من تسلق السور والسيطرة على الممشى العلوى، فإنه يمكن انسحاب المدافعين إلى داخل الأبراج وعزلها عن الممشى العلوى بغلق أبوابها المطلة عليه، وبالتالى يصبح أمام العدو المهاجم أن يعبر من خلال الأبراج أو أحد أبواب السور لكى ينفذ إلى داخل المدينة، وهو أمر صعب مع تكتل المدافعين بالأبراج بعد غلق أبوابها، ويشبه الأسلوب الدفاعى فى سور «صلاح الدين» الأسلوب الدفاعى بأسوار قلعة الجبل، أى أن الأسلوب الدفاعى فى السور يشبه الأسلوب الدفاعى فى القلعة[2].

هذا وقد كان لقلعة الجبل ولسور القلعة حجرات الرماية، وهذا المصطلح للتعبير عن حجرات مربعة أو مستطيلة، وكان الغرض من هذه الحجرات زيادة عدد مرامى السهام، وبالتالى تدعيم القوة الدفاعية للسور، ويمكن القول بأن بعض هذه الحجرات كانت تعمل على تقوية النقاط الميتة[3] فى السور عندما تكون المسافة بين البرجين طويلة نسبيًّا، أو بمعنى آخر أنها تعمل على تقوية المناطق التى قد لا يصل إليها المدى المؤثر للسهام المقذوفة من الأبراج[4].

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص204 ـ 205.

(2) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص215.

(3) النقطة الميتة فى المصطلح العسكرى هى النقطة التى ينتهى قبلها مباشرة المدى المؤثر للقذيفة، وتنتهى عندها فعاليتها، انظر أسامة طلعت، هامش 2، ص216.

(4) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص216.

المدخل المنكسر

الباشورة والمدخل المنكسر والمدخل ذو المرفق والمدخل ذو العطف كلها مسميات لنوع واحد من المداخل، وهى التى ينصرف الداخل فيها يمينًا ويسارًا مرة أو عدة مرات، واستخدمت فى العمارة الحربية بغرض عرقلة اندفاع المهاجمين[1]، هذا وقد انتشر استخدام المداخل المنكسرة فى قلاع الشام عندما استعرت نيران الحروب الصليبية[2].

ويعتبر استخدام المدخل المنكسر فى أبواب سور «صلاح الدين» وكذلك أبواب قلعة الجبل أقدم الأمثلة الباقية لاستخدام هذا النوع من المداخل فى العمارة الحربية الإسلامية فى مصر، ويعد استخدامها مواكبًا لما كان مستخدمًا وشائعًا فى قلاع شرق العالم الإسلامى وغربه أيضًا فى ذلك الوقت[3].

الخندق

استخدم الخندق كعنصر دفاعى فى سور «صلاح الدين» وفى قلعة الجبل بالقاهرة، وكان حفر الخندق يزيد من مناعة التحصينات سواء كانت سورًا أم قلعة؛ لأنه يحول دون وصول الأعداء إلى المكان المحصن ويعوق الخندق أسلحة هدم وتسلق الأسوار المعروفة فى ذلك الوقت مثل الدبابات والأبراج الخشبية ذات العجلات من الاقتراب من السور[4]، هذا وقد كان يحيط بقلعة دمشق خندق كان يغمر بالماء إذا دعت الحاجة إلى ذلك[5]، هذا وقد شاع استخدام الخندق فى القلاع والأسوار فترة الحروب الصليبية لما يؤديه من دور دفاعى مهم[6].

المزاغل

هى فتحات رمى السهام، وتتكون من شقوق رأسية ضيقة من الخارج ومتسعة من الداخل لتسهيل حركة المدافعين بداخلها، ونظرًا لكونها أحد العناصر الدفاعية الرئيسية فقد زودت بها أسوار «صلاح الدين»، هذا إلى جانب أبراج قلعة الجبل، كما زودت حجرات

(1) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص219.
(2) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص220.
(3) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص221.
(4) لمزيد من التفاصيل عن الأبراج والدبابات انظر الفصل الرابع من الرسائلة.
(5) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص227.
(6) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص228.

الرماية المستقلة بمزاغل، ويختلف عدد المزاغل من برج لآخر تبعًا لموقعه فى السور وتخطيطه الداخلى[1].

السقاطات

هى فتحات بأعلى الأسوار أو البوابات يستخدمها المدافعون فى إلقاء المواد الحارقة والأحجار والسهام وما شابه ذلك على من يحاول اقتحام تلك الأسوار أو البوابات هذا من حيث الوظيفة، أما من حيث وضعها فى البناء فهناك شكلان أو نوعان منها، الأول عبارة عن شرفة تبرز عن سمت جدار السور أو الباب وترتكز على كوابيل غالبًا حجرية تفتح بينها السقاطات فى أرضية الشرفة، والنوع الثانى منها عبارة عن شقوق رأسية توجد فى سقف الباب محصورة بين عقدى واجهته الخارجية ولا تبرز عنها وتصل إلى أرضية سطح الباب، وتوجد مثل هذه الشقوق أحيانًا فى أرضيات الممرات الداخلية بالأسوار، ويتميز هذا النوع من السقاطات بأنه لا يمكن ملاحظته أو مشاهدته من خارج الأسوار إلا فى حالة الاقتراب منها، أى أنها مختفية وفى ذلك تدعيم لوظيفتها[2].

قلعة البرلس

يطلق اسم البرلس على المنطقة الساحلية المعروفة بإقليم البرلس الممتدة بين البحر المتوسط وبين بحيرة البرلس، وتعتبر البرلس من الثغور المصرية القديمة الواقعة فى شمالى مديرية الغربية (يمكنك معرفة مواضع الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية).

الموقع

شيدت هذه القلعة بقرية البرلس، وهى تقع على شاطئ البحر، وقد اشتهرت بين الأهالى بالبرج[3] ومن ذلك الوقت عرفت قرية البرلس باسم «البرج»، وهى لا تزال علمًا على إقليم البرلس[4]، وقد كانت البرلس من الثغور المصرية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة فى شمال مديرية الغربية، اسمها الرومى «بارالوس»[5].

(1) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص229.
(2) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص233.
(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية1، ص248.
(4) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر، 1960م، ص122.
(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية1، ص248.

بنت الدولة الأيوبية قلعة بقرية البرلس على شاطئ البحر، فبعد ذلك عرفت قرية البرلس باسم «البرج»، واختفى اسمها الأصلى، إلا أن البرلس لا تزال علمًا على إقليم البرلس[1] ولا تزال البحيرة تحمل اسمها.

قلعة المقس

ذكر «المقريزى» أن «صلاح الدين» أمر «بهاء الدين قراقوش» ببناء برج كبير[2] على النيل عام 570هـ / 1174م، وكان يقع فى محل قنطرة الخلفاء بجوار جامع المقس فى نهاية سور القاهرة عند باب البحر، ويقال له قلعة المقس[3]، لكن هذا البرج نشف فى سنة نيف وثمانين وستمائة، ومحله اليوم المكان القائم عليه عمارات الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان[4] من الجهة البحرية الشرقية بميدان رمسيس (باب الحديد)[5].

تحصين مدينة تنيس[6]

شهدت مدينة تنيس عام 577هـ / 1181م عمارة حربية فى عهد السلطان «صلاح الدين»، حيث أمر السلطان «صلاح الدين» بعمارة قلعة تنيس[7] وتجديد الآلات، وقد قيل إن سبب هذه العمارة هو خوف أهل تنيس من الإقامة بها[8]، نظرًا لضعف تحصيناتها الحربية، هذا وقد تم نقل أهل تنيس إلى دمياط، فقد ذكر «المقريزى» أنه كتب بإخلاء مدينة تنيس ونقل أهلها إلى دمياط، وقطع أشجار بساتين دمياط وإخراج النساء منها، فخلت تنيس إلا من المقاتلين وذلك فى عام 588هـ / 1192م[9].

(1) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج29، هامش1، ص101، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية1، ص248

(2) المقريزى، الخطط، ج1، ص380، النجوم الزاهرة، ج4، حاشية4، ص 39.

(3) النجوم الزاهرة، ج4، ص39 حاشية 4، المقريزى، الخطط، ج1، ص380.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص41 ـ 42، النجوم الزاهرة، ج4، حاشية4، ص39.

(5) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123.

(6) بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة، جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط، والفرما فى شرقيها، وقيل إن سور تنيس ابتدأ بنيانه فى شهر ربيع الأول 230هـ / 844م، وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور بن عيسى الخراسانى المعروف بالرافعى، وفرغ منه فى 239هـ فى ولاية عنبسة بن إسحاق بن شمر الضبى الهروى فى أيام المتوكل، لمزيد من التفاصيل عن تنيس انظر الحموى، معجم البلدان، ج2، ص50، 54.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص72، المقريزى، الخطط، ج1، ص181.

(8) المقريزى، الخطط، ج1، ص181.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص111، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37، انظر المقريزى، الخطط، ج 1، ص181، يمكنك معرفة مزيد من التفاصيل عن تنيس انظر المقريزى، الخطط، ج1، ص176، 181.

هذا وفى عهد الملك «الكامل» أمر بتخريب مدينة تنيس خوفًا من مجيء الصليبيين إليها(1)، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة، ولم يكن بديار مصر أحسن منها، واستمرت من حينئذ خرابًا(2).

التحصينات الحربية للمنصورة

لا شك أنه ترتب على الحملة الصليبية الخامسة (614هـ/ 1217م -618هـ/ 221م)، أن اهتم سلاطين الأيوبيين بإنشاء الحصون، ففى عهد الملك «الكامل» تم إنشاء حصن المنصورة(3) الذى شيده الملك (616هـ/ 1219م)، حيث نزل فى هذه البلدة وتحصن بها، وكان أن أمر من معه من العساكر والأمراء بتعميرها، فشيدت المبانى وبنيت الفنادق والحمامات، هذا بالإضافة إلى أنه أدار عليها سورًا مما يلى البحر وستره بالآلات الحربية والستائر(4)، هذا وقد شهدت أسوار المنصورة إهمالاً كبيرًا فى عام (618هـ/ 1221م) وعندما تولى «الصالح نجم الدين أيوب» الحكم، اهتم بمدينة المنصورة، وشرع عساكره فى تجديد أبنيتها وإصلاح سورها، وتوافد إليها الجند والعساكر والعربان، فعمرت المنصورة وغدت رباطًا جهاديًا مهمًا ضد الصليبيين(5) بعد أن شهدت إهمالًا كبيرًا(6)، هذا بالإضافة إلى إنشاء الملك «الصالح» مدينة الصالحية (644هـ/ 1247م)(7) لتكون حماية لمصر ودرعا لها، وفى عام (647هـ/ 1249م) أمر السلطان بإصلاح السور الذى على البحر وستره بالستائر(8).

(1) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص264.
(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص224.
(3) سمى هذا الحصن بـ«المنصورة» نتيجة انتصار الملك الكامل على الصليبيين على حد قول المقريزى تيمنًا بانتصاره على الصليبيين، المقريزى، الخطط، ج1، ص231، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231، هامش 1.
(4) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص261، حسنين ربيع، النظم المالية، ص70.
(5) حسنين ربيع، النظم المالية، ص70.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص337.
(7) شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب مدينة الصالحية سنة 644هـ/ 1246م فى أول الصحراء التى تفصل بين مصر والشام، لتكون نقطة أمامية للدفاع عن الأطراف المصرية ضد ما شاع وقتذاك من قرب وصول حملة صليبية إلى مصر عن طريق البر، حيث تكون فى مواجهة أى هجوم صليبى يفد من الجهات الشرقية، هذا بالإضافة إلى أنه غدا للصالحية أهمية كبيرة خاصة للطريق البرى الذى يربط القاهرة ودمشق ويسلكه المسافرون، لمزيد من التفاصيل عن مدينة الصالحية انظر د/ محمد محمد أمين على، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة 1968م، ص185، نقلا عن عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص261، انظر أيضًا حسنين ربيع، النظم المالية، ص70، فى عام 646هـ ذكر المقريزى فى كتابه السلوك، ج1، ق2، ص330، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بنى مدينة سماها بـ«الصالحية».
(8) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص337.

قلعة جزيرة الروضة

عرفت هذه القلعة بجزيرة الروضة[1] نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش «بدر الجمالى» (490هـ / 1079م) وسماه «الروضة»[2]، وظلت جزيرة الروضة متنزهًا ملكيًّا إلى أن ولى الملك «الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل» سلطنة مصر عام 638هـ / 1240م[3] فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وبقلعة الروضة[4]، وبقلعة الجزيرة[5]، وبقلعة الصالحية[6]، وبقلعة جزيرة الفسطاط[7]، وبقلعة الجيزة كما ذكرها المؤرخ «أبو الفدا»[8].

ويذكر المؤرخ «المقريزى» أنه فى يوم الأربعاء خامس شعبان عام 638هـ / 1240م، شرع فى حفر أساس القلعة، وابتدأ فى بنيانها فى أواخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة السادس عشر، وفى العاشر من ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة[9] وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب

(1) فى نهاية العصر الأيوبى انتقل مقر الحكم مؤقتا من القلعة إلى مكان آخر حصين فى أقصى الغرب أقامه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة، انتقل إليه هو وخواصه وحرمه سنة 638هـ / 1241م، وقد أحاط الملك الصالح القصر الذى بناه بالروضة بسور مزود بستين برجا استخدم فى بنائه عددًا كبيرًا من الأسرى الصليبيين الذين أسروا بالشام، وكون الملك الصالح فرقة من المماليك نشأهم فى قلعة الروضة هذه، وهم الذين خلفوا الدولة الأيوبية باسم «المماليك البحرية»، انظر جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، أيمن فؤاد سيد، ص31، المقريزى، الخطط، ج2، ص177، 186، عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص200.

(2) الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وبجزيرة مصر ثم قيل لها جزيرة الحصن وعرفت اليوم بالروضة والى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح الله ـ تعالى ـ على المسلمين القصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط، وبها أيضًا بنى أحمد بن طولون الحصن، وبها كانت الصناعة يعنى صناعة السفن الحربية أى كانت بها دار الصناعة وبها كان الجنان والمختار، وبها كان الهودج الذى بناه الخليفة الأمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية، وبها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية وبها إلى اليوم مقياس النيل، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج2، ص177 ـ 179، عبد الرحمن زكى قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر1960م، ص126.

(3) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج29، ص277.

(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص301، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص105.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص320، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص80.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، هامش 3، ص320 ـ 321، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص301 ـ 302.

(7) النجوم الزاهرة، ج6، ص320، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص153.

(8) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ص119.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص301.

المقياس وإدخالها فى القلعة، وأنفقت أموال جمة[1] فى عمارة القلعة وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجًا[2].

وفى ذلك يذكر «ابن كثير»: «بنى «الصالح أيوب» قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئًا كثيرًا من بيت المال»[3]، وقد استمر العمل فى بناء القلعة من عام 638هـ / 1240م- 641هـ / 1242م[4].

هذا وقد ذكر «المقريزى» أيضًا أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية، وتبين أيضًا أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن 65 فدانًا واقعة فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة[5].

وبعد العمل وإتمام البناء فى قلعة جزيرة الروضة اتخذها الملك «الصالح» سكنًا له، كما أسكن فيها مماليكه البحرية وعدتهم ألف مملوك[6] وقيل ثمانمائة سماهم البحرية، فجاءت هذه القلعة من أجل مبانى الملوك[7]، فبعد أن ترك قلعة الجبل وأقام بقلعة جزيرة الروضة، وحتى يستطيع تأمين القلعة من الخارج فقد أحاطها الملك «الصالح» بعدد من المراكب الحربية للدفاع عنها فى حالة تعرض القلعة للهجوم[8].

هذا وقد ظلت قلعة الروضة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب عام 648هـ / 1250م، فقد خربت قلعة الروضة ولم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها وبقى أيضًا عقد باب من جهة الغرب يقال له الإسطبل[9]، وقيل إن الملك «الناصر محمد بن قلاوون» أخذ أحجارها

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص183، حسنين ربيع، النظم المالية، ص70، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص126.

(2) المقريزى، الخطط، ج2، ص183.

(3) البداية والنهاية، ج13، ص301.

(4) اشتملت قلعة جزيرة الروضة على عدد كبير من الدور السكنية والقصور، كما أنشأ الملك الصالح بها جامعًا لإقامة الصلاة وشحنها بالأسلحة والعتاد والمؤن حتى إنها كانت تسر كل الناظرين إليها من حسن منظرها وزخرفها المتمثل فى أعمدة الرخام الجميلة والأسقف الخشبية المزينة بالزخارف البديعة، لمزيد من التفاصيل عن جزيرة الروضة وقلعتها انظر محمد عبد العزيز السيد، جزيرة الروضة وآثارها الدارسة حتى نهاية العصر المملوكى، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة 1977م، ص56، 60.

(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية3، ص320.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص341، النجوم الزاهرة، ج6، ص320 ـ 321، هامش 3، وعرفوا بالمماليك البحرية لسكناهم هذه الجزيرة الواقعة فى بحر النيل.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص341.

(8) المقريزى، المرجع السابق، ج2، ص183.

(9) المقريزى، المرجع السابق، ج2، ص185.

وبنى جامعه الشهير بقلعة الجبل والذى يعرف إلى الآن بجامع «الناصر محمد بن قلاوون»[1].

تحصين دمياط[2]

لا شك أنه فى عهد «صلاح الدين» شهدت معظم المدن المصرية الرعاية والاهتمام خاصة المدن الواقعة على البحر المتوسط، ففى عام 572هـ / 1176م، توجه «صلاح الدين» إلى دمياط لتفقد تحصيناتها الحربية[3]. وفى عام 577هـ / 1181م، أمر «صلاح الدين» بترميم سور مدينة دمياط، وأتقنت السلسلة التى بين البرجين[4]، حيث كتب «صلاح الدين» إلى واليها بترتيب المقاتلين على البرجين وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها، وفى أواخر حكم «صلاح الدين» شهدت دمياط إجراءات دفاعية جديدة وذلك فى عام 588هـ / 1192م، حيث تم حفر خندق دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج[5].

(1) المقريزى، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(2) دمياط مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب، وهى ثغر من ثغور الإسلام، جاء فى الحديث عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا عمر أنه سيفتح على يديك بمصر ثغرا الإسكندرية ودمياط، فأما الإسكندرية فخرابها من البربر، وأما دمياط فهم صفوة من شهداء من رابطها ليلة كان معى فى حظيرة القدس مع النبيين والشهداء، ومن شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح فى موضع يقال له الأشتوم، عرض النيل هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يخرج مركب إلى البحر الملح أو يدخل إلا بإذن ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنيس وعلى سورها محارس ورباطات، لمزيد من التفاصيل انظر الحموى، الشيخ الأمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى، معجم البلدان، دار صادر بيروت 1955م، ج2، ص472 ـ 473، هذا وقد كانت مدينة دمياط عندما فتحها عمرو بن العاص مدينة محصنة ذات أسوار منيعة شأنها شأن المدن الأخرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، انظر عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص249.

(3) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص258.

(4) قيل إن هذا البرج كان قفل الديار المصرية وهو برج عال فى وسط النيل ودمياط بحذائه من شرقيه والجزيرة بحذائه من غربيه، وهو برج منيع فى غاية القوة والامتناع فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط ببين البرجين، لمزيد منه التفاصيل انظر النجوم الزاهرة، ج6، هامش 5، ص170، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص188 ـ 189، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

(5) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص260، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

دمياط فى عهد خلفاء «صلاح الدين»

فى ذى الحجة عام 592هـ / 1195م، عزم «العزيز» على نقض الأهرام، ونقل حجارتها إلى سور دمياط، فقيل إن المئونة تعظم فى هدمها والفائدة تقل من حجرها[1].

هذا وقد أدرك الصليبيون بعد وفاة «صلاح الدين» أن مصر هى مركز المقاومة، وأنها الطريق المؤدى إلى بلاد الشام، ومن هنا جاءت الحملة الصليبية الخامسة، وكان الهدف من هذه الحملة السيطرة على ميناء دمياط بسبب رغبة المدن التجارية الإيطالية فى السيطرة على تجارة البحر المتوسط[2]، هذا وتعتبر مشاهدة «أبى شامة» المؤرخ الذى عاصر حكم «صلاح الدين الأيوبى» لدمياط متأخرة؛ لأنها ترجع إلى سنة 628هـ 1230م، إلا أنها تعطى المؤرخ الحربى صورة حقيقية عن تحصينات دمياط كلها بعد ترميمها على عهد «صلاح الدين».

فيذكر أن «برجها كان عاليًا مبنيًّا بين دمياط والبر الغربى فى الوسط، ومن ناحيته سلسلتان إحداهما على النيل إلى دمياط والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل الديار المصرية، فإذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وقوص وأسوان»[3].

هذا وقد لعب برج دمياط دورًا فعالاً بل مهمًّا جدًّا فى حصار دمياط أثناء الحملة الصليبية الخامسة (615هـ / 1218م – 616هـ / 1219م)، عندما قصد الصليبيون مدينة دمياط فضموا على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط[4] وحفروا حول معسكرهم خندقًا وأقاموا عليه سورًا وشرعوا فى قتال برج دمياط (السلسلة)، وكان برجًا منيعًا يمتد على النيل ليمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل[5]، وكان البر الذى نـزل

(1) اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين فى هدم الأهرام واستخدم أحجارها فى بناء الأسوار، ففى أيام صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجيزة على يد بهاء الدين قراقوش، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل، والسور المحيط بالقاهرة ومصر، وكذلك فعل العزيز لبناء سور دمياط، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص138 ـ 139، هامش5.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص729 ، 730، عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص261، هامش 3، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315.

(3) نقلاً عن عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص259، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص128.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص924.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص170، هامش 5.

عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من جهة أخرى يقال لها جزيرة دمياط.

هذا وقد كان المسلمون فى دمياط محاصرين حصارًا منيعًا من البر والبحر، والسلسلة ممتدة بين البرج والسور، فحاول الصليبيون امتلاك تلك البرج[1]؛ لأنهم إذا ملكوها تمكنوا من العبور فى النيل إلى القاهرة، أضف إلى ذلك بناء مدينة العادلية التى شيدها السلطان «العادل» (614هـ / 1217م)، جنوب دمياط وشحنها بالمقاتلين استعدادًا لمقدم الصليبيين إلى مصر من ناحية البحر، فأصبحت منذ ذلك الحين مدينة جهادية عسكر فيها السلطان «الكامل» (615هـ / 1218م)، ليعبر عساكره منها إلى دمياط لمنع الصليبيين من دخولها[2]، لكن هذه الحملة فشلت فى تحقيق غرضها بسبب قوة التحصينات وشدة المقاومة[3].

أما عن دمياط فى عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب»

عندما علم «الصالح نجم الدين أيوب» بقدوم حملة صليبية جديدة ضد مصر، وكانت هذه هى الحملة الصليبية السابعة التى نـزلت على دمياط 647هـ / 1249م[4]، لكن «الصالح نجم الدين أيوب» قام بإصلاحات عديدة فى دمياط ألا وهى: إصلاح أسوارها وتدعيمها وجعل الستائر على السور، هذا بالإضافة إلى أنه شرع فى تجديد عمائر المنصورة التى شهدت أسوارها هى الأخرى إهمالاً كبيرًا[5] فى الفترة (618هـ/ 1221م -647هـ / 1249م)، وما حدث من الصليبيين هو أنهم ملئوا أسوار دمياط بالمقاتلين والآلات، وخرج الصليبيون من دمياط إلى فارسكور ووصلوا تجاه المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم، وخندقوا عليهم وأداروا على خندقهم سورًا ستروه بكثير من الستائر[6] ونصبوا المجانيق، والتحم الفريقان فى القتال برًّا وبحرًا حتى انهزم الصليبيون، وبانهزام الصليبيين ومقتل «توران شاه» انتهت الدولة الأيوبية، ومنذ خيبة «لويس التاسع» وانهزامه فى معركة المنصورة أهملت حصون دمياط وتحولت إلى خرائب[7] وما كان من دولة المماليك البحرية الناشئة أن

(1) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص232.

(2) حسنين ربيع، النظم المالية، ص69.

(3) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص261.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص961، 963.

(5) المقريزى، الخطط، ج1، ص220، المقريزى، السلوك، ج1، ص337.

(6) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص263.

(7) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص159.

فكر زعماؤها فى هدم دمياط وتخريب المدينة خوفًا من مجىء الصليبيين إليها مرة أخرى[1].

التحصين الحربى للإسكندرية

أما عن تحصين مدينة الإسكندرية[2] فقد تحصن بها «صلاح الدين» فى عام 562هـ/ 1166 م عندما حاصرته الجيوش الصليبية، فكان على علم ودراية بأحوالها فأدرك مدى حاجتها إلى التحصين والعمارة حتى تستطيع الصمود فى وجه الحملات الصليبية، فقد زارها «صلاح الدين» فى 566هـ / 1170م، فتفقد أحوالها عندما كان وزيرًا لـ«العاضد» وفيها أمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها[3] فعمر ما تهدم منها[4]، وفى عام 572هـ / 1176م قام «صلاح الدين» بزيارته الثانية إلى الإسكندرية[5] ليتفقد تحصيناتها الحربية فذكر «أبو شامة»: «شاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر»[6]، وظلت الإسكندرية موضع رعاية واهتمام «صلاح الدين» حتى توجه إليها فى عام 577هـ/ 1181م، وتعتبر هذه الزيارة الثالثة لـ «صلاح الدين» ليتفقد أحوالها وتحصيناتها[7] ويشاهد ما تم من أعمال البناء والتجديد، وقد ذكر «أبو شامة» ما نصه «وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام»[8].

(1) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص264.

(2) كانت الإسكندرية فى عهودها القديمة منيعة بأسوارها وأبراجها وحصونها، ولقد عانى المسلمون فى فتحها الشدائد وظلوا فى حصارها أربعة عشر شهرًا حتى استطاعوا التغلب عليها، انظر عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص142.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص199، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص486، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص65 – 66، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

(4) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص315.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص296.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص296، حوادث سنة 572هـ المقريزى، السلوك، ج1، ص63، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص 689، محسن حسين، الجيش الأيوبى، ص336، الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص171.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص305، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص128.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص689، جمال الدين الشيال، المجمل فى تاريخ دمياط، ص18، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص66، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

يمكنك معرفة المزيد من التفاصيل عن مدينة الإسكندرية، انظر جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م.

وفى أحداث عام (581هـ / 1185م) خرج «المظفر تقى الدين عمر» إلى كشف أحوال الإسكندرية وشرع فى عمل سور على مدينة مصر بالحجر، فلم يبق فقير ولا ضعيف إلا خط فيه ساحة[1].

أما الإسكندرية فى عهد خلفاء «صلاح الدين»، فقد اهتم خلفاؤه بها أشد اهتمام، فقد اهتم «العادل» بها حيث شهد عام (608هـ / 1211م) زيارته إلى الإسكندرية لتفقد أحوالها، وهذا الأمر يوضح العناية والرعاية بها[2]، أضف إلى ذلك أن «العادل» اهتم بحصون المدينة وأسوارها فى 612هـ / 1215م، فقد زار المدينة فى السنة التالية ليشرف على شئونها وترتيب أمورها، فقد روى خبر هذه الزيارة الثالثة «المقريزى» فى «السلوك» قائلاً «وفيها 613هـ / 1216م، سار الملك «العادل» من القاهرة إلى الإسكندرية فرتب أمورها وعاد»[3].

هذا الأمر يوضح العناية والرعاية التى أولاها «صلاح الدين» للإسكندرية بصفة خاصة واستمرت خلال حكم السلطان «العادل»[4].

برج السويس فى دمياط

فى عام 577هـ / 1181م أكمل السلطان «صلاح الدين» بناء برج السويس، الذى يسع عشرين فارسًا، ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التى يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج (الصليبيين)[5].

التحصينات الحربية فى شبه جزيرة سيناء

لا شك أن شبه جزيرة سيناء اكتسبت أهمية خاصة على مر العصور التاريخية لكونها المدخل الشرقى لمصر، وعن طريقها دخلت معظم الغزوات الخارجية، فكانت مسرحًا لمعظم

(1) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص90.
(2) المقريزى، المرجع السابق، ج1، ق1، ص208.
(3) نقلاً عن جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص76.
(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص90.
(5) الشب من محتكرات الدولة المصرية يستخرج من أسوان والواحات ويحمل إلى سواحل قوص وإخميم وأسيوط لينقل إلى الإسكندرية فيباع أكثره لتجار الفرنج.
انظر المقريزى، السلوك، ج1، ق1، حاشية 7، ص72، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص128، عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص259، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

العمليات الحربية التى خاضتها مصر، وهى تعتبر أحد المنافذ المهمة لقوافل التجار والحجاج[1].

قلعة «صلاح الدين» بجزيرة فرعون

الموقع

بنيت قلعة «صلاح الدين» على جزيرة فرعون على بعد ستين كيلومترًا من مدينة نويبع جنوب طابا بحوالى ثمانية كيلومترات[2]، وكان قد أمر ببنائها «صلاح الدين الأيوبى»[3].

أسباب بناء القلعة

بنى «صلاح الدين» هذه القلعة لتكون نقطة حصينة لحماية الطرق البرية والبحرية بين مصر والشام والحجاز[4] وقاعدة بحرية متقدمة لتأمين خليج العقبة والبحر الأحمر من الغزوات الصليبية ومقاومة الصليبيين[5]، استمرت قلعة «صلاح الدين» بهذه الجزيرة طوال هذا العصر تمثل دورًا مهمًا فى الصراع الإسلامى والصليبى، كأهم نقط الإنذار المتقدمة وواحدة من القلاع القليلة التى دخلت ضد الصليبيين فى حرب بشكل مباشر، حيث لعبت هذه القلعة الشامخة دور الحارس الأمين للشواطئ العربية فى مصر والحجاز والأردن وفلسطين على حد سواء[6]، إذ أنها بالإضافة إلى ذلك أسهمت فى درء الأخطار العسكرية أثناء الصراع الصليبى العربى[7]، والدليل على ذلك أن «أرناط» صاحب حصن الكرك حاصر تلك الجزيرة بسفنه فى حملته البحرية التى أراد من خلالها الاستيلاء على شواطئ البلاد الحجازية 578هـ / 1182م[8].

إلا أنه لم يتمكن من ذلك وظلت الجزيرة صامدة أمام ضراوة الحصار البحرى، المضروب

(1) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية 1986م، ص2.
(2) مجلة عالم الآثار، العدد الثامن والعشرون، يونيو 1986م، ص4.
(3) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123.
(4) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ص2ـ 3.
(5) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123، أحمد قدرى، آثار سيناء، ص2ـ 3.
(6) أحمد قدرى، المرجع السابق،، ص4.
(7) أحمد قدرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(8) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123، مجلة عالم الآثار، العدد 28، ص5، أحمد قدرى، آثار سيناء، ص4.

حولها من السفن الصليبية والتى بقى جزء منها لحصار القلعة، والجزء الآخر أبحر فى اتجاه الجنوب للوصول إلى شواطئ بلاد الحجاز[1].

تخطيط قلعة جزيرة فرعون

الحقيقة أن هذه القلعة عبارة عن تحصينات، تنقسم إلى قسمين شمالية وجنوبية، وكل منهما عبارة عن قلعة مستقلة تستطيع أن تقاوم العدو بمفردها إذا ما حوصرت، وأتاحت تضاريس الجزيرة الفرصة بشكل واضح بحيث تم بناء القلعتين على تلين، التل الشمالى أكبر حجمًا، بينهما فرجة ضيقة، وبينها وبين شاطئ سيناء نحو 250 مترًا، على قمة التلين (الأكمتين) نجد خرائب قلعة قديمة لم يبق منها سوى صهاريج الماء ومخزن الغلال والذخائر ومنازل الجنود، وفى جدرانها وأسوارها المزاغل لضرب النار وهى الآن خربة لا يسكنها أحد، بالإضافة إلى أنه كان يحيط بها سور منيع له باب إلى جهة سيناء[2].

هذا بالإضافة إلى أنها تحتوى على برج للحمام الزاجل الذى كان يستخدم فى نقل الرسائل بين القلعة وبين القاهرة، أو بين القلعة والشام، أضف إلى ذلك مبانى القلعة التى تتكون من مجموعة من الغرف لإيواء العسكر وغرف لحفظ المؤن والعتاد، وحول هذه الحجرات والغرف سور سميك يتخلله عدة أبراج للمراقبة، وقد فتحت فى السور والأبراج فتحات لرمى السهام (مزاغل) كما يحتوى كل مبنى على صهريج كبير، هذا وقد عرفت هاتان القلعتان عند البدو باسم القلعة أو القليعة أو القرية[3]، وكان للقلعة باب نقش عليه اسم بانى القلعة وتاريخ بنائها، ولكن هذا الباب قد تهدم الآن وتهدم السور إلى الأرض، إلا أن ما يبدو من أساسه يدل على متانته، والأرجح أنها من بناء «صلاح الدين الأيوبى» وأنه بناها لمقاومة الصليبيين وهى تشبه فى بنائها قلعة «صلاح الدين» بجوار عين سدر (قلعة الجندى)[4].

(1) مجلة عالم الآثار، ص5.

(2) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، 1977م، ص166.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص166.

(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص167.

قلعة الجندى[1] (رأس الجندى)

إذا كان الحديث عن الحصون والقلاع التى أقيمت فى العصر الأيوبى بسيناء قليلاً، وذلك أن معظمها قد اندثر والقليل منها هو الذى نتحدث عنه، فالأمر بالنسبة لمنطقة العريش واضح، ذلك لأن قلاعها وحصونها ما تزال قائمة وبحالة جيدة، ولعل أهم قلاع المنطقة فى العصر الأيوبى هى قلعة الجندى[2].

سبب بناء قلعة الجندى

تعددت الأسباب التى عجلت ببناء قلعة الجندى، فبعد الأحداث المثيرة التى قام بها «أرناط» عام (578هـ / 1182م) ومشاركة البدو له فى أعماله الإجرامية عند محاولة البدو الخروج على السلطان «صلاح الدين» وممالأة الصليبيين[3] التى كاد أن يرتكبها فى حق مكة المكرمة والمسلمين، فى الوقت الذى كان «صلاح الدين» مشغولاً بحروبه فى فلسطين[4]، هذا وقد رأى «صلاح الدين» أن يتخذ خطوة إيجابية بعد أن حقق انتصارًا على الصليبيين وقتل «ريجنالد دى شاتيون» (أرناط) زعيمهم، ففكر فى تأمين حدود مصر الشرقية، وتأديب البدو الخائنين وذلك بتشييد قلعته المسماة بقلعة «صلاح الدين»، وأمر بالبدء فى بنائها حوالى عام 579هـ/ 1183م -580هـ/ 184م، وكان الانتهاء من العمل فيها عام 583هـ/ 1187م، كما هو ثابت ومنقوش أعلى باب القلعة[5]، وفى ذلك الوقت كان «صلاح الدين» قد نقل مقره من القاهرة إلى دمشق وخلف أخاه «العادل» لينوب عنه فى حكم الديار المصرية، ولما توفى

(1) يطلق عليها أحيانًا قلعة الباشا وهى على نحو ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقى من (عين سدر) وتعرف أيضًا بمعصاة الجندى، أما تسميتها بالجندى فلذلك لوقوعها برأس الجندى، ورأس الجندى عبارة عن تل صغير يرتفع حوالى 2150 قدمًا فوق سطح البحر ويرتفع حوالى 500 قدم فوق السهل المستوى المجاور له، وتعتبر رأس الجندى من الناحية الجيولوجية أكمة منفصلة عن جبال واحة الكلسية التى تؤلف حاجزًا منيعًا بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس، لمزيد من التفاصيل.انظر د/ أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، 1397هـ/ 1977م، ص147، عنه انظر أيضًا.
Hassan sadik, Bulletin de I' Institut, d'Egypt, tomeII, 1920, pp111-119.

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص147.

(3) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، فى الفترة الأيوبية المملوكية، دراسة تاريخية إستراتيجية، دار البشير سنه 1987م، ص322.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص153.

(5) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة 1970م، ص108 - 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص153.

«صلاح الدين» وتولى الحكم السلطان «العادل» 589هـ / 1193م، زادت عناية «العادل» بحدوده الشرقية[1] فى سيناء ومراقبة البدو بها فزار القلعة سنة 598هـ / 1202م، وأمر ببناء مسجد ثان وصهريج بالقلعة[2].

موقع قلعة رأس الجندى

تقع رأس الجندى على رأس وادى البروك أحد الأفرع الرئيسية لوادى العريش الذى يشغل سهلاً فسيحًا يمتد إلى جميع المنطقة الوسطى لسيناء الشمالية[3] وإلى جنوب وادى سدر الذى تخترقه سلسلة جبل راحا ويفتتح له سبيلاً نحو السهل الساحلى لخليج السويس، وعلى بعد خمسة كيلومترات من قلعة الجندى يوجد وادى سدر الذى قيل إنه ينشأ من جبل أبى ذبابة من جبال التيه ويسير متعرجًا مسافة نحو 30 ميلاً فيمر يبن جبال الراحا، وجبال سن البشر ثم يخترق سهل الراحا ويصب فى الخليج على نحو تسعة أميال وفيه ثلاث عيون، وأهم هذه العيون بالنسبة لقلعة الجندى عين سدر، وعلى نحو ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقى منها تقع قلعة الجندى[4].

وقلعة الجندى لا تبعد أكثر من عشرين كيلومترًا عن طريق الحج القديم الذى يبدأ من السويس وينتهى إلى العقبة مارًّا بنخل، وهو الطريق الوحيد الموصل بين خليج السويس إلى شمال سيناء وبلاد العرب[5].

ويعلق «حسن صادق» على موقع القلعة فيقول «وقد اشتمل تل رأس الجندى لذلك على أهم العناصر التى يتطلبها الموقع العسكرى، أولها القرب من المياه، وثانيها الإشراف التام على الطرق المهمة وسهولة المواصلات»[6].

(1) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص153.
(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص117، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص109، أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص147.
(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص148.
(5) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص117، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص148.
(6) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص117، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص148، انظر أيضًا:
Hassan sadik, op. cit, p112

تخطيط قلعة رأس الجندى

وتخطيط قلعة «صلاح الدين» هو عبارة عن شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع يمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى وينتهى طرفه الجنوبى الغربى بشكل نصف سداسى الأضلاع، ويتراوح طول القلعة ما بين 150و200 متر، ويبلغ أوسع عرض لها 100متر، ويحيط بالقلعة سور سميك خارجى يبلغ عرضه 2 متر ما يزال جزؤه الأسفل باقيًا، وقد قويت أركان القلعة المتعددة الأضلاع بأبراج مربعة ومستديرة، تسند كل منها وتقويها دعامات ساندة، ومن الأرجح أن تكون الأبراج المستديرة من أعمال «صلاح الدين»، أما المربعة فترجع إلى أعمال السلطان «العادل»[1]، وكما هو الحال دائمًا فى أسوار المدن والقلاع فى مصر الإسلامية[2] فى العصور الوسطى نجد أن سور قلعة الجندى يحتوى على مجموعة كبيرة من الغرف والحجرات منها ما استعمل لرجال حاميتها[3]، ومنها ما استعمل لحفظ العتاد والمؤن أو للأغراض اليومية الأخرى كالمطابخ وما إليها من الساقطات التى تستعمل فى الاستحكامات الحربية كدورات للمياه[4].

هذا ويتوسط القلعة حصن كبير متسع يشتمل على عدة مستويات، على كل مستوى توجد بناية مخصصة لغرض معين من أغراض القلعة الحربية والمدنية والدينية، وقد تهدم معظم تلك المبانى ولم يبق منها إلا خمسة مبان[5].

أولها: ردهة مستطيلة تبلغ مساحتها من 5 إلى 6 أمتار وتقع تحت مستوى الأرض الطبيعية بنحو5 أمتار، وقد كان يغطى هذه الردهة قبو ذو عقد مدبب سقط معظمه الآن، كما اندثر المدخل، ومن المحتمل أن تكون هذه الردهة مخصصة لحفظ العتاد والمؤن أو مكانًا للاجتماع فى فصل الشتاء[6].

ثانيها: مسجد بدون سقف وفى ضلعه الشرقى توجد قبلة قد أشير إليها بطبقة من الجص

(1) انظر:Creswell: citadel of Cairo, p37، نقلا عن أحمد رمضان، جزيرة سيناء، ص148.

(2) انظر:.Creswell: The old wall of cairo, p221، نقلا عن احمد رمضان، جزيرة سيناء، ص148.

(3) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص119.

(4) انظر:.Creswell: Muslim Architecture in Egypt, Vol. 1, P235، نقلاً عن أحمد رمضان، جزيرة سيناء، ص148.

(5) عن أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص149، انظر أيضًا، .Hassan sadik, p113

(6) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص119، انظر أيضا، Hassan sadik, p113

وفوقها ذكر اسم الجلالة (بسم الله)، وفى داخل المحراب كتابة متآكلة باق منها هذه العبارة «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلِّ على محمد»[1].

ثالثها: صهريج تحت الأرض لخزن المياه يبلغ حجمه 6×10×5.5 أمتار ما زالت جدرانه بحالة جيدة وتحتفظ بطبقة سميكة من الملاط، ويحتوى الصهريج على فتحتين إحداهما مربعة وتوجد فى الضلع الشرقى ووظيفتها توصيل المياه إلى داخل القلعة، والفتحة الثانية توجد فى الضلع الغربى وهى ضيقة ومستديرة بالقرب من سقف الصهريج وكانت تستعمل لصب المياه منها، ويوجد فوق الفتحة الأولى لوحة نقشت عليها كتابات زال بعضها وبقيت منها البسملة وكلمة صهريج واسم صلاح الدنيا والدين[2].

رابعها: مسجد ثان بالقلعة وهو أكمل أجزاء القلعة التى لا تزال تحتفظ برونقها القديم[3].

خامسها: ردهة كبيرة طول ضلعها 15مترًا بنيت تحت مستوى الأرض الطبيعية ومغطاة بأقباء متقاطعة، ومن المرجح أنها كانت تستعمل كمطعم أو ناد للحامية[4].

أجزاء القلعة التى ثبت نسبتها إلى «صلاح الدين»

لعل من أهم أجزاء القلعة التى ثبت نسبتها إلى «صلاح الدين»، تلك الكتابة المنقوشة على عقد الباب المسطح، ففى وسط النصف العلوى للعقد نجد لوحة عليها كتابات منقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذين اتخذهما السلطان «صلاح الدين» شعارًا لدولته، وعلى الجزء الأسفل من المربع الأوسط نقشت نجمة ذات ستة رءوس، اتخذها «صلاح الدين» أيضًا شارة له[5]، ولما كانت مسألة المياه من العناصر الرئيسية لبناء أى حصن أو قلعة، لذلك كان على القائد قبل أن يختار الموقع الحربى المنيع ليجعل من قلعة حصينة، لا بد أن يدرس مسألة المياه التى تمد قلعته بالحياة، لذلك نجد «صلاح الدين» قد أقام قلعته على بعد 5 كيلومترات من مياه عين سدر التى أمدته بالمياه التى احتاجها[6].

(1) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، ط1، 1991م، ص109.
(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص149.
(3) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص151.
(5) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(6) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص152.

وصف القلعة

رأس الجندى عبارة عن أكمة منفصلة عن جبال واحة الكلسية التى تؤلف حاجزًا منيعًا بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس[1]، فعندما تقترب من رأس الجندى، نجد تلا على شكل مخروطى له قمة مسطحة وجوانب صخرية حادة جدًّا والجزء الأصلى من التل ذو طبيعة طباشيرية التكوين، فإن وصلنا إلى نهاية قمة التل وجدنا أنفسنا أمام جدار يتراوح سمكه بين مترين وثلاثة أمتار مبنى بالحجارة الجافة ووراءه خندق كان يمتلئ بالمياه يبلغ اتساعه خمسة أو ستة أمتار، ويدور الخندق حول الأكمة من ناحيتها الشمالية والشمالية الغربية فيزيد فى منعتها ووقايتها، وإذا عبرنا الخندق صعدنا فوق كتل من الحجارة المبعثرة بدلاً عن درجات السلم التى وجدت فى الأيام السابقة والتى بقى منها القليل، ولا تزال موجودة فى محالها الأصلية، ولو صعدنا إلى عشرة أمتار أخرى لوصلنا إلى الجدار الأصلى وباب القلعة[2].

باب القلعة

عقد الباب مسطح نقرأ عليه نصًّا مهمًّا «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد، خلد الله ملك مولانا الناصر «صلاح الدنيا والدين» سلطان الإسلام والمسلمين والملك «يوسف بدر.... العادل الناصرى» فى جمادى الآخر سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة[3] (أغسطس1187م)»، وفى وسط النصف العلوى للعقد تشاهد اللوحة المنقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذان اتخذهما «صلاح الدين» شعارًا لدولته[4]، وعلى الجزء الأسفل فى المربع الأوسط نشاهد النجمة المسدسة الأضلاع التى كان على ما يبدو شارة «صلاح الدين» والتى نراها على المبانى التى شيدها بالإضافة إلى وجودها على عملته[5]، وبقيت اللوحات التى من الحجر الجيرى حسنة الشكل ومزررة ببعضها على الطريقة الإسلامية المستعملة إلى اليوم[6].

---

(1) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبيل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م، ص109.

(2) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص110.

(3) نعوم شقير، تاريخ سيناء، ص109، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص117ـ 118.

(4) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص117ـ118.

(5) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص111ـ112.

قلعة أيلة

كما يقول «الحموى»: «مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام، وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام، وقيل إن أيلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زروع يسيره وهى على ساحل بحر القلزم وعليها طريق حجاج مصر، وهى فى زماننا (أى القرن الثالث عشر الميلادى) برج به والٍ من مصر وليس بها زروع وكان بها قلعة فى البحر فعطلت ونقل الوالى البرج إلى الساحل»[1]. هذا وتشتهر قلعة أيلة فى حوادث سنة ستة وستين وخمسمائة (1170م)، فقد أنشأ «صلاح الدين يوسف» بن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها فنازلها فى ربيع الأول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر وشحنها بالمقاتلين والأسلحة وقاتل قلعة أيلة فى البر والبحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، وعاد إلى القاهرة فى أواخر جمادى الأول، هذا ما ذكره «القاضى الفاضل».

ويهم من هذه الأحداث التى ذكرها «القاضى الفاضل» أن قلعة أيلة كانت مملوكة للفرنج قبل استيلاء «صلاح الدين» عليها، وعلى ذلك فإننا لا نستطيع أن ندلى برأى قاطع فى هذا الموضوع هل قلعة أيلة كانت موجودة قبل استيلاء الصليبيين على المدينة؟ أم هم الذين أقاموها بعد استيلائهم على أيلة؟ والذى نرجحه فى هذا الموضوع أن مدينة أيلة وهى مدينة حدود فلا بد أن يكون بها مسلحة أو قلعة قبل استيلاء الفرنج عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ضراوة الحروب الصليبية بين المسلمين والفرنج فى منطقة متغلغلة فى الصحراء بعيدة عن ساحل البحر الأبيض وعن مركز تجمع الفرنج فى بيت المقدس لم يكن يسمح للصليبيين بإقامة قلعة فى منطقة كمدينة أيلة، ولكننى لا أستبعد فى الوقت نفسه أن يكون الصليبيون قد أضافوا إليها بعض المبانى والتحصينات التى تتفق وأسلوبهم الحربى[2].

ومهما يكن من أمر قلعة أيلة فالذى يمكن تأكيده فى هذا الموضوع هو أنه منذ استرداد «صلاح الدين» لمدينة أيلة 566هـ / 1170م ظلت تابعة لمصر، هذا وقد ذكر «الدواداري» فى أحداث سنة سبع وسبعين وخمسمائة (سنة 1181م)، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة أن

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص167.
(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج[1]، ثم وصل «الإدريس أرناط» لعنه الله إلى أيلة وربط العقبة وسير عسكره إلى تبوك وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر، فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة حتى صارت بها مياه استغنى أهل القلعة بها عن ورود العين مدة شهرين، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ووهنت لضعف أثاثها فتداركها أصحابها وأصلحوها[2].

(1) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص168.
(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص168 ـ 169.

■ الفصل الثالث

التحصينات الحربية فى بلاد الشام

مقدمة

لا شك أن التحصينات الحربية من قلاع وحصون وأبراج وأسوار من أبرز الآثار التى خلفها الإنسان، نظرًا لكونها مرتبطة بحاجة أساسية من حاجات المجتمع والدول، وهى درء الخطر وضمان العيش فى أمن واستقرار، إذ أن الدول لا تعيش فى أمان إلا إذا ضمنت جيشًا قويًا فى حصون منيعة يحميها من غارات المغيرين واعتداءات المعتدين(1).

ومما هو جدير بالذكر، أن القلاع ظهرت لافتة للنظر فى عصر الحروب الصليبية بشكل لم تعهده بلاد الشام من قبل، فصحيح أنها عرفت عالميًا وفى التاريخ القديم، وفى بلاد الشام قبل فترة الحروب الصليبية ووجد العديد منها مبنيًا بحصانة غريبة(2).

ومما هو مثير للدهشة أن بلاد الشام خاصة فى العصر الأيوبى والمملوكى من أكثر البلاد بناء للحصون والقلاع الحربية، نظرًا لتوافقها مع حاجة ذلك العصر فى تلك البلاد من صراعات مستمرة مع الصليبيين، ونظرًا للظروف التى مر بها المجتمع الإسلامى فى القرنين السادس والسابع للهجرة، الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين والخطر الصليبى الذى داهمها، فنستطيع القول إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعًا عسكريًا من الدرجة الأولى، يدور فى فلكه ويعمل لإنجاز متطلباته كل الفئات غير العاملة فى العسكر، ومن ثم فإن التحصينات والاستحكامات الحربية كانت أهم ما يتجه إليه أنظار حكام بلاد الشام، والتى ما تزال بقايا الكثير منها تشهد بفخامة تلك العمائر الحربية من أسوار وقلاع وحصون(3).

فالقلاع لها صدًى عجيب فى النفس لما فيها من عظمة عمرانية وما تحتوى عليه من معان مميزة كالقوة والشموخ والصمود، هذا بالإضافة إلى أن القلاع أدت دورًا مهمًا فى الناحية

(1) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ط1، 1405هـ/ 1985م، ص859.
(2) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة دمشق1416هـ/ 1995م، ص5.
(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، ج2، ص859.

السياسية والعسكرية فى مهاجمة العدو، فبنيت قلاع وهدمت أخرى فى خضم الصراعات بين المسلمين والصليبيين[1].

هذا ويمكن القول إن الاستحكامات (التحصينات الحربية)[2] انتشرت ما بين جزيرة فرعون فى شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابا والعقبة)، وسلسلة جبال أمانوس فى شمال سوريا، وعلى الرغم من أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبى بمئات السنين، فإن ما بنى منها فى أثناء الحروب الطويلة كان الكثير والكثير وقد شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع سواء على الجبال أو التلال أو الوديان أو حتى تشرف على الأنهار، حتى المدن فهم لم يتركوا مكانًا إلا وشيدوا عليه قلعة (حصنًا منيعًا)، هذا بالإضافة إلى أنهم أحاطوا المدن بتحصينات منيعة وقوية سواء بالأسوار المتينة، أو الأبراج العالية الحصينة، منها الصغير والكبير والتى شيدت لأغراض الحراسة والمراقبة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن طبيعة البلاد وجغرافيتها قد أفادت المهاجمين إفادة حقيقية؛ لأن بلاد الشام وأرضها تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة، وما أكثر النماذج الرائعة لأساليب العمارة الحربية التى تميز بها ذلك العصر الذى يمكن أن نطلق عليه عصر الاستحكامات (التحصينات الحربية).

الدوافع التى أدت إلى تشييد الحصون

لعل الذى يخطر بذهننا والذى يجول فى خاطرنا هو أنه لماذا شيَّد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون والقلاع؟، فبداية يمكن القول إن بناء القلاع والحصون كان ضرورة مهمة وملحة حتى يثبت الأطراف المحاربون سواء البيزنطيون أو المسلمون أو الصليبيون وجودهم فى المنطقة[3]، هذا وقد تعددت الأسباب المختلفة لبناء

(1) أجفان الصغير، القلاع، ص4.

(2) الاستحكامات (التحصينات) هى عبارة عن تنظيم وضع جميع أسوار أو سور مدينة أو قلعة أو حصن أو غير ذلك من الأماكن المحصنة التى يراد حفظها، وجعل هذه الأجزاء على وجه بحيث يتيسر لعدد يسير من المحافظين المقيمين بأحد هذه المواضع مقاومة عدد عظيم من العساكر الذين يريدون محاصرة هذا الموضع والتغلب عليه، مزيد من التفاصيل عن الاستحكامات الحربية انظر صالح أفندى مجدى، ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والمقلاع، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية، أوائل شهر ربيع الأول احد شهور السنة الخامسة والسبعين من القرن الثالث، ص14، هذا وقد قيل إن الغرض الأصلى من هذه الاستحكامات هو تقوية مواضع للدولة وفيها منفعة عظيمة ومصلحة جسيمة وحفظها على الدوام، لمزيد من التفاصيل انظر صالح أفندى مجدى، المطالب المنيفة فى الاستحكامات الخفيفة، 1278هـ / ص8.

(3) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى، 1994م، ص68.

القلاع، فقد كان لكل دولة أسبابها الخاصة لبناء قلاعها، كما كان لكل قلعة ظروفها المحيطة بها[1]، فقد كان كثير من الولاة والحكام والقادة يرون فى تشييد القلاع والحصون رمزًا لتخليد أسمائهم وذكراهم، وعنوانًا لبعض منجزاتهم وانتصاراتهم وفتوحاتهم وصمودهم، ومن المعروف أن ولاة الأمور فى التاريخ غالبًا ما تتميز مراكز حكمهم ومساكنهم بالمناعة والتحصين، ووضع بصمات ونقوش تدلل على عهودهم وتخليدهم فيما بعد، هذا بالإضافة إلى أن طرق المواصلات بما تحتويه من عبارات وجسور ومراكز تموين، ومحطات قوافل، وينابيع ماء، وأسواق تجارة وموانى ملاحة كلها ذات أهمية خاصة فى حياة الإنسان، فكان لا بد من توفير الحماية لها بمختلف الوسائل والإمكانات بما فى ذلك بناء القلاع ومراكز المراقبة والدوريات، مع مراعاة تأمين الاتصال بين القلاع، بالإضافة إلى أن إدارة الأقاليم المفتوحة وإحكام السيطرة عليها وجمع الضرائب من سكانها، كانت من الأسباب الموجبة لبناء القلاع فيها، فى الوقت نفسه فإن القلعة سرعان ما كانت تتغير وظيفتها تبعًا للحالة الأمنية، فقد تكون قلعة دفاعية ضد قوى خارجية، ثم تتحول إلى مركز إدارى مدنى بعد زوال الخطر الخارجى أو انتقال الحدود[2]، أضف إلى ذلك بعض الأحداث الطارئة التى كانت تلعب دورًا فى بناء القلاع فعندما واصل أمراء بنى عوف قتالهم مع بعضهم وخروجهم على نواب «صلاح الدين»، قام بإقطاع ناحيتهم جبال عوف إلى الأمير «عز الدين أسامة»، فشرع فى بناء قلعة عجلون تحت غطاء توفير الحماية لهم من الصليبيين، كذلك فإنه عندما تمكن «ريجنالد دى شاتيون» أمير الكرك من الاتصال ببدو سيناء لمساعدته فى نقل قطع أسطوله عبر الصحراء من الكرك إلى خليج العقبة عندها ارتأى «صلاح الدين» بناء قلعته فى رأس الجندى سنة 579هـ / 1183م، والتى تشكل حاجزًا منيعًا بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس لتتمكن من السيطرة على أولئك السكان[3].

كما كان بناء قلعة فى موقع معين سببًا فى بناء قلعة مضادة على الطرف الآخر، لكن اختيار المكان تمليه من الناحية الجغرافية، والمتطلبات الإستراتيجية للسياسة المحلية سواء كان الهدف من إقامتها الاحتفاظ بمناطق معينة، أو الحصول على مواقع حصينة متقدمة أو السيطرة على طريق أو مخاضة أو معبر جبلى، أو استخدام القلاع كملاجئ عند الضرورة.

وكان للناحية الاقتصادية دور كبير فى بناء القلاع، فقد كانت تبنى للحفاظ على ثروات البلاد وجمع الضرائب، وقطف المحاصيل وتخزينها، كما كانت تستخدم للتموين والإمداد

(1) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص83.
(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص82.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص83.

والتجهيز، ويستعمل جزء من مبانيها لصناعة الأسلحة والملابس[1]، وعلماء الآثار والتاريخ الذين كتبوا عن القلاع الصليبية أوردوا أسباب بناء الصليبيين لقلاعهم، وتلك الأسباب لا تخرج فى الإطار العام عن مجمل الأسباب لدى المسلمين أو غيرهم من الأقوام الأخرى كالرومان والبيزنطيين وغيرهم، فقد تمكنوا خلال قرنين من الزمن من بناء العديد من القلاع فى الشرق بالرغم من الظروف الصعبة التى عاشوها.

هكذا يمكن القول إن مجمل الأسباب التى كانت وراء بناء القلاع عند جميع الأقوام والأمم كانت أسبابًا دفاعية، وأخرى هجومية باعتبار أن القلعة هى المكان الذى تكمن فيه الحرب، كانت القلاع مكانًا لفرض القانون والسيطرة على المدن وإدارة الأقاليم، وبالتالى ترتب على بنائها عدة وظائف مدنية وعسكرية كانت تشكل فصلاً كبيرًا من تاريخها[2].

تقسيم القلاع حسب الأهمية العسكرية

(1) حصون لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان.

(2) حصون لتأمين المدن الساحلية.

(3) القلاع الإستراتيجية.

أولاً: الحصون التى كانت لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان، فقد كانت أهم تلك الحصون والمعاقل هى حصن شقيف أرنون (أرنول) أو بلفورت، ويعرف عند العرب بقلعة الشقيف، أما الحصون والمعاقل الأخرى فى هذه المجموعة فلم تكن شيئًا كبيرًا من الضخامة[3].

ثانيًا: أما عن الحصون الموجودة على المدن الساحلية، فقد كان أهمها حصن طرطوس وجبيل وبيروت وقلعة البحر فى صيدا، وقلعة صور والتى كان يمكن عزلها بغمر خندقها بمياه البحر ولم يبق اليوم من منشآت اللاتين الحربية فى صور أو أسوار يافا ذات الـ24 برجًا حتى قلعة طرابلس لم يبق منها شيء مهم، وقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية فى قلعة عكا، أما قلعة البحر فى صيدا فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية[4].

ثالثًا: أما عن القلاع الإستراتيجية فقد شيدت لحماية مدينة مهمة أو موقع رئيسى، وقد

(1) سعد المومنى، المرجع نفسه، ص83.
(2) سعد المومنى، المرجع نفسه، ص86.
(3) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية، العدد 15، 16، القاهرة 1969م، ص62 ـ 63.
(4) عبد الرحمن زكى، القلاع، المجلة التاريخية، ص64.

كانت هذه القلاع تبنى فى مكان موحش متعزل تسوده العزلة من كل جانب، هذا بالإضافة إلى أن القلاع الإستراتيجية تعتبر خير تعبير للعمارة العسكرية الصليبية فى القرون الوسطى، ومن أمثلة تلك القلاع، حصن الأكراد، المرقب، كرك مؤاب، صهيون، الشقيف (بوفورت)، قلعة الحاج أو عتليث، الصبيبة، هذا بالإضافة إلى قلعتين ذات طراز كبير ألا وهما صافيتا وتورون، لكن المسلمين كانوا قد خربوهما[1] له، أى أن هناك قلاعًا عديدة كان منها على الساحل الشامى وعلى المنحدرات الغربية للجبال المتاخمة له، وفى المناطق الداخلية أيضًا، والمناطق الداخلية كانوا يبنون فيها مواقع حصينة فى الغالب مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب[2].

قلعة حلب[3]

الموقع

تقع قلعة حلب فوق مرتفع مستدير[4] أعلى من مستوى المدينة بثمانية وثلاثين مترًا، ويحيط بها خندق عظيم[5].

---

(1) عبد الرحمن زكى، القلاع، المجلة التاريخية، ص64.

(2) مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص18.

(3) حلب مدينة عظيمة قديمة، أم أقاليم وبلاد وأغوار وأنجاد، وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه وثغوره، وتسمى بحلب الشهباء، وسميت بحلب لأن الخليل ـ عليه السلام ـ يحلب غنمه بها ويتصدق بلبنها يوم الجمعة فيقول الفقراء: حلب فسميت بذلك، وحلب ذات القلعة البديعة العلية المنار، وهى وسط وطأة حمراء ممتدة، والقلعة على تل على، كانت قد عظمت أيام بنى حمدان، ثم جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخارًا واتخذت لها من بروج السماء منطقة وأسوارًا، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص116، القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص183، العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص127 – 128، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص55، قال عنها ابن بطوطة فى رحلته: حلب لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأجزاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء وقد طاولت الأيام والأعوام وبداخل القلعة جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ، ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متدانى الأبراج، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص88، هذا وذكر أبو الفدا: حلب بلد عظيمة قديمة ذات قلعة مرتفعة حصينة... عليها سور من حجر وفى وسطها قلعة لا ترام وبينها وبين معرة النعمان 36 ميلا، وبينها وبين مدينة بالس 15 فرسخًا، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، طبع باريس المحروسة 1840م، ص267، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص59.

(4) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، المجلة، العدد الخامس، 1376هـ / 1957م، ص63 ـ 64.

(5) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص291.

تاريخ قلعة حلب

أما عن تاريخ القلعة التى يضرب بها المثل فى الحصن والحصانة[1] وسورها الشهير، فقد ظل على ما كان عليه قبل الإسلام[2]، إذ لم يقم خلفاء بنى أمية ولا خلفاء العباسيين إلا بتجديد وترميم ما تلف من أبراجها[3].

ولعل أول عمل يعتد به فى العصر الإسلامى هو التجديد الذى حدث فى عهد «سيف الدولة الحمدانى» سنة (353هـ / 964م)[4] بعد أن خربها «نقفور» إمبراطور الدولة البيزنطية، فقد جدد ورمم ما لحق بسورها وأبراجها[5] وما يزال البرج الذى يقع إلى جانب باب قنسرين من جهة الغرب يحمل اسمه كما يحمل تاريخ التجديد، كذلك بنى بنو مرداس لما ملكوا حلب عدة أبراج بالسور وذلك 420هـ / 1029م[6].

هذا وقد سجلت لنا قلعة وأسوار مدينة حلب كل من قام بتجديد أو ترميم فيها، فقد سجل اسم «نور الدين محمود بن زنكى»، واسم الملك «الظاهر غياث الدين غازى»، كما سجل اسم حفيده الملك «الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الظاهر غياث الدين غازى»، الذى قام بأكبر عمارة فى سور وأبراج مدينة حلب وذلك عام (642هـ / 1262م)[7]، فقد جدد الأبراج[8] وزاد فى مساحتها على غرار عمه «العادل» فى سور مدينة دمشق، وعندما آلت القلعة إلى «نور الدين بن عماد الدين زنكى» شيَّد فيها أبنية كثيرة[9]،

(1) الحموى، معجم البلدان، ج2، ص283.

(2) يذكر ابن شداد فى الأعلاق الخطيرة، أن أول من بنى قلعة حلب سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية بإنطاكية، وقد بناها على تل مشرف على المدينة، لمزيد من التفاصيل انظر د/ شوقى شعث، قلعة حلب، دار القلم العربى حلب، ص55، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص79.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص60، يقال إن حلب القديمة كانت كلها مبنية فى هذه القلعة، تعاورتها الأيدى بالبناء فى قرون مختلفة وظلت مسكونة إلى 1822م، أيام خربت بالزلازل، لمزيد من التفاصيل انظر محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص291.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص80.

(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق1، ص60، شوقى شعث، قلعة حلب، ص55.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق د/ سامى الدهان، الجزء الأول، دمشق 1951م، ص27، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص81، شوقى شعث، قلعة حلب، ص56.

(7) الحموى، معجم البلدان، ج2، ص283.

(8) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص292.

(9) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، الطبعة الأولى دمشق 1960م، هامش 1، ص70.

فابتنى «نور الدين» سور القلعة[1] واهتم بتحسين أجهزة الدفاع عن المدخل[2]، وقد كانت حلب قد تقدمت فى آفاق التاريخ، كمدينة من أكبر عواصم الإسلام فى ذلك الحين[3]، هذا بالإضافة إلى أن «نور الدين» بنى أمام سور حلب فصيلاً[4].

أبواب حلب

باب النصر

باب النصر كان يعرف قديمًا بباب اليهود؛ لأنهم تجاوروه وكانوا يخرجون منه إلى مقابرهم، فاستقبح الملك «الظاهر» هذا الاسم فسماه «باب النصر» وجعل عليه أربعة أبواب، وبنى عليه أبراجًا محكمة البناء[5].

باب إنطاكية

بنى فى عهد «الناصر الثانى يوسف بن العزيز» (634هـ / 1236م - 658هـ / 1260م)، ثم جدد فى عهد «المؤيد شيخ»[6]، هذا وبنى على هذا الباب برجان عظيمان[7].

باب قنسرين

يرجع إلى العهد الأيوبى، فقد جدد فى عهد الملك «الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى بن يوسف بن أيوب» فى سنة أربع وخمسين وستمائة[8].

باب المقام

بدأ به «الظاهر غازى» ثم أكمله ابنه الملك «العزيز محمد»، ثم جدد بناؤه «برسباى» (825هـ / 1422م — 841هـ / 1438م)، ويتميز بوجود دهليز إلى يمينه[9].

(1) فيصل الصيرفى، نادر العطار، قلعة حلب 1954م، مطبعة الشرق، ص14.
(2) فيصل الصيرفى، المرجع السابق، ص14.
(3) فيصل الصيرفى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) الفصيل هو سور إضافى أمام السور الأصلى ليكون خط الدفاع الأول، لمزيد من التفاصيل انظر أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص72، هامش1.
(5) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص73 ـ 74.
(6) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق1، ص75.
(7) ابن شداد، المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسها.
(8) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق1، ص69 ـ 70.
(9) ابن شداد، المرجع السابق، ص75.

باب الفراديس

أنشأه الملك «الظاهر غياث الدين غازى»، وبنى عليه أبراجًا حصينة ثم سد بعد وفاته، ولم يزل مسدودًا إلى أن فتحه الملك «الناصر»[1].

باب دار العدل

بناه الملك «الظاهر غياث الدين غازى» وكان لا يركب منه أحد إلا هو[2]، هذا بالإضافة إلى أبواب أخرى كباب الحديد، وباب الضبان، والباب الصغير، وباب الفرج.

مداخل القلعة

أولاً: المدخل الرئيسى

هـو بناء يعود قسمه السفلى إلى فاتحة القرن 7هـ / 13م وقسمه العلوى إلى القرن 9هـ / 15م، ويتكون من فتحة باب مستطيلة الشكل يغلق عليها مصراعان من الخشب المصفح بالحديد، ويأعلى كتلة المدخل سقاطات لإلقاء المواد السائلة على الأعداء.

المدخل الثانى

وهو مستطيل الشكل تعلوه فتحة لقذف السوائل الحارقة بغية الدفاع، وفى برج الباب كوى عديدة لرمى السهام ويبلغ ارتفاعه تقريبًا عشرين مترًا، ويرجع تجديد هذا الباب إلى عهد «قنصوة الغورى»، وهذا الباب له مصراعان مصنوعان من الحديد المطرق يرجعان إلى القرن ٧هـ / ١٣م، أعلاه كتابة بارزة تقرأ «أمر بعمله مولانا الملك «الظاهر غازى يوسف» فى سنة ثمانية وستمائة، ١٢١١م»[3].

المدخل الثالث

ويقع فى الجهة الشرقية، وهو مدخل صغير له باب من الخشب الغليظ المصفح بالحديد، يعود تاريخه إلى عهد «قنصوه الغورى»[4].

(1) ابن شداد، المرجع السابق، ص74.
(2) ابن شداد، المرجع السابق، ص71.
(3) Saouaf, Alleppo past and present, Alleppo ،1965, p26.
(4) صبحى صواف، قلعة حلب، ص30.

المدخل الرابع

للقلعة باب رابع صنع من الخشب الغليظ المصفح بالحديد تعلوه كوة مستديرة للإنارة ولقذف السوائل الحارقة، ويعلوه حجر كبير نحت عليه أسدان متقابلان بينهما شجرة نخيل، ويؤدى هذا الباب إلى دهليز ينعطف يمينًا توجد جنوبيه قاعة مستطيلة تقريبًا بها ثلاث مزاغل لرمى السهام وفى وسطها بئر عميقة، وقد أنشئت هذه القاعة بغية الدفاع عن المدخل[1].

المدخل الخامس

ويدعى باسم باب الأسد الضاحك والأسد الباكى[2]، وقد صنع أيضًا من الحديد المطرق تزين أعلاه كتابة بارزة تشير إلى أنه من عمل الملك «الظاهر غازى الأيوبى» نصها «أمر بعمله مولانا الملك «الظاهر غازى بن يوسف» فى سنة ستة وستمائة»[3]، ويقابل هذا الباب مصطبة مرتفعة[4].

قلعة حلب فى العهد الأيوبى

بعد موت الملك «الصالح نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى» تولى الحكم على حلب «الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكى»، وجدد فى قلعتها بعمل باشورة وكتب عليها اسمه، وظلت القلعة موضع رعاية الأسرة الزنكية إلى أن ملكتها الأسرة الأيوبية[5].

هذا وقد دخلت حلب فى جوزة «صلاح الدين» بعد موت «الصالح إسماعيل بن نور

(1) صبحى صواف، المرجع السابق، ص30.

(2) شوقى شعث، المرجع السابق، ص109.

(3) صبحى صواف، المرجع السابق، ص39.

(4) تزدان هذه المصطبة بثوابت خشبية مغطاة بقماش أخضر اللون وهو مقام الخضر - عليه السلام - ويدعى الخضر عند المسيحيين بمارجاورجيوس وهو عند المسلمين نبى وتقى كبير، وقد شاع لدى عدد من الناس بعض البدع المرتبطة به، ولذا وضعوا شموعًا كثيرة على جدران المقام وما وجود هذا المقام عند آخر أبواب القلعة إلا من قبل الحماية للرمزية الدينية له، لمزيد من التفاصيل انظر، Saouaf:. Op.cit, p 130

(5) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، هامش1، ص70.

الدين»[1]، وأسرع «صلاح الدين» لضمها إلى ممتلكاته[2]، فقد ذكر «ابن كثير»: «سار السلطان إلى حلب وحاصرها وقاتله أهلها قتالاً شديدًا، ثم إن القلعة وقعت منه بموقع عظيم، ثم قال: سررت بفتح قلعة حلب أعظم سرورًا من فتح مدينة حلب»[3]، وهذا الحدث وقع فى عام 579هـ / 1183م، هذا وقد اعتبر الصليبيون تسليم حلب لـ «صلاح الدين» أعظم نكبة حلت بهم؛ لأنها أكدت الروابط الإستراتيجية والعسكرية بين محور مصر وسورية[4].

حلب فى عهد «الظاهر غازى»

أما حلب فى عهد الملك «الظاهر غازى» (582هـ / 1186م - 613هـ / 1216م)، فقد استفاد من الأحداث القائمة ليوسع مملكته ويقوم بالاستعداد العسكرى الكامل، فكان من الطبيعى أن يقوم بتجهيزات واستعدادات واسعة النطاق لتجهيز القلعة حتى تتلاءم أجهزتها الدفاعية مع تقدم فن التحصين العسكرى من جهة ولتقوم بمتطلبات أخرى، هذا وقد أسس «الظاهر غازى» سلالة أيوبية بحلب كان هو على رأسها، وخلف ولده الملك «العزيز محمد» ثم جاء بعده ولده (أى ولد العزيز) «صلاح الدين يوسف الثانى» وبه انتهت السلالة الأيوبية[5].

أضاف «الظاهر غازى» إلى القلعة أبنية جديدة، وحفر بها الصهاريج، وأنشأ فيها حمامًا وحديقة وجوامع ومدارس وغيرها[6]، وابتنى حجرات للإدارة وشيَّد جامعًا كبيرًا مكان أحد المقامين، استعمل فى بنائه شتى أنواع القطع الحجرية[7]، وجهزه بمئذنة شاهقة يمكن

(1) أبو الفرج العش، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) أخذ صلاح الدين الأيوبى حلب من عماد الدين بن سيف الدين غازى بن عم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعوض عنها سنجار بواسطة رجل يدعى طمان، ولم يقبل أهل حلب فى البداية بهذا الاتفاق، وقالوا الكثير مما لا يليق بحق عماد الدين، فأضحت حلب من أهم الممالك الأيوبية، لمزيد من التفاصيل انظر شوقى شعث، قلعة حلب، ط1، 1416هـ / 1996م، هامش 2، ص45.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص313، تسلم صلاح الدين قلعة حلب سنة 579هـ، وجعل فيها ولده الملك الظاهر، وولى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسدى، وجعله يرتب مصالح ولده، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص29.

(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص147.

(5) شوقى شعث، قلعة حلب، ص45-46.

(6) شوقى شعث، المرجع السابق، ص45.

(7) فيصل الصيرفى، نادر العطار، المرجع السابق، ص14.

استخدامها كمركز للمراقبة على مدى بعيد، وأنشأ للقلعة مدخلًا جديدًا عدا عن المدخلين القديمين بصورة أعطت التل شكلاً هندسيًّا جميلاً شكل جذع هرم ذى وجوه شديدة الانحدار، واحتفر بحذاها خندقًا[1] تغرقه بالمياه عند الهجوم قنوات جديدة تتصل به، ويقوم عليه جسر تحمله أقواس ثمانية يسده باب حديدى كبير، ورصف سفح القلعة من أسفل الخندق حتى أسفل السور بقطع الأحجار بشكل أصبحت تتعذر بل تكاد تستحيل معه محاولات تسلق ذلك السفح أو الحفر فيه من جهة، كما أنشأ فى أسفل كل ذلك ممرين خفيين يسمحان للقلعة بالاتصال مع المدينة، وأعمال الظاهر فى القلعة ذات أهمية؛ لأنه تبرز أهم ما كان يتميز به البناء العسكرى فى العصور الوسطى[2]، ويعود تاريخ الخندق وسور السفح إلى القرن 7هـ/ 13م[3]، وذلك سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[4].

هذا وقد أورد «ابن شداد» أعمال الملك «الظاهر غياث الدين غازى»: «ولما ملك «الظاهر غياث الدين غازى» حصنها وحسنها وبنى بها مصنعًا كبيرًا وسفح تل القلعة وبناه بالحجر وأعلى بابها فوق الباب سنة ستمائة، وكان الملك قد عمل لهذا الباب جسرًا ممتدًا منه إلى البلد وبنى على الباب برجين لم يبن مثلهما قط، وعمل للقلعة خمسة دركاوات بإزاج معقود، وجعل لها ثلاثة أبواب حديدية، وفتح فى سور القلعة بابًا يسمى «باب الجبل» شرقى باب القلعة وعمل له دركاة، وانتهت العمارة فى هذا الباب وما قبله فى سنة إحدى عشرة وستمائة»[5].

خلف الملك «الظاهر غازى» ولده الملك «العزيز»، وفى عام 622هـ/ 1225م سقط جزء من

(1) تؤلف الخنادق عناصر دفاعية ضرورية فى المدن والقلاع، ويبدو أنها تستمد جذورها من تقاليد قديمة فهناك خنادق فى مدينة أريحا بفلسطين وغيرها من مدن بلاد الشام من العصور البرونزية، وفى الغالب كانت تلك الخنادق تحيط بسفوح طينية أو صخرية مصفحة بالحجارة كما هو الحال فى قلعة حلب نقلا عن الريحاوى، دمشق، ص236، هامش 1، ص99، ونجد الخندق فى جميع القلاع فى سوريا، وهو يحيط بقلعة حلب من جميع الجهات، وكان يملأ بالماء وقت الحصار مكونًا بذلك جزءًا مائيًّا بين المدافعين والمهاجمين وترتبط التحصينات الماثلة بالخندق فهى تشاركه فى الوظيفة فى عرقلة تقدم المهاجمين صعودًا فى حالة تمكنهم من اجتياز الخندق، وفى قلعة حلب جرى تسفيح سطح التل الذى تقوم عليه القلعة بحجارة ملساء يصعب تسلقها وخاصة فى حال وجود الماء فى الخندق وتساعد هذه الإعاقة التى تقوم بها التحصينات الماثلة لجهة إعطاء الفرصة للمدافعين لاقتناص الأعداء وردهم، انظر شوقى شعث، قلعة حلب، ص102، ونلاحظ أن هذه التحصينات الماثلة فى كثير من القلاع العربية الإسلامية فى سوريا ومصر، من ذلك ما نلاحظه فى قلعة نجم مثلاً على الفرات وغيرها، انظر شوقى شعث، قلعة حلب، ص104، هامش 1.

(2) فيصل الصيرفى، نادر العطار، المرجع السابق، ص16 – 17.

(3) Saouaf, op.cit, p24

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص62.

(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق1، ص82 ـ 83.

سور قلعة حلب وعشرة أبراج من أبراجه مما يلى باب الجبل الذى أنشأه الملك «الظاهر»، فقام «الأتابك شهاب الدين طغرل» بعمارتها وتحصين آلاتها دون أن يستعين فى ذلك بأحد، وأشرف بنفسه على ذلك وأتمه فى السنة نفسها[1]، لكن التتار خربوا قلعة حلب ونهبوها وخربوا أسوارها وأحرقوا ما بها من الذخائر والمنجنيقات[2].

أسوار وأبراج قلعة حلب

عنى الأيوبيون بتقوية أسوار وأبراج حلب بالإضافة إلى قلعتها السابق الحديث عنها، فهناك السور الذى يحيط بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم، وقد زود ذلك السور بأبراج بارزة قليلاً نحو الأمام وقد بلغ عددها 44 برجًا[3]، وهى مختلفة فى الحجم والشكل، وزودت بعناصر الدفاع الأخرى مثل فتحات السهام المختلفة، يرتبط بعضها إلى بعض بواسطة بدنات[4].

ومخطط سور القلعة الحالى غير منتظم الشكل ويقدر علوه باثنى عشر مترًا[5]، هذا بالإضافة إلى أن السور بنى بشكل محكم يقاوم رشقات المنجنيقات، حيث نجده أحيانًا وكأنه سور مزدوج رغبة فى المناعة وحسن الأداء، كما سهر أصحاب القلعة باستمرار على هذه الأسوار وأبراجها، وبناء هذه الأسوار والأبراج يعود إلى عهود تاريخية مختلفة، وخلف هذا السور الأبراج والبدنات كانت توجد ممرات دفاعية لتسهيل الوصول إلى المرمى الموجود فى الأبراج وتزويد الرماة بالعتاد والسلاح والمواد التموينية[6].

---

(1) ابن العديم، زبدة حلب، ج3، ص196، شوقى شعث، قلعة حلب، ص60.

(2) شوقى شعث، المرجع السابق، ص60.

(3) ذكرت الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها العمارة الإسلامية أن عدد أبراج القلعة 49 برجا، سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص862، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص66.

(4) البدن تطلق على جزء السور الواقع بين برجين، ويذكر الريحاوى أن هذا التعبير يستخدم فى المصادر العربية القديمة وفى النصوص الكتابية الموجودة على القلاع، وهى تعتبر عنصرًا مهمًا من عناصر الدفاع عن القلاع، ومن أمثلتها بدنات قلعة دمشق، إلا أنه فيما يظهر أن بدنات قلعة حلب قليلة الأهمية بسبب التحصينات الطبيعية التى تتمتع بها القلعة لذلك جاءت خالية من الرواشن على عكس قلعة دمشق، شوقى شعث، قلعة حلب، ص112، هامش 2، نقلا عن الريحاوى، قلعة دمشق، ص250ـ 251.

(5) صبحى صواف، قلعة حلب، ص26.

(6) عبد القادر الريحاوى، قلعة دمشق، ص113.

الأبراج

يمكن للباحث إذا أمعن النظر فى أبراج القلعة وأسوارها أن يخلص إلى أن الأبراج التى أقيمت للدفاع عن القلعة إما مفردة وإما مزدوجة، ومنها ما هو مرتبط بالسور الذى يحيط بالقلعة وهى فى أغلبها أبراج مربعة أو ذات أضلاع[1]، فالبرج الأول هو برج المدخل المتقدم يبلغ ارتفاعه نحو 20 مترًا مستطيل الشكل، وزود هذا البرج بفتحات كثيرة لرمى السهام كما حصن بسقاطة ذات ثلاث فتحات لصب الزيت المحروق أو الكلس الحار وفتحة أخرى للسهام، وفى الأعلى توجد سواتير بينها فجوات يمكن استعمالها كمرامى للسهام، ولهذا البرج بابان الأول صنع من الحديد المطروق السميك وهو ذو مصراعين، وجدد فى عهد الملك «الظاهر غازى الأيوبى»، أما الباب الثانى فقد صنع فى عهد السلطان «قنصوة الغورى»[2]، أما البرج الرئيسى فيتألف من برجين تفصل بينهما فجوة يُدخل منها إلى القلعة تقوم على هذا البرج قاعة العرش، وأغلب الظن أن البرجين من عمل الأيوبيين زمن «الملك الظاهر غازى» (589هـ/ 1186م - 613هـ / 1216م)، زود هذا البرج بمدخل ملتوٍ من النوع المعروف فى العمارة الإسلامية بالمدخل المنكسر أو الباشورة[3]، وذلك للمساعدة على امتصاص قوة الدفع والتى يتقدم بها العدو.

ملحقات قلعة حلب

يشتمل داخل قلعة حلب على بقايا القصر الملكى الذى يعود فى تاريخه إلى عهد السلطان «يوسف الثانى» حفيد الملك «الظاهر»، وعلى بعد خمسين مترًا منه توجد قاعة كبرى تسمى

(1) شوقى شعث، قلعة حلب، ص105.

(2) شوقى شعث، المرجع السابق، ص109.

(3) يعتقد البعض أن أقدم مثال للمداخل المنكسرة (الباشورة) Bent Entrance فى العمارة العربية الإسلامية وكان يوجد فى مداخل مدينة بغداد المدورة التى اختفت الآن، وقد انتقل هذا النموذج إلى مصر والشام فى العصر الأتابكى ـ الأيوبى أى فى حوالى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، ويعرف المؤرخون العرب القدامى مدخل الباشورة بأنه المدخل الذى ينعطف يمينًا ويسارًا مرة أو عدة مرات.
هذا وقد استخدم السلطان صلاح الدين الأيوبى هذا النموذج فى تحصين الباب الحديد فى قلعة القاهرة الفاطمية يوم كان وزيرًا للخليفة العاضد، ثم استخدمها فى العصر الأيوبى فى تحصين أبواب مدينة القاهرة، وأبواب قلعة الجبل فى مصر وفى قلاع بلاد الشام مثل قلعة حارم وقلعة عجلون وقلعة النجم وغيرها، وهذا النموذج قد انتقل إلى القصور والمنازل فيما بعد.
انظر شوقى شعث، قلعة حلب، ص105، فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية 1970م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص272 ص274 ـ 437.

قاعة «حبس الدم» تبدأ بغرفة مستطيلة ثم ينـزل إلى القاعة منه والقاعة موجودة أسفل مستوى سطح الأرض وينـزل إليها عن طريق درج، وكانت هذه القاعة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء مسقفة بأقبية، وكانت هذه القاعة بقلعة حلب تستخدم كسجن رهيب فى العصور الوسطى، ومن ثم أطلق عليها اسم قاعة «حبس الدم»(1).

هذا بالإضافة إلى أنه يوجد مسجد صغير يعرف باسم مسجد «إبراهيم الخليل»(2)، وقد بنى على أنقاض كنيسة لا يزال أحد أعمدتها فيه قائمة، ومن خلال النص التأسيسى الموجود فوق المدخل تبين أن مُنشئ هذا المسجد هو الأمير «نور الدين محمود بن زنكى»، حيث نجد على حجر مستطيل فوق المدخل كتابة نصها «أمر بعمارته الملك «الصالح نور الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمود بن زنكى بن أقسنقر ناصر» أمير المؤمنين بتولى «العبد شاد بخت» فى سنة خمسة وسبعين وخمسمائة (1179م)»(3).

هذا بالإضافة إلى قاعة العرش، وهى قاعة كبرى أمامها مساحة مستطيلة تزين جدرانها نقوش هندسية بارزة وفيها درج يؤدى إلى طريقين تدور حولها وتصل إلى سطح القاعة الذى كان بدوره محصنًا ويتوسط الباحة فوهة مستديرة تطل على الطريق العام لمدخل القلعة، ولها سقاطة مزدوجة لقذف الوسائل الحارقة على الغزاة الداخلين(4).

هذا بالإضافة إلى أنه كان يتوسط القلعة بناء كبير ينـزل إليه بدرج كان يستخدم كحمام ولكن الخراب لحق به، وعلى عتب مدخله عليه كتابة ترقى إلى عهد الملك «يوسف الثانى» حفيد الملك «الظاهر»(5).

(1) حبس فى هذا السجن فى العهد الإسلامى الكثير من رؤساء الصليبيين ومنهم جوسلان كونت أوروبا الذى مات فيه وبودوان دى بورج ملك بيت المقدس ورينو دى شاتيون أمير إنطاكية الذى ظل سجينا به 16 عامًا، انظر صبحى صواف، قلعة حلب، ص42.

(2) يقال فى سبب تسميته بمسجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما غادر (أور) متجها إلى حران، وصل إلى حلب واستقر مع جماعة فيا يسمى اليوم بالقلعة وكان كل مساء يحلب قطيعه وبقرته الشهباء ويأتيه جيرانه قائلين عند رؤيته حلب الشهباء إشارة إلى لون بقرته ثم يأخذون بالمجان نصيبهم من الحليب، ومن هنا جاء حسب هذه الأسطورة اسم حلب الشهباء وسمى الموضع الذى نـزل فيه سيدنا إبراهيم باسم مسجد إبراهيم، انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص53 ـ 54، Saouaf, op.cit, p32.

(3) Saouaf, Ibid , p 3.

(4) Saouaf , Op.cit, p42 .

(5) صبحى صواف، قلعة حلب، ص58.

ملاحظات مهمة على قلعة حلب وأسوارها

(1) تعتبر قلعة حلب مدينة محصنة داخل سور عال[1]، فقلعة حلب تعد من أجمل وأعظم التحصينات العسكرية التى وصلت إلينا من العصور الوسطى، وهى تنطق بمدى ما بلغه المسلمون فى العمارة الحربية من تفوق ومهارة[2].

(2) تتميز القلعة بأنها نموذج فريد من نماذج العمارة العسكرية فى سوريا بل فى الشام كلها، وقد أدت وظيفتها الدفاعية ضد الغزاة، وبفضل قلعة حلب ظلت حلب مرفوعة الجبين، وحافظت على هيبتها وقوتها عبر السنين، من هنا أصبح على السلاطين والولاة أن يبذلوا قصارى جهدهم فى سبيل أن تظل قلعتهم قوية ومنيعة وفى قوتها وجبروتها قوة ومناعة لهم، فقلعة حلب تاج المدينة بحق ورمز سلطانها، وقد لا يكون هناك مغزى كبير لاحتلال المدينة دون احتلال قلعتها، وفى المرات القليلة جدًّا التى تم اقتحامها أو الدخول إليها صلحًا أو ببذل الأمان تكبد العدو ضحايا كثيرة لمناعتها وتعدد عناصرها الدفاعية المعمارية واستشهد الكثيرون من المدافعين عنها[3].

(3) إذا أردنا عقد مقارنة بين العناصر التحصينية فى قلعة حلب وبعض القلاع العربية المعاصرة نجدها متشابهة، مما يدل على شيوع ذلك النمط التحصينى فى بلاد الشام وحتى فى مصر، ويمكن مقارنة العناصر التحصينية ووجودها فى بعض القلاع العربية المعاصرة لقلعة حلب مثل قلعة دمشق وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة القدس وقلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة النجم، وغيرها من القلاع المنتشرة فوق التلال والسهول وبالقرب من الأنهار وتقاطع الطرق، ونظرًا لأن معظم القلاع تعود فى معظم عناصرها التحصينية الظاهرة من أسوار وأبراج ومداخل إلى العهدين الأيوبى والمملوكى، ويعزو «سوفاجيه» التشابه الموجود بين القلاع وخاصة بين قلعتى دمشق وحلب إلى أنه جاء عن طريق استخدام الفنيين والعمال من أهل حلب الذين اشتهروا بصناعة البناء الحجرى وما زالوا حتى الآن[4].

(4) عنى الأيوبيون بتقوية أسوار المدينة، ويمكن أن نميز الآثار الأيوبية فى أماكن عديدة من السور وفى أجزاء معينة من أبواب المدينة كباب إنطاكية وباب قنسرين وباب النصر، وفى

(1) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن فى العصور الإسلامية، العمارة وزخارفها، الطبعة الأولى 1989م، مكتبة الفكر، ص110.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق، بين الآثار الإسلامية فى العالم، الإسكندرية 1372هـ / 1953م، ص42.

(3) شوقى شعث، قلعة حلب، ص98.

(4) نقلاً عن شوقى شعث، المرجع السابق، ص115.

الأقسام السفلية من أبراج القلعة، ولا سيما أبراج المدخل الرئيسى ومجموعة الأبواب المفتوحة فى دهليز المدخل، والباب الأول يمتاز بالنحتية المنقوش عليها ثعابين ملتفة، أما الباب الثالث فنجد عليه أسدين بارزين، ومن الآثار الأيوبية أيضًا مصاريع الأبواب الثلاثة الجديدة التى تحمل اسم «الظاهر غازى» وتاريخ صنعها عام (606هـ/ 1209م – 608هـ / 1211م[1]).

(5) قامت مديرية آثار حلب عام 1983م بالتنقيب الأثرى فى منطقة باب الفرج بحلب وأسفرت الأعمال عن كشف جزء مهم من سور المدينة القديمة وعن برج الثعابين، وأكدت النتائج أن هذه الأجزاء ترجع إلى العهدين الزنكى والأيوبى[2].

قلعة «صلاح الدين» (صهيون)[3]

الموقع

تقع قلعة صهيون إلى الشرق من اللاذقية[4] على جبل العلويين مباشرة[5] وهى فى التقاء

(1) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية وخصائصها وآثارها فى سوريا، دار البشاير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، 1419هـ / 1999م، ص156.

(2) الحوليات الأثرية العربية، مجلة تبحث فى آثار الوطن العربى، المجلد 33، الجزء الأول، 1983م، ص135.

(3) صهيون، هى حصن من أعمال حمص بالقرب من ساحل البحر، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص100. قلعة صهيون قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد وهو نقر فى حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص164، ذكر عنها ابن بطوطة فى كتابه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «هى مدينة حسنة ولها قلعة جيدة»، ج1، ص61، ذكر عنها أبو الفدا «مدينة صهيون بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام، من مشاهير معاقل الشام وبقلعتها المياه كثيرة ومتيسرة من الأمطار، وهى على صخر أصم، وبالقرب منها أودية من المحمضات ما لا يوجد مثله فى تلك البلاد وهى فى ذيل الجبل من غربيه وتظهر من عند اللاذقية وبينهما مرحلة فى الشرق بميله إلى الجنوب عند اللاذقية»، انظر أبو الفدا، السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة، تقويم البلدان، طبعه وصححه، رينو مدرس العربية، والبارون مارك كوين دبسلان، طبع فى مدينة بالاس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة 1840م، ص257، ابن بطوطة، الرحلة، ص94.

(4) فولفغانغ مولر – فينر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلاد، مراجعة اللواء ركن سعيد طنان، مركز الدراسات العسكرية، دمشق 1982م، ص50، أجفان، القلاع فى فترة الحروب الصليبية فى بلاد الشام، ص142.

(5) أسامة سيد على، الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى، دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس 1996م، ص189، عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، العدد 15، 16، القاهرة 1969م، ص55.

واديين من الماء عميقين شديدى الانحدار[1]، قيل إنه حصن حصين[2] مبنى على حجر أصم[3] فهو من أشهر قلاع الشام[4]، وأهمها[5]، وهو فى الأصل قلعة بيزنطية الأصل تجسدت أهميتها فى الميزة البارزة لها والمتمثلة فى المناعة الطبيعية لموقعها[6]، إذ أن حصن صهيون يفوق الحصون[7] بقوته ومناعته وارتفاعه على الجبال[8] على حد قول «ابن الأثير»: «فهو قلعة منيعة وشاهقة صعبة المرتقى»[9]، وعليه خمسة أسوار وله فرضة على الساحل فى طرفه دخلة من الأرض كالجزيرة من البحر[10].

وتعتبر قلعة صهيون[11] من القلاع الإستراتيجية التى تعبر خير تعبير عن العمارة العسكرية الصليبية فى القرون الوسطى[12]، إذ أن الفرنج عملوا على تقوية هذا الحصن وجعلوا منه قلعة منيعة، نظرًا لما أضافوه إليه من أبراج حصينة[13] وضخمة وأسوار ملاصقة لها[14]، بحيث تصبح منيعة على أدوات الحصار المحسنة التى أخذ المسلمون يستخدمونها بالإضافة إلى الخنادق[15].

(1) ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين فى القرن الثانى عشر، ترجمة محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق 1982م، ص341، أسامة سيد، الظهير الشامى، ص190.

(2) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، هامش1، ص40، ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج3، ص436 ـ 437.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص145، أجفان الصغير، القلاع، ص142.

(4) أجفان الصغير، القلاع فى فترة الحروب الصليبية، ص142.

(5) أسامة سيد، الظهير الشامى.

(6) أسامة سيد، المرجع السابق، الصفحة نفسها، ص189.

(7) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص241.

(8) العماد الأصفهانى، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص208 ـ 209. يمكنك معرفة المزيد من التفاصيل عن قرية صهيون انظر: Max van Bercham, Voyage en syrie, pp267 - 278

(10) الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص208 ـ 209، ابن خلدون، العبر، ج5، ص313 ـ 314.

(11) استولى الصليبيون على القلعة الصغيرة صهيون (Soan) فى جبل النصيرية التى كانت تحمى المناطق الجنوبية الشرقية القريبة من إنطاكية، ولأهمية قلعة صهيون حولت إلى قلعة جبلية واسعة، لمزيد من التفاصيل انظر كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها فى الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين شمس 1991م، ص189.

(12) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص64.

(13) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص50، عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص55.

(14) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص55.

(15) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص64.

الوصف

أحيطت القلعة بالأسوار الحاجزة، ويحيط بمدخلها نتوءان كل منهما على شكل دائرة تمثل وسيلة دفاع أخرى خلف السور، ومن الجنوب والجنوب الشرقى كانت هناك الأبراج المستطيلة كوسيلة دفاع أخرى[1]، ومن المحتمل أن وسائل الدفاع فى قلعة صهيون كانت ترمى إلى عزل وإبعاد العدو المهاجم للقلعة إذا كسب موطئ قدم فى أحد الأبراج أو فى جزء من السور الحاجز[2]، وكان من السهل إبقاؤه فى ذلك الموضع ومن ثم عزل الخطر عن الحامية، ويأتى بعد ذلك الخندق لإتمام عملية العزل، وعلى الرغم من حصانة ومناعة هذا النوع من القلاع[3]، إلا أنه سلاح ذو حدين، ذلك أنه يسبب صعوبة فى الإمداد السريع للجزء المعرض لهجوم العدو[4].

تتكون القلعة من طابقين وشرفة، وهى صرح شامخ من المتانة[5] التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية، وشيدت فيها الأبراج المستطيلة سميكة الجدران خاصة فى الواجهة الجنوبية، هذا بالإضافة إلى سور متين[6].

ومن الجدير بالذكر، أن الفرنج عملوا على تقوية الواجهة الشمالية الشرقية، وللطابق السفلى أى القلعة السفلية بوابتان خاصتان بها كل واحدة على جانب[7]، وتعود الآثار المعمارية الموجودة داخل القلعة العلوية فى تاريخها إلى العهد البيزنطى[8]، وجزئيًا إلى

(1) Fedden, The Crusades Castles, p84.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص190.

(3) قيل إنها اشتهرت بتميزها وتفردها بطراز معمارى خاص فرنسى وقيل إنه يندر وجودها، انظر القلاع فى الحروب الصليبية، ماجستير، ص142،أسامة سيد، الظهير الشامى، ص190.

(4) Benvenisti, The Crusades in the holy land Jerusalem, p173

(5) قيل إنها من المتانة لوقوعها فوق الصخر الأصم، انظر أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص142.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص50.

(7) فولفغانغ مولر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) إن قلعة صهيون التى هجرت فى أواخر العصور الوسطى، وهى تمثل أشكال التحصين التى كانت شائعة فى أوائل القرن الثانى عشر ومنتصفه بوضوح أكثر من معظم القلاع السورية الأخرى، انظر فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص50.

العهد الفرنجى[1]، وقد كانت مهمة القلعة هى ستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى إنطاكية[2].

تاريخ القلعة

استولى البيزنطيون على موقع هذه القلعة من الحمدانيين فى حلب خلال حملة قاموا بها فى شمال سوريا[3]، وفى أوائل القرن الثانى عشر استولى الفرنج على القلعة ربما بعد أن استولوا على اللاذقية عام 502هـ/ 1108م[4].

وفى عام 584هـ/ 1188م، سار السلطان «صلاح الدين» إلى قلعة صهيون[5] وحاصرها وضايقها فطلب أهلها الأمان، وتسلم السلطان قلعة صهيون واسترجعها من يد الفرنج[6]، وسلمها إلى أمير من أصحابه هو «ناصر الدين منكورس»[7]، وعندما أعاد «صلاح الدين» القلعة[8] من أيدى الصليبيين عرفت باسمه أيضًا[9]، ونتيجة لأن محيط القلعة كان كبيرًا جدًّا على حاميتها الصغيرة، فإنها كانت لا تستطيع الدفاع عنها[10]، بعد ذلك تسلمها السلطان «الظاهر بيبرس»[11]، وهى الآن مهدمة[12].

(1) ر.س.سميل، القلاع فى الحروب الصليبية، ص344.
(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص189، عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55.
(3) من المرجح أن التحصينات والقلعة وربما السورين الخارجيين أقيمت جميعًا منذ ذلك الحين فما بعد، انظر فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص51.
(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص51.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، هامش1، الحموى، معجم البلدان، ج3، ص346 ـ 347، ر.س.سميل، القلاع فى الحروب الصليبية، ص344، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص74، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص164، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص100.
(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، هامش 1، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع فى بيروت فى المطبعة العمومية الكاثوليكية 1983م، ج6، ص114 ـ 115.
(7) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص74.
(8) أبو الفدا، المرجع السابق، ص172، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص591، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص93 ـ 94.
(9) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص51.
(10) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(11) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(12) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

قلعة عجلون (الربض)[1]

الموقع

تقع هذه القلعة فى شمال غرب الأردن على جبل مطل على الغور يعرف بجبل عوف[2]، على بُعد حوالى ثلاثين ميلاً غرب العاصمة عمان، فى الشعاب البعيدة للكتلة الجبلية المتاخمة لوادى نهر الأردن من جهة الشرق[3] وعلى وجه التحديد فوق نهد صخرى على ارتفاع 3000 قدم من سطح البحر[4].

سبب بناء قلعة عجلون

لقد كان هناك من الأسباب التى جعلت «صلاح الدين» يصدر أمره ببناء قلعة عجلون، وهى الحفاظ على خطوط المواصلات بين دمشق وساحة العمليات «الحربية ببيت المقدس»، نظرًا لما تمثله الطرق من شريان حيوى بالنسبة للجيوش، كذلك لا بد من مراقبة تحركات الصليبيين فى الجزء الشمالى[5] فى فلسطين بعد أن قاموا ببناء قلعة كوكب الهوى من بيسان وطبرية، ومنع أى حركة توسع لهم فى المنطقة، كما أن الحفاظ على طريق المواصلات (أرض السواد) يتطلب استتباب الأمن وطاعة نواب السلطان وقطع دابر حركات العصيان

(1) عجلون، حصن وربض يسمى «الباعوثة» والحصن عن البلد على شوط فرس فى جبل الغور الشرقى قبالة بيسان، وحصن عجلون حصن منيع مشهور يظهر من بيسان وله بساتين ومياه جارية وهى شرقى بيسان وهو حصن محدث بناه عز الدين أسامة من أكبر أمراء السلطان صلاح الدين، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص245، النجوم الزاهرة، ج6، ص304، هامش 5.
عجلون، هى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة، مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وقف على تهذيبه أحمد العوامرى بك، ومحمد أحمد جاد المولى بك، جزءان، القاهرة، طبع المطبعة الأميرية ببولاق 1938م، ج1، ص50، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص105، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص59.
قيل إن مكان القلعة يعرف باسم راهب اسمه عجلون وهو حصن جليل على صخرة وله حصانة ومنعة منيعة.

(2) العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، ص118 ـ 119، أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص17.

(3) أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص143.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص74.

(5) اختلف الوضع فى الجنوب الشرقى للأردن عن الوضع فى الشمال، فقد سيطرت القوات الصليبية على قلاع متباعدة المسافات وهى الشوبك والعقبة والكرك، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ص10.

والتمرد، لا سيما تلك التى كان يتزعمها بنو عوف فى عجلون فى عهد الدولة الأيوبية، من أجل ذلك كله أصدر السلطان «صلاح الدين الأيوبى» عام 580هـ / 1184م أمره إلى عامله فى عجلون الأمير «عز الدين أسامة بن منقذ» بالشروع فى بناء قلعة هناك[1].

ويعين ثاقبة وقع اختيار «أسامة بن منقذ» على قمة جبل عوف لما له من خصائص إستراتيجية تمهد الطريق لتحقيق ما يهدف إليه سيده السلطان، فمنه يمكن مراقبة المنطقة الممتدة على طول وادى الأردن من طبرية حتى البحر الميت، كما أنه يشرف على سلسلة جبال فلسطين الممتدة من القدس إلى صفد، هذا بالإضافة إلى إشرافه على الممرات الثلاثة التى تؤدى مباشرة إلى المناطق المرتفعة فى الجانب الشرقى من نهر الأردن وهى وادى كفرنجا فى الجنوب ووادى راجب ووادى اليابس فى الشمال، وعلى قمة هذا الجبل شرع «أسامة» ببناء قلعة عجلون سنة 580هـ / 1184م وحاول بنو عوف منعه، فأقنعهم أنه إنما يبنيها لحمايتهم من الفرنج، عندئذ أعانوه على البناء، فلما استدعى مشايخهم ومد لهم سماطًا، فلما أكلوا أمر غلمانهم بالقبض عليهم وحبسهم[2].

تاريخ القلعة

عندما أقطع الملك «العادل أبو بكر بن أيوب» جبل عوف إلى الأمير «عز الدين أسامة بن منقذ»[3] أسس «ابن منقذ» القلعة فى (580هـ/ 1184م - 581هـ / 1185م)، لحماية الجناح الغربى لمنطقة دمشق[4] وطريق المواصلات الحيوى بين دمشق والقاهرة ويسمى «درب الحج»، وكان ضعيف الحماية فى ذلك الوقت، وببنائها دخل بنو عوف تحت طاعة السلطان، وارتفع خصم عنيد لقلعة كوكب الهوى، أصبحت معه حركات الصليبيين مرصودة وبدأت القلعة تلعب دورًا كبيرًا فى تحقيق أهداف الدولة الإسلامية، وكان بناؤها على خط مواز مع قلاع الكرك والشوبك وكان إيذانًا بقرب سقوط هذه القلاع بيد المسلمين.

(1) إلى الغرب من عجلون وعلى بُعد 4كم ترتفع القلعة فوق قمة الجبل الذى حمل اسم قبيلة بنى عوف من جرم قضاعة الذين نـزلوا فى بداية الدولة الفاطمية، وكانوا أمراء أولى بأس لا يدخلون تحت طاعة ولم يزالوا كذلك إلى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، شقيق صلاح الدين وواليه يومئذ على حلب، فأقطع ناصيتهم للأمير عز الدين أسامة بن منقذ، أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبى، سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص114، القلقشندى، ج4، ص86، 105 سنة 1914م، ابن شداد، النوادر، ص86، 1962م.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، 1962م، ص87، سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص115.

(3) عز الدين أسامة بن منقذ، أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة 508هـ، انظر مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، هامش 1، ص119.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص75، أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص143.

فبعد سنوات ثلاث فقط من إقامتها تحقق النصر للسلطان «صلاح الدين الأيوبى» على جيوش الصليبيين فى معركة حطين 583هـ / 1187م، ثم توالت الانتصارات على أرض فلسطين واستسلمت قلاع الكرك والشوبك، وكانت قلعة عجلون خلال تلك الفتوحات قاعدة للتخزين والإمداد والتجهيز، ومحطة للإنذار المبكر ومركزًا للاتصالات وحلقة وصل بين دمشق وفلسطين ومصر[1].

وبقيت عجلون إقطاعًا للأمير «عز الدين أسامة» حتى (608هـ / 1211م)، إذ انتزعها منه الملك «المعظم عيسى» (592هـ/ 1196م - 624هـ/ 1227م)، وأقطعها الأمير «عز الدين أيبك المعظمى»[2].

هذا وفى عام 611هـ / 1214م، قام الأمير «عز الدين أيبك المعظمى» بإضافة برج آخر إلى القلعة فى الجهة الجنوبية[3] من الجدار الشرقى لهذا البرج، وبعد الملك «المعظم عيسى» دخلت قلعة عجلون ضمن الصراع الذى كان قائمًا بين الملك «الناصر داود» (624هـ/ 1127م - 647 هـ / 1249م)، صاحب الكرك وبين الملك «الأشرف» صاحب دمشق وبقيت تابعة إلى مملكة دمشق حتى وفاة الملك «الأشرف» عام 635هـ / 1237، حيث استعادها «الناصر داود»[4]. وفى عام (643هـ / 1245م)، أصبحت القلعة تحت سيطرة الملك «الصالح نجم الدين أيوب» صاحب مصر[5]، وبعد وفاته سنة (648هـ / 1250م) استولى عليها الملك «صلاح الدين يوسف محمد بن الظاهر أيوب» صاحب حلب ودمشق، فقام بتجديد البرج الثانى فيها، والواقع فى الزاوية الشمالية الشرقية منها وثبت ذلك فى نقش مثبت فى الواجهة الجنوبية من هذا البرج، وتعرضت القلعة لغزو المغول، وفى عهد المماليك تم القضاء على المغول فى معركة عين جالوت فدخلت قلعة عجلون ضمن منطقة نفوذ المماليك[6].

وصف الحصن

المدخل

يقع المدخل فى الجهة الشرقية من القلعة ويعد المدخل نموذجًا متقدمًا للمدخل المنكسر،

(1) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص116.
(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص117.
(3) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، ص68.
(4) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص175.
(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص326.
(6) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص116 ـ 117.

هذا ويشير «كريزول» بأن مثل هذا المدخل وجد فى مدينة بغداد عند تأسيسها[1]، ولم يعثر على أمثلة حية من العهد الإسلامى قبل العصر الأتابكى والأيوبى فى مصر والشام، وقد وجد مثل هذا المدخل فى قلعة حلب وحصن الأكراد فى سوريا، كما استخدمه «صلاح الدين» للباب الجديد أحد أبواب حصن القاهرة الفاطمية أيام وزارته، ثم استعملها فى العصر الأيوبى فى أسوار القاهرة وأبواب القلعة التى شيدها هناك 572هـ/ 1176م[2].

الأبراج

على يمين المدخل يقوم برج مبنى فوق الصخرة من الملاحظ فيها أن حجم الأحجار التى بنى بها هذا البرج كانت ذات أحجام مختلفة[3]، هذا البرج يحتوى على عدة طوابق بها العديد من النوافذ وفتحات السهام، هذا بالإضافة إلى أن هناك برجًا آخر فى الداخل محاذيًا للمد[illegible]. بالإضافة إلى برج ب[illegible]ة الشمالية الشرقية[4]، هذا بالإضافة إلى وجود برج آخر فى الناحية الجنوبية للحصن، ويمكن وصـ[illegible]الأبراج من خلال مبنى القلعة المستطيل الشكل مساحته تقريبًا 70 مترًا شمال جنوب × 60 [illegible]، فهى يتوزع بين جدرانها ستة جدران منها ثلاثة أصابها الدمار هى الأبراج الثالث والرابع وا[illegible]

أما البرجان الأول والثانى فمن خلال التماثل بين طراز بنا[illegible] على الجدار الجنوبى للبرج الثانى يتضح أنه تم تجديدها فى عهد السلطان «صلاح الدين يوسف بن محمد بن الظاهر أيوب» (648هـ/ 1250م –659هـ/ 1260م)، والبرج السادس الواقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة، فبناء على النقش المثبت فى جداره الشرقى يتضح أنه أضيف إلى المبنى سنة (611هـ/ 1214م)، وإضافته إلى المبنى ألغت الوظيفة الدفاعية

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص197.

(2) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص138.

(3) سعد أبو دية، المتحف العربى، السنة الثانية العدد الثالث، جامعة اليرموك الأردن 1407هـ/ 1987م، ص53، محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربى، العدد الثانى 1407هـ/ 1986م، ص16 ـ 17.

(4) كان الغرض الأساسى من هذا البرج هو خدمة الحمام الزاجل فقد كانت القلعة تستخدم كمحطة للحمام الزاجل، وكان هذا الحمام يخرج من القاهرة إلى غزة إلى جنين ثم إلى قلعة الربض ومنها إلى أربد ثم إلى دمشق، وكان هذا الخط البريدى على قدر كبير من الانتظام والسرعة فى نقل الأخبار بين أجزاء المملكة الواسعة الأرجاء، انظر سعد أبو دية، قلعة الربض (عجلون)، المتحف العربى، السنة الثانية، العدد الثالث، جامعة اليرموك، الأردن 1987م، ص53، ومحمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربى 1986م، ص16 ـ 17.

للبرج السابع الذى أصبح ضمن مبانى القلعة الداخلية، وبحكم توزيع الأبراج على هذا النحو الذى أشرنا إليه أصبح مبنى القلعة مؤلفًا من فناءين مسورين، جنوبى غربى تحميه الأبراج الخامس والسادس والسابع وشمالى شرقى تحميه الأبراج الأول والثانى والثالث والسادس والسابع[1].

الخندق

تتمتع قلعة عجلون بموقع إستراتيجى يصعب تسلقه من الجهة الجنوبية، أما من الجهات الثلاث الأخرى فيسهل الوصول إليها، نظرًا لقلة الميل فى المنحدرات حوله، فقد تم حفر خندق أحاط بالقلعة مما أضفى على الموقع مزيدًا من القوة والمناعة، ونتيجة لدقة الاختيار وسلامة التخطيط فى البناء، فقد فشل أى غازٍ فى دخول القلعة عنوة[2].

إن إحاطة القلعة بالخندق استوجب وجود جسر لربطها بالمحيط الخارجى وكان تصميمه كجسر متحرك قد ضاعف من قيمة الخندق كخط دفاعى متقدم بالنسبة للقلعة، وفى ذلك دلالة على تقدم إستراتيجية القتال والبناء عند المسلمين، إذ انتشر استعمال الجسر فى معظم القلاع الإسلامية فقد رأيناه فى قلعة دمشق التى كانت مقر القيادة للسلطان «صلاح الدين»، وفى قلعة «صلاح الدين» (صهيون) 33كم شرق اللاذقية[3].

وفى قلعة حلب ارتكز الجسر على ثمانية أقواس متفاوتة فى الارتفاع، أما فى قلعة شيزر على نهر العاصى فى سوريا فقد استعمل جسر حجرى مؤلف من طابقين تحملهما قناطر حجرية، وكذلك فى قلعة بصرى فى حوران حيث بنى على الجسر القناطر الحجرية، هذا ويوجد أقدم مثل إسلامى منها فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده «صلاح الدين» عندما كان وزيرًا للخليفة «العاضد الفاطمى» بين سنتى (564هـ / 1168م و567هـ / 1171م)، وعندما دخل الصليبيون إلى البلاد استعملوا مثل هذه الجسور فى بعض القلاع التى احتلوها مثل حصن الأكراد فى سوريا والكرك فى الأردن[4]، وتعود أهمية الخندق فى أنه يشكل عاملاً دفاعيًّا كبيرًا ضد من يريد الوصول إلى الحصن ومهاجمته للاستيلاء عليه، كما يعتبر عاملاً إستراتيجيًّا من ناحية أخرى، أى أنه عند امتلائه بالماء يساعد المدافعين على مواجهة أى

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص134.
(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص121.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص135.
(4) سعد المومنى، المرجع السابق، ص135 ـ 136:

حصار من قبل المهاجمين[1]، هذا بالإضافة إلى وجود خزان للمياه فى الجهة الجنوبية الشرقية خارج أسوار الحصن[2].

أهمية حصن عجلون

يعتبر حصن عجلون من أهم الحصون الإسلامية التى أنشئت فى الفترة الأيوبية سواء من حيث إحكام البناء أو من حيث الموقع الإستراتيجى الذى شغله هذا الحصن، هذا وتقع أهمية حصن عجلون فى أنه يمثل نقطة حراسة تسيطر وتراقب مساحة كبيرة تطل عليها، هذا بالإضافة إلى أنه مرقب حربى إقليمى[3]، أضف إلى ذلك أن القلعة اعتبرت ثقلًا موازنًا لقلعة كوكب الهوى الصليبية على المرتفعات بين طبرية وبيسان[4]، والقلعة ما تزال محفوظة فى حالة جيدة إلى حد ما.

بيت المقدس وأسواره

احتل الصليبيون القدس عام 493هـ / 1099م، ووقفوا أمام أسوار بيت المقدس من جهاتها الأربع، ولم تكن البلاد فى هذا الوقت قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعضع الحكم السلجوقى والخلافات فى التنافس على العرش، فانهارت مقاومة المسلمين بعد أن نفد ما لديهم من العدة والمؤن.

ويمكن القول إن البطل «الناصر صلاح الدين» ما كاد ينتهى من معركة حطين[5] سنة 583 هـ/ 1187م[6]، حتى راح يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس التى حصنت غاية التحصين[7] فحاصرها من الناحية الغربية[8]، ولكن سرعان ما أدرك أن تلك الناحية لا تصلح

(1) محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون، ص16.

(2) محمود إبراهيم حسين، المرجع السابق، ص17.

(3) محمود إبراهيم حسين، المرجع السابق، ص36.

(4) سعد أبو دية، قلعة الربض، المتحف العربى، العدد الثالث، ص54.

(5) أبو شامة، الروضتين، ص260.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص36.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، أحداث سنة 583هـ، ص323، ابن العبرى، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون، الطبيب الملطى، تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه الأب أنطون صالحى اليسوعى، المطبعة الكاثوليكى للآباء اليسوعيين فى بيروت 1890م، ص384.

(8) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص36.

للهجوم[1]، فنقل جيشه إلى الناحية الشمالية[2] وعسكر فى البطحاء التى تقوم عليها الأحياء المعروفة اليوم بالمسكوبية وباب العمود وباب الساهرة، وقضى هناك عشرين يومًا قبل أن يتمكن من فتح المدينة، فقضاها فى تهيئة وسائل القتال، وكانت قوة الدفاع فى داخل المدينة مؤلفة من ستين ألف مقاتل، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع[3].

هكذا تم لـ«صلاح الدين» فتح بيت المقدس، وتم ذلك فى يوم الجمعة الموافق 27 رجب عام 583هـ / 2 أكتوبر عام 1187م[4]، وبعد أن غادر «صلاح الدين» القدس، عاد فزارها فى السنة التالية 584هـ / 1188م وفيها اهتم بعمارة سور المدينة[5] فعمره وجدد ما تهدم منه وأنشأ عددًا من الأبراج الحربية فى الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل، وحفر حول السور الخنادق[6]، لئلا يسهل على الصليبيين الدنو من المدينة، وكثيرًا ما رآه الناس وهو يشارك العمال فى نقل الحجارة وأعمال البناء[7].

وقيل فى تعمير القدس «سار السلطان إلى القدس لسبع بقين[8] من ذى القعدة ونـزل داخل البلد وارتاحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان فى تعمير القدس وتحصينها وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر، فكان

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص212.

(2) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص36، غريغوريوس، أبو الفرج الملطى، تاريخ مختصر الدول، ص 384، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، أحداث سنة 583هـ ص323، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص403 ـ 405.

(3) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص77، وقيل عن المدينة، فأما مدينة القدس فعلى جبل مدينة مستديرة فى وسطها السور المحيط على الصخرة، لمزيد من التفاصيل انظر، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص137.

(4) العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج4، ص274 ـ 275، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص96.

(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص100، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص201، عمر الصالح البرغوثى، وخليل طوطح، تاريخ فلسطين، عنى بنشره بولس وديع سعيد، مطبعة بيت المقدس 1923م، ص199.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص217.

(7) ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص348.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص217، عمر الصالح البرغوثى، تاريخ فلسطين، ص199، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص283، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، تحقيق د/ عصام شبارو، ص201.

يجتمع عند العمالين فى اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام»[1]، وكذلك قيل عن أولاده وأمرائه[2] وعن أخيه «العادل»[3].

هذا وقد ذكر «العماد الأصفهانى»: «صمم السلطان على حفر خندق عميق، وإنشاء سور ونيق، وأحضر من آثار الفرنج قرب ألفين ورتبهم فى العمارتين، وجدد أبراجًا حربية من باب العمود إلى باب المحراب، وقسّم بناء السور فى مواضعه على أولاده وأخيه الملك «العادل» وأمرائه، فسار يركب كل يوم ويحض على بنائه ويخرج لموافقته على حمل الحجر إلى مواضع البناء ويتولى ذلك بنفسه... وبجماعة خواصه والأمراء»[4].

وقد كان السبب فى هذا الاهتمام الواسع من جانب «صلاح الدين الأيوبى» بتجديد عمائر بيت المقدس الحربية هو النشاط الصليبى المتمثل فى الحملة الصليبية الثالثة[5]، والدليل على حصانة أسوار بيت المقدس أنه حينما جاءت الحملة الصليبية الثالثة يقودها ملوك أوروبا وقف «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا عاجزًا عن الزحف على بيت المقدس أمام حصانة أسوارها التى عزز من مناعتها الخندق الذى حفره «صلاح الدين» حولها[6]، كما سبق أن ذكرنا.

وفى عهد خلفاء «صلاح الدين» وبالتحديد فى مستهل عام 616هـ/ 1219م، خرب «المعظم عيسى» سور بيت المقدس خوفًا من استيلاء الفرنج عليه[7]، وذلك بعد مشورة من أشار عليه بذلك فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه[8]، فشرع فى تخريب السور فى أول يوم من المحرم عام (616هـ/ 1219م) فهرب من الشام أهله خوفًا من الفرنج أن يهجموا عليه ليلاً أو نهارًا[9].

(1) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص80، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص201، انظر أيضًا، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص126.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص346، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص375، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص201.

(3) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص80.

(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص565.

(5) سوسن سليمان، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، تجديد صلاح الدين الأيوبى للعمائر الإسلامية فى بيت المقدس، العدد الخامس 1991م، ص295.

(6) سوسن سليمان، المرجع السابق، ص297.

(7) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص122، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص176، العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج5، ص65 – 66.

(8) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج7، ص202.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص80.

وفى عام (628هـ / 1230م)، وصَّى الملك «الكامل» بثلاثمائة ألف دينار يدفعها لعمارة القدس وغيرها[1]. وفى عام (645هـ / 1247م) كانت عودة السلطان «الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل» من الشام إلى الديار المصرية، وزار فى طريقه بيت المقدس وفرق فى أهله أموالا كثيرة وأمر بإعادة سوره[2]، كما كان فى أيام عم أبيه الملك «الناصر صلاح الدين» فاتح القدس[3].

القلعة فى بيت المقدس

كان لبيت المقدس قلعة مستطيلة مبنية بالحجر شاهدها الرحالة والجغرافيون العرب وأشاروا إليها، وقالوا إن القادم إلى القدس من جهة الرملة تكون القلعة أول بناء يقع نظره عليه فهى مرتفعة شامخة على كتلة صخرية تشرف على القسم الغربى والجنوبى من مروج القدس[4].

وتقع القلعة فى الجهة الغربية ضمن أسوار المدينة وفوق باب الخليل مباشرة، وهى قلعة حصينة كبيرة كانت تؤدى دورها فى الدفاع عن أحد المداخل الرئيسية للمدينة المقدسة، وكانت مقر إقامة والى بيت المقدس، وظلت تقوم بدورها العسكرى فى الدفاع عن المدينة أثناء الاحتلال الصليبى، وعندما استرد «صلاح الدين الأيوبى» بيت المقدس عام (583هـ / 1187م) قام بترميم القلعة وزودها بالرجال والعتاد وعين فيها واليًا يساعده بعض الأجناد[5].

وفى عام (610هـ / 1213م)، قام الملك «المعظم عيسى» صاحب دمشق بإعادة ترميم القلعة وزاد فى أبراجها برجًا وسجل على لوحة تأسيسية نقش عليها ما يلى «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، خيبر نصر المؤمنين، عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين «أبى المظفر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب بن شاذى» وتولى عمارته «عز الدين عمر بن يغمر المعظمى» فى شهور سنة

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص209.

(2) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص86، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص211، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص327.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص173.

(4) كنوز القدس، ص128، عبد العليم عبد الرحمن خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس (دراسة فى جغرافية المدن) السعودية 1981م، ص171.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص171.

عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين وبشر الفقير إلى رحمه الله «خطلخ المعظمى»[1]، غير أنه نتيجة للحملة الصليبية الخامسة على دمياط تخوف «المعظم عيسى» من نتيجة هذه الحملة، لذلك أسرع «المعظم» إلى تدمير عدة حصون قوية فى فلسطين خشية سقوطها فى أيدى الصليبيين، بل أكثر من هذا كله، فقد فكر «المعظم» فى هدم مدينة بيت المقدس[2]، وشرع فعلاً فى هدم أبراجها وسورها لئلا يحصل منها الصليبيون على أية فائدة ولم يبق إلا على برج داود أحد أبراج القلعة[3]. وفى عام (626هـ / 1239م)، عقدت اتفاقية يافا بين السلطان «الكامل محمد» سلطان مصر والإمبراطور «فريدريك الثانى» قائد الحملة الصليبية السادسة، والتى بمقتضاها أخذ الصليبيون بيت المقدس بشرط أن يبقى على ما هو عليه من الخراب ولا يجدد سوره[4]، إلا أن الفرنج انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بخلافاتهم الداخلية فعمدوا إلى بناء القلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وعندما قام «الناصر داود» أمير الكرك بتحرير بيت المقدس من سيطرة الصليبيين (637هـ / 1239م) تحصن الصليبيون ببرج داود، فحاصره «الناصر داود» حتى تمكن منه فأمر بهدمه وسواه بالأرض[5]. أما القلعة نفسها، فقد أرسل للخليفة فى بغداد يستشيره أيهدمها أم يبقيها لتكون معقلاً لبيت المقدس وموئلاً للمجاورين فيه.

ويبدو أن «الناصر داود» أبقى القلعة ولكنه بنى مكان برج داود مسجدًا وجعل فيه القوام والمؤذنين[6]، وهكذا طهر الملك «الناصر» القدس الشريف من أيدى الفرنج[7].

---

(1) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص172، عبد العليم خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس، ص171.
Van Bercham, Corpus Inscription (un Jerusalem ville) Le caire, 1922, p132.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص928.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص172.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص967.

(5) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص165، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص73، عمر الصالح البرغوثى، تاريخ فلسطين، ص206، ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص246، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص247.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص173.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص247، أحداث سنة 637هـ، عندما دخلت سنة 637هـ قصد الناصر داود القدسى، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضًا فإنه لما خربت القدس أولاً لم يخرب برج داود فخربه من هذه المرة، انظر أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص165.

أبواب القدس

باب الناظر (تجديد)

هو باب قديم، جددت عمارته فى عام 600هـ / 1203م فى عهد الملك «المعظم عيسى» فى العصر الأيوبى، وقد كان هذا الباب يعرف بـ«باب ميكائيل»، ثم بـ«باب علاء الدين البصير»، ثم بـ«باب الحبس»، حيث كان بابًا ضخمًا محكم البنيان، وتوجد فى أعلاه صنج معشقة، ويغطى فتحته مصراعان من الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس[1].

باب الغنم

وهو من أبواب القدس القديمة، وقد دخل الخليفة «عمر بن الخطاب» القدس منه، ويسمى هذا الباب «باب شرف الأنبياء» و«باب الدوادارية»، و«باب الملك فيصل»، وكان المجلس الإسلامى الأعلى قد سماه «باب الملك فيصل» تخليدًا لذكرى تبرعه لعمارة المسجد الأقصى، وقد جدد هذا الباب فى عهد الملك «المعظم عيسى» فى عام 610هـ / 1213م فى العصر الأيوبى[2].

باب حطة

هو من أقدم أبواب الحرم الشريف، جدد عدة مرات وآخرها تم تجديده فى عهد الملك «المعظم عيسى» فى سنة 617 هـ / 1220م فى العصر الأيوبى، ويتكون هذا الباب من مدخل عالى الارتفاع يغطيه مصراعان من الخشب القوى وتحف جانبيه مصطبتان حجريتان جميلتا الشكل، وقد فرشت أرضيته بالبلاط الحجرى القديم[3].

باب السلسلة وباب السكينة

وهما بابان من الأبواب الرئيسية للحرم الشريف، الباب الجنوبى منهما مفتوح، وهو باب السلسلة والباب الشمالى منهما مغلق، ويسمى «الباب المغلق»، أو «باب السكينة»، أو «باب السحرة»، وكان يعرف قديما بـ«باب داود»، ويعود هذان البابان فى إنشائهما أو تجديدهما إلى العصر الأيوبى، ويتكونان من مدخلين عاليى الارتفاع، تعلوهما صنج حجرية معشقة،

(1) كنوز القدس، ص118.
(2) المرجع السابق، ص132.
(3) المرجع السابق، ص136.

ويغطى فتحة المدخل فى كل منهما مصراعان من الخشب القوى، وقبل المدخلين من الخارج منطقة أقيمت عليها قبتان ترتكزان على أربعة عقود مدببة مربعة تقوم بدورها على جدارى البابين والدعامات المقابلة لها، وذلك بعد ملء أماكن التقاء رجلى كل عقدين بحشوات بنائية لإيجاد قاعدة مثمنة، وإقامة القبة عليها[1].

قلعة حمص[2]

تشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل، جزء منه طبيعى وجزء آخر اصطناعى، وتتخذ شكلاً مستديرًا فى ذروته ويبلغ قطرها نحو 275 مترًا، وتحاط بمنحدر ينحط بسرعة نحو خندق كان يحدق به، وقد ملأ اليوم بالأنقاض، وزالت كل منشآت القلعة الداخلية ولم يبق منها شىء[3].

تاريخ القلعة

تولى «صلاح الدين» قيادة الحروب الصليبية، ووضع يده على حمص فى مستهل جمادى الأول 570هـ / 1174م[4]، فقيل إنه نازل المدينة فملكها ولم يشتغل بالقلعة[5]، أما القلعة فكان ملكه لها فى الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة أى عام (570هـ / 1174م)[6] ومنحها بعد أربع سنوات إلى «محمد بن شيركوه»، وفى عهد ابنه «أسد الدين شيركوه» الثانى

(1) المرجع السابق، ص115.

(2) حمص مدينة قديمة جليلة اسمها القديم سورية كانت معظمة عند ملوك الروم، وهى قاعدة من قواعد الشام العظام وقيل إنها كانت دار ملك البيت الأسدى يعنى أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقيل لم يزل لملكها فى الدولة الأيوبية سطوة تخاف، وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة، ويحيط بها وبالبلد سور حصين هو أمنع من القلعة وأسمح من أبراجها فى الرفعة، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص112، ابن جبير، أبو الحسين محمد أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى، الرحلة، كتاب رحلة بن جبير، الشركة العالمية للكتاب، ش.م.ل، ص182، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص124 ـ 125، هذا وقد ذكر عنه أيضًا أنه بلد مشهور قديم كبير مسور، وفى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال كبيرة، وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق، قيل إنه بناه رجل يقال له حمص بن المهر بن جان بن مكنف، حمص الجرح يحمص حموصا انحمص ينحمص انحماصًا إذا ذهب ورمه، وبحمص من المزارات والمشاهد منها مشهد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فيه عمود موضع إصبعه، وبها دار خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ وقبره فيها يقال، انظر الحموى، معجم البلدان، ج2، ص302 - 303.

(3) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر 1960م، ص27.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص130، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص24.

(5) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص375.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص58، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص376.

وخاصة فى عام 604هـ / 1207م، وفى عهده نازل الفرنج حمص فلم يقدر على دفعهم ومنعهم فلم ينجده إلا «الظاهر غازى» صاحب حلب[1].

هذا وقد كانت حمص مركزًا مهمًّا من مراكز الجهاد الممتدة على طول خط داخلى فى سوريا الداخلية مارًّا على حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وبصرى وصلخد وغيرها[2]، هذا وقد تعاقب على حمص خمسة ملوك من الأيوبيين، قاموا بأعباء الدفاع عنها ودعموا أسوارها وأصلحوا قلعتها[3]، وقد قيل عن قلعة حمص إنها من أشهر القلاع التى تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها[4]، وهذه القلعة بها برجان من العهد الأيوبى يقع أحدهما فى الزاوية الشمالية الشرقية، والثانى فى الجهة الشمالية الغربية[5]، والقلعة اليوم متهدمة[6] ولم يبق منها سوى آثار ضئيلة[7].

أبواب حمص

ما يزال منها الباب المسدود الواقع إلى الشمال الغربى من القلعة[8]، وهو الذى كانت عليه كتابة تشير إلى أن بانيه هو الملك «المنصور محمد بن شيركوه بن محمد»، وما يزال قائمًا من هذا الباب برجان، ويرى فوقها المزاغل التى كان الرماة حماة المدينة يستخدمونها فى دفاعهم عنها[9]، ومن الواضح أن الأحجار التى بنى منها هذا الباب استخدمت بعد انتزاعها من أبنية عهدها أقدم من هذا العهد، أما الأبواب الأخرى فلم تصل أسماؤها كباب هود، وباب التركمان، وباب السباع، وباب الدريب، وباب السوق، وباب تدمر[10].

هذا وقد كانت قلعة حمص على شاكلة القلاع الأيوبية والمملوكية التى بنيت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وهناك نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص196.
(2) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج 10، ص27.
(3) سليم عادل عبد الحق، المرجع السابق، مج 10، ص25.
(4) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص293 ـ 294.
(5) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص99 ـ 100.
(6) عبد الغنى النابلسى، الحقيقة والمجاز فى الحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد د/ أحمد عبد المجيد الجوهرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986م، ص32.
(7) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص168.
(8) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص100.
(9) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج 10، ص26.
(10) سليم عادل عبد الحق، المرجع السابق، مج 10، ص26.

ودمشق والنمرود وغيرها، وأكثر من عنى بتحصينها الملك المجاهد «شيركوه بن محمد» الذى ترك فيها كتابتين الأولى من سنة 594هـ والثانية من سنة 599هـ[1].

قلعة الكرك[2]

الكرك مدينة وقلعة حصينة جدًّا[3] فى جنوب الأردن[4] فوق مرتفع صخرى[5]، تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادى الكرك، وإلى الجنوب من المدينة تمامًا تنتصب القلعة[6]، وهى عبارة عن نتوء صخرى مستطيل الشكل، ولقد شيدت القلعة فوق مصطبتين تفصلهما عن المدينة قناة عميقة، كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحف بها ويتماشى مع حواف الصخور[7]، وتمتاز القلعة بموقع حصين مشرف إذ يحيط بها الأودية من كل جانب فهناك إلى الغرب والجنوب وادى الكرك وإلى الشمال مدينة الكرك التى يفصلها عن القلعة خندق

(1) تقع الكتابة الأولى فى أعلى البرج الشمالى من منطقة سداسية الشكل على أربعة سطور محفورة بالخط النسخى الأيوبى الجميل، وهى كما يلى «أمر بعمارته شيركوه بن محمد فى سنة أربعة وتسعين وخمسمائة، أما الكتابة الثانية فهى كما يلى «بسم الله.... أمر بعمارة هذا البرج الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ناصر أمير المؤمنين أعز الله أنصاره تولى عبده موافق فى سنة تسعة وتسعين وخمسمائة»، انظر سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج 10، ص27.

(2) الكرك ورد ذكرها فى التوراة وهى مكونة من مقطعين قير (Kir) يعنى الحصن أو القلعة والثانى (حارس) يعنى تلا يعلوه بناء، وتفسير معنى القلعة المحصنة على تل، الكرك كلمة آرامية الأصل أو سريانية تحريفا لكلمة كرخا (Karkha) ثم حرفت حتى أصبحت كرك وهذه الكلمة معناها مدينة مسورة أو مدينة حصينة، انظر، الظهير الشامى، دكتوراه ص253 ـ 254، سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص157.
ذكر الأنصارى الدمشقى عن حصن الكرك أنه حصن منيع عال على قبة جبل خندقه أودية بعيدة، يقال إنه كان ديرًا للروم فبنى حصنا، انظر الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص213، قال عنها أبو الفدا «هو بلد مشهور وله حصن عالى المكان وهو أحد المعاقل بالشام والتى لا ترام،..... وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز وبين الكرك والشويك نحو ثلث مراحل» انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 247، ذكر عنها الحموى أيضًا قائلاً «ايم لقلعة حصينة جدًّا فى أطراف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهى على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض، وقيل إنها تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها» لمزيد من التفاصيل انظر الحموى، معجم البلدان، ج4، ص453، ابن بطوطة، الرحلة، هامش 82، ص101، انظر أيضًا محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص293 – 294.

(3) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص14، هامش2، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص61، هامش 2.

(4) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص254، سعد المومنى، المرجع السابق، ص156.

(5) ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص318.

(6) القلاع، مقال بدائرة المعارف السعودية، الفيصل، مجلة ثقافية شهرية العدد 152، صفر 1410هـ / سبتمبر 1989م، السنة الثالثة عشرة، ص109.

(7) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص55.

عميق قطع فى الصخر وتم تحصينه فى الجهة الشرقية[1]، هذا الموقع الفريد الإستراتيجى الذى تمتاز به قلعة الكرك، حيث تقع فى قلب العالم العربى، والمنطقة التى تحيط بالكرك وتمتد من البحر الميت حتى البحر المتوسط مشتملة على الجزء الجنوبى من الأردن وفلسطين، وتعتبر من الوجهة الإستراتيجية أخطر مناطق الشرق الأدنى، لا سيما فى فترة الحروب فى العصر الوسيط[2] وقد كان لإستراتيجية الموقع انعكاس على مدى حصانة القلعة[3].

تاريخ القلعة

عندما احتل الصليبيون بيت المقدس عام (493هـ / 1099م)، كان أول ما احتاجوا إليه من الأماكن والعمائر ما يتعلق بأسباب الدفاع عن النفس، لجئوا إلى السيطرة على المناطق المحيطة ببيت المقدس والتى تشكل أهمية إستراتيجية فى الدفاع عنها، واستفادوا من القلاع والحصون الموجودة فيها، باعتبارها معالم تشد الأنظار، وتوفر الجهد والوقت فى إعادة الترميم والإضافة على البناء، خاصة أن الصليبيين كانوا يعانون من نقص فى القوى البشرية[4]، هذا وفى أوائل القرن الثانى عشر كانت الكرك تحتل مكانة مهمة لفترة طويلة من الزمن، فقد استولى الفرنج عليها أثناء حملاتهم الأولى فى عهد الملك «بلدوين الأول» على الأرجح، والذى قام بإعادة بناء القلعة سنة (509هـ / 1115م)، وربما كانت تحصينات المدينة قد خضعت للتحسين فى ذلك الحين[5].

ويرجع تاريخ البناء والتجديد فى القلعة إلى عام 537هـ / 1142م، حين أمر الملك «فولك»[6] ملك بيت المقدس الحاكم الإقطاعى «بيان لوبوتييه»، ببناء قلعة الكرك[7] وإدخال تحسينات إلى المدينة ودفاعاتها[8] وتحصينها وتوسيعها[9].

(1) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص156، تمتاز قلعة الكرك بموقعها العسكرى وتعد نموذجًا طيبًا فى أسلوب التحصين، محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص191.
(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص254 ـ 255.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص156.
(4) سعد المومنى، المرجع السابق، ص161.
(5) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55.
(6) ر.س. سميل، المرجع السابق، ص318.
(7) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص871.
(8) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55.
(9) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص162، وصف القاضى الفاضل حصن الكرك فى بعض كتبه فقال «هو شجا فى الحناجر، وقذى فى المحاجر، وقد أخذ من الآمال بمخنقها، وقد قام بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبًا للدهر فى ذلك الفج، وهو وحصن الشويك يسران من الآخر كبيت الواصف للأسدين

ما مر يوم إلا وعندهما   لحم رجال أو يولغان دما»

انظر محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص293.

هذا وقد حوصرت القلعة عام 566هـ/ 1170م من قبل «نور الدين محمود» صاحب دمشق لتأمين مرور قافلة كانت منطلقة إلى مصر[1]، واستمر الحصار أربعة أيام ضيق فيها على المدينة وفيها حاصر الكرك مدة ثم رحل عنها[2]، وفى عام 569هـ/ 1173م، حاصر «صلاح الدين الأيوبى» القلعة لفترة قصيرة[3]، ولكنه لم يفتحها[4] بسبب مرض والده الذى جعله يعود إلى مصر[5]، وفى عام 573هـ/ 1177م، انتقلت القلعة والإقطاعية إلى «رينو دى شاتيون» (أرناط)، وكان رجلاً باسلاً ولكنه متهور أحمق، دفعت غاراته المتواصلة «صلاح الدين» إلى شن هجومه الشامل على مناطق الفرنج، ذكر «العماد الأصفهانى»: «وهو الحصن الذى كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب إشراك إشراكه منه على طريق الاجتياز... وملكنا حصنه الذى كان يعتصم به»[6]، وفى عام (579هـ/ 1183م- 580هـ/ 1184م)، كان أول حصار للكرك قطعه وصول الملك «بلدوين الرابع» وحاصره وما حصل على المطلوب[7].

وذكر «ابن الأثير»فى ذلك «سار المسلمون نحو الكرك وحاصرها السلطان «صلاح الدين» وذلك أنه رأى إن فتحها أنفع للمسلمين من غيرها[8] لكنه لم يفتحها فرحل عنها»[9]، وفى عام (583هـ/ 1187م — 584هـ/ 1188م)، حاصر «صلاح الدين» الكرك[10] واستولى عليها عام (584هـ/ 1188م)[11] بعد حصار استمر ثمانية أشهر[12]، وعندما رأى «صلاح الدين» خلو الساحل من العساكر الصليبية سير الجموع إلى نواحى نابلس[13]، ومنح «صلاح الدين» هذا المعقل المهم إلى أخيه الملك «العادل»[14] الذى قام بترميمه وتقوية دفاعاته.

(1) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55، القلاع، مجلة الفيصل، ص109.
(2) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص49.
(3) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55، القلاع، مجلة الفيصل، ص37.
(4) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص53، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص224.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121.
(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص266، 277.
(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص151.
(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص165، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص315.
(9) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص68، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، تحقيق عصام شبارو، ص144 ـ 145.
(10) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص176.
(11) ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص196، ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص318.
(12) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص272.
(13) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص107 ـ 108.
(14) العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج4، ص279.

ونظرًا للشهرة التى حازتها القلعة بسبب مناعتها فقد استخدمها «صلاح الدين» مقرًّا لحفظ خزائن وأموال الدولة، وبعد وفاة الملك «العادل» ورث عنه ابنه الملك «المعظم» محتويات خزينته، هذا وقد لعبت الكرك دورًا مهمًّا فى المفاوضات التى دارت من أجل إعادة القدس؛ لأن الفرنج كانوا يعتقدون أنهم لن يستطيعوا المحافظة على المدينة المقدسة بدونها، ورغم ذلك فقد ثبتت الكرك ضمن الممتلكات العربية واعترف بها على هذا النحو عندما أعيدت القدس إلى الإمبراطور «فريدريك الثانى» عام 616هـ/ 1219م، وفى عام 633هـ / 1264م، قام السلطان «بيبرس» بتقوية القلعة والدفاعات عن المدينة بعد أن استولى على الكرك من آخر الأمراء الأيوبيين، شيد الحصن الشمالى من سوريا، وفقدت القلعة أهميتها بعد الفتح العثمانى لسوريا[1].

مخطط القلعة (ووصفها):(المسقط الأفقى)

تعد عمارة هذه القلعة من الأمثلة الكاملة لفن العمارة الحربية عند الصليبيين[2]، هذا ويتخذ مخطط القلعة شكلاً هندسيًّا وهو شكل المنحرف، حيث إن أضلاعه الكبرى متساوية تقريبًا فى الطول، فطول الضلع الشرقى 220 مترًا وطول الضلع الغربى 240 مترًا، أما الواجهة الشمالية 135 مترًا فهى أطول من الواجهة بحوالى 85 مترًا، ويواجه المدينة الجدار الشمالى للقلعة، حيث يطل على الخندق الذى يفصله عن المدينة والخندق ذو ارتفاع حوالى ثلاثين مترًا، وينتهى الجدار فى الحالتين أى فى الزاويتين الشرقية والغربية بأجزاء بارزة يمكن أن يطلق عليها اسم «أبراج مربعة الشكل»، وهناك فى البرج الشرقى منها فتحة باب خفر يعلوه قوس مكسور حاليًّا لا يكاد يرى اليوم، ومن المحتمل أن هذا الباب هو المدخل الرئيسى للقلعة[3]، أما فى الجهة الشرقية من القلعة فترى أثرًا صليبيًّا ما زال ماثلاً حتى الآن، وهو عبارة عن أبراج مستطيلة يصل ما بينها السور الخارجى[4]، ويبدو مخطط القلعة واضحًا بعد أن سقط الحائط الأمامى لأحد أبراجها، وهو عبارة عن ثلاثة طوابق يعلو بعضها الآخر، وهى ذات عقود أو سقوف مستديرة برميلية الشكل، وقد قام المسلمون بترميم الأجزاء العالية من هذه الأبراج بعد احتلال القلعة، ويمكن معرفة هذه الأجزاء عن طريق الحجارة

(1) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55ـ56.

(2) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، ص68.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص 872.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسها.

المستعملة فى القلعة[1]، ولزيادة تحصين القلعة فقد استعملت الألواح الحجرية الملساء لتبليط أجزاء من المنحدر الشرقى أى (glaas)، حيث نرى أثرها عند البرج وتغطى حوالى 70 مترًا من المنحدر، ونلاحظ أن بقايا هذه التحصينات التى قام بها الصليبيون وبإنشائها فى الجزء الجنوبى السفلى من الخزنة، ويلى هذه التحصينات فى أسفل المنحدر حوض مستطيل الشكل لتجميع المياه، يحيط به من جهات ثلاث جدران منخفضة ذات طابع صليبى، ويلاحظ أن خزانات الماء الصليبية كانت تنشأ أحيانًا داخل القلاع كما فى قلعة حصن الفرسان (الأكراد) فى سوريا[2].

الأجزاء الداخلية بالقلعة

أما الآن فننتقل إلى الأجزاء الداخلية من القلعة، حيث يمكننا القول بتمييز جزأين رئيسين وهما الساحة العليا والساحة السفلى[3]، ويبلغ طول الساحة العليا 180 مترًا وعرضها من الناحية الشمالية 75 مترًا التى تنتهى بقاعة فسيحة تطل على الخندق والمدينة، وفى الناحية الجنوبية عرضها 36 مترًا نجد ما يسمى «الخزنة»، أما فى الجهة الشرقية، فهناك الأبراج الأربعة السابق ذكرها... وفى الغرب يمتد جدار يفصل الساحة العليا عن السفلى يتخلله نتوءات أو أبراج مستطيلة الشكل، والساحة العليا بها آثار كنيسة لم يبق منها سوى عقد برميلى، عن الأسوار والأبراج.

سور القلعة

أما عن سور القلعة فيمتد بطول 250 مترًا ويتراوح عرضه ما بين 80 و 135 مترًا، ويفصلها عن مدينة الكرك فى الجهة الشمالية خندق بعرض 20 مترًا، وكذلك الأمر فى الجهة الجنوبية حيث يوجد خندق عرضه 30 مترًا، وقد أقيمت فوق المرتفع فى هذه المنطقة ما يعرف فى أكثر أجزاء القلعة تحصينًا وهو الخزنة[4]، وسور المدينة هذا يحيط بها وأنها والحصن يقومان على جبل مرتفع وبها خندق كان يفصل المدينة عن الحصن[5]، وتعتبر قلعة الكرك من القلاع ذات الأسوار المزدوجة، فبالإضافة إلى أسوارها هناك سور المدينة[6].

(1) سعاد ماهر، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.
(2) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص872 - 873.
(3) ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص318.
(4) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص871.
(5) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.
(6) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص172.

ملاحظة

من الجدير بالذكر أن إعادة استعمال القلعة من قبل العرب المسلمين بعد استخلاصها من الصليبيين أخفى المعالم الصليبية بالقلعة ولم يترك إلا بعضها، فالخزنة الحالية مثلاً والمنشآت المقامة على الحافة الغربية للقلعة هى إسلامية بحتة، لكن أساساتها الصليبية واضحة، مما يؤكد أنها بنيت زمن الصليبيين ثم استعملت وجددت زمن المسلمين.

ويمكن تمييز الفترتين الصليبية والإسلامية فى مبانى القلعة[1]، وذلك عن طريق معرفة نوع الحجارة المستعملة، فقد استعمل الصليبيون الحجارة الصوانية الصلبة غير المشذبة والمشبعة باللون الأحمر والأسود، وعلى العكس منهم المسلمون استعملوا حجارة كلسية خشنة منتظمة رمادية أو صفراء اللون، وتحمل بروزًا، وقد أتوا بهذه الحجارة من إحدى المحاجر الغربية من القلعة فى الجهة الغربية، أما الصليبيون فأخذوا حجارتهم من المنطقة التى تقوم عليها القلعة[2]، وقد كانت الكرك آخر الحصون الشرقية التى شيدها الصليبيون فى الأردن[3].

قلعة الشوبك[4]

الموقع

تقع قلعة الشوبك على قمة التل المرتفع الذى يشرف على بلدة الشوبك الحالية[5]، وهى فى صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة[6]، وتبعد الشوبك 214 ميلاً إلى الجنوب من مدينة عمان وهى بلدة صغيرة ترتفع حوالى 1330 مترًا عن سطح البحر، وتمتاز بجوها المعتدل صيفًا والبارد شتاء، بالإضافة إلى أن القلعة ذات موقع متميز وطبيعى وحصين، بالإضافة إلى

(1) ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص318ـ 319.

(2) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص872.

(3) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، ص68.

(4) قيل إنها قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك والشوبك قلعة منيعة بالحجر الأبيض على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقيه، وينبع من تحت قلعتها عينان إحداهما يمينًا والأخرى عن يسارها، ميرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1992م، هامش 3، ص41، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص247، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص93.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص875.

(6) مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص65، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص183.

الخندق العميق الذى كان وما زال يحيطها مؤمنًا لها الحماية التامة[1]، وتعتبر قلعة الشوبك متممة للكرك من الناحية الإستراتيجية فى الأهمية[2].

تاريخ القلعة

قام بإرساء دعائم وأساسات هذه القلعة «بلدوين الأول» حاكم مدينة الرها وكذلك حاكم مملكة بيت المقدس[3]، حيث استقر به المقام فى منطقة بها بقايا وآثار قلعة قديمة تتميز بموقع طبوغرافى ممتاز على جبل شاهق الارتفاع لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق واحد، وذلك فى عام 509هـ / 1115م فبادر بإعادة بنائها فأصبحت قلعة لا ترام ذات أبراج عالية ضخمة البنيان[4].

هذا وقد وجه «بلدوين الأول»[5] جهوده للاستيلاء على الشاطئ السورى فاحتل أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت وصيدا، وبعد أن اطمأن على مركز قوة الساحل اتجه نحو الداخل، إذ أن المصريين عندما حرموا من الاتصال العسكرى بسوريا نتيجة نشاط «بلدوين» على الساحل، أخذوا يعتمدون على الطريق البرى عبر الأردن للاتصال بسوريا، وقد فطن «بلدوين» إلى ذلك فقام ببناء قلعة الشوبك جنوب البحر الميت، وقد قصد بالإضافة إلى ما سبق الزحف نحو الجنوب والاستيلاء على تجارة البحر الأحمر، وأطلق على القلعة اسم «مونتريال»[6].

أهمية قلعة الشوبك بالنسبة للأيوبيين

ظهرت أهمية قلعة الشوبك عندما حدث صراع بين «شاور» و«ضرغام» وتدخل «صلاح الدين» مع عمه «شيركوه» لإنقاذ مصر من الصليبيين وعندما ذهبا بهم إلى مصر سلكا طريقًا بمحاذاة الشوبك سنة 563هـ / 1167م، ولم ينس «صلاح الدين» ذلك الدور الذى

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص875.
(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص262ـ 263.
(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص875.
(4) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص262ـ 263.
(5) ذكر صاحب الأعلاق الخطيرة أن حصن الشوبك كان ديرًا للنصارى دأبوا على توسيعه وتحصينه إلى أن صار حصنًا واستدعوا إليه طائفة من الفرنج المجاورين له فزاده الفرنج تحصينًا وجعلوا يشنون منه الغارات على ما دناهم من القرى والضياع ولم يزل فى أيديهم إلى أن ملكه بلدوين، انظر، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ص42.
(6) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص876.

كانت تلعبه قلعة الشوبك فى قطع الطريق على الجيش الإسلامى، وتعرضت حاميتها له فتوجه إليها سنة (567هـ / 1171م)، وفرض حصارًا محكمًا عليها أذعنت معه حاميتها إلى الاستسلام، وطلبت مهلة عشرة أيام فأعطاها المهلة، وعندما علم «صلاح الدين» بمسيرة «نور الدين» إلى الشوبك قفل عائدًا إلى مصر[1].

وعندما تولى «صلاح الدين» الحكم كان عليه أن يتردد ما بين مصر والشام لتفقد أحوال رعيته وأمور ملكه، وتأمين الاتصال بين شطرى دولته من خلال الطريق البرى الوحيد عبر الشوبك، والتى لم ترتدع حاميتها من التعرض للقوافل التجارية وقوافل الحجاج والجيوش الإسلامية، وفى عام 572هـ / 1177م تم زواج «ريجنالد دى شاتيون» من الأميرة صاحبة الكرك والشوبك، وحمل لقب أمير الشوبك والخليل، ووصلت به الجرأة أنه قام فى سنة 577 هـ / 1181م بغزو الحجاز ووصل فيها إلى تيماء واستولى على إحدى القوافل التجارية، ثم عاد فى السنة التالية فغزا الحجاز بحملة برية بحرية، تصدى لها الأسطول المصرى[2]، بقيادة «لؤلؤ حسام الدين لؤلؤ» وتمكن من إفشالها، وبسبب هذه الأفعال من حامية الشوبك رأى «صلاح الدين» أن يقف أمام الصليبيين فى معركة فاصلة فجمع جيشه سنة 583 هـ / 1187م واستدرج الصليبيين إلى سهل حطين فى الوقت الذى أبقى فيه جزءًا منه بقيادة أخيه «العادل» لمحاصرة قلعة الشوبك[3]، وتحقق النصر له فى حطين واستسلمت القلعة فى عام 584هـ - 585هـ / 1189م[4] وبسقوطها انتهى الوجود الصليبى فى الأردن[5]، بعد ذلك أقطع السلطان «صلاح الدين» القلعة لأخيه الملك «العادل»[6] فبقيت بيده إلى أن أعطاها لابنه الملك «المعظم عيسى»، وفى عام 608هـ / 1211م حدث زلزال فى قلعة الشوبك فمات تحت الهدم خلق كثير وسقطت عدة أبراج من قلعتها[7]، إلا أن «المعظم» قام بتحصينها وتجميلها، وجلب إليها غرائب الأشجار حتى تركها تضاهى دمشق فى بساتينها[8].

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص248.
(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص250.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص196، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص272.
(5) سعد المومنى، المرجع السابق، ص250.
(6) ذكر العمرى فى المسالك «الشوبك فتح وقت فتوح الكرك بعد أن دام الحصار سنتين على الكرك وأقطعهما الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزالا فى يده حتى أعطاهما لولده الملك المعظم عيسى فصرف إليهما العناية حتى ترك الكرك مدينة تعنى بنفسها وزادها تحصينا وتحسينا وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار»، انظر العمرى، المسالك والممالك، أيمن فؤاد، ص141.
(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص175.
(8) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص157.

وقد ذكر «سعد المومنى» أن تشمار عندما زارها بعد ثمانى وعشرين سنة من سقوطها بيد المسلمين أى فى سنة 614هـ / 1217م وجد القلعة وأسوارها الثلاثة المتتابعة على درجة من القوة والمنعة بحيث لم ير أحصن منها[1].

ومثال على أهمية الشوبك ومعها الكرك أيضًا بالنسبة للصليبيين والمسلمين على السواء هو أنه عندما قامت محادثات الصلح بين الملك «الكامل» والصليبيين أثناء حصار الصليبيين لمدينة دمياط بقيادة «حنا دى برين» عام 615هـ / 1218م، رأى الملك «الكامل» أن يتنازل للصليبيين عن بعض المواقع الشامية أفضل من فقدان القاهرة والديار المصرية بعد احتلال دمياط، فعرض على الصليبيين عرضًا سخيًّا يقضى بأن يتنازل لهم عن القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه «صلاح الدين الأيوبى» من الفرنج بالساحل الشامى ما عدا الكرك والشوبك، ولكن هذا العرض السخى لم يلق قبولاً من الصليبيين فبالغوا فى الطلب وأصروا على إضافة الكرك والشوبك لكن المسلمين لم يقبلوا ذلك[2] لإدراكهم ما تعنيه القلعتان بالنسبة لوجودهم فى بلاد الشام ومصر[3]، فالشوبك كانت أكثر مناطق بلاد الشام حيوية، ولو أحكم الصليبيون قبضتهم فيها لهددوا طرق المواصلات بين دمشق والقاهرة ولاستطاعوا تمزيق الوحدة الإسلامية، ولعادت الأمور كما كانت عليه قبل أن يحرر «صلاح الدين» إمارة الكرك، وهو أمر كانوا يهدفون إليه، ويسعون إلى تحقيقه[4]، كما أن قلعة الشوبك كانت من جملة الأسباب التى أدت إلى الخلاف الذى نشب بين الملك «الناصر داود» وعمه الملك «الكامل محمد»، اضطر معه «الناصر» إلى التنازل عنها لعمه سنة (626هـ / 1228م)[5]، هذا وقد اهتم الملك «الكامل» بها باعتبارها على حد قوله الحصن الذى يحمى رأسه فيه، ويلجأ إليه عند الشدائد، كما اهتم بها من بعده الملك «الصالح نجم الدين أيوب» (637هـ/ 1239–647هـ / 1249)، فقد عثر على نقش محفور على حجر ملقا اليوم داخل الكنيسة فى القلعة يتألف من ستة أسطر يعود لسنة (646هـ / 1248م)، بعد وفاة الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 647هـ / 1249م، آلت القلعة إلى المماليك وحدثت

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص250.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص262 ـ 263، سعد المومنى، المرجع السابق، ص251.

(3) الدواداری، كنز الدرر، ج7، ص209، ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص95.

(4) الظهير الشامى، المرجع السابق، ص262 ـ 263.

(5) الدواداری، كنز الدرر، ج7، ص295، ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص256 ـ 257.

بعض أعمال البناء فيها[1]، وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر الميلاديين[2].

وصف القلعة

تعلو القلعة المرتفعَ كما ذكرنا سابقًا ويؤدى إليها فى الجهة الغربية من القلعة وقد تم تسويته، بالإضافة إلى تحصين البناء بسور ضخم تتخلله أبراج مربعة وأخرى مستديرة، بلغ عددها أربعة، بالإضافة إلى الوادى العميق الذى كان يشكل خندقًا يعمل على حماية القلعة وسكانها، ومخطط القلعة غير واضح نظرًا لتراكم الحجارة المتساقطة والترميمات والإضافات التى تم إنجازها خلال العصور المتعاقبة[3]، أما عن أسوار القلعة فتشير المصادر التاريخية إلى أنه كان لقلعة الشوبك ثلاثة أسوار متتالية، وذلك بعد أن ذكرها الرحالة «تشهار» ووصفها بأنها من القوة والمتانة والحصانة، فالأسوار الثلاثة هى السور الخارجى ويرتكز على صخر كبير تخرج منه ثلاث عيون ماء، والسور الثانى وهو كان مزروعًا بالقمح الذى يكفى القلعة سنة، وأخيرًا السور الداخلى وهو السور الرئيسى، ويبدو أن الدمار قد أصاب هذه الأسوار مع مرور الأيام، وقد كانت حجارة هذه الأسوار حجارة صلبة رمادية اللون منحوتة نحتًا ناعمًا، ونوعية حجارته مشابهة لحجارة الأبراج الشمالية فى القلعة والتى تعود للفترة الإسلامية، أما السور الداخلى فهو السور الرئيسى للقلعة، ويعتبر أكثر المعالم وضوحًا إلى اليوم بالرغم من الدمار الذى أصابه[4].

مدخل القلعة

ذكر «سعد المومنى» أن الرحالة فى القرن التاسع عشر الذين زاروا قلعة الشوبك قد أجمعوا على وجود مدخل واحد للقلعة فى الجهة الشمالية الشرقية منها، وأن هذا المدخل متعرج من النوع المنكسر أو غير المباشر يتخلله درج غليظ نحت فى الصخر، ينتهى عند القلعة ببوابة يعلوها قوس تشبه أبواب النصر[5].

(1) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص251.
(2) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص876.
(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص876.
(4) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص254.
(5) سعد المومنى، المرجع السابق، ص256.

الحجارة المستعملة فى القلعة

هذا وقد استعمل فى بناء القلعة عدة أنواع من الحجارة منها الحجارة الكلسية البيضاء ومنها الحجارة الكلسية الصفراء، وهذه بدورها نوعان منها الصلب ومنها الطرى، كما استعملت أيضًا حجارة صوانية مائلة إلى اللون الأسود، إلا أن أكثر أنواع الحجر استعمالاً هى الحجارة الرمادية الصلبة، وهى مميزة فى نصها وحجمها ومنها بنى معظم السور والأبراج فى القلعة(1).

قلعة حارم(2)

الموقع:

هى قلعة حصينة(3) تقع فى شمال سوريا غرب حلب بالقرب من إنطاكية(4)، وهى فى الشعاب الغربية من جبل باريشا، وتطل على السهل المحيط ببحيرة العمق، وتسيطر على الطريق الرئيسى بين إنطاكية وحلب(5).

تاريخ القلعة

شيدت فى منتصف القرن العاشر قلعة صغيرة مشيدة قرب حارم أعقبها غزو بيزنطى بشمال سوريا بقيادة الإمبراطور «نقفور فوكاس» وسقوط إنطاكية عام (352هـ/ 963م – 359 هـ / 969م)، هذا وقد استعيدت إنطاكية وحارم على يد الجيش السلجوقى بقيادة «سليمان بن قطلمش» سنة 478هـ / 1085م، وفى عام (491هـ/ 1097–492هـ/ 1098)

---

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص292.

(2) حارم بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وعيون ونهر صغير... وهى على مرحلتين من حلب فى جهة الغرب وبين حارم وإنطاكية وحلب، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص259.

هذا وقد كانت حارم قبل الفتوح صيرة (حظيرة غنم)، وهى الحظيرة التى تحوط بالمواشي ودامت على ذلك فى صدر الإسلام إلى أن ملكت الروم إنطاكية سنة تسعة وخمسين وثلاثمائة، فبنوها حصنًا ليحمى مواشيهم من غارات العرب ثم صاروا يجددون فيه ويوسعون ويشيدونه، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص55.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص124.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص136، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص385، هامش 3، أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص136.

(5) الحموى، معجم البلدان، ج2، ص205.

هددت بموقعها الجيش الصليبى الذى كان يحاصرها فى هذا العام، مما اضطر الفرنج أن يعملوا على الاستيلاء عليها، بعد ذلك احتل «نور الدين محمود» سلطان حلب حارم عام (577هـ / 1161م) ولمدة قصيرة، فقد كان فتحًا عظيمًا ومغنمًا جسيمًا[1]، هذا بالإضافة إلى فتحه مرة أخرى عام (559هـ / 1164م)[2]، وعلى الرغم من استعادة «نور الدين» لحارم مرة أخرى إلا أنها هوجمت مهاجمة شديدة من جانب الفرنج فقيل «جد فى قتالها فامتنعت بحصانتها وكثر من بها من فرسان الفرنج»[3]، وقيل إنه فى شهر ربيع الأول عام (579هـ / 1183م) استولى «صلاح الدين» على القلعة وولى فيها خادمًا يقال له «سربك»، ولم تزل فى يد «صلاح الدين» إلى أن مات[4]، هذا وقد استقل بعده ولده الملك «الظاهر» بحلب وأعمالها فى صفر سنة 589هـ، ثم تسلم حارم[5]، وفى عام (596هـ / 1199م)، حدثت تقوية لدفاعات القلعة على يد الملك «الظاهر» غازى حاكم حلب والذى شيَّد أبراجًا جديدة، ربما كانت القليعة من بينها، وجدرانا استنادية للمنحدرات[6]، ومن هنا ذكر «ابن شداد»: «صار حصن حارم بما جدده فيه الملك «الظاهر» حصنًا منيعا، بعضه على جبل وبعضه على رصيف مبنى بالحجارة والكلس»[7]، وتابع خلفاؤه العمل من بعده[8]، ورممت حارم بعد هجوم المغول عليها سنة (659هـ / 1260م- 670هـ / 1271م) ولكنها لم تحتل مكانة مهمة منذ أواخر العصور الوسطى[9].

وصف القلعة

هى قلعة حصينة تابعة لحلب، اشتهرت بأنها أقوى الحصون، إذ تقع القلعة فوق مرتفع صخرى، ازداد ارتفاعه صناعيًا على مر العصور بالاستيطان السكانى، وربما كان محميًّا من جميع جهاته بقناة مائية، وثمة مناطق واسعة فى السفح المتجانس المحيط بها رفدت أو كسيت بالحجارة ولقد كيفت التحصينات جيدًا مع الأرض[10]، وتحصينات القلعة تتألف من سور

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص58.
(2) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص95.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص79.
(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص66 ـ 67.
(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق2، ص67.
(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص84.
(7) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص56.
(8) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص84.
(9) فولفغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(10) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص136.

حاجز متداع حاليًا ولكنه مقوى بأبراج متينة، وتوجد إلى الشرق من ذلك الموقع البيضوى الشكل تقريبًا قلعة مستطيلة كبيرة الحجم لم يبق منها سوى أثر ضئيل[1].

قلعة بعلبك

الموقع

تقع هذه القلعة بلبنان على أرض المعبد الكبير الذى يعود تاريخه إلى حقبة مختلفة من عصر الإمبراطورية الرومانية[2].

تاريخ القلعة

استولى السلاجقة على قلعة بعلبك وحصونها، وفى عام (531هـ/ 1136م - 534هـ / 1139م) سقطت بعلبك بيد «زنكى» أتابك حلب بعد النزاع الذى دب بين أبناء البيت السلجوقى، وعين الأمير «نجم الدين أيوب» والد «صلاح الدين» حاكمًا عليها، وقد جرت فى ذلك الوقت تحسينات كبيرة على دفاعات القلعة فى هذه الفترة[3]، وقيل فى عام (552هـ / 1157م) ملك «نور الدين محمود» بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له «ضحاك البقاعى» منسوب إلى بقاع بعلبك وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق، فلما ملك «نور الدين» امتنع «ضحاك» بها، فلم يمكن «نور الدين» محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى أن لان فملكها واستولى عليها[4]، وفى عام (570هـ / 1174م) حاصر «صلاح الدين» هذه القلعة[5] واحتلها[6]، قيل إن بناء القلعة انتهى فى عهد «صلاح الدين» وخلفائه من الأيوبيين، إذ عليها نقوش لـ «صلاح الدين» و«الظاهر برقوق»[7]، وفى عام (610هـ/ 1213م - 621هـ / 1224م) انتقلت القلعة إلى حوزة «بهرام شاه» ابن أخى «صلاح الدين» الذى أجرى العديد من التحسينات الدفاعية بأن أضاف عددًا من الأبراج إليها[8]، وفى عام

(1) فولفغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(2) القلاع، دائرة المعارف، الفيصل، ص107.
(3) القلاع، دائرة المعارف، الفيصل، ص107.
(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص22، هامش 22.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص132، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص59.
(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص67 ص68.
(7) مجلة الهلال، ج2، السنة 36 أول ديسمبر 1927م، جمادى الثانى 1346هـ، ص237.
(8) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص67 ـ 68.

(627هـ / 1229م) بعث الملك «الأشراف» صاحب دمشق أخاه الملك «الصالح إسماعيل» إلى بعلبك، فحاصرها ونصب عليها المجانيق ورماها بأحجارها[1].

وتسلم «الأشرف» قلعة بعلبك من الملك «الأمجد بهرام شاه» بعد حصار طويل[2].

وفى عام 644هـ / 1246م نازل السلطان «نجم الدين أيوب» بعلبك وحاصر قلعتها وضايقها فسلمها أهلها بالأمان[3]، وفى عام 659هـ / 1260م استولى المغول على بعلبك وخربوها ولكنها سرعان ما رممت فى العصر المملوكى[4].

وصف القلعة

«هى قلعة عظيمة من القلاع المشهورة[5] مرجلة على وجه الأرض مثل قلعة دمشق، يستدير بها وبالمدينة سور منيع محصن عظيم البناء بالحجارة الثقل الكبار من الصخر الشديد المانع وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج وبدنتين كوامل ذوات أطوال وعروض وسمك مرتفع كأفلاق الجبال، وفى القلعة عمد عظيمة شواهق وسيعة الدور منيفة العلو، وفى هذه القلعة من عمائر تفرد بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة القدر جلية الحسن كالدار الأمجدية والبحيرة»[6]، قال عنها «أبو الفدا»: «بعلبك بلدة قديمة ذات أسوار ولها قلعة حصينة عظيمة البناء»[7]، وذكر عنها «القلقشندى»: «هى قلعة حصينة جليلة المقدار من أجل البنيان وأعظمه، وهى مرجلة على وجه الأرض كقلعة دمشق، وقيل إنها بنيت قلعة دمشق على مثالها، وهيهات لا تعد من أمثالها، وأين قلعة دمشق منها وحجارتها تلك الجبال الثوابت وعمدها تلك الصخور النوابت، وبهذه القلعة من عمارة من نـزل بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعًا سور عظيم البناء مبنى بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصلابة، ويحف بذلك غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار الفائقة والفواكه المختلفة»[8].

(1) النويرى، نهاية الأرب، ج29، أحداث سنة 627هـ.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص127، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص145، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص237 ـ 238.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص361.

(4) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص67 ـ 68.

(5) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص167.

(6) العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص123.

(7) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص255.

(8) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص109 – 110، قيل عن مدينة بعلبك إنها مدينة حسنة وقديمة من أطيب مدن الشام وهى تضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية، انظر بن جبير، الرحلة، ص102.

قلعة بصرى[1]

استخدم المدرج الرومانى منذ وقت مبكر كحصن وزود بأبراج وأسوار فى العهدين الفاطمى والسلجوقى[2]، ولكن عندما جاء الأيوبيون إلى بصرى أدركوا أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشييد عدد كبير من الأبراج حوله[3]، وزودت القلعة فى داخلها بالمنشآت العديدة[4]، وقد جرى فى السنوات الأخيرة هدمها، وذلك من أجل الكشف عن معالم المدرج الأثرى (المسرح)، وبقى سور القلعة وأبراجها كاملة، تحيط بالمدرج وتحمل أسماء بُناتها[5]، ومنهم الملك «العادل أبو بكر أيوب» الذى سلمت بصرى إليه فى عام 589هـ / 1193م[6]، والملك «الصالح إسماعيل» و«الصالح نجم الدين أيوب»[7] وتواريخها (599هـ - 1202م / 1203م) و(608هـ / 1211م) و(609هـ / 1212م) و(610هـ / 1213م) و(612هـ / 1215م) و(615هـ / 1218م)[8]، كما أن هناك نقشًا آخر باسم الملك «الصالح» تاريخه (625هـ / 1228م)[9]، وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل ما فى قلعة الجبل يشتمل على قاعدة كبيرة يعلوها قبو شيدت على نسق الأسلوب المتعامد[10]، هذا وقد كانت قلعة بصرى من القلاع المهمة التى بنيت على مثال قلعة دمشق، وهى أقدم من الإسلام، جدد فيها من استولوا عليها بعد فى أدوار مختلفة[11].

---

(1) بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف فى الآخر، وهى مدينة بحوران من أعمال دمشق وهى مدينة أزلية مبنية بالحجارة السود، ولها قلعة ذات بناء متين شبيه ببناء قلعة دمشق، وكانت دار ملك لبنى أيوب، هذا وقد ذكر من حديث الخندق أنه - صلى الله عليه وسلم - قال «ثم ضربت الضربة الثالثة فلاحت لى منها قصور بصرى كأنها أنياب الكلاب» وهى التى وجد النبى - صلى الله عليه وسلم - بها بحيرى الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خويلد قبل البعثة وقبر بحيرى هناك مشهور يزار، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص107 - 108، قيل أيضًا إن بصرى بالشام من أعمال دمشق كورة حوران مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، انظر الحموى، معجم البلدان، ج1، ص741، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص71، هامش4، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص92.

(2) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص151.

(3) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص119.

(4) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص63.

(5) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص151.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص125.

(7) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص167.

(8) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص151.

(9) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص151، عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص119.

(10) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص119.

(11) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص293.

قلعة نمرود (الصبيبة – بانياس)[1]

الموقع

قلعة فى الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية تسمى قديمًا «جبل حرمون» وحاليًا «جبل الشيخ»[2]، وهى تقع إلى الشمال مباشرة من مدينة بانياس الصغيرة[3] على الحدود بين سوريا وفلسطين المحتلة قرب منابع نهر الأردن، وهى تحتل جرفًا صخريًّا متطاولاً يطل على هضبة عالية ترتفع تدريجيًّا نحو الشمال وتواجه دفاعاتها الرئيسية الجبال فى الشمال[4]، أى أنها تتمتع بحصانة طبيعية من جهة الشمال[5]، أما فى الجنوب فدرجة الميل المتواضعة على السفوح الجنوبية تطلبت تحصينات أقوى على هذا الجانب الذى كانت تحميه ثمانية أبراج مربعة مستطيلة الشكل[6] وحصون بارزة من أحجام مختلفة وتصميم مختلف، ومن فوق أبراج القلعة يمكن مراقبة الطرق الإستراتيجية الممتدة من دمشق فى الشام إلى قاعدة صور على الساحل، ويمكن أيضًا مراقبة وادى الأردن والحولة، فكانت القلعة بموقعها هذا تمثل خطرًا على دمشق وبيت المقدس، إذ عن طريقها يمكن ضربهما فى وقت واحد، ومن ثم جاءت خطورة الدور الذى لعبته فى الحروب الصليبية[7]، ذكرنا سابقًا أن الناحية الشمالية من القلعة تتمتع بحماية طبيعية؛ لأنها على سفح صخرى شديد الانحدار ولم يكن يحميه سوى سور بسيط مضلع السطوح، بينما كان الجناح الغربى مع الظروف الطبوغرافية وهو محمى بعدة أبراج قوية مثل الجناح الجنوبى[8]، هذا وقد ذكر عن هندسة القلعة وأبراجها أنها عربية صرفة ومثال نافع فى إنشاء القلاع[9].

(1) بانياس، اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار، وهى على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميله إلى الجنوب، والصبيبة اسم لقلعتها وهى من الحصون المنيعة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص249، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص281، هامش 2، هذا وقد ذكر العزيزى «ومدينة بانياس فى لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمام لا يعدم منه صيفًا ولا شتاءً»، انظر، أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص148.

(2) أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص141.

(3) ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص322.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص52.

(5) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص244.

(6) ر.س.سميل، المرجع السابق، ص323.

(7) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص245، نفس الكلام عند مولر، القلاع فى الحروب الصليبية.

(8) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص52.

(9) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص57 – 58.

هذا وقد قيل إن قلعة صبيبة تشبه الكثير من القلاع الغربية ذات البرج المحصن والفناء المسور الداخلى والخارجى، وكانت أكثر شهرة من القلاع الأوروبية المعاصرة لها بسبب كبر حجمها، ولأن دفاعاتها الخارجية مبنية من الحجارة لندرة الأخشاب فى سوريا وشيوع استخدام الحجر فى البناء، ولكن لم يكن هناك تفنن كبير فى وسائل دفاعها[1].

تاريخ القلعة

لقد كان فى موضع هذه القلعة حصن للإسماعيلية سنة 520هـ / 1126م[2] استولى عليه الصليبيون سنة 525هـ / 1130م، لكن الأتابك «عماد الدين زنكى» استطاع أن يستخلصه من أيديهم (527هـ / 1132م) وأقام فيه نائبًا عنه، لكن الصليبيون استطاعوا أن يستولوا على الحصن مرة أخرى وأقاموا فيه بعض المنشآت[3]، حاول «نور الدين محمود» استعادة الحصن وذلك عام (552هـ / 1157م) بعد عدة محاولات باءت بالفشل، ولكنه كرر هجومه على القلعة سنة (560هـ / 1164م) وأجبرها على الاستسلام لتصبح بعد حصار طويل بيد العرب[4]، ظلت القلعة ضمن الأملاك العربية، لكن نظرًا لنجاح الفرنج فى الحملة الصليبية الخامسة فى الاستيلاء على دمياط جردت القلعة من وسائل دفاعها على يد «المعظم» أمير دمشق لمنع الفرنج من استخدامها كقاعدة لهجماتهم الخطيرة ضد دمشق[5]، هذا وقد ملك «المعظم عيسى» بانياس فى عام (630هـ / 1232م)، وقيل إنه هو الذى بنى قلعة الصبيبة[6]، هذا وقد تسلم نواب السلطان «نجم الدين أيوب» قلعة الصبيبة فى عام (645هـ / 1247م)[7]، هذا وقد فقدت القلعة أهميتها بعد العصور الوسطى، وآلت تدريجيًّا إلى السقوط[8] بعد أن كانت من أجل قلاع الشام وأمنعها[9].

(1) ر.س.سميل، المرجع السابق، ص323.

(2) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص53.

(3) أبو الفرج العش، المرجع السابق، ص57 ـ 58.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص53.

(5) فولفغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) ذكر الحنبلى قائلا «وفيها أى سنة 630هـ وفيها الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب شقيق المعظم وهو صاحب بانياس وتبين، وهو الذى بنى قلعة الصبيبة بين هؤلاء البلدان» العماد الحنبلى، ج5، ص36.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص329، هامش1.

(8) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص53.

(9) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص281، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص104، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص21.

قلعة شقيف آرنون[1]

الموقع

قلعة فى جنوب لبنان[2] تقع فوق جرف جبلى شديد الانحدار[3] ارتفاعه 2200 قدم[4] مقابل نهر الليطانى، وقيل إنها مثل قلعة صبيبة (بانياس)[5] التى تقع على اتصال بالنظر معها، تتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة[6].

تاريخ حصن الشقيف

كان حصن الشقيف تحت السيطرة الفاطمية حتى عام 470هـ / 1177م عندما استولى عليه السلاجقة بقيادة «تتش»[7]، وظل تحت الحكم السلجوقى[8] إلى أن استولى الملك

(1) قال عنها أبو الفدا فى المشترك «شقيف آرنون بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس، وآرنون باسم رجل والشقيف المذكور والشقيف أيضًا شقيف تيرون بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون قال وهى قلعة بقرب صور الساحل»، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص245، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص154، وذكر عنها الحموى، «أنها كالكهف أضيف إلى آرنون اسم رجل إما رومى وإما إفرنجى، وهو قلعة حصينة جدًا فى كهف من الجبل» الحموى، معجم البلدان، ج3، ص356، هذا وتعرف قلعة الشقيف عند الغربيين باسم بلفورت (BoIfort)، وسماها العرب شقيف عرنون نسبة إلى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون، وتقوم هذه القلعة وكأنها عش نسر على شاهق يشرف على نهر الليطانى على ارتفاع 2199 قدما فوق سطح البحر، وهى بمنزلة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبى الذى يربط صيدا وصور بالبقاع فدمشق، لمزيد من التفاصيل انظر محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص186، هامش3، هذا وقد قيل إن الشقيف كلمة آرامية الأصل والبعض الآخر يذكر أنها من اصل سريانى وفى كلتا الحالتين معناها الصخر الشاهق المشرف على المغارة والكهف، أنيس فريحة، أسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها دراسة لغوية، بيروت 1956م.ص16، ذكر المقريزى «أن الشقيف إليها اسم آرنون تمييزا لها من شقيف دركوش وشقيف دبين، وكلها بالشام»، انظر المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص77، هامش1.

(2) الحموى، معجم البلدان، ج3، ص356، مجلة الفيصل، دائرة المعارف، ص108.

(3) أجفان الصغير، القلاع فى الحروب الصليبية، ص140، ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص321، كمال بن مارس، مملكة بيت المقدس، ص44.

(4) مجلة الفيصل، دائرة المعارف، ص108، سرور على عبد النعيم، الدور السياسى لحصن شقيف آرنون فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة طنطا، 1997م، ص42.

(5) تسمى اليوم قلعة النمرود، ولهذه القلعة موقع، لمزيد من التفاصيل انظر قلعة الصبيبة (بانياس) من الفصل نفسه.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص80.

(7) هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن السلطان ألب أرسلان، حضر إلى بلاد الشام؛ لأن أخاه ملك شاه أقطعه الشام وما يفتحه فى تلك البلاد، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص175، سرور على، حصن الشقيف، ص90 ـ 91.

(8) سرور على عبد النعيم، حصن الشقيف، ص90.

«فولك» على معقل الشقيف[1] عام (534هـ / 1139م)، ووهبها إلى صاحب صيدا الإقطاعى «أرناط»، هذا وقد جرت تقوية القلعة بإضافة برج محصن إليها مع سور خارجى متين، وظلت قلعة شقيف آرنون فى حوزة «أرناط»، فقد كانت هذه القلعة من أهم القلاع التى تشرف على مدخل صيدا[2]، إلى أن عزم «صلاح الدين» على فتح شقيف آرنون وهو من أمنع الحصون[3] فسار إليها من دمشق عام 585هـ/ 1189م[4]، وأقام بمرج برغوت ثم رحل إلى بانياس، ثم إلى مرج عيون، فخيم بالقرب من شقيف آرنون بضعة أيام[5]، وكان صاحب هذه القلعة «أرناط» من أشد الناس دهاء ومكرًا، فقد طلب هدنة من «صلاح الدين» حتى يسلم إليه الحصن ولكنه كان يماطل واستغل «أرناط» هذه المدة التى منحه إياها «صلاح الدين» فى تقوية حصنه، وتدعيم استحكاماته[6]، وترميم أسواره، بالإضافة إلى تزويد الحصن بالأقوات والمؤن والسلاح الوافر، فيبلغ السلطان فلا ينكره بحسن ظنه[7]، ولكن عندما أحس «صلاح الدين» بالخدعة، قرر محاصرة الشقيف والاستيلاء عليه سنة (586هـ / 1190م) بعد عام، فحاصره وضيق عليه وقبض على «أرناط» وسيره إلى دمشق وسجنه هناك وجعل على الشقيف من يحفظه[8]، ويذكر «العماد الأصفهانى» فى ذلك «فسامه على أن يسلم صاحبه، وتخلص فى النجاة مذاهبه، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه، وتركه للإسلام بما يحويه، وأفرج عن صاحب صيدا وسار إلى صور»[9].

بدأ حصن الشقيف مرحلة جديدة فى تاريخه بعد أن ضمه «صلاح الدين» إلى ممتلكاته، كما كان حصن الشقيف مركزًا من مراكز الانطلاق للهجوم على الممتلكات الصليبية المجاورة لاستردادها ومركزًا للدفاع عن المنطقة المجاورة[10]، وكان «صلاح الدين» قد

(1) محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص186، هامش1.
(2) السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، الإسكندرية 1970م طبع فى دار الأحد (البصيرى إخوان) بيروت، ص118.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص197.
(4) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص102.
(5) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص168.
(6) مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص80.
(7) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص413.
(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص199.
(9) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص359.
(10) انظر:
Dechamp (p), la defense du Royaume de Jerusalem etude historique, geographique et Monunent , les chateaux des croises en terre saint, II, Paris, 1939, p160.

منح هذا الحصن كإقطاع لـ «عز الدين سياروخ»[1] ثم عزله ومنح حكمه لـ«فخر الدين جهاركس»[2] فانتزعه منه وعين بدلًا منه «شمس الدين سنقر»[3]، هذا ويرى أن تعيين ثلاثة قواد من أمهر قواده وأكفأهم يرجع إلى اهتمام «صلاح الدين» بحصن الشقيف بحيث يضمن صموده أمام الأعداء، وبعد وفاة «صلاح الدين» عام 589هـ / 1193م أصبح حصن الشقيف خاضعًا لنفوذ الملك «الأفضل» تحت حكم «شمس الدين سنقر»، هذا وقد كان صاحب الشقيف «فخر الدين جهاركس» يحافظ بصفة دائمة على متانة أسوار الحصن وأبراجه، فقام بترميمات عديدة لحصن شقيف آرنون نتيجة لإصابته ببعض التشققات إثر الزلزال الذى أصاب بلاد الشام (597هـ / 1201م)، خشية أن يتعرض لهجوم من جانب الصليبيين[4]، فقام بعملية إصلاح وترميم لمدخل الحصن وترميم الجهة الشمالية، بالإضافة إلى ترميم وإصلاح جهته الجنوبية، كما قام ببناء البرج السادس للمراقبة ومناوشة الصليبيين، والبرج السادس أكثر أهمية وهو دائرى الشكل وله ميزة مختلفة؛ لأنه يستند إلى منحدر مدور بإفريز مزين ببعض الحجارة التى تؤدى إلى إعاقة المهاجم على الحصن[5]، وقد ظل حصن الشقيف بأيدى المسلمين حتى عام 638هـ / 1240م، عندما سلم الملك «الصالح إسماعيل» قلعة الشقيف للفرنج[6]، وذلك لغرض فى نفسه فمقته المسلمون، وأنكروا عليه ذلك[7].

(1) عز الدين سياروخ من مماليك صلاح الدين توفى فى خامس رجب 607هـ انظر المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص173، سرور على حصن الشقيف، ص90.

(2) فخر الدين جهاركس، كان من أمراء الدولة الصلاحية بن عبد الله الناصرى الصلاحى الملقب بفخر الدين، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص331، سرور على، حصن الشقيف، ص91.

(3) شمس الدين سنقر: هو أحد الأمراء الصلاحية وكان مقربًا من صلاح الدين الأيوبى، والى ابنه الملك العزيز عثمان حاكم مصر بعد وفاة أبيه، تولى حكم الشقيف بعد عزل جهاركس، وتوفى 594هـ، انظر أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، القاهرة 1906م، نقلا عن سرور على حصن الشقيف، ص99.

(4) سرور على، الدور السياسى حصن شقيف آرنون، ص99.

(5) سرور على، الدور السياسى لحصن الشقيف، ص100.

Dechamp, Les chateaux des croisses, p202.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص303، النجوم الزاهرة، ج6، ص338، أحداث 638هـ.

(7) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص232، العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج5، ص189.

وصف القلعة

يأخذ حصن الشقيف شكل مثلث الزوايا وقياسه 160 مترًا طولاً و100 متر عرضًا، ويوجد فيه فناء فى الجبهة الشرقية، وهذا الفناء ترسو أسواره على الصخر لتشكل جبهة منيعة؛ لأنها تسيطر على 300 متر كحائط واحد، فيصعب على العدو أن يغزو الحصن من ناحية الشرق، وكان الحصن يحاط من الناحية الجنوبية بخنادق واسعة، وفى الشمال يحاط بحوض واسع، وقد راعى الصليبيون ذلك عندما بدءوا يطورون تحصين الحصن بما يتناسب مع آلات الحصار الخاصة بالمسلمين وأسلحتهم، وكانت هذه الخنادق مهمة إلى حد كبير؛ لأنها تمثل عقبة كبيرة للعدو[1]، ولا يستطيع أن يحقق انتصارًا إلا بعد أعمال تمهيدية عالية جدًّا وهجمات انتحارية[2]، هذا وقد كان القسم الرئيسى من الحصن منصبًا كما لو كان بروزًا من صخر ويرتفع بضعة أقدام فوق الأرض المحيطة به، ورغم ذلك فكان الهجوم عليه من جميع الجهات أمرًا واردًا وسهلاً باستثناء الجهة الشمالية، فكان يوجد من جهة الشرق رف صخرى مسطح يبلغ عرضه حوالى 50 ياردة يفصل موقع الحصن الطبيعى عند حافة جرف شبه قائم يرتفع حوالى 100 قدم عند وادى الليطانى، وبعد تسوير هذا الرف داخل رقعة الحصن يشكل فناءً سفليًّا مسورًا[3]، ويتبين أن حصن الشقيف[4] مثل حصن الكرك؛ لأنهما يشكلان خطوطًا دفاعية متعاقبة[5]، وتعتبر هذه القلعة ذات مركز إستراتيجى مهم[6]، بالإضافة إلى أنها أقوى الحصون التى شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت المقدس[7].

(1) سرور على، حصن الشقيف، ص51.

(2) Ray, (G) Etudes sur les Monuments de L'architecture militaire de croises ،en Syrie Paris ،1871 ،p132

(3) سرور على، حصن الشقيف، ص51.

(4) ذكر فى موضع آخر لوصف قلعة الشقيف أنها تتكون من قلعتين متصلتين الأولى لها برج محصن وسور، هذا السور فى غاية الحصانة بالإضافة إلى أنه ضخم وهو من الحجارة المتداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة، أما القلعة الأخرى فتتصل عن طريق ممر صخرى ضيق بالقلعة الأولى من جهة الشرق وهى محصنة بأبراج مع سور خارجى متين، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص154، فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص80.

(5) سرور على، حصن شقيف، ص52.

(6) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص134.

(7) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص55.

قلعة كوكب(1)

الموقع

قلعة كوكب من القلاع المهمة التى أقامها الصليبيون فى منطقة الجليل، والتى كان لها شأن فى عهد الحروب الصليبية(2)، والقلعة تقع على ارتفاع 500 متر فوق سطح البحر، كما أنها تطل على مجرى نهر الأردن(3)، كما تشرف على المخاضة المهمة إلى الجنوب من طبرية(4)، والجليل والجولان عن بعد، أى أنها تحكمت فى جنوب بيسان(5)، وتحكمت فى مخاضة نهر الأردن(6).

الهدف من بناء قلعة كوكب

كان الهدف من بناء قلعة كوكب هو حماية الطرق المحلية، كما كانت تتصل بقلعة صفد عن طريق استخدام الإشارات النارية (Fire – Signals)، وكانت هذه القلعة مؤسسة على مساحة 380 قدمًا طولاً و320 قدمًا عرضًا، ولها سبعة أبراج مربعة الشكل(7)، هذا بالإضافة إلى أنها كان لها تحصين طبيعى من جانب سورها الشرقى، إذ يقع فى هذا المكان منحدر تلال وادى الأردن، ولذلك لم تكن القلعة فى حاجة إلى تحصينات إضافية(8)، ومن هنا يمكننا القول إن قلعة كوكب الهوى (Bolvoir) التى شيدت(9) على الأسلوب البيزنطى، إذ يحيط بها سور

(1) قلعة كوكب تشبه قلعة بيت جبرين فى بنائها، فقد كان لها عدة أسماء وردت فى المصادر العربية باسم كوكب الهوا، وحصن كوكب، أما المصادر الأجنبية فقد أشارت إليها Beauvoir و Belovoir وCoquet، وذلك لأنها كانت تطل على منظر جميل، انظر، الظهير الشامى، رسالة دكتوراه، ص214، نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام، ص79، هذا وقد كانت قلعة كوكب قلعة حصينة رصينة تشرف على الأردن، فيه من الرجال والأقوات، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج4، ص494، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية3، ص36.

(2) النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص60، هامش2.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص188، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص38، ر.س.سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص333.

(4) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق1، ص99، محمود الحويرى، المرجع السابق، ص184.

(5) ر.س.سميل، المرجع السابق، ص333.

(6) محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص208.

(7) انظر: Smail, Crusading warfare p231.

(8) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص79.

(9) لا تذكر المصادر شيئًا عن تاريخ قلعة كوكب، ومن المحتمل أن ذلك حدث فيها بين سنتى (533هـ/ 1138م و535هـ/ 1140م) فى عهد الملك فولك، وقد كانت قلعة كوكب فى بدايتها عبارة عن مبنى صغير يمتلكه فرنسى يدعى إيفوفيلوس Ivovelos، وقد باع هذا النبيل القلعة لهيئة الاستبارية 564هـ/ 1168م، لمزيد من التفاصيل انظر نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص79، عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص59.

خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبًا، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع[1].

وقد كانت قلعة كوكب من الحصانة والقوة والمناعة حتى إن «العماد الكاتب» قال عنها «كوكب فى سمائها كأنها الكوكب»[2]، قيل أيضًا إنها راسية راسخة شماء شامخة[3]، وربما قصد «العماد» من قوله هذا أنها كانت ملكًا لقوم أشداء شكلوا خطورة على المسلمين فهى من المصاعب التى لا تبرك ولا تركب[4]، فهى نجم فى سهاب، وعقاب فى عقاب وهامة لها الغمامة وعمامة[5]، فقد كان حصنًا قويًّا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة[6]، هذا وقد جاء فى قول «ابن كثير»: «إنه فى المحرم من هذه السنة (584هـ / 1189م) حاصر «صلاح الدين» حصن كوكب فرآه منيعًا صعبًا فوكل به الأمير «قايماز النجمى»[7] لمحاصرتها وفعلا جاء له النصر وظفر بفتح القلعة»[8]، وتم فتح الحصن بعد عناء[9]، وتسلم القلعة سنة (584هـ/ 1189م)[10]، وفى عام (608هـ / 1211م –609هـ / 1212م) ضرب الملك «العادل» حصن كوكب[11] ومحا أثره وبنى حصنًا على جبل الطور، ثم ضربه الملك «المعظم» عام 614هـ / 1217م[12] مخافة أن يملكه الفرنج[13]؛ لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد، لكن المماليك استولوا على القلعة فى عام 662هـ/ 1263م[14].

(1) محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص191.
(2) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص204.
(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص155، العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص136.
(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص204.
(5) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص293ـ 294.
(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص134.
(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص190، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص247، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63، نفس الكلام عند يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع فى بيروت فى المطبعة العمومية الكاثوليكية 1893، 8 أجزاء، ج6، ص112.
(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص190.
(9) عمر صالح البرغوثى وخليل طوطح، المرجع السابق، ص193.
(10) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص167، نفس الكلام عند النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص411 ص412.
(11) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63.
(12) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص174.
(13) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص78، عمر صالح البرغوثى، تاريخ فلسطين، ص204.
(14) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص80.

قلعة شيزر

الموقع[1]

حصن أو قلعة شيزر قريبة من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة[2]، هذا وقد أفاض «فيليب حتى» فى تحريره لكتاب «الاعتبار» عن هذه القلعة قائلًا «على بعد خمسة عشر ميلًا إلى الشمال من حماة أكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصى الغربية يكللها حصن لم يزل قائمًا لليوم معروفا باسم «سيجر» تحريف شيزر وشيزر هو المرسح (المسرح) الذى تمثلت عليه معظم الحوادث المدونة فى الكتاب، والتى جرت وقائعها فى أيام «أسامة الفتى»، والهضبة لنتوئها سماها مؤلفو العرب «عرف الديك»[3]، ونهر العاصى يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث، فهى إذن شبه جزيرة بوضعيتها الجغرافية، غير أن الإنسان أكمل عمل الطبيعة بحفره خندقًا فى الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر مما زاد فى مناعة الحصن وتعذر الوصول إليه، وشيزر اثنان: قسم واقع ضمن القلعة على الرابية وهو البلد، وقسم قرب الجسر على العاصى وهو المدينة، وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها يفتح نحو الجسر، وعلى الجسر حصن أطلق عليه «حصن الجسر»، أما إذا غزا غازٍ البلاد السورية من الشمال فأمامه طريقان: طريق بحرية تمر فى اللاذقية، فالساحل الفينيقى وهى الطريق التى اختارها «الإسكندر» وكثير من الغزاة الآشوريين، وطريق داخلية تماشى العاصى إلى حماة فحمص، ثم تنعطف غربًا مع وادى النهر الكبير حتى البحر شمال طرابلس، أو أنها تستمر من حمص فى سهل البقاع، وتتصل أخيرًا بالساحل الغربى جنوبًا عند أقدام سلسلة جبال لبنان، والطريق الثانية هى التى سلكها معظم الفاتحين المصريين والبابليين مثل «رعمسيس»، و«نبوخذ نصر» وهى التى آثرها أكثر الصليبيين[4]، ولا بد لمن طرق هذه الطريق

(1) بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وفى آخرها راء مهملة، وهى قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم، فى وسطها نهر الأردن عليه قنطرة فى وسط المدينة أوله من جبل لبنان، وهى مدينة أيضًا ذات أشجار وفواكه كثيرة وبينها وبين حماه تسعة أميال، انظر الحموى، معجم البلدان، ج3، ص383، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص123.
هذا وقد ذكر عن موقعها أيضًا أنها تقع على صخرة متصلة بالهضبة الشرقية المشرفة على سهل الغاب إلى جنوبى قلعة المضيق، لمزيد من التفاصيل انظر أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص105.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص53 ، 55.

(3) الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد، ص205.

(4) أسامة بن منقذ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى د.ف، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة 1930م، ص(ت المقدمة).

الثانية من الاجتياز بآفامية (قلعة المضيق) وبأختها الجنوبية شيزر المسلطنة على وادى العاصى، هذا ما يجعل لموقع شيزر خطورة حربية[1]، ونظرا لأهمية موقع شيزر الجغرافى وباعتبارها مفتاح سورية الداخلية بقيت مطمع أبصار البيزنطيين الذين استخلصوها مرارًا من أيدى العرب وخسروها، هذا وقد حاول الفرنج تكرار الاستيلاء عليها، ولكن من غير جدوى، لمناعتها الطبيعية، وحصونها المتينة، وزعامتها المنقذية أنقذتها كل مرة من السقوط، هذا وفى عهد تاج الدولة «ناصر الدين محمد» وهو آخر الأمراء المنقذين، حدثت فى أيامه مأساة مفجعة قضت على بنى منقذ بأسرهم، بمناسبة اختتان ولد لتاج الدولة، أولم الوالد وليمة حضرها جميع آله، وفى أثنائها حدث الزلزال الشهير عام 552هـ / 1157م[2] الذى هلك فيه ما لا يحصى، والذى خرب بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وحمص، وحصن الأكراد، ولم ينج من بنى منقذ أحد سوى زوجة تاج الدولة التى انتشلت من تحت الردم إلا أن «نور الدين» صاحب دمشق عاد فعمَّر شيزر[3] حين ملكها وعمَّر أيضًا أسوارها ودورها وأعادها جديدة[4] سنة 564هـ / 1168م، وأقام عليها «مجد الدين أبا بكر بن الداية»، وهو أخوه من الرضاعة ولذلك سمى «ابن الداية»[5].

وأهم ما فى هذه القلعة اليوم هو: برجها الجنوبى المطل على خندق يملؤه نهر العاصى جدد فى العصر الأيوبى، وعليه كتابة فى واجهته تنسب بناؤه إلى الملك «العزيز محمد بن الظاهر غازى» 630هـ / 1232م، والبرج الثانى هو برج باب القلعة، ويبدو أنه جدد فى العصر الأيوبى، ثم طرأ عليه ترميم بسيط فى العصر المملوكى، ونقشت عليه كتابة تنسب تجديده إلى السلطان «قلاوون» 689هـ / 1290م[6]، وهذه القلعة حازت شهرة كبيرة فى التاريخ[7] نظرًا للأحداث والظروف السابقة التى مرت بها.

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، ص ث.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص125، هامش 4، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص10، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55، أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص(المقدمة).

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص55.

(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص125 – 126، هامش 4.

(6) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها فى سوريا، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999م، ص171 ص172.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، هامش 4، ص125.

قلعة الطور[1]

الموقع

تقع على قمة جبل طبرية الأردن[2].

تاريخ بناء القلعة

فى عام (607هـ/ 1211م - 608هـ/ 1212م) أنشأ الملك «العادل» قلعة منيعة على الطور، حيث ذكر «المقريزى» فى كتابه السلوك «فى عام تسعة وستمائة نزل «العادل» بعساكره حول قلعة الطور، وأحضر الصناع من كل بلد واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة، فكان فى البناء خمسمائة بناء سوى الفعلة والنحاتين»[3]، ولما تولى «المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب»[4] أنفق عليها الأموال الجمة وأحكمها غاية الإحكام، وذكر «ابن الجوزى «فى ذلك قائلًا «والمعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة «العادل» فلا يحصى ما غرم عليه»[5].

وفى عام 614هـ / 1218م[6]، ذكر «ابن الأثير»: «لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور، وهى قلعة منيعة فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه فاتفق بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا، وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يومًا، ولما فارقوا الطور أقاموا قريبًا فتوجه «المعظم» إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض[7]؛ لأنها بالقرب

(1) الطور بالضم ثم السكون وآخره راء والطور فى كلام العرب الجبل، وقال بعض أهل اللغة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ولا يقال للأجرد طور، والطور جبل بعينه مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء يجتمع فى كل عام بحضرتها سوق، هذا وذكر القلقشندى أنها مفردة على جبل الطور، لمزيد من التفاصيل انظر الحموى، معجم البلدان، ج4، ص47، انظر أيضًا القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج4، ص155، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص231.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص215، النويرى، نهاية الأرب، ج29، هامش 1، ص79.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص176، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص545.

(4) النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص79، هامش 1، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص202.

(5) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص585.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص171، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص220.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص202، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص136، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص155، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص176، النويرى، نهاية الأرب، ج 29، ص81، ابن الأثير، الكامل، حوادث سنه 614هـ.

من عكا ويتعذر حفظها[1]، وفى ذلك ذكر «صاحب النجوم الزاهرة» قائلاً «استدعى الملك «العادل» ابنه «المعظم»، وقال له قد بنيت هذا الطور وهو قد يكون سببًا لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين وسلاح الدنيا والذخائر، وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط وأنا أعوضك عنه بالمال ووعده فى مصر ببلاد، فأجاب «المعظم» وبعث ونقل من كان فيه»[2]، هذا ولم يبق إلا شىء قليل من حصونه اليوم[3]، وفى برج خرب نلاحظ فتحة للسهام (مزغل) على شكل حربة، يشبه فى تفاصيله المعمارية المزاغل الموجودة فى قلعة الجبل التى تنسب إلى الملك «العادل» أيضًا[4].

اللاذقية[5] قلاعها وسورها

لا شك أن اللاذقية كانت تشبه باقى المدن السورية فى بنائها، وتنظيمها فى العصر الهلنستى والرومانى، إذ كان يبنى لكل مدينة سور ليساهم فى صمود المدينة أمام غزو المعتدين، كما كانت كل مدينة تضم قلعة من شأنها زيادة قوة المدينة الدفاعية، وكانت القلعة تعتبر نقطة دفاعية يعتمد عليها الحاكم، فهى تحتل عادة منطقة عالية لها أهميتها الدفاعية، وتسمح بالإشراف والسيطرة على المدينة، وتكون القلعة غالبًا ملتصقة بالسور نفسه، هذا وعندما خضعت سوريا للصليبيين، اهتم الصليبيون اهتمامًا كبيرًا ببناء القلاع وشحنها وتحصينها، وكان من بين القلاع العديدة التى بنوها فى الساحل السورى قلاع اللاذقية[6]، وعلى الرغم

(1) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص220، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ.
(2) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص222، أحداث سنة 615هـ.
(3) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص152.
(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص119، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص152.
(5) هى مدينة من سواحل بحر الشام تعد فى أعمال حمص وهى غربى جبلة بينهما ستة فراسخ وهى الآن من أعمال حلب، قيل إنها مدينة عتيقة رومية فيها أبنية قديمة مكينة وهى بلد حسن فى وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض والبحر على غربيها وهى على ضفته، وكان قد ملكها الفرنج فيما ملكوه من بلاد الساحل فى حدود سنة 500هـ، لمزيد من التفاصيل انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج5، ص605، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص145، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد ص258 ص259، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، هذا وقد أضاف الدمشقى أن اللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث وهى أشبه بالإسكندرية فى بنائها، انظر الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص209.
(6) يذكر العماد الأصفهانى أن عدد قلاع اللاذقية كان ثلاث قلاع حيث قال «إنها ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات كأنهن على رأس راس راسخ، وذروة أشم شامخ فسهل الله لنا فرعها وشرعنا نستأصل أصلها وقرعها وناوبنا عليه القتال، وجاوبنا بالنصال النصال...».
العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص236، نفس الكلام عند ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص259.
هذا وقد قيل إنه رأى قاطع بدليل أن العماد الأصفهانى كان شاهد عيان على الفتح الصلاحى ورافق صلاح الدين فى جميع فتوحاته وحملاته وسجل الأحداث والوقائع بدقة، لمزيد من التفاصيل انظر هاشم عثمان، الأبنية والأماكن الأثرية فى اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق 1996م، ص79 ص80.

من مناعة قلاع سوريا إلا أن «صلاح الدين» سار إلى اللاذقية فنـزل عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأول ولها قلعتان على اللاذقية متصلتان على تل مشرف على البلد واشتد القتال إلى آخر النهار فأخذ البلد دون القلعتين[1]، وغنم المسلمون منه غنيمة عظيمة؛ لأنه كان بلد التجار ثم جدوا فى أمر القلعتين بالنقوب حتى بلغ طول النقب 60 ذراعًا وعرضه 4 أذرع، فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك فى عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة أنفسهم فأجابهم السلطان إلى مطلبهم[2]، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها لابن أخيه الملك «المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب» فعمرها وحصن قلعتها[3] من جديد فصارت أحسن مما كانت، هذا وفى عام 593هـ / 1196م أصبحت القلاع فى اللاذقية مصدر قلق بالغ للملك «الظاهر» و«الأشرف» من بعده، وخوفًا من أن تسقط قلعة اللاذقية بيد الفرنج عام 593هـ / 1196م، أرسل الملك «الظاهر» الحجارين والزراقين لهدم حصن جبلة وقلعة اللاذقية، وفعلًا ساروا لهدمها فنقبوا القلعة وعلقوها ورفعوا ذخائرها وهدموا المدينة، وبقى العسكر منتظرًا قدوم الفرنج ليلقوا النار فى الأخشاب المحشوة فى الأنقاب، لكن لم يصل أحد[4] فتراجع الملك «الظاهر» عن هدم القلعة[5]، وإذا كانت قلعة اللاذقية قد سلمت عام 593هـ / 1196م، إلا أن السلطان هدمها عام 600هـ / 1203م، ففى هذه السنة وصلت الأخبار بحركة الفرنج إلى اللاذقية، فخربت قلعة اللاذقية[6]، ولم تخرب قلعة اللاذقية تخريبًا كاملًا وبصورة نهائية إلا فى عام 620 هـ / 1223م، ففى هذا العام اتفق «الأشرف بن العادل موسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى» مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرًا وهدموها إلى الأرض[7] خوفًا من أن يجىء الفرنج فينـزلوا عليها ويحولوا بين المسلمين وبينها فيملكوها على عادة لهم فى ذلك[8].

ومنذ ذلك التاريخ لم تقم لقلعة اللاذقية قائمة، وقيل ما بقى اليوم من قلاع اللاذقية هو

(1) فى موضع آخر ذكر أبو الفدا فى المختصر «سار السلطان إلى اللاذقية ووصل إليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأول 584هـ / 1188م، ولها قلعتان فحصر السلطان القلعتين وزحف إليهما فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين»، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص74.

(2) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، ابن خلدون، العبر، ج5، ص313.

(3) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص74.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج3، ص140.

(5) هاشم عثمان، الأماكن الأثرية فى اللاذقية، ص80.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج3، ص140.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص140.

(8) الحموى، معجم البلدان، ج5، ص5 – 6.

بقايا قاعدة أحد الأبراج، وقيل يوجد نفق بين كتلتى تل القلعة، ولم يزل موجودًا إلى اليوم التل الذى كانت تقوم عليه قلاع اللاذقية[1].

سور اللاذقية

اهتم الصليبيون بسور اللاذقية؛ لأنه كان يعتبر من وجهة نظرهم خط الدفاع الأول عن المدينة، فقد كان سور اللاذقية ضخمًا لدرجة لا مثيل لها[2].

ويذكر «العماد الأصفهانى» ما يدل على ضخامة ومناعة سور اللاذقية أنه عند فتح «صلاح الدين» للمدينة 584هـ/ 1188م واسترجعها[3] فذكر أن النقابين والزراقين نقبوه من الشمال بطول ستين ذراعًا وفى العرض أربعة أذرع، ولم يتمكنوا منه[4].

قلعة السلط أو الصلت[5]

الموقع

تقع السلط فى شمال غرب عمان وتبعد عنها 30كم، وعلى إحدى قمم جبال البلقاء التى تشرف على وادى الأردن وأريحا غربًا، وعرفت قمة هذا الجبل باسم «رأس الأمير»[6]، هذا وقد قيل إن السلط من جند الكرك[7]، ويمكن القول إن هذه المنطقة ذات طبيعة جبلية، وتتمتع بأرض خصبة توفر لها المحاصيل اللازمة، وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية، فقد ذكر «أبو الفدا» بأنها ذات بساتين كثيرة وينبع من تحت قلعتها عين كبيرة، وبالتالى فإنها توفر المنعة والسيطرة لمن يعتصم فيها[8].

(1) هاشم عثمان، الأماكن الأثرية فى اللاذقية، ص82.
(2) هاشم عثمان، المرجع السابق، ص80 – 89.
(3) القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص258 – 259، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، تحقيق عصام شبارو، ص164.
(4) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج3، ص140، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص236.
(5) الصلت بألف ولام لازمين فى أوله وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مثناة، بلدة لطيفة من جند الأردن فى جبل الغور الشرقى فى جنوب عجلون على مرحلة منها، وبها قلعة بناها المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، وتحت القلعة عين واسعة يجرى ماؤها حتى يدخل البلد وهى بلدة عامرة آهلة ذات بساتين وفواكه، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص106، هذا وقد ذكر هنرى فيلد نقلا عن دوسو (Dussaud) أن هذه التسمية عربية قديمة وجدت فى النقوش الصفوية، وأنها مشتقة من تسلط والسلطة (Soltan)، انظر سعد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن ص318 – 319.
(6) العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص120.
(7) الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص213.
(8) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص319.

سبب بناء القلعة

ذكر صاحب مسالك الإبصار قائلًا «أما الصلت فإن قلعتها من بناء الملك «المعظم عيسى ابن العادل»، وكان السبب فى بنائها أنه عبرت له جوارٍ هناك فخرج عليهن طائفة تعرف ببنى دحمان من أهل قرية كفر يهودا فسبوهن وأخذوا جماعة منهن، فبناها على جبل قنة جبل يعرف برأس الأمير، وكان مكانها شعراء ملتفة»[1]، أى أن حركة العصيان هى سبب بناء القلعة، فقام بتقطيع الأشجار التى كانت تملأ الموقع، وببنائه دخلوا فى الطاعة[2]، هذا وقد كانت قلعة السلط محدثة البناء مثلها مثل قلعة عجلون، حيث إنها تشبهها أيضًا فى سبب بنائها حيث إنها بنيت نتيجة لحالة من التمرد والعصيان[3].

تاريخ القلعة

تاريخ قلعة السلط لا يتجزأ عن تاريخ شرق الأردن، ويعتبر العهدان الأيوبى والمملوكى من أزهى العصور التى عاشتها، حيث كانت تشكل العمل السابع من الصفقة القبلية التابعة إلى دمشق[4]، وهى الآن مندثرة معظم معالمها، وتم خلال عهد «المعظم عيسى» بناء القلعة، وعايشت بذلك مرحلة الصراع على السلطة بعد وفاة «المعظم عيسية»، فكانت تتبع تارة إلى الكرك وأخرى إلى مصر ومرة ثالثة إلى دمشق إلى أن تعرضت كسائر بلاد الشام للغزو المغولى فاستسلمت لهم، لكنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن البلاد بعد هزيمتهم فى عين جالوت، ودخلت السلط تحت حكم المماليك[5].

العناصر المعمارية المتبقية فى قلعة السلط

الخندق

يعتبر الخندق من أبرز المعالم المتبقية من القلعة، وهو أوضح ما يكون فى الجهتين الشمالية والغربية منها، وبالتقدير كان يحيط بالقلعة من الجهة الجنوبية الغربية أيضًا، ويمكن القول قياسًا على قلعة عجلون بأنه كان هناك جسر على هذا الخندق عند الزاوية الجنوبية الغربية من حيث وجود نتوءين صخريين متقابلين على حافتى الخندق[6].

(1) العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص120.
(2) سعد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن، ص319.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص322.
(4) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص106.
(5) سعد المومنى، المرجع السابق، ص322.
(6) سعد المومنى، المرجع السابق، ص323 – 324.

الأسوار

كانت أسوار قلعة الصلت ترتكز فوق القاعدة الصخرية الطبيعية لحافة الخندق الداخلية، ولم يبق منها اليوم غير جزء صغير فى الجهة الجنوبية مؤلف من مدماكين، لا تختلف فى طريقة نحتها عن حجارة قلعة عجلون.

الأبراج

لم يعد من أبراج القلعة التى كانت تتوزع على السور موجودًا إلى اليوم بل تهدمت جميعها، وأخذت حجارتها وحجارة الأسوار لاستعمالها فى واجهات المنازل التى أقيمت حديثًا حول القلعة، وهى من الحجارة الكلسية الصفراء، وهى من النوع المسمسم[1].

قلعة الأزرق[2]

الموقع

تبعد قلعة الأزرق عن عمان مسافة 115كم، وتقع على رأس وادى السرحان الذى يمتد جنوبًا حتى الجزيرة العربية، ويحيط بها واحة غنية بالماء وأشجار النخيل تقبع على حافة الصحراء الشرقية مسيطرة على الطريق الصحراوى الممتد من الحجاز إلى العراق والشام[3]، وقيل إن الأزرق من جند الأردن[4]، هذا وقد كان موقع القلعة مشجعًا على إقامتها فى هذا المكان نظرًا لوجود ينابيع المياه فيها[5].

تاريخ القلعة

هناك من يشير إلى أن بناء القلعة رومانى، ومن يذكر أنها نبطية والدليل على ذلك كسر الفخار النبطى المتميز بشفافيته ونقاء مادته، وأنها أدخلت عليها بعض التصليحات والترميات فى العهد الرومانى لحماية تخومهم الشرقية من القبائل العربية، هذا وقد حظيت القلعة بعناية ورعاية الأمويين فحولوها إلى غابة استوحى منها الفنان تلك اللوحة التى نحتها

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص325.
(2) إحدى القلاع الموجودة بالأردن تعرضت للتخريب، ولكن بقى منها أجزاء عديدة من الأسوار والأبراج التى تتخللها المزاغل والسقاطات أى أنها من القلاع المخربة، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، ص7.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص327.
(4) الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص213.
(5) سعد المومنى، المرجع السابق، ص328.

على واجهات قصر المشتى المملتئة بالأشجار النخيلية والمراوح وأنصاف المراوح التى انتزعها الألمان وحملوها معهم إلى برلين الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية[1].

القلعة فى العصر الأيوبى.

لا شك أن قلعة الأزرق قد حظيت فى العصر الأيوبى باهتمام الولاة[2] الأيوبيين[3] ورعايتهم، إذ قام «عز الدين أيبك» سنة 634هـ / 1236م ببناء مدخلها فى الجهة الجنوبية الغربية، وثبت ذلك من خلال نقش قائم فوق عتبة المدخل، كما قاموا أيضًا ببناء مسجد فى ساحتها الداخلية[4].

هذا وقد استفاد الولاة المسلمون بالجزء الذى بناه «عز الدين أيبك» خاصة فى العصر العثمانى، فيبدو أن القلعة قد أهملت نتيجة لبعدها عن الخط الحديدى الحجازى باتجاه الشرق، ولهذا استطاع «الشريف على بن الحسين الحارثى» أن يتخذها قاعدة له ضد الأتراك مستخدمًا الجزء الذى بناه «عز الدين أيبك»[5].

وصف وتخطيط القلعة

قلعة الأزرق بناء مربع الشكل طول ضلعه حوالى 85 مترًا، يقوم فى كل زاوية منه برج، كما يتوزع بين أسوارها عدد آخر من الأبراج المربعة والمستطيلة، وتضم أسوارها من الداخل عددًا من الغرف والمستودعات والإسطبلات وكلها بنيت من الحجر البازلتى الأسود الصلب، وليس لهذه المعالم تاريخ محدد، وأن ما يعنينا منها هو برج المدخل والمسجد باعتبارهما من العهد الأيوبى[6].

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) سعد المومنى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) من الملاحظ أن المرحلة الأيوبية تشكل بداية اهتمام واضح من الناحية الأمنية بمنطقة شرق الأردن، وذلك أن سلاطين الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين أدركوا أهمية المنطقة، وتجلى هذا الاهتمام بالدفاع عنها والتصدى للحملات الصليبية عليها كما أنهم استطاعوا توفير قدر كبير من الاستقرار والأمن فى ربوعها، وتعتبر هذه القلعة واحدة من سلسلة القلاع التى أنشأها الأيوبيون، والملك الناصر داوود هو منشئ هذه القلعة فى عام 634هـ / 1236م، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، ص7.

(4).سعد المومنى، المرجع السابق، ص328.

(5) سعد المومنى، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) سعد المومنى، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مبنى المدخل

يقع المدخل فى الجهة الجنوبية الغربية من القلعة، وهو على هيئة برج مستطيل الشكل طول ضلعه من الخارج 12 × 5.3 متر يعلو قنطرة المدخل بعد المدماك الثانى عشر لوحة نحت عليها نقش من أربعة أسطر نصه:

1) بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة.
2) هذا القصر المبارك الفقير إلى الله.
3) «عز الدين أيبك» أستاذ دار الملك «المعظم».
4) بولاية «على بن الحاجب».... فى سنة أربعة وثلاثين وستمائة.

ونفس نوعية هذا النقش توجد فى البرج السادس من قلعة عجلون[1].

هذا وإن كانت كلمة القصر الواردة فى هذا النقش لا تنفى عن المبنى صفة القلعة، إذ يعلو النقش طلاقة طولها متر وعرضها 12سم يعلوها سقاطة لها فى أرضيتها فتحتان لصب المحروقات على الأعداء إذا ما اقتربوا من المدخل، والوصول اليوم إلى أعلى هذه السقاطة يشكل خطرًا على الصاعد، وعلى جانبيها طلاقتان مرممتان، كذلك أقيم جدار استنادى مائل على شكل رصيف مؤلف من خمسة عشر مدماكًا لدعم الواجهة الجنوبية لهذا المدخل، وهذه صفة موجودة فى قلاع عجلون والكرك والشوبك[2]، أما عن المسجد فيقع فى منتصف الساحة الداخلية للقلعة وهو مستطيل الشكل[3].

قلعة معرة النعمان[4]

الموقع

تقع قلعة معرة النعمان فى شمال المدينة (معرة النعمان) جهة الشمال الشرقى من وادى الخطيب[5].

---

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص329 – 330.

(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص330.

(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص331.

(4) معرة النعمان مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، وهى مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار والخصب وشرب أهلها من الآبار ولها سبعة أبواب، باب حلب، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان، وباب حمص، وباب مسنى، ولم يعلم الباب السابع، ويذكر أن قبر شيث ابن ادم– عليه السلام– عند الباب المنسوب إليه فيها، وداخلها قبر يوشع بن نون – عليه السلام– وعلى ميل منها دير سمعان الذى به قبر عمر بن عبد العزيز، لمزيد من التفاصيل انظر الحموى، معجم البلدان، ج5، ص156، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص141.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص155، مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1998م، ص232 – 233.

الظروف التى أدت إلى بناء القلعة

تعتبر فترة حكم الملك «المظفر محمود بن المنصور» صاحب حماة حيث صارت له المعرة فى عام 626هـ / 1228م من أهم الفترات بعد استرداد المسلمين لها من أيدى الصليبيين، حيث تم فى عهده بناء قلعة معرة النعمان التى كانت سببًا فى تخريب المدينة على يد الصليبيين وتحولها من أملاك حماة إلى أملاك حلب، هذا وقد كان بناء القلعة فى عام 631هـ / 1233م، وذلك بناء على ما قدمه «سيف الدين على بن أبى الهذبانى» مدبر شئون حماة من قبل الملك «المظفر» من النصح إلى الملك «المظفر» بضرورة بناء قلعة للمدينة، لما فى ذلك من أهمية فى حماية المدينة[1]، وبالفعل قدم الملك «المظفر» إلى معرة النعمان وشرع فى بناء القلعة الذى لم يستغرق أكثر من شهرين[2].

سبب سرعة البناء

لعل السبب فى سرعة بناء القلعة يرجع إلى توافر الأحجار المنحوتة فى داخل المدينة وخارجها، بالإضافة إلى ما أوحى به «سيف الدين بن على» إلى الملك «المظفر» من أهمية بناء هذه القلعة، ويرجع «ابن واصل» قصر مدة بناء القلعة إلى أن الملك «المظفر» سلم إلى كل أمير من أمراء الدولة برجا من أبراجها فكمل بناؤها فى هذه المدة اليسيرة[3]، وشيَّد بها جامعًا، هذا بالإضافة إلى أن الملك «المظفر» شحن القلعة بالرجال والسلاح وأودعت من العدد والآلات ما جرت به العادة[4]، هذا ولم تلبث هذه القلعة أن كانت سببًا فى استيلاء الصليبيين عليها وعلى مدينة المعرة وتخريبهم للمدينة[5] حيث إنه بعد وفاة الملك «الكامل» بدمشق فى 21 رجب سنة 635هـ / 9 مارس 1238م، وصل هذا الخبر إلى حلب، التى كانت تستعد لمواجهة قدوم الملك إليها من أجل الاستيلاء عليها، وقيل إن جدة الملك «الناصر» وهى الملكة «خاتون» الوصية عليه[6] هى التى أصدرت الأوامر للجيش بالتحرك إلى معرة النعمان؛ لأن الملك «الناصر» فى ذلك الوقت كان يبلغ من العمر ثمانى سنوات[7]، والذى يهمنا هو أنه سار الجيش

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص83، مها يسرى، معرة النعمان، ص232 – 233.
(2) مها يسرى، معرة النعمان، ص232 – 233، يمكنك معرفة الكثير عن معرة النعمان انظر ص220 – 238.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص83.
(4) مها يسرى، معرة النعمان، ص232 – 233.
(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص155.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص181، ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص236.
(7) مها يسرى، معرة النعمان، ص235.

الحلبى بقيادة الملك «المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين» عم الملك «العزيز» متجهًا إلى معرة النعمان واستولوا عليها، ثم حاصروا قلعتها، ونصب عليها المجانيق واستمروا فى رميها بالحجارة مدة حتى سلمت إليهم بالأمان[1]، وفى هذه الأثناء وصل إلى الملك «المعظم» رسول من الملك «المظفر» ليحسن الأمور، إلا أن الملك لم يلتفت إلى هذا الرسول واستمر فى حصاره للقلعة حتى تمكن منها[2]، هكذا استولى الحلبيون على معرة النعمان وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لمدينة حلب، هذا وقد استمرت معرة النعمان تابعة لمدينة حلب حتى نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك.

وفى عام 658هـ / 1259م، تعرضت المعرة لهجوم التتار، حيث قاموا بتخريبها وتخريب أسوارها وهدم قلعتها التى ظلت مشيدة سبعة وعشرين عامًا، حيث كان قد تم بناؤها فى عام 631هـ / 1233م، وهدمت فى عام 658هـ / 1259م[3].

أبواب معرة النعمان

اختلف المؤرخون فى أسماء أبواب المعرة، فللمعرة سبعة أبواب، هى باب شيث وهو فى الجهة الشمالية، وباب الجنان فى الجهة الغربية يخرج منه إلى وادى الجنان، وباب حناك وهو فى جهة الجنوب الغربى، وباب حمص فى الجهة الجنوبية على الطريق المؤدى إلى مدينة حماة والذى أحرقه «سعد الدولة» سنة 364هـ / 975م، وباب حلب فى الجهة الشرقية على الطريق المؤدى إلى مدينة حلب، أما الباب الكبير فهو فى الجهة الشرقية، ولعله باب منسى الذى ذكره العامة من أهل المعرة، أما الباب السابع فلم يشر إليه أحد من المؤرخين[4].

أبراج وحصون معرة النعمان

أما فيما يتعلق بأبراج وحصون معرة النعمان، فقد انفرد «ابن الوردى» بالإشارة إلى برجين فقط هما برج بنى الحجال، وبرج وحيدة، وبالإضافة إلى هذين البرجين، هناك العديد من الحصون سواء فى المعرة أو فى ضواحيها مثل حصن الكفر أو الكفير، وهو فى الجهة الشمالية من المعرة، وحصن أسفونا الذى يوجد فى قرية أسفونا إحدى قرى المعرة وقد خرب هذا الحصن، وهناك حصن حناك وهو حصن قوى يقع فى جنوبى المعرة من جهة الغرب ولقد

(1) مها يسرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(2) مها يسرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) مها يسرى، المرجع السابق، ص237 – 238.
(4) مها يسرى، المرجع السابق، ص68.

خرب هذا الحصن أيضا، ومن حصون المعرة أيضًا حصن كفر روما الذى يقع فى قرية تحمل نفس الاسم، وقد خرب أيضًا هذا الحصن[1].

قلعة قيسارية[2]

الموقع

كانت قيسارية فى السابق مرفأ مهمًا من مرافئ فلسطين فى العصور القديمة والقرون الوسطى، وقال عنها صاحب النجوم الزاهرة «قيسارية من أعمال فلسطين»[3]، وهى تقع فى خليج طبيعى يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر ما بين حيفا ويافا، ولقد ظل الموقع مهجورا منذ نهاية القرون الوسطى[4].

الوصف

تم الكشف فعلًا عن أجزاء من تحصينات القرون الوسطى مع بعض المبانى التى تعود إلى العهود القديمة والعصور الوسطى، وتحيط الدفاعات المتينة بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقريبا من جانب الخليج، وكانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة كانت تشغل حيزا من الأرض عند الطرف الجنوبى للمرفأ ويحميها من جهة البر سور قوى[5].

تاريخ القلعة

فى عام 18هـ / 639م فتح العرب قيسارية وحصنوها تحصينًا قويًا لكنه بعد أن استولى «بلدوين الأول» على أرسوف اتجه وهاجم قيسارية واحتلها بعد صراع عنيف مع أهلها[6]، هذا وقد ذكر «المقريزى» أن السلطان «صلاح الدين» فتح حصونًا حول عكا ومنها قيسارية[7]، هذا وقد قيل إن «صلاح الدين» حرر قيسارية عام 583هـ / 1187م بعد أن هزم

---

(1) مها يسرى، المرجع السابق، ص70.

(2) بلد على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، انظر الحموى، معجم البلدان، ج 4، ص421، وأضاف أبو الفدا فى تقويم البلدان «كانت من أمهات المدن العظام وهى اليوم خراب...»، وقال «مدينة قيسارية مدينة جليلة ومنها إلى مدينة عكا ست وثلاثون ميلا»، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 239.

(3) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج2، ص204، هامش2.

(4) فولفغانغ مولر، القلاع الحربية فى الحروب الصليبية، ص97.

(5) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(6) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص97 – 98.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص179، حوادث سنة 583هـ، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص94.

الفرنج فى حطين وخرب التحصينات القديمة فيها، وعندما جاء «ريتشارد قلب الأسد» احتل جيشه المدينة المهجورة عام 587هـ / 1191م وأعيد بناؤها ورممت تحصيناتها، ولكن شيدت بها قلعة جديدة، لكن قيسارية سقطت فى عام 617هـ / 1220م فى يد جيش السلطان الملك «المعظم» بسبب إهمال أو تهاون من قبل الحامية، ولكن نالها التخريب مرة أخرى وهى الآن مهجورة[1].

قلعة عكا[2]

هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام، انتزعها الفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه[3]، هذا وقد فتح السلطان «صلاح الدين الأيوبى» عكا[4] فى ثانى جمادى الأول عام 583هـ / 1187م[5]، وعندما أقام السلطان بعكا فى أواخر عام 584هـ / 1189م، أمر بإحضار «بهاء الدين قراقوش» من مصر ومعه المهندسون وطائفة البناءين وما يلزمهم لعمارة سور عكا[6] لاستحكاماتها فوصلوا فى شهر محرم عام 585هـ / 1189م، والسلطان مقيم بها فأقام «بهاء الدين قراقوش» واليا عليها، وأمر ببناء السور أمتن بناء[7] وعمارة قصورها ودورها[8]، هذا وقد ذكر المؤرخون «وكان قد وكل

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص97– 98.

(2) اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، وهى من أحسن بلاد الساحل فى أيامنا هذه وأعمرها، قيل إنها مدينة حصينة كبيرة بناها عبد الملك بن مروان، وزاد فى حصانتها ابن طولون، وكان قد رأى صور واستدارة الحائط على مينائها فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكور وعرض عليهم ذلك فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء فى الماء فى هذا الزمان، وفى موضع آخر قيل إن عكا فتحت فى حدود سنة 15هـ على يد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان، ثم خربت فجددها هشام بن عبد الملك، وعمرت عكا أحسن عمارة وصارت بها الصناعة إلى يومنا هذا، وكانت قديما بيد المسلمين حتى أخذها الفرنج ومعديهم بغدوين (بلدوين) صاحب بيت المقدس من زهر الدولة بناء الجيوش منسوب إلى أمير الجيوش بدر الجمالى وابنه، وكان بها من قبل المصريين، فقصدها الإفرنج برا وبحرا فى سنة 497هـ / 1103م، فقاتلهم أهل عكا حتى عجزوا عنهم لقصور المادة بهم، وكان أهل مصر لا يمدونهم بشىء فسلموها إليهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا جماعة أخرى حملوهم خلف البحر، وخرج زهر الدولة حتى وصل إلى دمشق ثم عاد إلى مصر، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص152، الحموى، معجم البلدان، ج4، ص144.

(3) ابن جبير، الرحلة، ص211.

(4) الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص213.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص179، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص155، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص223.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص99.

(7) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص168.

(8) الدواداري، كنـز الدرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ج7، ص98.

بعمارتها وتجديد محاسنها «بهاء الدين قراقوش»[1] فشرع فى التعمير والتسوير وتسوية الأمور بحسن التدبير»[2]، وذكر العماد «الأصفهانى»: «فندب السلطان «قراقوش» لتولى عمارة عكا، وكوتب بالحضور لتولى الأمور وعمارة السور، وقد استصحب معه كل ما يفتقر إليه من أسباب العمارة وآلاتها، وأدويتها وأدواتها وأنفارها وأبقارها، ورجالها وعمالها وعمارها ومهندسيها ومؤسسيها، وحجاريها ومعماريها، والأسارى والصناع وغير ذلك»[3]، وقد خربت بعد أن استرجعها المسلمون من الفرنج فى سنة تسعين وستمائة فى الدولة الأشرفية (خليل بن قلاوون)[4].

قلعة صيدا[5] أو صيدون[6]

مدينة وقلعة على الساحل الجنوبى من لبنان فى موقع صيدون سابقًا التى كانت مرفأ يحميه ريف صخرى طبيعى ومكاسر صناعية، كما يحميه حصن بحرى من الهجمات الخارجية القادمة من البحر، وقيل عنه إنه حصن صغير وجميل تناسب مع حجم بلدته الصغيرة على

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص42، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص592.
(2) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص210.
(3) العماد الأصفهانى، المرجع السابق، ص208.
(4) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص152.
(5) ذكر الحموى قائلا «صيدا أظنه لفظة أعجمية إلا أن أصلها فى كلام العرب على سبيل الاشتراك، قيل إن الصيداء حجر أبيض يعمل منه البرام (جمع برمة)، وقيل أيضًا الأرض التى ترتبها أجزاء غليظة الحجارة مستوية الأرض»، الحموى، معجم البلدان، ج3، ص437، ذكر عنها أيضًا أبو الفدا فى كتابه تقويم البلدان «هى على ساحل البحر (بحر الشام) وهى بليدة صغيرة ذات حصن قال فى العزيزى: ومن مدين صيدا إلى مدينة مشغرا وهى من أترة بلد فى تلك واد....، وجملة المسافة بين صيدا ودمشق ستة وستون ميلا»، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص249، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص111، ذكر عنها أيضًا العماد الأصفهانى «هى مدينة لطيفة على الساحل مورودة المناهل ذات بساتين وأزهار ورياحين وأشجار النارنج والإترنج»، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص103.
(6) صيدون ذات حصن حصين، وقيل إنها سميت بصيدون بن صدقا بن كنعان ابن حام (سام) بن نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها وسكنها، وفى الأصل صيدون هكذا وردت فى العبرية وهو الابن الأكبر لكنعان حسب الأنساب المذكورة فى تكوين (10: 15)، ومن المرجح أن يكون صيد إله سامى قديم إله الصيد.
انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص111، انظر أيضًا أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، دراسة لغوية، الجامعة الأمريكية فى بيروت، منشورات كلية العلوم والآداب، سلسلة العلوم الشرقية، الحلقة السابعة والعشرون 1956م، ص203.

ساحل البحر[1] عرف بحصانته وقوته[2]، وقد احتلت مدينة صيدا أهمية كبيرة، نظرًا لأنها كانت مسورة بأسوار قوية[3]. وتحرسها من جهة البر قلعة (قلعة المعز)[4] التى تطل عليها من حافة تل قليل الارتفاع[5]، ولم يبق أى أثر من القلعة باستثناء برج واحد وأقسام منعزلة من جدارها، كما اختفت أيضًا أسوار المدينة، إلا أن هذا الحصن المسمى «حصن البحر» والذى خضع لتعديلات عديدة أثناء الحكم العثمانى رمم فى الآونة الأخيرة على نطاق واسع، لكن عناصر البناء فيه ليست كلها محددة المعالم تاريخيا[6].

تاريخ صيدا

فى عام 504هـ / 1110م طوقت صيدا بأسطول نرويجى استولى عليها ولكن حدثت زلازل أصابت المدينة وتحصيناتها بأضرار بالغة[7]، وفى عام 583هـ / 1187م ذكر «ابن الأثير» فى حوادث هذه السنة «أما صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة، فلما سمع صاحبها بمسيرة نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ولا مدافع فلما وصلها «صلاح الدين» تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأول»[8]، أى أن «صلاح الدين» احتلها[9] وأزيل قسم كبير من تحصيناتها[10] فقد ذكر «العماد الأصفهانى»: «خيمنا على صيدا، وقد حصلنا على

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص5، نقلا عن أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا 1331هـ/ 1913م، ص57 – 58.

(2) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص54، أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص142.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص142.

(4) بصيدا قلعتان إحداهما معروفة بقلعة الفوقا المعروفة بقلعة المعز وهى فى الجهة الجنوبية من المدينة، ولا يوجد آثار ذات أهمية إلا أنها من زمن قديم وهى مبنية على ربوة، وهناك قلعة أخرى تسمى «قلعة البحر» وهى تقع على الشمال الشرقى من المدينة على جزيرة صغيرة تتصل فى المدينة بجسر مؤلف من ثمانية قناطر وفى شمال شرق الميناء يوجد جزيرة وفى وسط هذه الجزيرة قد بنى الصليبيون فى شتاء عام 625هـ / 1227م ـ 626هـ / 1228م، حصنا كان يتألف من برجين متصلين ببعضهما بحائط ويسمونه «قلعة البحر» وقد أصبح الآن خرابا، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57 – 58، عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص54، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص130.

(5) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، الجزء الأول والثانى من المجلد السادس، كانون الثانى وشباط 1926م، ص68.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص90 – 91.

(7) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص180، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص206، ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج3، دمشق 1968م، ص97، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص95.

(9) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.

(10) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص90 – 91.

صيدها وخلصنا من كيدها، وانطلقت هممنا من قيدها»[1]، أسند «صلاح الدين» ولاية صيدا بعد أن فتحها عام 583هـ / 1187م إلى الأمير «سيف الدين على بن أحمد بن المشطوب الهكارى»[2]،هذا وقد لعبت صيدا دورًا مهمًا فى الحروب الصليبية، فقد أسهم«ابن المشطوب» فى أثناء ولايته لصيدا فى إمداد مسلمى عكا بالطعام والمؤن من صيدا، ذلك عندما اشتد عليهم الغلاء فى شتاء عام 586هـ / 1190م[3]، وبعد أن فرغ «صلاح الدين» من فتح صيدا اهتم بتحصيناتها بقصد حمايتها من الأخطار المحيطة بها والمتمثلة فى فرنج صور[4].

ويعبر «العماد الأصفهانى» عن ذلك بقوله «ولما فرغ من شغل صيدا وتبنين وجمع لهما التحصين والتحسين قال لعصمة الله: شيدى ما بصيدا وتبنين تَبنين، وألحفيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين، ولا يطرق ما تحمين»[5]، لكن هناك من العوامل ما جعلت «صلاح الدين» يقدم على هدم سور صيدا، فمنها أنه علم بنية الفرنج فى استرجاع مدن الساحل خاصة عند اقتراب الألمان من حدود الشام فى مائة فارس فى البحر، بالإضافة إلى قرب وصول حملة صليبية جديدة، كل هذا من العوامل التى دفعت «صلاح الدين» إلى هدم سور صيدا وطبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وجبيل، حتى لا يستخدمها الصليبيون فى محاربة المسلمين ونقل أهالى هذه المدن إلى بيروت[6]، وفى عام 588هـ / 1192م أعاد «صلاح الدين» جزءًا من أملاك «رينو دى ساجيت»، ولم تجر أى إعادة بناء بها[7]، وفى عام 620هـ / 1223م كانت صيدا مناصفة بين المسلمين والفرنج وكان سورها خرابًا فعمروها واستولوا عليها وأنقذوها من حكم المسلمين، وإنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها[8].

وفى عام 625هـ / 1227م كان سور صيدا خرابا فعمرها الفرنج واستولوا عليها، ويذكر «ابن الأثير» فى ذلك «لما توفى «المعظم» طمع الفرنج ووصلوا إلى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين

(1) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص102 – 103.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص242.
(3) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص104، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص120.
(4) السيد سالم، تاريخ صيدا، ص121.
(5) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص104.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص325، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص104، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص850، السيد سالم، تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى 1970م، ص122.
(7) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص90 – 91.
(8) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص60.

وإنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها»[1]، وفى عام (626هـ / 627هـ - 1228م- 1229م)، استعاد الفرنج قلعة صيدا[2] وأعيد تحصينها وبدأ العمل فى إقامة حصن البحر (قلعة البحر)، هذا وفى عام 647هـ / 1249م هدم المسلمون أسوارها[3] وشغلها العرب مدة قصيرة، وخرب الحى السكنى مرة أخرى رغم أن حصن البحر ظل على ما يبدو فى أيدى الفرنج[4]، وفى عام 651هـ / 1253م أعيد بناء دفاعات المدينة والقلعة على مستوى كبير على يد الملك «لويس التاسع» ملك فرنسا[5]، وفى عام 659هـ / 1260م امتلك الفرسان الداوية صيدا، ولم يكن لها سوى دور ضئيل فى النزاع الفرنجى الداخلى فى أواخر القرن الثالث عشر، وهاجم المدينة «بوهمند السابع» صاحب إنطاكية، ولكن نتيجة للهجوم العربى فر الداوية منها بحرًا إلى قبرص، فسقطت المدينة بفرارهم وخربت جميع تحصيناتها[6].

قلعة حماة[7]

تقع هذه القلعة على مرتفع يشرف على مدينة حماة ووادى العاصى[8]، هذا وقد قيل إن موقعها بين حمص وقنسرين[9]، شهدت حماة فى ظل «نور الدين محمود» حركة تعمير ما خرب بها، هذا إلى جانب إعادة تعمير قلعتها، وقد استمرت فى تبعية «نور الدين محمود» إلى أن توفى

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص276، حوادث سنة 625هـ، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص229.
(2) السيد سالم، تاريخ صيدا، ص131.
(3) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.
(4) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص90 – 91.
(5) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.
(6) فولفغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص90 – 91.
(7) حماة مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصى، عليه عدة نواعير تستقى الماء من العاصى فتسقى بساتينها وتصب إلى بركة جامعها ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل؛ لأنه منحط عن المدينة ويسمون المسور «السوق الأعلى»، وحماة مدينة قديمة جاهلية إلا أنها لم تكن قديما مثل ما هى اليوم من العظم بسلطان مفرد بل كانت من عمل حمص، وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة، وغالب مبانيها العلية وآثار الخير والبر الباقية فيها من فواضل نعم الدولة الأيوبية، ولم تزل بأيدى بقايا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر يقيم ملوكهم فيها ملكا بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون، الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص206، انظر الحموى، معجم البلدان، ج2، ص300، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص139 – 140، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص126، ابن جبير، الرحلة، ص180 – 181.
(8) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص102.
(9) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص139 – 140.

فى 569هـ / 1173م، فانتقلت حماة مع بقية مدن الشام إلى ابنه «الصالح إسماعيل» إلى أن تمكن «صلاح الدين الأيوبى» من تملك البلاد الشامية، فكانت حماة من ضمن البلاد التى تملكها «صلاح الدين» عام 570هـ / 1174م[1]، وبذلك دخلت حماة تحت السيطرة الأيوبية[2]. هذا وعندما ملكها الملك «المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»، أعاد عمارتها وحصنها، وحفر خندقها نحو مائة ذراع وأكثر كانت للملك «المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»[3]، قال عنها «العماد الأصفهانى»: «إن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا...، وكانت قلعة حماة لا تعد فى القلاع المعدودة المحمية، ولا تذكر مع المعاقل المرعية المرضية...، فلما تولاها «تقى الدين»... حصنها وعلاها...، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة فاضلة فى الشام كل مدينة، فطلع السلطان... إلى القلعة وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة»[4].

هذا وقد أحيطت حماة بسور محكم[5] كان له ثلاثة جوانب فقط، نظرا لمجاورتها لنهر العاصى، ويرجع تشييد تلك الأسوار إلى زمن الملك «المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى»[6]، وقد كان بهذا السور باب سمى «باب دمشق»[7]، وفى عام 626هـ / 1228م، أواخر شهر رمضان ملك «الكامل» مدينة حماة وسبب ذلك أن «الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر» وهو صاحب حماة توفى[8].

قلعة شميميس[9]

تقع شميميس على بعد 3 أو4 كيلومترات من غرب السالمية على طريق حماة على طرف من

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص132، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص86.

(2) منى فريد مصطفى عثمان، حماة فى العصر الأيوبى، رسالة ماجستير، كلية البنات جامعة عين شمس 1995م، ص26.

(3) الحموى، معجم البلدان، ج2، ص300.

(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص121.

(5) الحموى، معجم البلدان، ج2، ص300.

(6) منى فريد، حماة فى العصر الأيوبى، ص3.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص182.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص380.

(9) شميميس وهى بلدة من عمل حمص، على طرف البرية، وشميميس اسم تل بجوارها وهى على تل عال، انظر الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص202، انظر النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص166.

مجرى النهر[1]، أقامها ملك حمص الأيوبى «أسد الدين شيركوه الثانى»[2] وكان صاحب حمص «أسد الدين شيركوه الثانى» قد شرع فى عمارة قلعة شميميس، وعندما سلم الملك الكامل له سلمية قد استأذنه فى عمارة شميميس فأذن له بذلك، ولما أراد «شيركوه» عمارتها أراد الملك «المظفر» صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه من ذلك لكونه بأمر الملك «الكامل»[3]، وقد ذكر «ابن واصل» عندما كان الملك «الكامل» نازلًا بحمص كان معسكره بالقرب من تل عال يقال له شميميس فقال الملك «الكامل»: لو بنى فوق هذا التل قلعة، كانت تكون فى غاية الحصانة فاستأذنه الملك «المجاهد» أن يبنى لنفسه فوقها قلعة فأذن له فيه فشرع فى هذه السنة وهى سنة سبعة وعشرين وستمائة 627هـ/ 1229م فى عمارة قلعة فوق التل. وأتم الملك «المجاهد شيركوه» القلعة، وجاءت فى غاية الحصانة والعلو وسماها ماردين الشام ومنع من تسميتها بغير هذا الاسم، ولزمها الاسم الأول»[4]، والقلعة اليوم مهدمة وخربه وحالتها اليوم سيئة وبقيت آثار قليلة من أسوارها وأبراجها[5].

قلعة الرحبة

تقع بالقرب من بلدة الميادين الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات، تبعد عنها مسافة 5 كيلومترات تقريبا نحو الجنوب، فقد كانت الرحبة تنقسم إلى قسمين، الرحبة القديمة والرحبة الحديثة، أما الرحبة القديمة فهى مدينة عربية أنشأها «مالك بن طوق» فى خلافة «المأمون»، ومكانها ـ كما نرجح ـ عند بلدة الميادين على شاطئ الفرات تماما، أما الرحبة الحديثة فقد أنشأها ملك حمص الأيوبى «أسد الدين شيركوه الثانى»[6]، هذا وقد قيل إنها تهدمت بعد الغزوات المغولية وبقيت قلعتها وهى قائمة على مرتفع صخرى، محاطة بخندق، ومبنية بالآجر والحجر[7].

(1) Max Van Bercham, op.cit, pp171, 172

(2) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، دار البشاير، الطبعة الثانية، سنة 1419هـ- 1999م، ص170.

(3) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص145.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص282 – 283.

(5) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص170.

(6) عبد القادر الريحاوى، المرجع السابق، ص171.

(7) عبد القادر الريحاوى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

قلعة صرخد[1]

بنى هذه القلعة «حسان بن مسمار الكلبي» 466هـ / 1073م، وكتب على بابها «أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب «عز الدين فخر الدولة» عدة أمير المؤمنين يعنى «المستنصر» صاحب مصر»، وذكر عليها اسمه ونسبه[2]، هذا وقد قيل إن قلعة صرخد محدثة بنيت قبل الشهيد «نور الدين محمود بن زنكى»[3]، هذا وقد جددت القلعة فى العهد الأيوبى، وتشهد بذلك الكتابات المنقوشة على حجارتها التى تؤرخ أعمالهم[4]، هذا وقد ذكر أن الملك «المعظم عيسى» قد كان قد أخذ قلعة صرخد وذلك فى عام 611هـ / 1214م[5]، هذا وعندما استولى المماليك على الحكم تم ترميم القلعة فى عهد «الظاهر بيبرس» بسبب تهديم التتار لها فى آخر العهد الأيوبى[6].

قلعة المضيق

تقع قلعة المضيق بجوار آفاميه على مرتفع مشرف مباشرة على سهل الغاب، أى أنها تقع شرق حماة قرب آفاميه، وقد كانت هذه القلعة لها أهميتها أثناء الحروب الصليبية، إذ استولى

(1) صرخد بلدة صغيرة ذات بساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر فى الصهاريج والبرك، وليس وراءها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية، ومنها تسلك طريقا تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد فى نحو عشرة أيام وبها قلعة وكان بها ملك من المماليك المعظمية، وهى محدثة البناء بدأت قبل نور الدين الشهيد ولما وصلت عساكر هولاكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جدرانها فجددها الظاهر بيبرس وهى على ذلك إلى الآن، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص107، العمرى، مسالك الإبصار، أيمن فؤاد، ص120، هذا وقد قيل أيضًا إن صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة وولاية حسنة وواسعة، انظر ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص130، هامش2، الحموى، معجم البلدان، ج3، ص401، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص95، هامش 5، وقيل إن صرخد من أعمال دمشق وقيل إن قلعة صرخد على جبل بنى هلال ويسمى هذا الجبل «الريان» لكثرة انصباب الماء منه، وهو من عمل مدينة أذرعات (مدينة بصرى وحوران)، انظر شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد، ص200، وقد ذكر عن قلعة صرخد أيضًا أن اسمها صلخد واسمها العربى صرخد وهى مشهورة بقلعتها الحصينة الرابضة فوق رابيتها المشرفة على السفوح الجنوبية وهى تعود إلى العهد الأيوبى، انظر أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، الطبعة الأولى 1960م، دمشق، ص66.

(2) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص135، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص167.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص107، العمرى، مسالك الإبصار، أيمن فؤاد، ص120.

(4) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص170.

(5) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص569.

(6) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص66.

عليها الصليبيون ولكن «نور الدين» استخلصها من أيديهم، إلى أن جاء العصر الأيوبى فأسهم الأيوبيون فى تجديدها، هذا وقد قيل إن بعض أبراجها شيد فى عهد «الظاهر غازى» 602هـ / 1205م[1].

قلعة نجم[2]

تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى الشرق من بلدة منبج[3]، وهى على جبل ربض عامر وعندها جسر يعبر عليه وهى المعروفة بجسر منبج[4]، هى قلعة عربية وضع يده عليها «العادل نور الدين محمود» وأصلحها[5]، لكن المنشآت المهمة الموجودة حاليًا هى من عهد الملك «الظاهر غازى الأيوبى»[6]، حيث حصرها وتسلمها فى عام 579هـ / 1200م[7] هذا وقد جددها الظاهر غازى بن «صلاح الدين» ملك حلب بين سنتى 605هـ / 1208م و612 هـ / 1215م[8]، وأكثر مبانيها اليوم ترجع إلى عهده وهى مبنية بالحجر الكلسى المنحوت جيدة البناء[9] بالحجارة الجميلة[10].

قال عنها «القاضى الفاضل» فى بعض رسائله «ووافينا قلعة نجم، وهى نجم فى سهاب وعقاب فى العقاب وهامة لها الغمامة عمامة وأنمله إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة»[11]، وهى قلعة حسنة حصينة لها ظاهر للطرف، قاصر عنها الوصف[12]، هذا ولم تزل

(1) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص104 – 105.

(2) نجم قلعة فى محافظة حلب، وهى مركز ناحية فى منطقة منبج، انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص10.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص473، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص85، ابن جبير، ص176.

(4) الحموى، معجم البلدان، ج4، ص391، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص473، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص159، الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد 1923م، ص206.

(5) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص85.

(6) أبو الفرج العش، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص252، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص215.

(8) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص153.

(9) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص171.

(10) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص153.

(11) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص473.

(12) ابن شداد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

القلعة فى يد نواب الملك «الظاهر» إلى سنة ثلاثة عشر وستمائة كان قد أقطعها لعتيقه الأمير «بدر الدين أيدمر» المعروف بوالى قلعة حلب فزاد فى عمارتها، ولم تزل فى يده إلى سنة تسعة وعشرين وستمائة وذلك فى أيام الملك «العزيز»، فأخذها منه وعوضه عنها اللاذقية، وتوفى الملك «العزيز» وصارت إلى ولده الملك «الناصر» فيما صار إليه من البلاد، وما زالت فى ملكه إلى أن انقضت الدولة وأخربتها التتر[1].

قلعة دمشق[2]

الموقع

تقع قلعة دمشق فى الزاوية الشمالية الغربية[3] لسور دمشق القديم[4]، وتعد قلعة دمشق هى القلعة الوحيدة بسوريا التى بنيت على مستوى أرض المدينة عكس القلاع الأخرى التى بُنيت على مرتفعات وهضاب[5] كقلاع حلب وشيزر وحماة وحمص التى شيدت على بعض المرتفعات[6].

تاريخ القلعة

سميت قلعة دمشق بـ«الأسد الرابض»[7]، فقد كانت أقدم الاستحكامات الإسلامية بها، فقد أقيمت مكان دار الأمارة التى اتخذها بنو أمية فى الخضراء ظاهر دمشق، فلما تولى بنو

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص475.

(2) قلعة دمشق ذكرها ابن جبير فى الرحلة «ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة فى الجهة الغربية من البلد» وهى بإزاء باب الفرج من أبواب البد، انظر ابن جبير، الرحلة، ص201، هذا وقد ذكر القزوينى والقلقشندى «أنها مدينة عظيمة حصينة ذات سور شاهق وخندق»، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص91، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص189، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السوريا، دمشق 1996م، ص285.

(3) سليم عادل عبد الحق، نزهات أثرية فى سوريا، طبع فى مطبعة الترقى بدمشق قيمرية 1947م، ص9، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومتنزهاتها، ص52.

(4) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص236، قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج2، دمشق 1999م، ص125، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص285.

(5) عدنان البنى، قلعة دمشق، مقال بمجلة الحوليات الأثرية السورية 1985م، ص30، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومتنزهاتها، ص53، دمشق الشام أقدم مدينة فى العالم، إعداد وتصوير أيوب سعيد، ص53.

(6) سليم عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، مطبعة الترقى بدمشق مطبوعات مديرية الآثار العامة فى سوريا 1369 هـ- 1950م، ص50.

(7) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص292.

العباس خربوا دور الأمويين وسور دمشق وبنوا دار إمارة أطلقوا عليها «القصر»[1]، ولم يزل منزل الأمراء حتى أحرقه «بدر الجمالى» فى عهد الخليفة «المستنصر بالله» الفاطمى ونقص أخشابه وشمله الخراب، ولم يبق بدمشق دار إمارة حتى ملكها «تاج الدولة تتش» 471هـ / 1079م[2] فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار إمارة[3]، وسكنها وبنى لولده «رضوان» دارًا بالقلعة تعرف بـ«دار رضوان» ولم تزل يد الإصلاح والترميم تتوالى على القلعة ودار الإمارة طول عهد الأمراء السلاجقة حتى ملك دمشق «نور الدين محمود بن زنكى»[4]، فبنى بها دارًا أحسن ما تزال حتى الآن تعرف باسمه، كما أنشأ بها دارًا أخرى عرفت بـ«دار المسرة»، كانت فى غاية الحسن وأنشأ إلى جوارها حمامًا[5].

قلعة دمشق فى العصر الأيوبى

من أهم آثار الأيوبيين فى دمشق، بل أهم مثل على فن العمارة العسكرية فى العصر الأيوبى فهى ما تزال بحالة جيدة محافظة تقريبًا على أصالتها[6]، فعندما أسس «صلاح الدين الأيوبى» الدولة الأيوبية ودخل دمشق سلما عام 570هـ / 1174م[7] نـزل فى دار أبيه المعروفة آنئذ بـ«دار العقيق» وعصيت عليه القلعة، وكان فيها من جهة الملك «الصالح بن نور الـدين زنكى» خادم يسمى «ريحان» فراسله «صلاح الدين» واستماله إليه فى طلب القلعة فجعل مقره فيها، وأصبحت بمنزلة مقر لأعماله العسكرية المظفرة التى قام بها[8]، وكان لـ «صلاح الدين»

---

(1) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج2، ص125.

(2) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص292، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص53، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص285، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص152، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص48 – 49.

(3) عبد الرحمن زكى، الجيش المصرى، موسوعة الجيوش، القاهرة 1970م، ص119، مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقدة فى دمشق، صيف 1947م، مطبعة فؤاد الأول، ص60.
بدأ بناء القلعة بعد عام واحد من دخول الأمير (آتسز بن أوق التركمانى) إلى مدينة دمشق التى انتزعها من أيدى الفاطميين سنة 496هـ / 1076م، وأعلن فيها سلطنة السلاجقة، ثم أكمل البناء الأمير السلجوقى تتش الذى كان أول من أقام فيها، وتعتبر هذه المرحلة (مرحلة القلعة السلجوقية)، قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، الطبعة الثالثة دمشق 1994م، المطبعة الجديدة، ص236.

(4) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص152، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، القاهرة 1970م، ص119.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ط1، 1405هـ / 1985م، ص859 – 860.

(6) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص140.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص130، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص24.

(8) عدنان البنى، قلعة دمشق، الحوليات الأثرية السورية، ص30 – 31.

برج يسهر فيه أحيانًا، وقد كان للقلعة جسر عبره السلطان «صلاح الدين» آخر مرة قبل وفاته عام 589هـ / 1193م، هذا وقد كان «صلاح الدين» مهتمًا بأعمال التحصين فيها وذلك مما يراه ماثلًا على قلعة دمشق إلى اليوم ونصه «جدد هذا البرج فى أيام مولانا الملك الناصرى صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب سنة 574هـ / 1178م»[1].

القلعة فى عهد الملك «العادل»

عندما تولى الملك «العادل بن أيوب» الملك أمر بهدم القلعة القديمة دمشق[2] القلعة السلجوقية[3]، وبدأ بتشييد قلعة أكثر تطورا واستمر البناء حتى وفاته سنة 615هـ / 1218م[4]، وهذه القلعة تتألف من 12 برجًا بعضها بحالة كاملة[5] ووزع بناءها على أمرائه[6]، كان كل برج منها تبلغ مساحته مساحة قلعة قائمة بذاتها[7]، هذا بالإضافة إلى أنه حفر حولها خندقا وأجرى إليها الماء فجاءت عمارتها أحسن عمارة[8] وأضخم بنيانا وأكثر تحصينا[9]، ويذكر المؤرخون أن غاية الملك «العادل» من عمله هذا هو جعل القلعة تنسجم مع تطور الفن العسكرى ومتطلباته المحدثة[10] آنذاك مثل اكتشاف النار اليونانية (الإغريقية)[11]، هذا ونستطيع القول إن الملك «العادل سيف الدين» عنى بالقلعة عناية تامة حتى إنه أعاد بناءها جميعًا وبنى أبراجها العالية، وحشد من أجل عمارتها عددًا كبيرًا من العمال استمروا اثنتى

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص114.
(2) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص236، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص286، أيوب سعدية، دمشق الشام أقدم مدينة فى العالم، ص54، مشاهد دمشق الأثرية، ص50.
(3) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص286.
(4) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص236.
(5) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص140، مشاهد دمشق الأثرية، ص50.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص167، 169، أيوب سعدية، دمشق الشام، ص54.
(7) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص860.
(8) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص140، سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، ج2، ص860.
(9) على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص53.
(10) عدنان البنى، قلعة دمشق، الحوليات الأثرية السورية، ص31.
(11) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص543، ج2، ص502.
اقتضت ظروف الحرب المستمرة واكتشاف النار اليونانية، أن تكون الأبراج أكبر مساحة وأكثر ضخامة حتى تستطيع المقاومة لفترة طويلة امتدت قرابة قرنين من الزمان، انظر سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، هامش2، ص860.

عشرة سنة حتى غدت القلعة مستوفية أحسن شروط الدفاع التى عرفت فى ذلك العصر[1]، هذا وقد أصبحت القلعة تشكل مستطيلا أبعاده 220 × 160 مترًا ودعمت مداخلها وبنى فى قسمها الغربى قصرًا اتخذ مقرًّا لحكام دمشق حتى غزو المغول عام 658هـ / 1260م، وعندما تولى «الأشرف موسى بن العادل» عام 626هـ / 1222م، أقام بالقلعة الدور والقصور، وعندما تولى «الكامل»، دخل قلعة دمشق عام 635هـ / 1137م[2] وبنى بها دارًا سميت بـ«الدار الكاملية»، وتعتبر آخر إنشاءات الدولة الأيوبية فى قلعة دمشق ما قام بها الملك «الصالح نجم الدين أيوب»، فقد بنى بها برجًا ضخمًا من جهتها الشرقية كان قد تهدم[3].

مخطط القلعة

كان يحيط بالقلعة خندق عميق يملأ بالماء أثناء الحصار من فرع بردى المجاور، وكان هناك ما يماثل هذا الخندق فى القلعة السلجوقية، ولكل زاوية من زوايا القلعة برج، وهناك برجان فى الواجهة الشرقية يضم أحدهما المدخل الشرقى للقلعة، وثلاثة أبراج من كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية ويصطلح على تسمية الأبراج نسبة لمواقعها وكذلك ترقيمها بدءًا من برج الزاوية الشمالية الشرقية باتجاه، ويصل بين الأبراج جدران سميكة يطلق عليها اسم «البدنات» (مفردها بدنة)، وتأخذ كل بدنة رقمى البرجين المجاورين لها، وتتألف من طابقين وتنتهى فى أعلاها بستائر مزودة بشرافات ذات مرامى صغيرة، وخلف الأبراج والبدنات هناك ممر مسقوف يطوف بجهات القلعة الأربع، ويؤمن الاتصال فيما بينها ويعرف بالممر الدفاعى، وإضافة إلى باب القلعة الذى يفتح على المدينة (الشرقى) هناك باب فى الجهة الشمالية، إلا أنه تهدم مع البرج الذى يحويه وأدخلت عليه ترميمات وزالت آثار الباب الأيوبى، أما البابان الغربى والجنوبى فقد ضاعت معالمهما.

أبراج القلعة

لقلعة دمشق 12 برجًا، خمسة منها على كلٍّ من الجانبين الطويلين للقلعة واثنان على كل من الجانبين القصيرين[4]، أما الأبراج الباقية ليومنا هذا فبرج «نور الدين الشهيد» وبرج الملك «الصالح أيوب»، وقد نسبا إلى بناتها، وبعض الأبراج الأخرى التى لا أسماء لها، فبرج نور

(1) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص48 – 49.
(2) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص222.
(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، ج2، ص860.
(4) الفارس دارفيو، وصف دمشق فى القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسى الفارسى، دارفيو، ترجمة وتعليق أحمد أيبش، الطبعة الأولى، دمشق 1403هـ / 1982م، ص31 – 32.

الدين» قاعدته مربعة تعلوها نصف دائرة ويقوم إلى الجنوب من جامع سنان باشا فى حى السنانية اليوم، وعنده نص مؤرخ فيه «بسملة – أمر بإنشاء هذا البرج المبارك الفقير إلى رحمة ربه «محمود بن زنكى بن أقسنقر» طلبًا للثواب سنة تسعة وستين وخمسمائة»[1]، هذا وقد كانت أقدم المنشآت الأيوبية فى القلعة هو برج الزاوية الجنوبية الغربية.

برج الصالح أيوب

يقع عند الزاوية الشمالية الشرقية للسور[2] شيده فى العصر الأيوبى الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 646هـ / 1248م[3]، وهذا البرج شكله مربع ويعد نموذجًا من نماذج الأبراج الأيوبية الدمشقية، وقد استوحى فى بنائه من أشكال وتخطيطات أبراج القلعة التى سبقته والوجهة الخارجية لأحجاره ملساء وغير بارزة، وهذه الأحجار منحوتة نحتًا جيدًا وما تزال محافظة تمامًا على شكلها القديم، وكانت توجد عليه شرفات متصلة لم يبق منه الآن إلا مساندها المعلقة فوق كواه الطابق المتوسط[4]، وعلى هذا البرج كتابة مؤرخة نصها «بسملة – عمل فى أيام مولانا السلطان الملك «الصالح نجم الدنيا والدين أيوب» بتولى عبده الفقير «المبارك الأوحدى» وذلك فى سنة ستة وأربعين وستمائة»[5]، وهناك أيضًا برج يلى برج الملك «الصالح أيوب»، وهو عبارة عن برج كله نصف مستدير، وهناك بقية من أبراج أخرى فيها أثر من طراز العمارة البيزنطية، لكنها بحالتها الراهنة تعود إلى العصور الإسلامية الوسطى أيام النوريين والأيوبيين والمماليك[6]، يمكن القول إن قلعة دمشق هى الوحيدة فى سوريا التى شيدت على مستوى سطح الأرض[7]، ولهذا زودت بأبراج شاهقة الارتفاع يتألف البرج من

(1) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص77.

(2) يوجد فى الجانب الشمالى الشرقى من القلعة برج بناه الملك العادل 606هـ / 1209م، وهو من أعظم الأبراج وما زال فى حالة جيدة وشكله مستطيل، وارتفاعه الحالى 18مترًا ويشتمل داخله على ثلاثة طوابق وفى كل منها ثلاث كوات لرمى السهام وسطح البرج الخارجى محاطة من أعلاه بشراريف للدفاع، وفوقها كلها كوات مستطيلة أخرى مسننة، لمزيد من التفاصيل انظر سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص50.

(3) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج1، دمشق 1999م، ص31.

(4) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص50.

(5) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق، ص77.

(6) قتيبة الشهابى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) يمكن القول إنه فى حكم الأيوبيين صارت دمشق مركزا نشطا جدا، حتى إنه أدخلت ترميمات عميقة على جميع القلاع والحصون العربية فى سورية لتلك الحقبة بحيث أصبحت أبراجها تشرف على أسطح المدينة القديمة كلها، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد غسانو سبانو، دمشق فى دوائر المعارف العربية والعالمية، سلسلة دراسات ووثائق دمشق الشام، دار الكتاب العربى، بدون سنة، ص179.

ثلاث طوابق مجهزة بمرام للنبال والقذائف الحجرية والمواد المشتعلة، وفى أعالى الأبراج أفاريز وشراريف مدرجة وأبواب متينة ومقرنصة، ولزيادة منعة القلعة أحيطت بخندق[1].

ملاحظات مهمة على قلعة دمشق

أولًا: دور القلعة السياسى والحربى

استمرت القلعة الأيوبية بالقيام بالدور السياسى الذى أدته القلعة السلجوقية فغدت مقر سلاطين بنى أيوب وملوكهم وتجرى فيها استعراضات الجيوش، أما دورها الحربى فى تلك الفترة فقد كان محصورًا فى الصراعات بين الأمراء الأيوبيين[2]، إذ أنه يمكن القول إن لهذه القلعة قيمة خاصة بالنسبة إلى المدينة، فهى لا تكتفى بكونها الملاذ الأخير للمحاصرين تلجأ إليه قوى الدفاع لكنها قبل كل شىء مقام السلطان[3].

ثانيًا: بناء القلعة بالأحجار

بنيت القلعة بالحجارة الكلسية المتوفرة فى ضواحى دمشق واستخدمت معها حجارة سوداء من البازلت بشكل محدود جدًّا، وكانت حجارة الإنشاءات الأصلية التى تمت فى العهد الأيوبى ذات وجه بارز مقطوع قطعًا غير منتظم يحيط به إطار صقيل، ونجد نسبة ضئيلة من حجارة البناء التى نحتت وجوهها بشكل منتظم، وقد استخدم هذا النوع من الحجارة بشكل خاص فى الرواشن التى تتوج أبراج القلعة جميعًا[4]، هذا ويمثل باب القلعة الشرقى فخامة الأسلوب الأيوبى فى العمارة، والقلعة بمجملها تعطينا فكرة عن الأساليب العسكرية الإسلامية فى القرن 7هـ/ 13م[5]، هذا ويقوم فى جانبى القلعة الشرقى والشمالى مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة، وتعلو جميع أبواب القلعة السقاطات الدفاعية[6]، يظهر من بعض تفاصيل العمارة والنحت فى قلعة دمشق أن هذه

(1) على حسن موسى، دمشق مصايفها ومتنزهاتها، ص53.

(2) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص114.

(3) جان سوفاجييه، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، نقلها إلى العربية فؤاد أفرام البستانى، ظهرت فى مجلة المشرق، ص34.

(4) الرواشن عبارة عن شرفات حجرية مغلقة تبرز عن جدار القلعة وأبراجها وتحوى فى أسفلها فتحات يصب منها الزيت المغلى على رءوس المهاجمين إضافة إلى مرام ذات شق ضيق ترمى من خلالها النبال دون أن يتمكن العدو المحاصر من إصابة الرامى، انظر أيوب سعدية، دمشق الشام، ص55.

(5) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص48 – 49.

(6) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص119.

القلعة قد احتذى فى بنائها نماذج التحصينات العسكرية الأيوبية التى ظهرت فى سوريا الشمالية، مما دعا المؤرخ «سوفاجييه» أن يقول إن الملك «العادل» استحضر بعض البناءين والمهندسين من حلب ليساهموا فى تشييدها، ورممت بعض حصون هذه القلعة وأسوارها، وأعيد إنشاؤها عدة مرات منذ زمن بنائها حتى أول القرن السادس عشر الهجرى[1].

أبواب دمشق

ذكر «القلقشندى» أن لدمشق سبعة أبواب هى باب كيسان وباب شرقى وباب توما وباب الصغير وباب الجابية وباب الفراديس وباب المسدود، وقيل إن بانيها جعل كل باب من هذه لكوكب من الكواكب السبعة، وصور عليه صورته[2].

باب النصر

يعود تاريخ تشييده إلى أواخر العهد الزنكى وبداية العهد الأيوبى[3]، هذا وقد قيل إن الذى أنشأه الملك الناصر «صلاح الدين الأيوبى» ولكنه لم يبق له أثر الآن، وأزيل عند بناء السوق فى أيام السلطان «عبد الحميد الثانى»[4].

باب الجابية

جدد هذا الباب أيام «نور الدين الشهيد» وعمل له باشورة عام 560هـ / 1164م، ثم أيام الملك «الناصر داود الأيوبى»[5].

باب الفراديس

من أبواب دمشق الأصلية، فى الجهة الشمالية للسور بين باب السلام فهو يشبه باب الفرج، فقواعده رومانية، وأعيد إنشاؤه فى عام 639هـ / 1241م فى عهد الملك «الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب»[6]، ويعرف أيضًا بـ«باب العمارة» و«باب الفراديس الكبير»[7].

(1) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص51.
(2) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص91، ذكر ابن بطوطة فى الرحلة أن لها ثمانية أبواب.
(3) منى المؤذن، دمشق الشام أقدم مدينة فى العالم، ص60.
(4) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص42.
(5) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج1، ص20.
(6) منى المؤذن، المرجع السابق، ص60.
(7) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج1، ص20.

الباب الصغير

من أبواب دمشق الأصلية السبعة، وفى العهد الأيوبى قام الملك «المعظم عيسى» بتجديده عام 623هـ / 1226م، ومن أسمائه الأخرى، «الباب القبلى» و«باب الحديد»(1).

باب توما

يقع هذا الباب فى الجبهة الشمالية الشرقية من سور مدينة دمشق مكان باب قديم يعود عهده إلى العصر الرومانى، وقد أعيد بناؤه على شكل جديد فى زمن الملك «الناصر داود بن الملك المعظم عيسى الأيوبى» عام 625هـ / 1228م، وهو نموذج من نماذج المنشآت العسكرية الأيوبية الذى تقدم صنعها تقدمًا مدهشًا(2).

باب الفرج

فتحه «نور الدين زنكى» فى السور الشمالى من ناحية الغرب وسماه «باب الخلاص»، وقد تم تجديده فى عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 638هـ / 1240م، ولا يزال باب الفرج الخارجى بحالة جيدة وبكامل عناصره(3)، وهناك أبواب أخرى مثل باب شرقى وباب كيسان(4) وباب الجنان(5).

باب السلامة

من الأبواب المحدثة فى الجهة الشمالية من سور دمشق بين باب توما وباب الفراديس، بناه السلطان «نور الدين محمود بن زنكى»(6) فى القرن السادس للهجرة، ويعتبر من أجمل أبواب المدينة، وجدده فى العهد الأيوبى الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 641هـ / 1243م، وسمى بذلك تفاؤلًا؛ لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار، ومن أسمائه الأخرى «باب الشريف» و«باب الفراديس الصغير»(7).

---

(1) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج1، ص26.
لمزيد من التفاصيل، انظر قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص329، 334، عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص140، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية، دمشق 1996م، ص50 – 51.

(2) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص52.

(3) على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص48 – 49.

(4) مزيد من التفاصيل انظر على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص48 – 49.

(5) مزيد من التفاصيل عن أبواب دمشق انظر قتيبة الشهابى، أبواب دمشق، ص51 – 52.

(6) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ص42.

(7) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، ج1، ص25.

أسباب اهتمام «نور الدين» بأبواب دمشق

كان اهتمام «نور الدين» بأبواب دمشق لغرضين

الغرض الحربى

فقد أقام فوق كل باب مسجدًا ومنارة (مئذنة) بغية مراقبة العدو من مكان مرتفع عند اقترابه من دمشق إبان الحملات الصليبية[1].

الغرض الاقتصادى

وهو إقامة سوق صغيرة لتنشيط الحركة التجارية، هذا ويمكن القول عند ذكر الأبواب إن معظمه مجدد فى عهد «نور الدين محمود بن زنكى» الملقب بالشهيد ومن تلاه من الأيوبيين، ونواب السلطنة من المماليك، أما السور الذى سوف نتحدث عنه فى حينه والذى تقع فيه الأبراج والأبواب السابق الحديث عنها فى حالته الراهنة فمجدد فى عهد الدولة النورية ثم الأيوبية[2]، وقد كانت مدينة دمشق فى حاجة إلى الحماية والدفاع ودعم الأسوار والأبواب وهى ضرورة مهمة بعد تهديد الصليبيين لها، فقد كانت هذه الأسوار دائمة الترميم فى العهدين النورى والأيوبى[3].

سور مدينة دمشق

سور دمشق كان يحيط بمدينة دمشق[4] ولا يزال جزء كبير من هذا السور على حالته الأصلية[5]، وهذا السور مشيد بأحجار ضخمة، قيل إنه مشيد من الحجارة الكلسية

(1) زاد نور الدين محمود فى تحصين مدينة دمشق بتجديد أسوارها بأبراجها وأبوابها وشيد مسجدا فى شمال قلعتها، مزيد من التفاصيل انظر دائرة المعارف الإسلامية، ج16، ط1، ص4933.

(2) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص318.

(3) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق، ص53.

(4) كان للاضطراب الذى شاع أيام الحروب الصليبية نصيب كبير فى ازدياد نعرة التعصب الدينى فى دمشق فأصبحت بذلك أعظم حصون الإسلام، انظر موجز دائرة المعارف الإسلامية، الجزء السادس عشر، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكرى، ص4933.

(5) تواجد هذا السور حول المدينة فى العهد الآرامى واليونانى ثم فى العهد الرومانى أوائل القرن الثالث الميلادى، لمزيد من التفاصيل انظر قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، مؤسسة النورى للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1994م، انظر أيضًا دمشق الشام أقدم مدينة فى العالم، إعداد وتصوير أيوب سعدية، ص50، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص45.

الصلبة[1] وذو ارتفاع كبير، بالإضافة إلى أن هذا السور به أبراج عديدة (سبق ذكرها)، أهمها برجان يعرف أحدهما باسم برج «نور الدين زنكى»، ويرجع عهده إلى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى، هذا بالإضافة إلى أن هذا السور تقع به أبواب دمشق السابق ذكرها أيضًا.

تاريخ سور دمشق

عندما احتل العباسيون مدينة دمشق 132هـ / 749م قاموا بتخريب السور[2]، ولم يتركوا منه سوى قطعة صغيرة تمتد بين باب توما وباب السلام، إلا أن هذا السور أهمل طوال العصر العباسى وزاد إبان الثورات المتلاحقة والمتتالية أيام الإخشيديين والفاطميين والسلاجقة، إلى أن أعيد بناؤه فى عهد الدولة النورية أيام «نور الدين محمود بن زنكى» الملقب بـ«الشهيد» الذى دخل دمشق سنة 549هـ / 1154م، ثم استكمل البناء بعد ذلك فى العهد الأيوبى[3] فرمموه وجددوا تحصيناته ووسعوه خاصة إلى جهة الشمال[4].

هذا وقد ذكر «ابن كثير»: «فى عام 599هـ شرع «صلاح الدين» بعمارة سور دمشق، وابتدأ ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر»[5]، وقال «ابن تغرى بردى»: «دخل «صلاح الدين» دمشق وتسلم قلعتها وصعد القلعة»[6].

مميزات العمارة الحربية فى العصر الأيوبى

لا شك أن العصر الأيوبى كان عصر جهاد، لذا نجد أن القلعة والسور الذى حولها هما

(1) قيل إن سور دمشق جدد فى العهود التالية للعهد الرومانى ولكن تجديده كان فوق أسسه الأولى لذلك اختلفت مواد البناء، هذا ويمكن تحديد أنواع الحجارة فى العصور المختلفة كالآتى، فصفوف أحجاره السفلية الضخمة التى أخذت من السور القديم، عهدها قبل القرن الثانى عشر، وصفوف الأحجار التى تليها والتى يتراوح ارتفاعها بين 50 و 60 سم من زمن نور الدين وزمن الأيوبيين، لمزيد من التفاصيل انظر مشاهد دمشق الأثرية، خالد معاذ، سليم عبد الحق، ص55، هذا وقد ذكر ابن كثير انه فى عام 599هـ «شرع صلاح الدين بعمارة سور دمشق وابتدئ ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر»، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص34.

(2) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص55، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص45.

(3) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص140، قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص318.

(4) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص55.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص34.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص24 – 25.

أبرز منشآت ذلك العصر[1] فقد غلب على العمائر بوجه عام طابع البساطة والتقشف، بسبب حالة الحرب ولكنها من ناحية أخرى تتميز بالمتانة والقوة وإتقان الخطط والبناء وكان من أهم مميزاتها ما يلى:

* التحصينات العديدة بها اشتملت عليه من أبواب وأبراج وشرفات حجرية بارزة عن حائط السور[2].

* استخدام الحجر المنحوت لأول مرة بدلًا من الطوب، وتزيين الواجهات بالزخارف المحفورة على الحجر[3]، وقد كان الاعتماد كليًّا على الحجر كمادة للبناء وحسن نحته واستخدامه بمقاييس كبيرة[4]، هذا وقد حدث تطور ملحوظ فى فنون العمارة العسكرية، حيث فاقت الأبراج والأسوار بارتفاعها وحجمها الكبير وضخامة حجارتها التى يغلب عليها النوع البارز، كل ما هو معروف، وأحسن مثال على ذلك هو قلعة حلب، وقلعة دمشق، وقلعة بصرى، اللاتى ما زلن يحافظن على أصالتهن[5].

* هذا وقد كان العرب يقيمون القلاع فى وسط المدينة، فاجتنب الصليبيون إقامة القلعة أو الحصن فى وسط المدينة فأقاموها فى أحد أركان المدينة كى تستطيع القيام بواجبها كوحدة مستقلة فعالة محتفظة بحرية مواصلاتها، وإذا حدث أن سقطت المدينة استطاعت القلعة الحفاظ على مواصلاتها البحرية[6].

التأثيرات التى تأثر بها «صلاح الدين» فى تحصيناته الحربية

لا شك أن «صلاح الدين الأيوبى» تأثر إلى حد كبير فى تحصيناته الحربية بقواعد الفن الحربى المعمارى الصليبى المستمد من الفن الفرنسى بوجه خاص[7].

(1) موسوعة العالم الإسلامى، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامى تصدر عن دار الرأى العام، إعداد مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام، الإشراف العام، عبد الحميد حجازى، المجلد الأول 1397هـ / 1977م، الطبعة الأولى، ص90.

(2) موسوعة العالم الإسلامى، ص90.

(3) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سورية، ص132.

(5) عبد القادر الريحاوى، المرجع السابق ص132 – 134.

(6) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص187.

(7) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص106.

أولًا: المدرسة الفرنسية

التى تتمثل فى القصور، ويمكن مشاهدة الكثير من نماذج هذا الطراز المعمارى فى حصون الاستبارية فى الشام[1].

ثانيًا: المدرسة البيزنطية الشرقية

وهى المدرسة التى جمعت بين تقاليد العمارة الحربية عند العرب والرومان واليونان، والتى كانت ترتكز على قاعدتين أساسيتين، وهما مضاعفة خطوط التحصين والدفاع وذلك ببناء سورين أو ثلاثة حول قلب الحصن، ثم بعد ذلك إقامة الأبراج البارزة على مسافة معينة فى تلك الأسوار وتزويدها بالسلاح والعتاد فى ستائر، وقد كانت نماذج ذلك الطراز فى البلاد الإسلامية قبل الحروب كثيرة مثل بيت المقدس وأضاليا وإنطاكية وكذلك فى طرسوس وحلب وعتليث بشمال الشام، حيث أحيطت الأسوار بالخنادق العميقة والمحفورة فى الصخر والمليئة بالمياه، وعندما جاءت الحروب الصليبية أتاحت الفرصة لمهندسى الغرب، وتبين لهم ضآلة معلوماتهم عن قواعد التحصين فنقلوا الكثير والكثير، خاصة ما تميزت به العمارة الشرقية، ويمكن ملاحظة الكثير من تلك المميزات فى حصون الداوية بالشرق، ويمكن ملاحظة أثر المدرسة الفرنسية[2] فى تحصينات «صلاح الدين»، حيث استخدم الأبراج المستديرة ذات الطبقة الواحدة أو الطبقتين، ومن حيث بناء القلعة على صخرة مرتفعة يستخدم بروزها للدفاع عن أسوار المدينة[3].

التأثيرات المختلفة التى أخذها الصليبيون من العرب

لا شك أن أهم ما يميز طابع القلاع والحصون فى أوائل القرن الثانى عشر استخدام الحصن النورمانى المربع على غرار القلاع الفرنسية، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة

(1) انظر:

Ray (G), op. cit, p12

(2) يمكن القول إن أثر المدرسة الشرقية كان واضحًا كل الوضوح فى تحصينات بدر الجمالى بالقاهرة من حيث الشكل المربع وقلة البروز الخارجى للبرج عن السور.

(3) Max Van Bercham, op. cit, pp 471 – 473, Lane Pool, The story of cairo, p175.

هذا بالإضافة إلى الطراز السلجوقى، حيث بنيت العمارة المتمثلة فى قلعة الجبل وأسوار قلعة الجبل وفقا لطراز العمارة الحربية السلجوقية المتمثلة فى قلاع دمشق وغيرها.

لمزيد من التفاصيل انظر عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبى، ص284.

الموزعة على مسافات طويلة نسبيًا وذات نتوءات واضحة، وقد استفاد الصليبيون فى هذا الصدد بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية[1]. فضلًا عما نقلوه معهم بصورة أمينة من أساليب البناء الحربية[2].

* إذا كانت الشام مسرحًا للأحداث البيزنطية والعربية، والدولة البيزنطية ورثت الدولة الرومانية، من هنا يكون الصليبيون والمسلمون معا قد عرفوا الكثير عن التحصينات الدفاعية، التى ترجع إلى ما قبل القرن الثانى عشر بكثير[3]، وتأثر الصليبيين بما وجدوه يرجع إلى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم[4].

* أخذ الصليبيون عن العرب ظاهرة المشربيات التى زودت بها الأبراج بغرض السيطرة على أسفل السور، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض، وتحمل فوقها حواجز بارزة، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منها إلى رءوس المحاصرين الذين يحاولوا أن يحفروا تحت الجدران أو يشعلوا النيران، كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رءوس المحاصرين[5]، ولندرة الأخشاب فى الشام اضطر الفرنج لاستخدامها من الحجر[6]، فهناك مثلان فوق باب النصر480هـ / 1087م أحد أبواب القاهرة[7]، هذا وقد عمل الصليبيون على تطوير عنصر المشربية، وقد ظهرت هذه الظاهرة فى الشرق قبل ظهورها فى أوروبا[8]، ومن الجدير بالذكر أن المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية، كانوا قوة مهاجمة متحركة ذات تفوق عددى عظيم لديها القدرة على أخذ زمام المبادرة، ولهذا فإنهم فى المقام الأول لم يهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية، وبالتالى فإن تأثيرهم على العمارة الحربية الفرنجية قليل الشأن، وعلى الرغم من ذلك فقد استفادوا من خبرة العرب فى أساليب البناء الحربى وذلك عن طريق:

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص188.
(2) Oman, Ahistory of the art of war, vol. II, p29.
(3) Fedden, Crusader castles, pp 22- 23
(4) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص188.
(5) محمود الحويرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(6) Fedden, op.cit, p29
(7) محمود الحويرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(8) KAC Creswell, Ashort Account of early Muslim Architure, Pelican, 1958, pp 121-122

المدخل

إنهم قاموا بإدخال منحدر ضخم إلى أساسات أسوارهم، مما أدى إلى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم، وتأكيد قوة دفاعها فقد اتبع المسلمون هذا الأسلوب دفعًا لأضرار الزلازل وإعاقة لزرع الألغام، هذا بالإضافة إلى أنهم عرفوا المدخل الملتوى للقلاع عند العرب، فإبان الحروب الصليبية أصبح المدخل الحربى من باب القلعة إلى داخلها متعرجًا أو على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو الذى يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى[1] أو أن يصوب سهامه إلى مَن فيه، فالمدخل المستقيم هو الذى يؤدى مباشرة إلى فناء الحصن، وقد انتشر هذا الأسلوب فى الشرق العربى فى القرن الثانى عشر وتم استخدامه فى مبانى الحصون بطريقة جيدة، ولا سيما فى قلعة حلب العظيمة التى يمتاز مدخلها بخمسة منثنيات قائمة ومتتالية[2]، ومن الجدير بالذكر أن الأمير «بهاء الدين قراقوش» الذى ندبه السلطان «صلاح الدين الأيوبى» لبناء قلعة الجبل، استخدم ذلك الأسلوب من الداخل فى القلعة ثلاث مرات (572هـ– 578هـ/ 1176م – 1182م)، وفى قلعة الجندى بسيناء التى شيدها حوالى 578هـ/ 1182م كما نلاحظ هذا الأسلوب فى حصن الأكراد (الفرسان) فى شمال سوريا[3].

الأبراج

كانت الأبراج تشييدًا وهى شديدة الحصانة فى القلاع الأكثر ضخامة لتتناسب مع حجمها وشكلها مثل قلعة «صلاح الدين»، وقد وجدت أشكال مختلفة للشرفة المجهزة بكوى (فتحات) لرشق السهام وتحول بعد ذلك شكل الأبراج من المستطيل إلى نصف الدائرى أحيانًا، بدءًا من أوائل القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى مع تقويتها وتطويرها[4].

المزاغل

المزغل إما أن يكون مصنوعًا لخصوص المدافع أو لخصوص البنادق، فالأول عبارة عن فتحة فى الدروة انفراجها من الخارج أوسع من الداخل لأجل سهولة حركة المدافع والثانى عبارة عن فتحة تعمل فى البنيان انفراجها الداخل أوسع من الخارج، فإن كان هذا المزغل مصنوعًا فوق الدروة فإنه يعمل بتفوق «الجوالات»[5].

(1) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص196 ص197.
(2) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص74.
(3) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص75.
(4) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص151.
(5) صالح أفندى مجدى، ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والمقلاع، ص25 – 26.

السقاطة

وهناك نظام معمارى آخر ابتكره العرب هو السقاطة التى انتقلت إلى الغرب باسم (Machicoli)، فهى عبارة عن دورة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بواسطة كوابيل، وتقام فوق أسوار الحصون أو فى أعلى مداخلها، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القلعة، هذا وقد ظلت السقاطة مجهولة مدة طويلة فى الغرب حتى استعارها الصليبيون فى القرن الثانى عشر، وقد استخدمت السقاطات على نطاق واسع فى شمال سوريا قبل ذلك بعدة سنوات، وقد استخدمت السقاطة فى جميع القلاع فى بلاد الشام لما لها من أهمية كبيرة فى عملية الدفاع عن القلعة، ويتضح من ذلك أن الصليبيين نقلوا فكرة السقاطة عن المعماريين العرب[1].

المتراس (Portcullis)

يمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد مدبب الأطراف من أسفله، ينـزلق عموديًّا فى جزأين جانبيين فى كتفى باب الحصن أو القلعة، ويثبت فى الإطار شبكة معدنية صلبة يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بواسطة حبال متينة أو سلاسل، وقد شاع استخدامه فى الشرق قبل انتقاله إلى الغرب فى أثناء الحملات الصليبية[2].

البربخان (بربقان)- (Barbican)

هى كلمة عربية أو فارسية الأصل بربخان، تطلق هذه الكلمة على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المحيط بالحصن[3].

المقرنص (Squinch)

نظام معمارى استخدمه العرب ونشاهده فى كثير من العمائر الإسلامية، وهى ذات طبقات مصفوفة من أعلى بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة لكنها ركن مهم فى الهندسة المعمارية ولا سيما فى بناء القباب، هذا وقد انتقل استخدام المقرنصات إلى أوروبا بوساطة

(1) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص74 – 75.
(2) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص197، عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص76.
(3) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص76.

الصليبيين[1]، هذه هى العناصر المعمارية التى استخدمها العرب فى حصونهم ثم نقلها الصليبيون إلى أوروبا.

الحمام الزاجل

تأثر الصليبيون أثناء وجودهم فى الشرق بما وجدوه من نظم اتصال عند المسلمين، من ذلك استخدام الحمام الزاجل فى نقل الرسائل العاجلة أو طلبًا لنجدة عند اقتراب جيوش المسلمين، والمعروف أن «نور الدين» استخدم الحمام الزاجل فى نقل البريد عام 567هـ / 1171م[2].

الإشارات

كذلك تأثر الصليبيون فى الشرق باستخدام الإشارات كوسيلة من وسائل التخاطب أثناء الحروب، ففى الليل توقد النيران، وفى النهار يثار الدخان، وقد عرفت تلك الوسيلة باسم «المناور» أى مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار وهى تأتى بالخبر أسرع من الحمام الزاجل، ومثال ذلك أنه من أعلى حواجز شرفات قلعة الشقيف استطاع رجال الإشارة الاتصال مع جنود الصبيبة أسفل منحدرات جبل الشيخ مع قلعة تورون إلى الجنوب، ومع حامية قلعة صيدا على بُعد 19 ميلًا على الساحل، وفى أقصى الجنوب عندما كان «صلاح الدين» يحاصر قلعة الكرك عام 579هـ / 1183م، فقد كانت تلك القلعة تتصل ليلًا بواسطة الشارات النارية عند البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها بمسافة خمسين ميلًا[3]، هذا وقد حدث تطور فى أسلوب بناء القلاع الشامية التى جلبها الفرنج معهم مثل مخطط قلعة الحصن ذى الهندسة العسكرية الفرنسية، هذا والحروب الصليبية أدت إلى تأثير متبادل بين الصليبيين والمسلمين فى مجال التحصينات الدفاعية، أى إلى تطور أساليب تخطيط وإنشاء هذه التحصينات بصور أكثر تقدما عما كانت عليه قبل ذلك[4]، وعلى أية حال فإن الشام خلال فترة الحروب الصليبية كانت تمثل بيئة غنية بالتحصينات الحربية من الطراز الأول استفاد منها الفرنج أيما استفادة، فبعد أن عادوا إلى أوطانهم فى الغرب الأوروبى ظهر تأثير الخبرة التى اكتسبوها فى العمارة الحربية واضحا، فقد أدركوا الإنجازات العظيمة فى

(1) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(2) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص198 – 199.
(3) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص198 – 199.
(4) أجفان الصغير، القلاع، ص153.

آلات الحصار القوية، والتأثيرات الرهيبة لحفر الخنادق وزرع الألغام، فضلا عن ضرورة اختيار الموقع المناسب لتشييد القلعة أو الحصن[1]، ولا ينبغى أن نغفل أن عمائر «صلاح الدين» الحربية فى القاهرة تمثل قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية، والعربية البيزنطية أحسن تمثيل وتوضح مدى التفاعل الحاصل بين المدرستين[2].

الخندق أو الجسر

لا شك أن استعمال الجسر انتشر فى معظم القلاع الإسلامية مثل قلعة دمشق وقلعة حلب وقلعة شيزر وكذلك فى قلعة بصرى، هذا ويوجد أقدم مثل إسلامى منها فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده «صلاح الدين» عندما كان وزيرًا للخليفة «العاضد» الفاطمى، وعندما دخل الصليبيون إلى البلاد استعملوا مثل هذه الجسور فى بعض القلاع التى احتلوها مثل حصن الأكراد فى سوريا والكرك فى الأردن[3]، فالخندق له أهمية كبيرة فى الدفاع عن الحصن لمن يريد الوصول إليه، ويعتبر الخندق عاملًا إستراتيجيًّا، هذا وقد ذهب الفرنج أيضًا بتأثرهم بالعرب فى أنهم أخذوا يزيدون فى عدد العناصر الصنعية للمعالم المعمارية التقليدية أو يضخمون أبعادها، فاتجهوا إلى تقوية الجدران الساترة التى تعتبر العمود الفقرى لأية منظومة دفاعية، بحيث تقاوم القصف أو اللغم (حفر الأنفاق تحتها) أو الهزات الأرضية عن طريق زيادة سمك البناء وإقامة الأسوار التى تستدق تدريجيًّا بالارتفاع (جدران الحصون المنحدرة) على الطريقة العربية، واستخدام الأعمدة القديمة مداميك داخل الجدران، وفى الوقت نفسه كانوا يزيدون فى مناعة تلك الأبنية بزيادة عدد كوات الرمى فيها وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية متراكبة فوق بعضها بعضا تخترقها فتحات الرمى، وببناء شرفات بارزة ذات كوى[4].

الأدوار التى كانت تقوم بها القلاع

الدور الاقتصادى

شغلت التجارة حيزًا أساسيًّا فى النشاط الاقتصادى عند المسلمين فى مختلف عصورهم التاريخية لا سيما فى فترات الاستقرار، وقد بلغ اهتمامهم بها حدًّا أبعد من غيرها لسبب

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص212.
(2) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص213.
(3) سعد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن، ص135 – 136.
(4) فولفغانغ مولر، القلاع فى بلاد الشام ص28.

مردودها المادى الأكبر، ومع أن العمليات التجارية تحتاج إلى أمن واستقرار فقد بلغت شأوًا كبيرًا فى فترة الحروب الصليبية لحاجة المسلمين الماسة إلى الأرباح والأموال التجارية لدعم قواهم العسكرية فى مجابهة الصليبيين ولطردهم من بلاد الشام، وقد ساعدت تلك الحروب على تنشيط الحركة التجارية من خلال تعامل واحتكاك المدن التجارية الأوروبية الغربية مع مدن موانى الساحل الشامى ذات القلاع الشهيرة التى استطاعت أن تشكل مع قلاع المدن الكبرى والداخلية فى بلاد الشام محطات تجارية[1].

القلاع بوصفها محطات تجارية

المقصود لمعنى المحطات التجارية هو أن أصحاب القلاع عملوا واهتموا بالتجارة وأن السلطات الإسلامية اهتمت بهذا النشاط الاقتصادى الفعَّال، فأشركت القلاع به فتمت الاستفادة من المستودعات الضخمة التى كانت تتوفر فى كل القلاع تقريبا عن طريق حصر الكثير من المواد التجارية المهمة فيها، وفى الوقت نفسه الاستفادة من مواقع القلاع التى تكون مختارة غالبا لتشرف على الطرق الحيوية والمنافذ الإستراتيجية للمناطق والمدن الواقعة فيها، والقلاع استطاعت أن تشكل بحصانتها حماية للقوافل التجارية وبضاعتها فأشرفت على أمن الطرق وسير العمليات التجارية إداريًّا، كما كان يتم بالدواوين المختصة داخل القلاع[2]، هذا وكلما كان موقع المدينة تجاريًّا شغلت قلعتها صفة المحطة التجارية أكثر من صفات أخرى فى فترات الاستقرار، فقلعة بصرى جنوب مدينة دمشق فى طرف حوران شغلت دورًا اقتصاديًّا مهمًّا؛ لأن بصرى بالأساس محطة للقوافل التجارية تصل بين شمال بلاد الشام وجنوبها فاشتهرت قلعتها بدورها التجارى على الرغم من أن الغاية الرئيسية من بنائها عسكرية صرفة[3]، هذا بالإضافة إلى قلعة عجلون التى تعتبر محطة تجارية ضخمة ما تزال راسخة وقد التى بناها «صلاح الدين» عام 580هـ / 1184م، فى موقع إستراتيجى وحيوى جدًّا على قمة جبل عوف المطل على مدينة عجلون[4].

(1) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص14.

(2) أجفان الصغير، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) أحمد على إسماعيل، تاريخ السلاجقة فى بلاد الشام فى القرنين الخامس والسادس، دراسة سياسية عسكرية اجتماعية اقتصادية، ط1، دمشق 1983م، ص304، نقلًا عن أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص16.

(4) يوسف درويش غوانمة، التجارة الدولية فى مناطق شرق الأردن من جنوب الشام فى العصر المملوكى، مقال فى مجلة دراسات تاريخية، العددان 23، 24، إصدار جامعة دمشق 1986م، ص87، نقلًا عن أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص17.

القلاع بوصفها مستودعات لحفظ المواد التموينية والغذائية

لا شك أن حالة الحرب الدائمة التى عاشها المسلمون والصليبيون خلال قرنين من الزمن لزمها تأمين مستودعات اقتصادية دائمة واحتياطية لدعم جيوش كل طرف فى تحركاته ضد الطرف الآخر، وتأمين القوت والغذاء ذخرا لحالات الحصار التى كانت تتعرض لها القلاع غالبًا مددًا طويلة من الزمن لكلا الجانبين، الأمر الذى تطلب عدم خلو القلاع من المواد الغذائية والتموينية المتوفرة محليًّا أو المجلوبة من المناطق المجاورة أو عبر التجارة الخارجية، لدرجة أن مستودعات المؤن داخل القلاع كانت هدفًا للنهب بأول سقوط القلعة[1]، هذا وقد حوت مستودعات قلعة بصرى الضخمة مواد تموينية وغذائية متنوعة، وفى قلعة حلب بنى الملك «الظاهر غياث الدين غازى» مستودعات خاصة لحفظ المؤن والمواد الغذائية وبعض الغلات والحاصلات الزراعية، علاوة على ذلك ميزة سعة المستودعات لتستوعب الكميات الكبرى من المواد التموينية[2]، هذا ومن القلاع التى خصص القسم الكبير من مستودعاتها لحفظ المواد التموينية والغذائية قلعة نجم الواقعة فى شمال شرق منبج على ضفة الفرات اليمنى، فقد وجد فيها العديد من المستودعات الواسعة المسقوفة بالحجارة على شكل عقود تتخللها كوات موزعة ببراعة هندسية لدخول نور الشمس والهواء إليها[3]، هذا بالإضافة إلى قلعة المعرة، بالإضافة إلى ذلك فإن تخزين المؤن فى مستودعات القلاع ليس تحسبًا للحروب والحصارات وإنما خشية السنين العجاف، كذلك الأمر حين تصل أخبار تحركات للقوات الفرنجية أو تجمعات مريبة لها أو تصل تهديدات منها[4].

ففى عام 614هـ / 1217م، نقلت الغلة والحاصلات إلى مستودعات قلعة دمشق حين خشى السلطان «العادل» من الصليبيين الذين تكتلوا وتوجهوا صوب عين جالوت، وكان فى بيسان فانتقل إلى عجلون وكتب إلى والى دمشق بضرورة إجراء الاستعدادات اللازمة والتأهب فكان فى جملتها تخزين الحاصلات الزراعية بكثافة فى قلعة دمشق[5]، كذلك استفاد

(1) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص28.

(2) زكية حنا، القلاع والمواقع الأثرية فى محافظة طرسوس، دمشق، د.ت.، ص93، نقلًا عن أجفان الصغير، القلاع، ص31.

(3) أكرم ساطع، القلاع والحصون فى سوريا، دمشق 1975، ص15 ، 18، نقلًا عن أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص31.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص32.

(5) أبو شامة المقدسى، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط2، بيروت 1974م، ص101، نقلًا عن أجفان الصغير، ص33.

المسلمون من مؤن مستودعات قلعة صهيون وغيرها، هذا ويعد تنظيم المؤن فى القلاع من ضمن الإجراءات الأمنية المهمة التى لا غنى عنها، بدليل أن إدارة شئونها من حيث الكمية والنوع وما هو جديدها وعتيقها تبعت مباشرة للسلطان أو لنائب القلعة المتصل مباشرة بالسلطات العليا[1].

ولم تكن مستودعات المؤن وحفظ الأطعمة على شكل غرف كبيرة مربعة أو مستطيلة وواسعة فى جميع القلاع الشامية، فأحيانًا يتحكم الحجم الصغير لبعض القلاع بأماكن إقامتها فقد كان يضطر أصحابها إلى حفر آبار أو كهوف داخل أراضى القلعة لاستخدامها مواضع لخزن المؤن، وللاستفادة من الغرف والمستودعات المتوفرة بالإدارة والسكن وخزن الأسلحة، ولإسطبلات الخيول وزرائب المواشى، فمثلًا قلعة الشميميس فى سلمية حفرت فيها عدة آبار لحفظ المؤن والمواد الغذائية، هذا وإذا لم تسقط القلاع المحاصرة لأسباب أخرى فإن خلو مستودعاتها من المؤن والأغذية كان يسقطها أو يجعلها تستسلم فمستودعات المئونة المخزونة كانت تطيل فترة الصمود ولكن إذا طال الحصار تستهلك فينتهى الأمر[2].

القلاع ودورها فى حفظ المياه فى الخزانات والصهاريج

لقد ارتبطت حيوية القلاع وازدهارها وشغلها العديد من الأدوار بمدى توفر المياه فيها أو حولها أو بمقربة منها، وكلما كانت المياه متوفرة للقلعة قل عدد الصهاريج فيها، وتزداد الصهاريج وتلقى عناية شديدة إذا كانت المياه تجلب بصعوبة إلى القلعة ويُحْرَص عليها حرصًا مركزًا[3]، وقد أعار المسلمون صهاريج المياه أهمية كبيرة فى القلاع التى شيدوها، وأجروا التعديلات على الصهاريج التى كانت معمرة داخل القلاع التى استولوا عليها من الفرنج، وأنشئوا صهاريج داخل الأبنية القديمة والحصينة، فمثلا وبرغم الأهمية التاريخية والحضارية للمسرح الرومانى فى بصرى فإنهم حاولوا الاستفادة قدر المستطاع من طريقة بنائه لتكوين أماكن فيه تفيدهم فى حروبهم ضد الصليبيين فأنشئوا القلعة فيه وحاولوا تكوين أماكن تابعة لها لتفيدهم اقتصاديًا ودفاعيًا[4]، والدارس لموضوع حصر المياه فى الخزانات والصهاريج داخل القلاع يلاحظ أنها ليست كلها حوت صهاريج ضخمة مثلما حوت جميعا مستودعات أسلحة، ومستودعات مؤن ومواد غذائية؛ لأنه إذا كانت المياه متوفرة بغزارة فى منطقة القلعة

(1) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص33.
(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص35.
(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص37.
(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

كوجود نهر أو عين ماء قريبة، ويمكن بسهولة إدخال الماء بشكل سرى إليها فى أيام الحصارات خلا بعضها من الصهاريج الواسعة، ففى جنوب التل الذى أقيمت عليه قلعة حارم أمكن النـزول عبر سرداب بعمق 150 درجة إلى مستوى أرض بلدة حارم، وهناك وجدت عين ماء متدفقة رفعت منها المياه ووزعت على القلعة والأرباض أيام الحصارات[1]، هذا وقد نالت مسألة المياه قسطًا وافرًا جدًّا من عناية السلاطين ونواب القلاع، فقد تم التركيز على أماكن خزن الماء داخل معظم القلاع، فقلعة حلب مثلا لاقت عناية كبيرة فى شبكتها المائية منذ ما قبل الإسلام وظل الاهتمام بها إلى عهد «الظاهر غياث الدين غازى» لحكم حلب، فزاد فى تحسيناتها وتحصيناتها، واهتم بشكل خاص بشئون المياه فيها فأمر ببناء شبكة لها بحيث تمرر المياه فى كل دور القلعة وأماكنها المختلفة، وأحيانا إذا وجدت بئر غزيرة أو أكثر وافرة المياه داخل أراضى القلعة كان يمكن أن تغنى عن بناء صهاريج؛ لأن مياه الصهاريج يمكن أن تستهلك فى حالات الحصار الطويلة[2]، هذا وقد كشفت التنقيبات الأثرية فى قلعة حمص عن وجود صهريج ماء واسع وعميق فيها نفذ ببراعة هندسية وبأسلوب يساعد بسهولة على استخراج المياه منه[3]، هذا وقد ظهر واضحًا أن قلعة شميميس لم تشغل أدوارًا مدنية ولم تتوفر فيها أسباب الحياة الحضارية، فلا مرافق فيها يستفيد منها العامة ولا ميزات جمالية تعبر عن حياة شبه هادئة ومدنية داخلها؛ لأن الهدف منها أساسًا عسكرى صرف[4].

القلاع ودورها فى حفظ الخيول والمواشى

حازت الخيول على أهمية بالغة جدًّا فى نفس الإنسان العربى منذ القدم، ونالت التقدير الكبير فى قلوب المسلمين لما مثلته من قوة لا غنى عنها فى فتوحاتهم العسكرية الواسعة، وأعمالهم الجهادية الكبيرة فى فترة الحروب الصليبية، فكانوا دائمى الاهتمام بأنواعها الأصلية الأصيلة فوفروا العلف الجيد لها والعناية الطبية اللازمة والأمكنة الصحية لإقامتها، وذلك لحاجتهم الماسة إليها لصراعاتهم الطويلة ضد الفرنج[5]، وكانت أعدادها ضمن الكتائب

(1) أحمد وصفى زكريا، جولة أثرية، دمشق 1984م، ص82، نقلا عن أجفان الصغير، القلاع، ص38 – 39.
(2) أجفان الصغير، القلاع، ص39.
(3) أكرم ساطع، (القلاع والحصون)، المرجع السابق، مجلد3، ص34، نقلا عن أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام ، ص40.
(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص41.
(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص45.

العسكرية ترجح بنسبة كبيرة كفة الحرب، ولم تقتصر على دورها العسكرى والتنقلات فى الأسفار وحسب بل استخدمت بشكل رئيسى فى ممارسة أنواع الرياضات، هذا ولم تخل القلاع الشامية فى جانب من الجوانب من مراكز أساسية فى تجميع الخيول ضمن إسطبلات خاصة داخلها، وقد أعيرت الإسطبلات عناية مشددة منذ تشييدها بما يوفر الظروف الصحية الجيدة، هذا ومن القلاع التى تشجعت على الإكثار من أعداد الخيول فى إسطبلاتها قلعة حماة، خصوصًا أنها شكلت مركزا للحكم الأيوبى ولحاميته العسكرية بحماة، هذا وقد شكلت قلعة حماة مركز ثقل عسكرى واقتصادى وإدارى ليس فى حماة فحسب وإنما فى المنطقة الوسطى لسوريا، نظرًا لموقعها الحساس جدًّا وسط قلاع المنطقة الوسطى فقد تفوقت شأنا على قلعة حمص، أيضًا فى قلعة شيزر، بالإضافة إلى قلعة الصبيبة العربية وقلعة نجم التى حوت أيضًا العديد من إسطبلات الخيول وحظائر المواشى ومستودعات تجميع العلف[1].

الدور الاجتماعى للقلاع

سكن الأهالى المحليون، وسواهم من المدنيين داخل القلاع، هذا ويمكن القول بأن القلاع لم تسكن بشكل دائم من قبل جماعات محلية وأسر مدنية كالتى خصصت للجند فقط فإنها سكنت بشكل مؤقت وبفترات معينة حينما لجأ الناس من سكان محليين وسواهم إليها إبان صراعات المسلمين العنيفة ضد الفرنج، أما الضخمة من القلاع فمعظمها ظل آهلًا بجماعات من الناس فترات طويلة من الزمن، فقلعة صهيون مثلًا بقيت آهلة بالسكان حتى سقوط المماليك وكان قد فتحها «صلاح الدين» سنة 603هـ / 1188م[2]، ومما هو جدير بالذكر أن طبيعة الحروب الصليبية التى غلب على نموذجها طابع الحضارات بين المسلمين والفرنج، فبلاد الشام بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام الكثير من القلاع والحصون وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع، لذا كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية كانت هذه المعركة غالبًا ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون، ولذلك كانت تستغرق وقتا طويلا، فأمست الحاجة إلى إقامة الأسر الحاكمة ضمن القلاع شبه عادة تطلبًا للاعتصام، بالإضافة إلى كون القلاع بعظمتها تضفى نوعًا من الجلالة والفخامة على إقامة الأسر الحاكمة فيها[3].

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص45، 47.
(2) جبرائيل سعادة، أبحاث تاريخية وأثرية، ترجمه عن الفرنسية سليمان حرفوش، ط1، دمشق 1987م، ص321، نقلا عن أجفان الصغير، القلاع، – 66.
(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص66 – 67.

أى أن القلاع كانت سكنى الأسر الحاكمة، والدليل على ذلك أنه بعد فراغ «صلاح الدين» من الاستيلاء على دمشق وقلعتها اتجه صوب المناطق الوسطى فى سوريا فامتنع الأمير «عز الدين جورديك» من المماليك النورية عن تسليم قلعة حماة وكان يقيم فيها وتم تخليه عنها فيما بعد، أيضًا قلعة حارم كان يقيم فيها بعض مماليك الأسر النورية، وبعد وفاة «صلاح الدين» استقر ولده الملك «الأفضل نور الدين على» فى دمشق والملك «الظاهر غياث الدين غازى» فى حلب، والملك «العادل سيف الدين عمر» فى حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وغير ذلك من القلاع، وجميع أولئك سكنوا مع أسرهم وأقاربهم وأتباعهم داخل قلاع المدن والمناطق التى أضحت بحوزتهم، وكانت حصون وقلاع أخرى بأيدى جماعة من أمراء الدولة[1].

هذا وقد كانت بعض أسر الحكام والأمراء المحليين لم تكن تقيم بشكل دائم داخل القلاع حتى بعد أن جرت العادة على ذلك فى فترة الحروب الصليبية، بل انتقلت بعض الأسر من القلاع إلى قصور خاصة داخل المدينة، والسبب كان بهدف التمويه بعد أن كانت القلاع معروفة كمقر للحكام وأسرهم، ولقلة حصانة بعضها بدليل أنه فى قلاع المدن الكبرى وافرة الحصانة أقامت أسر سلطانية على الدوام، فـ«العادل أبو بكر بن أيوب» أقام مع أسرته بشكل دائم فى قلعة حلب، كذلك أسرة «شيركوه» التى ملكت حمص على يد خمسة ملوك منهم «شيركوه» ولقب بـ«المنصور» وكانوا أقاموا مع أسرهم وخاصتهم داخل قلعتها[2]، أضف إلى ذلك أن القلاع عزلت داخلها بعض وحدات الجيش الإسلامى التى تكونت فى معظمها من جنود غير عرب، الأمر الذى خفف من المشاحنات والشعور بالفوارق الاجتماعية والمادية والسلطوية بين فئات المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت[3]، وكانت العساكر التى تقيم بشكل دائم داخل القلاع تسمى «أجناد القلعة»؛ لأنهم ارتبطوا بها وكانوا المسئولين بالدرجة الأولى فى الدفاع عنها وعن أهلها فكانوا بمنزلة جيش داخل الجيش الإسلامى العام، ومعظم القلاع حوت ثكنات لإقامتهم، فقد شملت قلعة دمشق على العديد من ثكنات جنود الحرس وغيرهم، هذا وقد ظهرت أماكن إقامة الجنود فى قلعة حلب وقلعة الصبيبة وفى قلعة بصرى أيضا[4]، ومما هو جدير بالإضافة أنه اختلفت طبيعة حياة ومعاش أجناد القلاع عن نمط حياة

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص67.
(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص70.
(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص71.
(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص72.

الجنود فى التشكيلات الأخرى خارج القلاع من المشاة والفرسان والمجموعات المرابطة على الحدود، فقد عاش أجناد القلاع حياة رفاهية لقربهم من الأمراء والسلاطين وحراستهم لهم[1]، هذا بالإضافة إلى أن القلاع كانت تضم داخلها المرافق العامة مثل المساجد والحمامات وحسب حجم القلعة كان يحدد نوع المسجد الذى ينبغى أن يقام فيها، فالواسعة أنشئ فيها مساجد جامعة، والصغيرة نسبيًّا عمرت فيها مساجد عادية، والمسجد الجامع كان غالبا أضخم مساحة من المسجد العادى، وكان لجامع القلعة أهمية خاصة عند المسلمين فى فترة الحروب الصليبية؛ لأنه داخل مركز محصن[2].

أما بالنسبة للحمامات فقد شغلت دورًا مهمًّا فى الحياة الاجتماعية عند المسلمين داخل وخارج القلاع، فقد بالغ المسلمون فى تجميلها وتزيينها وإنشائها بكثرة والاهتمام بها[3].

القلاع بوصفها محطات بريدية

لا شك أن القلاع لها أهمية كبرى بوصفها محطات بريدية سواء بالخيول السريعة أو بواسطة الحمام الزاجل، هذا وقد كانت أول إشارة تاريخية لاستخدام الحمام الزاجل فى الحروب هى فى عام 44 ق.م حين حاصر «أنطونيوس» مدينة بإيطاليا، والبداية هنا بالحمام الزاجل بهدف التركيز على البريد الجوى لارتباطه المباشر مع القلاع بجانب مهم من جوانب البحث، أما البريد البرى فبرغم علاقته مع القلاع لم يرتبط بها كالجوى[4]، فالحمام البريدى كان يطير من القلعة إلى القلعة، هذا وقد تخطى الحمام الزاجل الأهمية بنسبة كبيرة، وذلك لسرعته الكبيرة أولًا ولقلة كلفته ثانيًا، لم يستغرق بين القاهرة ودمشق سوى أربعة أيام، وأحيانا يمكن أن يصل فى اليوم نفسه الذى يطلق فيه حسب المسافة والظروف، ويذكر عن «ابن الوردى» الذى يسميه «المناسيب» أو «الحمام الهوادى» فى حديثه حول سنة 567هـ / 1171م أن «نور الدين» اتخذه كوسيلة سريعة لإيصال البريد فقد كان يأتيه فى اليوم ذاته[5]، هذا وقد بلغت أهمية استخدام الحمام الزاجل فى البريد بفترة الحروب الصليبية مكانًا بالغًا، فلم تكد تخلو قلعة من القلاع من برج أو أبراج خاصة لإرساله واستقباله، حتى إن بعض

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص72 – 73.
(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص81.
(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص85.
(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص124.
(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص125.

القلاع شكلت لطبيعة موقعها محطة خاصة للبريد الجوى بفضل الحمام الزاجل، كقلعة الربض (قلعة عجلون) الواقعة فوق الجبال الشاهقة فى شمال الأردن التى أمست محطة للهوادى بين بلاد الشام ومصر وأمست ربطة وصل إسلامية بين آسيا وغرب إفريقيا، ومما هو جدير بالإضافة أنه إذا أرادت دمشق أن تنقل خبرًا إلى حمص ترسل من برج البريد فى قلعتها حمامة زاجلة حمصية تزودها برسالة كما حصل عام 637هـ / 1239م، حينما أرسلت بطاقة مع الحمام الزاجل إلى قلعة حمص لإخبار صاحبها «أسد الدين شيركوه» بنبأ وفاة «الكامل»[1]، ومما هو جدير بالذكر أنه كان يوجد فى برج البريد من كل قلعة مختلف أنواع حمائم المدن الإسلامية[2].

فإذا أريد إرسال الرسالة من قلعة دمشق مثلًا إلى قلعة حلب كانت تعلق بطاقة من قبل البراج على حمامة زاجلة من النوع الحمصى مثلا وتطلق فتحط فى برج قلعة حمص حينما تشاهد حمائم من صنفها فى موطنها، ثم تنقل الرسالة إلى نوع آخر من الحمام حموى أو حلبى ليحط فى قلعة حماة أو حلب وهكذا يصل الخبر إلى المكان المراد[3]، هذا ومما يؤخذ على البريد الجوى نقاط ضعف، فقد كانت رسائله موجزة جدًّا؛ لأن الشرح والتفاصيل تكبر حجم البطاقة فلا يطيق الطير حملها لا سيما أنها تنشر غالبا تحت جناحيه أو تربط بذيله كى لا تفلت، بالإضافة إلى أن الريح القوية قد تعيقه عن متابعة الطيران أو تجبره على التوجه جهة غير مطلوبة[4]، ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم فى الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات، ومن المعروف أن العرب قد امتازوا باستخدام الإشارات والحمام الزاجل، كما مهر البيزنطيون فى استعمال الإشارات، ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم، وذلك لكى يجعلوا الاتصالات الداخلية بين معاقلهم أمرا ممكنا داخل مساحات شاسعة فى ممتلكاتهم اللاتينية، ومما لا شك فيه أن جيش «صلاح الدين» امتاز بروح الجهاد الفائقة أكثر من التنظيم الجيد، وامتاز هذا الجيش الإسلامى بتكتيكات الحصار... وبوسائل المواصلات السريعة (الحمام الزاجل)، هذا وقد ذكر المؤرخ «البيرونى صالح بن يحيى» فى تاريخه «أن أبناء بلاد الشام كانوا فى حروبهم مع الصليبيين إذا أرادوا تبليغ أمورهم بسرعة يستعملون النار للحوادث فى الليل وحمام البطان للحوادث فى

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص128.

(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص129.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص130.

النهار»[1]، هذا ومن أمثلة أهمية استخدام الحمام الزاجل أن الجنود الفرنج كانوا على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) مثلًا يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصبيبة (بانياس) على سفوح جبل الشيخ، وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب، ومع حامية قلعة صيدا على بعد 19ميلًا على الساحل، وفى أقصى الجنوب فى كرك مؤاب حينما كان يحـاصرها «صلاح الدين» عام 579هـ/ 1183م، وكانت القلعة تتصل ليلا بواسطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها مسافة تبلغ نحو 50ميلًا[2].

مناعة القلاع وأهمية موقعها

استمدت القلاع مناعتها ليس من حصانة عمارتها ومتانة أسوارها وأبراجها فحسب وإنما من طبيعة مواقعها أيضا، فإن لم تصل حجارة المنجنيقات إلى داخل القلعة من على أسوارها، فهذا يعنى أنها شاهقة وحصينة وصعبة الحصول عليها، والعكس صحيح، فأثناء حديث «ابن الأثير»[3] عن أحداث سنة 584هـ/ 1188م، ذكر فيها يخص فتح المسلمين بقيادة «صلاح الدين» لقلعة الشغر التى لجأ الفرنج بعد هروبهم من حصن بكاس، وكلاهما على طريق اللاذقية، أنها منيعة لدرجة لم تصلها أحجار المنجنيقات فلم يأبه المحاصرون بالحجارة التى تصاعدت فى الهواء، بينما فى حديث عن قلعة صهيون أشار إلى أن الحجارة طالتها من بعض المواقع فى الوادى العميق الضيق الدائر حولها[4]، وعن حديثه حول فتح المسلمين لحصن برزية ذكر أنه من جهة الغرب يرتفع الوادى المحيط به لدرجة أن قاذفى الحجارة ورماة النبال أوصلوا قذائفهم من تلك الجهة إلى الحصن ففشلت حصانته[5].

مميزات القلاع وأهمية موقعها

من أهم المميزات التى امتازت بها القلاع الشامية العزلة فى مواقعها، ونهوضها على مرتفعات وعرة وشاقة التسلق ومتحكمة بممرات ومناطق إستراتيجية، هذا بالإضافة إلى تلاؤم أسوارها مع واقع الموقع تضاريسيًّا مثل قلعة مصياف التى تماشت أسوارها من الخارج

(1) لمزيد من التفاصيل انظر إبراهيم العدوى، الحمام الزاجل فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد2، العدد الأول، مايو 1949م، ص131 – 138، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص22 – 23، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقى، قدم له وزوده عبد الرحمن زكى، مكتبة النهضة المصرية، 1956م، ص67 – 68.

(2) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص67.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192.

(4) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، ص153.

(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص155.

مع الحركات العامة للمرتفع المتطاول، والمكون من الصخر الذى تنتصب فوقه، ولكن قلعة مصياف حميت بشكل لافت للانتباه بالمعالم الجغرافية، لذلك اعتبرت فى فترة من الفترات أعظم قلاع الإسماعيلية، هذا وقد حاصرها «صلاح الدين» عام 572هـ / 1176م، ومن القلاع التى شيدت فى عصر الحروب الصليبية واتصفت بتلك الميزات قلعة عجلون وقلعة بارين، ولموقع القلاع الأهمية البالغة فى مدى الاستفادة من قوتها وقيمتها، لذلك اهتم مشيدوها اهتماما كبيرا فى اختيار المواقع الحيوية والأكثر إستراتيجية، فصارت القلاع تأخذ أهميتها من مدى أهمية مواقعها، بل كان أحيانا الموقع الذى أقيمت عليه القلعة هو أهم منها ذاتها؛ لأن حصانة القلعة من حصانة موقعها[1]، فحتى إذا لم تكن القلعة متينة فى حد ذاتها فإن الموقع الحصين كان يمنح القلعة معظم المناعة والقوة والحصانة، فعلى سبيل المثال كان لموقع قلعة الشقيف الذى منحها أهمية عسكرية بالغة؛ لأنه أرصدها من على ظهرة المنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصبة، وكذلك قلعة حارم التى منحها موقعها منعة حرم على أعدائها فتحها فسميت حارم وتحكمت بالطريق الرئيسى بين إنطاكية وحلب، هذا بالإضافة إلى قلعة شيزر التى تعتبر مثالًا على حصانة القلاع لمتانتها وطبيعة موقعها فهى مقامة فوق كتف صخرى على يسار العاصى من الجنوب إلى الشمال فيمر بشرقيها، وتنفصل عن جوارها من جهات الشرق والشمال والغرب بسبب عمق المنجدرات الصخرية المحيطة بها، ويتراوح ارتفاعها ما بين 40 و50 مترًا، وجهة الجنوب كانت تتصل سابقًا بالجبل المجاور للقلعة، ومن أمثلة القلاع الحصينة لطبيعة موقعها قلعة شميميس الواقعة بقاياها على تل جميل وهذا التل ذو شكل مخروطى وتأليف جيولوجى غريب نادر، فأسفله من الصخور الجيرية البيضاء، وقمته من البازلت الأسود، وتظهر الثانية فوق الأولى كطاقية سوداء فوق هامة كبيرة كللها المشيب، مما يدل على أن التل كان بركانا قذف بحممه فكان قليلًا فجمد عند الفوهة، وقد نقر مشيدو القلعة فى هذه الفوهة بئرا عظيم الدائرة لا يعرف غورها، وبنوا على دائرتها أسوار القلعة وأبراجها وأقبيتها، وحفروا حول التل خندقًا عظيمًا وعميقًا كان يحيط بالقلعة، وقد اكتسبت قلعة شميميس أهميتها العسكرية ليس من حصانتها الفريدة هذه فحسب، وإنما من جهة موقعها وعلوه الذى يسمح بمراقبة أبعاد شاسعة حتى آفاق ضواحى حمص من جهة الجنوب، وكل القلاع الشامية بنيت على مرتفعات عالية، والقلعة التى لم تبن على تل أو جبل هى قلعة دمشق، ولكن هذه القلعة زودت أبراجها وزاد من ارتفاعها ودعم أساساتها، هذا بالإضافة إلى قلعة بعلبك[2].

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص157.

ما يمكن قوله فى القلاع بصفة عامة

لا شك أن الحصون والقلاع والأسوار ينظر إليها على أنها من مخلفات الإنسان وأقدمها وأكثرها وضوحا ودلالة على معالم تاريخية، إذ أن فيها ما يمثل انعكاسًا لأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية وتطويرها فى السلم والحرب وينظر إليها على أنها رمز قوة ومنعة ونتاج فكر وخلاصة تجربة ومقتضيات ظروف وحاجة وتعبير صراع وإمكانات وعنوان سيادة وتفوق[1]، هذا والقلاع والحصون إنما ترمز إلى القوة فى الإبداع عند العقل البشرى للسيطرة على الأرض منذ أن وجد الإنسان ككائن بشرى على سطح الأرض وهو يسعى لحماية نفسه من كوارث الطبيعة أو من خطر الحيوانات المفترسة باللجوء إلى الكهوف أو إلى أعالى الجبال والأشجار، فمن الطبيعى إذن أن تكون القلعة بالنسبة للإنسان، كالجو بالنسبة للصقر[2].

هذا وقد عنى المسلمون باختيار المواقع الأستراتيجية القريبة من المدن لإقامة القلاع عليها لتكون مقرًّا للوالى أو حاكم المدينة، يطل منها على عاصمته فتزيده ثقة بالنفس وتضفى عليه روحًا معنوية عالية، فهى كذلك تبعث الرعب فى نفس الخصم والأعداء وتوحى بالطمأنينة لمن يقيم فيها أو حولها باعتبارها الملجأ الآمن عند الشدائد، ففى قاعتها ترسم سياسة الدولة وتوضع اللمسات الأخيرة على العمليات الحربية، ومنها تنطلق الجيوش لخوض المعارك مع الأعداء أو لإخضاع المتمردين فى الداخل، وفيها تخزن الأسلحة والمواد التموينية[3]، ولا يغيب عن بالنا أن تلك القلاع لم تشيد لوجهها الخاص بل لغرض معين محدود ويدل تاريخ العديد منها على أنها كانت تهجر أو تترك عندما يستنفد الغرض المقصود منها لتؤول إلى السقوط والتداعى، ولا يمكن فهم القلعة كبناء إلا من حيث ارتباطها السياسى ووضعها الإستراتيجى والظروف التاريخية التى أحاطت ببنائها[4]، هذا ولم تكن التحصينات الحربية فى معظم المدن باستثناء حالات قليلة تحظى برعاية أصحابها العرب بعد الفتوحات الإسلامية، ولم تنشأ دفاعات جديدة إلا فى عدد محدود من المدن الساحلية فى سوريا وفلسطين مثل عكا وعسقلان وقيسارية، أو فى مناطق الثغور المتاخمة للحدود البيزنطية

(1) سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص9.
(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص69.
(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص82.
(4) فولفغانغ مولر، القلاع، ص10.

العربية، واعتبارًا من بداية القرن العاشر بدأ البيزنطيون والحكّام المحليون من المسلمين وغيرهم تشييد عدد من القلاع الجديدة فى جوار المستوطنات القديمة بعد أن أصبح الدفاع عن أسوارها القديمة صعبًا، هذا وتتميز المعاقل الحصينة بموقعها المنعزل فوق مرتفعات وعرة صعبة التسلق[1].

ولا شك أن أهم ما تشتهر به الدولة الأيوبية هى المنشآت الحربية من قلاع وحصون والتى بطلها «صلاح الدين» الذى جاء للجهاد هو وخلفاؤه ليقفوا أمام المتعصبين المسيحيين، فقد كللت حياة أبطال هذه الدولة بالانتصار الساحق على الصليبيين وغيرهم من الأبطال الذيـن ردوا غارات الحروب الفظيعة التى راح ضحيتها الكثير والكثير من الشهداء، هذا وقد وصلـت القـاهرة إلى أقصى درجات الرقى وقد امتد حكم الأيوبيين لمصر ثمانين عامًا فقط ورغم قصر هذه المدة إلا أن القاهرة شهدت تطورًا معماريًا هائلًا فى المنشآت الحربية؛ لأنه كان عصر جهاد من الدرجة الأولى فظهرت القلاع الحصينة والأسوار ذات الأبراج المستديرة.

هذا وكما رأينا لم يشرع «صلاح الدين» فى بناء مدينة جديدة بل اكتفى بأن يحيط القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط بسور واحد يحميها جميعًا من أى غارات عدائية داخلية أو خارجية، وتوج هذا السور بقلعة حصينة كما رأينا من الحجر المصقول فى مداميك منتظمة كامتداد سور «بدر الجمالى» وزوده بأبراج مستديرة، وطرز الهندسة فى بناء سور القاهرة هو الطراز السورى المستمد من طرز العمارة البيزنطية، والواقع أن «صلاح الدين» تأثر فى عمارة القلعة بالذات بالقلاع السورية الحصينة كما ذكرنا سابقا[2] ولا شك أن المدن تحصن فى البداية بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أى هجوم مباغت على أن القلعة وحدها هى القوية إلى درجة تكفى لمقاومة حصار فعلى[3].

وعلى كل حال، فإن مجموعة البقايا المتناثرة من أوصاف المعاصرة تمكننا من الاستدلال بأن بعضا من هذه التحصينات كان قويًا للغاية، فالأسوار الثلاثية التى شيدت على الجانب البرى من صور تتمتع بشهرة خاصة، ومثلها تحصينات مدينة عكا التى كانت تتألف من سور

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص13.
(2) حسن الباشا، القاهرة تاريخها وآثارها وفنونها، ص230.
(3) فولفغانغ مولر، القلاع، ص28.

مضاعف تخفره أبراج على امتداده وكانت الأسوار التى تحيط بهذه المدن تعزز بحصون بارزة منخفضة أو أبراج مستطيلة الشكل عادة مقامة بفواصل منتظمة إلى حد ما (25 – 40 مترًا)، وتتحدد هذه الفواصل بمدى رمى السهام أو القذائف، وتحف بالأسوار من جهة الخارج خنادق أو أفنية عريضة تملأ بالماء غالبًا مع بعض التحصينات الخارجية البسيطة فى بعض الأحيان، وكانت بوابات المدن بصورة عامة جيدة التحصين رغم أنها نادرًا ما كانت تحظى بمظهر التعقيد المعمارى الذى للقلعة أو معاقل الحراسة فيها، وغالبًا ما كانت تحرسها أبراج ملاصقة لها، أما الوصول إلى الداخل فكان محميا بمنعطف أو منعطفات بزاوية قائمة غالبا بالإضافة إلى سلسلة من غرف البوابات التى يمكن إحكام إغلاقها وترمى بالنار من الأعلى أو من الجوانب، هذا وقد تبنى الفرنج إقامة تحصينات المدن القوية هذه شكلا من أشكال العمارة الشرقية من خلال أنهم جهزوا جميع مرافئهم بمنشآت دفاعية خاصة، فعند أطراف الجروف أو المكاسر التى تتحكم بمدخل المرفأ كانت تقام حصون أو أبراج قوية ومنيعة تمتد بينها مثل حصون المرافئ فى صور وصيدا وجبيل وأبراج الحصار فى عكا وبيروت واللاذقية، هذا الشكل كان قد تأسس منذ زمن طويل ولم يمكنهم تركيبهم الاجتماعى المتفاوت فى بلادهم من تجاهله أو الاستخفاف به واستمر تطوير بناء القلاع فى الاتجاه الذى تم تبنيه منذ منتصف القرن الثانى عشر[1]، هذا ويمكن القول كما ذكرنا سابقا أنه بعد موقعة حطين إن «صلاح الدين» استولى على معظم القلاع الصليبية، حيث سقطت جميعها فى يده ولم تقاوم إلا بعض القلاع لكنها سقطت بعد فترة من الوقت، ولم يكن الجوع هو السبب الرئيسى فى سقوط ذلك العدد الكبير من القلاع الحصينة على هذا النحو السريع وإنما هو النقص فى عدد الرجال القادرين جسديا وعدم توفر النجدات الحربية، والذى سهل مهمة السلطان فى الاستيلاء على القلاع هو تلك الكارثة التى حلت بهم فى حطين، وكان قد وطد العزم على اقتحام الأسوار الضعيفة من أول هجوم إذا لم تفتح البوابات فى وجهه طوعا، ورغم ذلك لم تسقط قلاع كثيرة قبل أن يستكمل حصارها شكلا، وكان لا بد من نقب أسوارها أو فتح ثغر فيها بقذفها بالمجانيق الثقيلة، بحيث يستطيع المحاصرون النفوذ منها إلى الداخل، وذلك بحسب الظروف والموقف، وكان العرب يفضلون الطريقة الأولى التى تستلزم حفر أنفاق تحت مقاطع مناسبة فى جدار أو نقاط مكشوفة من دفاعات العدو، وكانت الأنفاق تحت

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص29.

الأرض تدعم وتثبت بروافد (عضادات) متينة أو جذوع أشجار جافة وتغلف بمواد قابلة للاشتعال بحيث تنهار عندما تضرم فيها النار وينهار معها جزء كبير من السور، واستطاع «صلاح الدين» بهذا الأسلوب أن يستولى على معظم القلاع، هذا وقد كان المسلمون بإمكانهم منع العدو من تنفيذ ما يريد عن طريق شن الغارات المفاجأة السريعة أو تدمير آلات حصار العدو بالمجانيق أو قوس الزيار (منجنيق السهام)[1]، ومن الجدير بالذكر أن أقوى القلاع مهما كان شأنها لا بد أن تصاب بتشققات أو صدوع يمكن للمحاصرين المهرة أن يستغلوها كثغرة للدخول إليها دون صعوبات تذكر، ولقد حدث فعلا أن تسلل المهاجمون من بقعة غير محروسة من هذا القبيل إلى قلعة صهيون التى كانت منيعة للغاية، وذلك بعد حصار قصفوها بالمجانيق واستولوا عليها.

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص23.

■ الفصل الرابع

أدوات القتال فى العصر الأيوبى

مقدمة

لا شك أن السلاح فى المعركة يشبه القلم لدى الكاتب، فالكاتب لا يستطيع أن يستغنى عن قلمه، وكذلك الجندى لا يستطيع أن يتخلى عن سلاحه فى ميدان المعركة؛ لأن له دورًا أساسيًّا فى المعركة الحربية، فالسلاح هو ما قوتل به[1] سأل «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ رجلاً يومًا عن السلاح فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له، قال ما تقول فى الترس؟ قال هو المجن (الدائر) وعليه تدور الدوائر، قال فما تقول فى الرمح؟ فقال أخوك وربما خانك فانقصف قال: فالنبل؟ قال: منايا تخطىء وتصيب، قال: فما تقول فى الدرع؟ قال: مثقلة للرجل، متعبة للفارس ويا لها لحصن حصين قال: فما تقول فى السيف؟ قال: هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين، فضربه عمر بالدرة[2]، هكذا وتعكس دراسة الأسلحة والمعدات الحربية فى أى مرحلة من مراحل التاريخ مدى تقدم الصناعات فى مجال المعارك، فمن المعروف أن المعادن تستخرج من باطن الأرض، وقد تكون متوفرة فى المناطق القريبة من ميدان المعركة، أو تكون غير متوفرة وتتوفر فى أماكن أخرى بعيدة عن ميدان المعركة، ومن هنا يمكن استخراجها وتصفيتها ونقلها إلى مراكز تصنيعها[3]، ثم إرسال أدوات القتال إلى المحاربين فى المدن، أما الصرف على هذه الصناعة أو تمويلها فقد تحدث عنه كل من المؤرخين «عثمان النابلسى» و«المقريزى»، فقد ذكر «النابلسى»: «أن الحراج ـ الغابات ـ حكمها حكم المعادن، وهى ليست مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»[4]، هذا بالإضافة إلى ما قاله

(1) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج6، ط11، مطبعة دار الكتب 1345هـ/ 1926م، ص200.
(2) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، كتاب العقد الفريد، شرحه ورتبه أحمد أمين أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى، 7 أجزاء، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1367هـ/ 1948م، ص179.
انظر أيضًا النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص200، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، 1947م، ص137.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، ط1، 1986م، ص261.
(4) عثمان بن إبراهيم النابلسى، لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية، طبعة المعهد الفرنسى، دمشق 1961م، ص48.

«المقريزى»: «إن ديوان «صلاح الدين» قرر أن تكون غابات مصر ملكًا للدولة، ولا سيما غابات مناطق بهنسا وسفط (صفط) وأشمونين وأسيوط وإخميم وقوص»[1].

خزانة السلاح وصناعة الأسلحة

تتحدث المراجع والمصادر المختلفة عن المعارك الحربية باستثناء «ابن مماتى» المؤرخ الذى تحدث عن مؤسسات الدولة وتنظيم أنشطتها وخزانة السلاح، وتنظيم اقتصاديات الدولة فى الحرب والسلم، على الرغم من أن أى دولة لا يمكن أن تخلو من مؤسسات أو دواوين تنظم مختلف شئونها[2]، ويذكر «ابن مماتى»: «أن خزائن السلاح كان فيها مستخدمون، وتجلب إليها ما تحتاج من خشب وحديد وسلوخ وأصباغ وآلات يعملون منها ما يؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها وتباين أصنافها»[3]، ففى العصر الفاطمى كانت خزائن السلاح من مرافق الدولة الأساسية، هذا وقد أبقى الأيوبيون ثم المماليك على هذا المرفق، وإن كانوا قد أطلقوا عليه اسم السلاح خانة أو الزردخاناه[4]، هذا وقد ذكر «القلقشندى» أن خزانة السلاح هى المعبر عنها فى زماننا (أى زمن المماليك) بالسلاح خاناه، وتوضع فيها مختلف صنوف السلاح[5]. هذا وقد تحدث شيوخ المؤرخين عما تتضمنه خزائن السلاح فى العصر الفاطمى، فذكر كل من «المقريزى» و«ابن الطوير» خزانة السلاح يدخل إليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك، ويتأمل حواصلها من الكزاغنديات[6] المدفونة

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص194.

(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص262.

(3) ابن مماتى، الأسعد بن مماتى، الوزير المتوفى 606هـ / 1209م، كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر 1934م، ص354.

(4) المعروف أن «خاناه» لفظة فارسية تعنى البيت فيكون المعنى بيت السلاح أو بيت الزرد لما فيها من أنواع الزرد، والزرد هو الدرع المزرودة تتداخل حلقاتها بعضها فى بعض، وإن ذلك البيت كاف من ضمن الحوامل المعبر عنها بالبيوت الشريفة التى كانت بقلعة الجبل، هذا وتوضع فيها الأسلحة اللازمة للجيش بحيث يكفى حاجة مصر ويحمل منها إلى جميع بلاد الشام وتعمر بها البلاد والقلاع، ويمكن القول إنه من المحتمل أن القلقشندى يتحدث عن عهد المماليك فينطبق كلامه على العهد الأيوبى كذلك، القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص473، د/ نبيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلد الثالث والعشرون 1976م، ص107 –108.

(5) لمزيد من التفاصيل عن خزانة السلاح انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص473، انظر أيضًا المقريزى، الخطط، ج1، ص407.

(6) القزاغندات أو الكزاغنديات، هو المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد وهو لفظ فارسى.

بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة بالصناعة[1] والجواشن وخوذات محلاة بالذهب والفضة وسيوف ورماح ذات نصال مذهبة، وقسى بأنواعها وسهام ودروع وخيل مذهبة، هذا بالإضافة إلى أن «المقريزى» أشار إلى خزائن السلاح الفاطمية التي كانت تضم بعض الأسلحة الموروثة كسيف ذى الفقار الذى كان أحد سيوف النبى ﷺ[2] وقد كان صانع السلاح يسمى «الزردكاش»[3].

ويمكن القول عند حديثنا عن الدولة الأيوبية والحروب الصليبية، إن الدولة الأيوبية قد تميزت بطابع حربى غلب على معظم مظاهر حضارتها، كما أحاطت بها ظروف وعوامل عديدة[4]، فاستمرار الحروب الصليبية خاصة فى بلاد الشام[5] أدى إلى قيام صناعات مستمرة، لا سيما أن بلاد الشام تتمتع بوفرة المواد الأولية (الخام)، هذا إلى جانب وجود الصناعين المهرة، فبلاد الشام بها الغابات والجبال الكثيرة التى تجعل مادة الخشب متوفرة وكثيرة فمنها أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط والزان... وغيرها، أما الحديد فقد كان به نقص شديد فى المنطقة، ومن هنا عوض «صلاح الدين» هذا النقص باستيراد الحديد من الخارج لا سيما إيطاليا وغيرها؛ لأن وجوده كان قد اقتصر على أجزاء من بلاد الشام والموصل[6]، وقد ذكر «المقدسى»: «وبه معادن حديد فى جبال بيروت»[7].

ومما هو جدير بالذكر أن منطقة الموصل كانت تتمتع بغنى أرضها بالحديد والقير والنفط الأبيض الضرورى لقاذفات النار[8]، هذا بالإضافة إلى أن الموصل كانت تمد «صلاح الدين»

(1) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى، نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، تحقيق د/ أيمن فؤاد 1992م، ص133.
(2) المقريزى، الخطط، ج1، ص417.
(3) الزردكاش لفظة عجمية معناها صانع الزرد، أما المتولى لشئون الخزانة فكان يسمى ناظر خزائن السلاح وواجبه الإشراف على أمور السلاح وتدوين ما يدخل إلى الخزانة من سلاح وما يخرج منها، مزيد من التفاصيل انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص263.
(4) حسين عبد الرحيم عليوة، السلاح المعدنى للمحارب المصرى فى عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة، المجلد الأول، أغسطس 1974م، ص18.
(5) مرت العصور الوسطى بفترة ركود لم تطور خلالها أسلحة الحرب، لكن هذا الركود لم يستمر طويلاً وعاد إليها الانتعاش أثناء الحملات الصليبية، فقد كانت تحتاج إلى تحسين صناعة الأسلحة بكافة أنواعها، لمزيد من التفاصيل انظر قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص81.
(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص264.
(7) المقدسى البشاورى، أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت 387هـ / 997م)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، طبعة بريل، ليدن، 1906م، ص184.
(8) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص145.

بين فترة وأخرى بما تجود به أرضها فكانت ترسل إليه «أحمالاً من النفط الأبيض مع عزة وجوده، ومن التراس والرماح، من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده»[1].

أما عن بلاد الشام، فقد كانت غنية بأنواع من الخشب الذى استخدم فى صناعة السفن، ونظرًا لوفرة الأخشاب فى بلاد الشام فمن المرجح أن أدوات القتال الثقيلة، كالدبابات والمنجنيقات والأبراج وغيرها كانت تصنع فى بلاد الشام؛ لأنه كان أساس صنع هذه الأدوات هو الخشب الذى يتوفر بكثرة فى هذه المناطق، أضف إلى ذلك أنه كان لا يمكن استيراد هذه الآلات الحربية بشكلها المصنوع من مكان آخر خارج الدولة الأيوبية، لثقلها وصعوبة نقلها وارتفاع أثمانها[2]، ويشير صاحب كتاب «آثار الأول» فى موضوع القسى ويذكر أن ما يصنع فى دمشق منها كان «أجود من غيرها»[3].

أنواع الأسلحة التى كان يستخدمها الجيش الإسلامى فى العصر الأيوبى

أولاً: الأسلحة الهجومية الفردية: وتنقسم إلى:

(1) الأسلحة اليدوية.

(2) الأسلحة الرشقية.

نعنى بالأسلحة الهجومية الفردية عند العرب تلك الأسلحة الجارحة أو الراضة التى كان يحملها الجندى الواحد ويستخدمها بنفسه بدون مساعدة من زملائه، وإلا اعتبرت من صنف الأسلحة الجماعية .

(1) **الأسلحة اليدوية**: وهى الأسلحة الفردية، من جارحة أو راضة التى لا تفارق اليد حين استعمالها أو أنها تقذف بواسطة اليد إلى مسافة قريبه فقط، وتضم السيف، الرمح، الدبوس، الطبر أو الفأس، الخنجر[4].

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص148، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص307، العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص350.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص265.

(3) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد المحسن بن عبد الكريم بن محمد بن هارون بن العباس ـ رضى الله عنه، آثار الأول فى ترتيب الدول، ابتدأ تأليفه عشية السبت ثالثة عشر شهر شوال سنة ثمانية وسبعمائة، ص160.

(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربى فى ألف عام، دمشق 1964م، ص75.

(2) **الأسلحة الرشقية:** هى الأسلحة الفردية التى تقذف باتجاه العدو من مسافة بعيدة نسبيا، وتضم هذه الأسلحة القسى بأنواعها، القنابر، وغيرهما[1].

أولا: الأسلحة اليدوية: لم يكن للعرب فى جاهليتهم من السلاح[2] غير السيف والرمح والقوس[3] والترس، وكانت لهم عناية كبرى فى استخدامها؛ لأنهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بها معائشهم[4].

السيف[5]

لا شك أن السيف تمتع بشهرة عالية وكبيرة فهو من أشهر الأسلحة كآلة هجومية[6] والذى استخدم فى المعارك الحربية فى مختلف العصور، حيث استعمله العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام[7]، حتى قيل عنه إنه أمير الأسلحة البيضاء[8] وأنبلها[9] بيدهم[10].

---

(1) إحسان هندى، المرجع السابق، ص75.

(2) محمد كامل علوى، المرجع السابق، ص128.

(3) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص18.

(4) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ط1، 1920م، ط2، 1958م، ص192، محمد كامل علوى، الرياضة عند العرب، ص128.

(5) السيف فى اللغة مشتق من ساف أى هلك والجمع أسياف وسيوف وأسيف وإستاف القوم وتسايفوا أى تضاربوا بالسيوف وسافه بسيفه أى ضربه بسيفه ورجل سائف أى ذو سيف والسياف صاحب السيف، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقى المصرى الأنصارى الخزرجى، لسان العرب، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، ج11، ص67 -68، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص139.

(6) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية (الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة)، القاهرة 1970م، ص91.

(7) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص83.

(8) إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص91.

(9) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص91.

(10) المخصص، ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المعروف بابن سيده المرسى، الطبعة الأولى، المخصص، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية 1318هـ، ج5، ص16، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص266.

هذا بالإضافة إلى أن العرب من كثرة عشقهم للسيف[1] أطلقوا عليه أسماء متعددة، وقد كانت تلك الأسماء صفات، أضف إلى ذلك أن السيف اختلفت أشكاله فمنها الطويل والقصير والعريض وكان الجند يعلقونه فى الجنب[2].

هذا وقد اشتهرت بلاد الهند[3] بأنها كانت موطن صناعة السيوف وتصديرها [4]، هذا بالإضافة إلى تصدير الحديد والفولاذ إلى الخارج لصناعته.

ومما هو جدير بالذكر، أن البلاد الإسلامية كانت تستورد هذه المواد من الهند وينقلها التجار إلى دمشق[5] لصنع السيوف الدمشقية[6]، ويتكون السيف من نصل أو شفرة ومقبض أو نصاب، فهو آخر الأسلحة عند العرب استعمالاً فى المعركة[7]، ذكر «الطرسوسى» أن عصر «صلاح الدين» شهد تطورًا فى صناعة السيوف فبلغت مستوى رفيعًا من الرقى والتعقيد، بإدخال مواد متعددة فى تركيبها «حتى إن منه ما يركب فيفعل

(1) كان العرب يعدون السيوف أشهر الأسلحة، وكانوا يستجلبونها من الخارج وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية، وتعرف بالسيوف العتيقة غير أن هذه السيوف أكثر قطعها فى اللين، فإذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت، وكانت أسياف الروم أمتن منها؛ لأنهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبرى الحديد، ولذلك كان العرب إذا أصابوا سيفًا قاطعًا تناقلوا خبره وأطروه.
لمزيد من التفاصيل انظر رسالة الكندى فى جواهر السيوف، باعتناء رانام بن إحسان الهى، مطبعة بنجاب بلاهور، ص3-5، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص193، محمود أحمد سليمان، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، مكتبة المنار، ص358، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص266، محمد كامل علوى، الرياضة عند العرب، ص129، الحسين عبد الله، آثار الأول، ص160.

(2) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص80.

(3) عبد الرحمن زكى، المجلة التاريخية، المجلد الخامس، صناعة السيوف الإسلامية فى العصور الوسطى 1956م، ص75، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية 1990م، ص197، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص193.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية، دمشق 1998م، ص75، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص266.

(5) ظلت مدينة دمشق تفاخر بما تصنع فيها من السيوف الممتازة، وظلت هذه المدينة محتفظة بشهرتها فى صناعة السيوف، وقد كانت شهرة مدينة دمشق فى صناعة نصال السيوف تتصل بأبعد مدى فى تاريخ القدم، لكن الشهرة التى نالتها دمشق فى صناعة السيوف قد بولغ فيها كثيرًا على عهد الحروب الصليبية، عبد الرحمن زكى، مجلة الكتاب، السيف فى الشرق الأدنى، السنة الأولى، ج5، ص655، الجيش والبحرية، مجلة فتية، السنة الأولى، أغسطس 1927م، ص188.

(6) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص73.

(7) ابن سيده، المخصص، ج5، ص15، 28، قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص75.

فعل المغناطيس فى جذب الحديد»[1]، ويعدد «الطرسوسى» المختص بوصف صناعة مختلفة أنواع الأسلحة أصنافًا من السيوف، ويحدد نسب المواد الداخلة فى صناعة كل منها سواء كانت مواد نباتية أو كيميائية مع ذكر نوع الحديد، والسيف الفاخر هو الذى يمتاز بصلابته ومقاومته لتأثيرات الجو، ويكون ذلك حين تكون نسبة الفولاذ فيه عالية، ونسبة الشوائب فيه قليلة[2]، «فهو أذكأ ما يصنع منه وأقواه، وأشرف ما يعمل من أصنافه وأعلاه»[3]. ومما هو جدير بالذكر، أن السلطان «صلاح الدين» لما طلب إلى سلطان المغرب أن ينجده فى حروبه ضد الصليبيين سنة 586هـ / 1190م، أرسل إليه ضمن هداياه عدة سيوف هندية النصال[4]، هذا وقد طرأ على صناعة السيوف التطور السريع الملحوظ باستخدام المواد المختلفة المستعملة فى صناعته[5]، ونذكر على سبيل المثال صناعة أحد هذه السيوف «يؤخذ من الحديد النرماهن، وإن كان من رءوس المسامير القديمة كان أجود منوال فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهمًا، إهليلج كابلى وبليلج من كل واحد بالسوية، ويوضع الحديد فى قصعة ويغسل بالماء والملح غسلاً نقيًّا، ثم يلوث بذلك الدواء ويوضع فى بوتقة، ويذر عليها درهم ونصف مغنيسيا مكسر وينفخ عليها فى المسبك، ثم يذوب ويجمع بيضه وذلك فى أيام عدة ثم يبرد ويعمل منه سيف فإنه سم قاتل»[6].

(1) الطرسوسى، مرضى بن على الطرسوسى، تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كلود كاهين، ص4.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص268 –269.

(3) الطرسوسى، التبصرة، تحقيق كلود كاهين، ص4.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص173، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص85، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص34 –35، كانت سيوف العصر الأيوبى ذات نصال مستقيمة وذات حدين وغير مدببة الطرف وهى بذلك تشبه السيوف الأموية والعباسية، هذا وقد حدث تغير على طريقة حمل السيف قبل عهد صلاح الدين بقليل، ثم أصبح تقليدًا سار عليه الحكام فبعد أن كان يحمل على الأكتاف ابتدع سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى طريقة شده فى الوسط، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص23، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص21.

(5) من المواد التى تدخل فى صناعة السيوف مواد غريبة فى أسمائها وهى إهليلج كابلى، بليلج، مغنيسيا، الشابرقان، ذراريخ وهى السموم القاتلة، سقمونيا، سبندوتنكار، وكذلك قشور الرمان حامض حرمل، عفص، بلوط، وصبر، ولم نعثر على معان لهذه الألفاظ، وهناك مواد أخرى تستعمل فى سقى السيف بعد صنعه ليكون أشد قطعا وأكثر جودة، بحيث يمكنه من قطع كل شىء حتى الزجاج، ومن هذه المواد فطر الحبة، عصارة شجر البنج الرطب ومواد أخرى غيرها، انظر الطرسوسى، التبصرة، ورقة رقم 20أ، نقلا عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص269.

(6) الطرسوسى، التبصرة، ص4.

الخنجر[1]

كان الخنجر أحد الأسلحة الإسلامية التى عرفته معظم البلاد الإسلامية، واستخدمته [2]، وهو من الأسلحة الفردية[3] الخفيفة وهو سلاح فولاذى صغير يحمل عند الالتحام المباشر والطعن خلسة[4].

والخنجر عبارة عن سكين ذات رأس معقوف ومقبض[5]، وقيل إنه عبارة عن سلاح يشبه السيف المقوس، إلا أنه أصغر منه حجمًا، حتى إن منه ما يحمل فى الجيب، وكان يحمل عادة فى الوسط[6]، هذا بالإضافة إلى أن هناك سلاحًا شبيه بالخنجر، ولم يرد ذكره فى المصادر إلا نادرًا وهو النمجاة[7] أو النميجة[8]، ويتكون الخنجر من نصل قصير ذى حدين وكان يصنع من الحديد أو الصلب ويثبت به مقبض من المعدن أو من العاج أو من قرن الحيوان، كما كان للخنجر غمد يحفظ به وكان يصنع من المعدن أيضًا أو من العاج أو الأبنوس، وكانت تغطى جزءًا منه كسوة من قطيفة [9]، واختلف الخنجر فى أنواعه فمنه الطويل، والقصير، والطويل منها يمسك كمسكة السيف، أما القصير فيحمل تحت الثياب وكانت النساء تفعل ذلك أحيانًا [10]، ومما هو جدير بالذكر، أن البعض من المحاربين كانوا يتسلحون به،

(1) الخنجر فارسيتها خنجر وهى مركبة من خون ومن كار وهى أداة تلحق بأواخر الأسماء فتفيد معنى الفاعلية، وهى خنجر بالتركية والسريانية الدارجة والكردية والأمنية، انظر السيد أدى شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت، 1990م، ص57.

(2) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص265.

(3) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، 197.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص76.

(5) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص120.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص271.

(7) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، الطبعة الأولى 1409هـ / 1989م، ص226، والواقع أن التمييز بين الخنجر الطويل والسيف القصير كان فى العصور القديمة والقرون الوسطى غير واضح البتة، قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص76.

(8) النمجاة أو النميجة ويعنى بالفارسية النصفى أى نصف سيف وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص195، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص271، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص 197.

(9) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص265.

(10) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص368 –369.

بالإضافة إلى أن «صلاح الدين» قتل الأمير الصليبى الشرس «أرناط» (رينو دى شاتيون) صاحب حصن الكرك يوم انتصار حطين بآلة من الخنجر التى كان يحملها معه[1].

الرمح:

هو من الأسلحة الهجومية[2] الخفيفة، والرمح من أسلحة الطعن[3] استعمله العرب قبل الإسلام وأجادوا استخدامه[4].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ (المائدة: 94).

هذا إلى جانب أن المسلمين كانوا قد استعملوه فى مختلف معاركهم الحربية، والرمح عبارة عن عصا طويلة تصنع من خشب صلد ونحوه، وفى نهايته رأس مؤنف حاد من الخشب أو العظم أو العاج أو المعدن[5]، ويتكون من عود يتراوح طوله بين 4 و7 أذرع، وفى رأسه حربة[6] يطعن بها[7].

أنواع الرماح: والرماح ضربان

(1) النوع الأول: متخذ من القنا وهو قصب مسدود الداخل[8] ينبت ببلاد الهند خاصة، يقال للواحدة قناة[9] ويقال لمفاصلها أنابيب ولعقدها كعوب، فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيمًا بحيث لا يحتاج إلى تثقيف قيل له الصعدة، وإن احتاج إلى تقويم قيل له مثقف، ويوصف القنا بالخطى، نسبة إلى الخط، وهى بلدة بالبحرين تجلب إليها الرماح من الهند وتنقل منها إلى بقية ديار العرب.

---

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص271.
(2) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص88.
(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص140، محمد ضاهر وتد، معركة عين جالوت، ص222، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص 198.
(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص88.
(5) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص74.
(6) الحربة: أصغر من الرمح والجمع حراب وقيل الرمح القصير وكان للعرب أنواع شتى من الحراب وقد كانت رأسها مؤنفة وحادة، لمزيد من التفاصيل انظر ابن سيده، المخصص، ج6، ص34، حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص244، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص88، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص21 -22، محمد كامل علوى، الرياضة عند العرب، ص131، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص144.
(9) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص87.
(8) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص140، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص222.
(9) هى جسم الرمح الذى كان يصنف طبقا لمادتها أو طولها أو قصرها، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص140، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(2) النوع الثانى: هو ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ويسمى «الزوابل»[1]، ويذكر «ابن سيده» أنها دعيت بزوابل ليبسها ولصوق قشرها[2]. هذا وقد كانت أسنة الرماح تختلف شكلاً بين المشعب والعريض والرفيع المستوى والمموج وغير ذلك[3]، والرمح كان سلاحًا خاصًا بالفرسان، إلا أن المشاة حملوه أيضًا وكانت رماحهم أقصر من رماح الفرسان وكانوا يحسنون استعمالها رميًا وطعنًا[4].

صناعة الرمح

تتخذ الرماح من فروع الأشجار الصلدة اللدنة كالنبع، والشوحط، والوشيح، وقد تصنع من الخشب الهندى المجوف المسمى «البوص»، وتكون طريقة الصنع بأن تسوى الكعوب (العقد) بالسكين، وبعدها تثقف القناة بالثقاف: وهى خشبة ذات ثقب أعدت لهذا الغرض، حيث يدخل فى ثقبها عالية الرمح، وتحرك فيه عدة مرات[5]، وقد لا تحتاج القناة إلى تثقيف لاستوائها حيث يقال لها «صعدة»، ويركب للقناة بعد تثقيفها نصل من الحديد (سنان) فى رأسها، ويزجج الرمح بعد ذلك بتركيب حديد الزج فى أسفله، وقد يكون الزج من النحاس[6]، وللمحافظة على مرونة القناة ولدونتها يوالى دهنها بالزيت، وثمة رمح شاع استعماله فى فترة الحروب الصليبية سمى بـ «القنطارية»[7]. وفى أحداث عام 575هـ / 1179م

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص140 –141.

(2) ابن سيده، المخصص، ج6، ص31، المطبعة الأميرية ببولاق، ابن سيده، ج5، ص28، 34.

(3) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص194، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص88.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص272، نعمان ثابت، الجندية فى الدولة العباسية، ط2، مطبعة أسعد 1956م، ص174، وهناك كتب عديدة قد صنفت فى كيفية استخدام الرمح، سواء أكان المقاتل من الفرسان أو من المشاة، انظر ابن هذيل الأندلسى، حلبة الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، القاهرة 1959م، ص205 –206، الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص162– 163.

(5) محمود أحمد سليمان، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص 330.

(6) محمود أحمد سليمان، المرجع السابق، ص 331.

(7) من اليونانية، جنس من الرماح يصنع من خشب الزان والشوح ليست بالطويلة اشتهر بصنعها بنو الأصفر ومن جانسهم من الروم وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطية وما جرى مجراها، لعله من المرجح أن القنطاريات كانت موجودة قبل هذه الفترة إلا أن استعمالها زاد فى هذا العصر، وقد كانت القنطاريات معروفة لدى الصليبيين.
لمزيد من التفاصيل انظر أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص460، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص183، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص47.

تحدث «الذهبى» قائلاً «نزل «صلاح الدين» على بانياس، وأغارت سراياه على الفرنج ثم أخبر بمجىء الفرنج فبادر فى الحال وكبسهم، فإذا هم فى ألف قنطارية وعشرة آلاف رجل»[1].

هذا وقد عرف المسلمون الرمح كسلاح محرق أيضًا، وذلك أنهم كانوا يجعلون فى سنانه كلابين من الحديد وحلقة تلف على السنان قطعة من اللباد مبلولة بمزيج من المواد المشتعلة، ثم تشعل النار فى اللباد ويرمى المزراق[2] فيحرق المكان الذى يقع فيه[3]، هذا وقد تحدث «الطرسوسى» عن أنواع من الرماح التى كانت متداولة أيام «صلاح الدين»[4]، فقال إن أحسن الطعنات هى بالرمح الأصم القصير[5] الذى يكون سنانه فى صورة البلطية (البلطة) فى التحديد والتدوير صغيرًا أصغر ما يكون[6].

وقد ظهر نوع من الرماح فى العصر الفاطمى كان يرمى بشدة كما يشد السهم بتوتيره بأن «تجعل فيه قطعة من وتر القطان للرمى إلى مسافة أبعد مما يرمى بها الرمح العادى[7]، وكان الوتر يثبت فى قفل، ولدى الاستعمال بفتحة الرامى، فيطلق ويخرج ذلك السهم بقوة شديدة»، وقد ذكر «الطرسوسى» رمحًا يطلق كما يطلق السهم وهو «الرمح الأجوف»، وهو معقد التركيب يختلف شكله وطريقة استعماله عن الرمح العادى فيؤخذ رمح يشق من وسطه إلى نصفيه، وتجوف القطعتان تجويفًا وتمسحان بآلة التجويف مسحًا جيدًا حتى لا تبقى فيه شظية تعيق السهم الذى يدخل فيه، وبعد هذا يطبق نصفا الرمح ببعضهما، «ويعقب الرمح من أوله إلى آخره بالعقب والغرا[8] ويدهن ثم يركب فى أسفل الشق مفتاح

(1) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج4، ص221.

(2) المزراق، هو عود من خشب مجوف، قيل إنه يستعمل لحرق الدروع، يجعل فى قصبته ماء مهلك، ويكون قصد الزراق وجه الخصم أو الدبابة، ذلك أن من صفة هذا الماء أن يذهب البصر، هذا ويمكن أن يكون المزراق من قنا يجعل بطول الرمح، وفيه سنان فيكون كهيئة الرمح لكنه مجوف وفيه الماء المهلك، لمزيد من التفاصيل انظر نبيل محمد، المجلة التاريخية، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث والعشرون 1976م، ص139.

(3) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص94.

(4) الطرسوسى، التبصرة، تحقيق كلود كاهين، ص10، 12.

(5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) الطرسوسى، المرجع السابق، ص10، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص272.

(7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص273 –274.

(8) الطرسوسى، التبصرة، ص10– 12.

يزر يكون أسفله قريب من مماسه داخل الرمح وزره مع بقيته بارز من الشق بروزا يتمكن الذى يجعله فى عقرب الوتر من إدخاله فيه، وينفذ فيه مسمار من جانبى الرمح ويكون بتقدم وتأخر، وتجعل أمامه العقرب وصوبه قطعة خشب منحوتة لطيفة، لها ثخانة، طرفها الذى يلى القوس بمقدار ما إذا جعل فيه القفل مسكة ومنعة من أن يترجع إلى أسفل، فينقلب الوتر منه الوتر الذى للقوس، وتجعل فى عنق هذا الزر الذى جعل فيه القوس صرصرة من وتر عملت كالحلقة، فإذا جذب الوتر أفلت القوس ووقع زر القفل بأصابعه عن العقرب فانخفضت العقرب إلى أسفل يجر الوتر وأنفلت الوتر، فاندفعت باندفاعه الضفدعة فى جوف الرمح فدفعت السهم فخرج من السنان بقوته»[1]، هذا وقد استعملت هذه الآلة وتطورت مع تطور الزمن فقد كان لابتكار أو لاختراع هذه الآلة شأنها الكبير فى وقتها، على حين أنه أغفل الكثير من المؤرخين بعضًا من هذه الأسلحة بل تكاد تكون معظمها لا تذكر هذا؛ لأن التفاصيل المختلفة فى الحرب لم تكن ضمن اهتمامات المؤرخين[2].

الفأس أو الطبر أو البلطة[3]

هو من الأسلحة الفردية[4] الهجومية المعدنية[5]، وهو يستخدم للقتال القريب[6]، وهو نوع من أنواع الفئوس[7] من أسلحة الضرب والتهشيم، يستعملونه فى المعارك الحربية عند

(1) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص275.

(3) الطبر أو الطبرزين، لفظة فارسية تعنى الفأس فهو آلة من السلاح تشبه الطبر أو هو الطبر بعينه، وهذا أصح لأن أصل معناه الطبر المعلق فى السرج، وتعرف فى التركية باسم بلطة، وقد شاع استخدام لفظ الطبر حتى إن حامل الطبر كان يلقب بالطبردار، أى ممسك أو حامل الطبر وكان رئيس الطبردارية يلقب بأمير طبر، وربما اقتصر مدلول لفظة فأس العربية على الآلة الحديدية التى لا تزال معروفة حتى الآن بالاسم نفسه وتستعمل فى الزراعة فى قطع الأرض أو حفرها، ويلاحظ أن حد النصل فى الفأس يتعارض مع اليد، أما نصل الطبر أو البلطة فيتوازى حده مع اليد، ولذا لا يستعمل الطبر فيما يستعمل فيه الفأس، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص37، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص141، ج5، ص462، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص111، يذكر محسن محمد حسين، أن هذه الآلة وهى البلطة تسمى «آلة الجماق» أو الجوماق وذكر تسميتها العامة فى العراق جاغ وفى مصر تسمى بلطة، لمزيد من التفاصيل انظر ابن الأثير، الكامل، ج9، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص266.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص76 -77.

(5) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص275.

(6) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص76 -77.

(7) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص80.

الاشتباك، والفأس آلة ذات يد (هراوة)[1] قصيرة ورأس حاد ويصنع رأسها من النحاس أو الحديد[2]، وهى على شكل هلال نصف دائرة وله مقبض من خشب أو حديد، ويضعها الفارس فى حلقة فى سرج فرسه[3]، وقد كان استعمالها قديمًا جدًّا ولكنها استعملت بكثرة فى العصور الوسطى، ولم يقتصر استخدامها على وقت الحرب فحسب وإنما كان الطبر فى وقت السلم من أكثر الأسلحة استخدامًا[4].

ومما هو جدير بالإضافة أن ثمة آلات أخرى شبيهة بالفأس أو تقوم بنفس مهمة الفأس مثل الخطاف[5] واللت[6]، استعملت هذه الآلة كثيرًا فى مصادمات ومعارك الجيش الأيوبى، هذا وقد ذكر «ابن الأثير» فى حديثه عن فتح قلعة برزية الحصينة الواقعة شرقى اللاذقية آلة البلطة (الجماق) التى رآها فى يد «صلاح الدين»، فعندما عظم الأمر واشتد على المسلمين «قام «صلاح الدين» فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان «تقى الدين عمر» ابن أخيه كذلك فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا، فلما رآهم «صلاح الدين» قد عادوا، تقدم إليهم وبيده جماق يردهم[7] فردهم»، وقد كان الفأس مستعملاً فى فترة الحروب الصليبية حتى وما قبلها، فقد ذكر المؤرخون أن «أسد الدين شيركوه» حين قرر الانسحاب من مصر بعد فشل حملته الأولى على مصر، فعمل على إخراج جنده من بلبيس، فى الوقت الذى وقف يراقبهم «وبيده لت من حديد وهو يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون إليه ويتعجبون منه»[8]، قيل فى موضع آخر إن بدء استخدام الطبر لأول مرة فى موقعة

(1) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(2) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص116، عبد الرءوف عون، الفن الحربى فى صدر الإسلام، ص155، قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص76 –77، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(3) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص225.

(4) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص275.

(5) الخطاف أو فأس القتال هو سلاح يشبه الطبر فى شكله واستعماله ولكن رأسه اقل استدارة وأصغر حجمًا من رأس الطبر، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص118، نعمان ثابت، الجندية والسلم، ص188.

(6) اللت هو العمود المتخذ من الحديد بأكمله والمزود فى أعلاه برأس مستطيلة مضرسة، انظر أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(7) جماق أو جوماق نوع من السلاح يشبه الدبوس عرفه (Dozy: supp. Dict. Arab) بأنه Une arme senblable a une massue أى أنه نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، هامش3 ص266، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص194، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص266، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص278.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص336، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص140.

المنصورة التى جرت بين المصريين والصليبيين سنة (647هـ/ 1249م – 648هـ/ 1250م)، وكان هذا السلاح يعلق فى سرج الفارس فى الحرب[1].

النبوت

من الأسلحة الفردية الخفيفة، والنبوت عصا غليظة الرأس، رقيقة من طرف وثقيلة من الطرف الآخر[2]، هذا بالإضافة إلى أن رأسها بها مسامير حادة لتصبح أكثر تأثيرًا، وهى أكثر استخدامًا لدى الفرسان[3]، وقال «القلقشندى» عنها إنها آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبوس[4] .

العمود

العمود من الأسلحة الفردية الخفيفة، فهو يشبه النبوت إلا أنه يصنع من الحديد وحده، وقيل إنه سمى بـ «اللت»[5]، وقيل إنه يسمى بـ «الدبوس» أيضًا[6]، وهو آلة من حديد ذات أضلاع انتفع بها فى قتال لابس البيضة[7]، على الرغم من أن العمود اتخذ اسمًا للدبوس إلا أن هناك فوارق كثيرة بينهما، فالعمود لا يكون إلا قطعة واحدة على شكل قضيب من الحديد برأس ضخم ومضلع، وأما الدبوس فيمكن أن تكون خرزته فقط من الحديد ونصابه من الخشب والصلب المحكم التقدير والتدوير، ويمكن أن تشكل الخرزة قطعة مستقلة عن النصاب، ولكنها تتعلق به بواسطة جنزير طوله شبران أو ثلاثة[8].

وذكر «الطرسوسى» قائلاً «العمود لا يكون إلا من الحديد[9]، والنكاية به أقوى من نكاية الدبوس وما شاكله من الآلات الموضوعة التحديد»، ويعدد «الطرسوسى» أصنافًا من هذه

(1) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص117.
(2) إحسان هندى، المرجع السابق، ص115.
(3) إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142.
4 R.Dozy, Supplement aux Dictionaires Arabes, liban, Beyrouth, 1968, 2vols, p523
(5) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص114.
(6) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142.
(7) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص115.
(8) نبيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح، المجلة التاريخية، ص141، عبد الرءوف عون، الفن العربى، ص154.

الآلة، تختلف من حيث شكل الرأس واللون وتحديد الأضراس، وشكل الخرزة وطرق صنعها وتلبيسها بمواد صلبة قاتلة مثل الماس وغيرها[1].

المقاليع[2]

هى من الأسلحة الهجومية[3]، وهو من أقدم أسلحة الرشق[4]، فبعد أن كان الإنسان يرمى الحجارة بيده، رأى بالتجربة والمران أن زيادة حركة الذراع تزيد من قوة الدفع فى الحجر إلى مسافات بعيدة، فكان أن اخترع المقلاع[5]، والمقلاع عبارة عن كفة من الجلد أو القماش بشكل بيضوى[6] أو مستدير، لها حبلان إذ كانت بيضاوية أو ثلاثة إذا كانت مستديرة، وطول كل من هذه الحبال 50–60 سم وهى مربوطة بالكفة من جهة ومرسلة من الجهة الثانية، ويحوى أحدها عروة لإدخال إصبع الرامى فيها، أما طريقة الرمى بها فهى أن توضع قطعة حجر مناسب فى الكفة، ثم يقوم الرامى بتدوير المقلاع فوق رأسه وهو يمسك بأطراف حبالها، وبعد دورتان أو ثلاث يفلت أحد هذه الحبال لتنطلق قطعة الحجر فى الاتجاه المطلوب[7] أو الهدف[8]، ويبقى المقلاع بيده ليكرر العملية مرة أخرى[9]، وعلى الرغم من أن مراجع العصر الأيوبى لم تشر إلى استعمال المقلاع أيام «صلاح الدين» إلا أنه من المحتمل أنه كان يستعمل بصفته سلاحا للرشق الفردى[10]، وعند فتح السلطان «صلاح الدين» لحصن برزية سنة (584هـ/ 1188م) ذكر «العماد الأصفهانى»: «فقد بعد مرام مرماها، وحارت الأوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها، وتحاجزت عنها الحجارة فلها من إجازتها بها الإجازة، فما بلغت إلى القلعة قلائعها...»[11].

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص15.
(2) المقلاع هو أبسط أنواع الآلات القاذفة ولذلك يمكن إلحاقها بالقسى، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص91.
(3) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص119، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص91.
(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص290.
(5) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(6) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص 119.
(7) إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(8) أمين الخوالى، الجندية والسلم، ص28.
(9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص290.
(10) محسن حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(11) القلائع الحجر والمدر يقتلع من الأرض فيرمى به، انظر العماد الأصفهانى، الفتح القسى، هامش2، ص248.

الدبوس

كان الدبوس أحد أسلحة الهجوم[1]، وهو من الأسلحة الفردية الخفيفة[2]. فالدبوس يكون رأسه من الحديد أو الصلب[3] ونصابه[4] من الخشب المحكم الدقيق من التقدير والتدوير[5]، وهناك من يطلق على العمود والدبوس اسمًا واحدًا أو يعتبرها آلة واحدة، ويمكن أن تكون الآلة كانت تسمى «العمود»[6] ثم أطلق عليها اسم «الدبوس»[7]، هذا بالإضافة إلى أن العمود والدبوس كانا يستعملان لتهشيم رأس العدو[8] وتهشيم الخوذة المعدنية[9]، ولذلك تسمى بـ«المقمعة»[10]، وقد كان الفرسان في المعركة يستخدمونها بعد الحرب بالسيوف والرماح[11]؛ لأنها كانت شديدة النكاية بالعدو[12].

أضف إلى ذلك أنها ذات تأثير فعال بالنسبة له، وقد عدد «الطرسوسي» أصنافًا من هذه الآلة تختلف من حيث شكل الرأس واللون وتحديد الأضراس وشكل الحرزة، وطرق صنعها وتلبيسها بمواد صلبة قاتلة مثل الماس وغيرها[13].

وظيفة الدبوس

استخدم الدبوس في العصر الأيوبي وكان أحد أسلحة «صلاح الدين» الشخصية[14]،

(1) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص88 .
(2) محسن حسين، المرجع السابق، ص277.
(3) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص289، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص224، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، القاهرة سنة 1945م، ص80 .
(4) محسن حسين، المرجع السابق، ص277، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.
(5) الطرسوسي، التبصرة، ص15-16، إحسان هندي، المرجع السابق، ص114.
(6) محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص144.
(7) نعمان ثابت، الجندية في الدولة العباسية، ص189، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص26.
(8) المقريزي، السلوك، ج2، ص324، حاشية رقم 1.
(9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص142، إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص114، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص244، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص26، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص88، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص143 – 144.
(10) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص26.
(11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص277.
(12) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص114.
(13) الطرسوسي، التبصرة، ص19، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص277، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.
(14) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص8.

فاستخدم الدبوس بأشكاله المتعددة المجنحة والكروية والمضلعة الرأس، وكان للدبوس فاعليته فى ضرب جسم العدو ودابته، وكان على المحارب أن يضرب به شذرًا أى عن يمين وشمال، وكان للدبوس وظيفته فى تحطيم أسلحة العدو الحديدية كالترس والدرع والخوذة ...إلخ، وكانت نصيحة «ابن منكلى» للمحاربين بأن يتصدوا للفرنج بضربة فوق رءوسهم بالدبابيس وليس بالسيوف[1]، هذا بالإضافة إلى أن هذه الآلة كانت تستعمل فى حالة المواجهة المباشرة مع العدو فى معظم المعارك الحربية، حيث إنه حينما كان يقابل الجيش الأيوبى الجيش الصليبى، كان جيش المسلمين يثخن فيهم الضرب باللتوت والدبابيس والنشاب والرماح[2].

الأسلحة الرشقية

القنبرة أو القنبلة[3]

هى قارورة ذات شكل خاص كانت تحشى بالنفط والصبر وبزر القرطم المقشور وغير ذلك من المواد، وتجعل لها قنبلة ليشعلها الضارب ويرميها باتجاه العدو، فتحرق بنارها ما تقع عليه أو تنفجر، وكان يقال للقذائف التى كانت ترمى بواسطة المنجنيق قنابر[4].

والقنابر أنواع عدة من قنابل النحاس، وقنابل الحجر وتتخذ من حجر مستدير ويجعل فيه خزائن تملأ بلزاق من نفط ومصطقى وغيرهما[5]، وقنابل الزجاج وتملأ من دهن يتركب من نفط مصعد وكبريت وكندس... وغيرها ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فتلطخ المكان الذى تقع فيه، ويؤتى بعد ذلك حجر عليه نفط مطبوخ تشعل فيه النار ويرمى حيث وقعت القوارير فيلتهب المكان.

وقنابل اليد التى تحشى بالنفط والصبر وبزر القرطم المقشور وغيرة وتجعل لها فتيلة

(1) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص303- 304.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص244، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص277.

(3) أصلها كلمة تركية قانوبور، نقلها العرب عنهم ونطقوها قنبر ثم قنبرة، كانت تطلق على حشوة المدفع ثم توسعوا بها وأطلقوها على كرته الحديدية، ودونت قنبرة وقنبلة فى معاجم اللغتين العربية والتركية، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص115.

(4) إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص45 -46.

فيشعلها الضارب ثم يرمى بها فيكسرها، والقنابل المضيئة، والقنابل الخانقة المملوءة بالكلس المطفى فيتصاعد غباره إلى أنوف الجند وعيونهم فيعجزون عن القتال[1].

الجلاهقات، جمع جلاهق

وهى عبارة عن كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص، وتسمى أيضًا بـ«البندق»، وكان لرميها شأن كبير فى العصور الإسلامية الوسطى[2].

القوس[3]

وهو من أسلحة الرشق الفردية الهجومية[4] الشهيرة والشائعة عند العرب قبل الإسلام[5]، وقد استعمل القوس فى حالات السلم والحرب[6] وفى حالات صيد الحيوانات[7]، وهو من أبرز أسلحه الرمى طوال قرون عديدة[8]، هذا بالإضافة إلى أنه السلاح الوحيد للرمى إلى مسافات بعيدة[9].

وقد ذكر صاحب الروضتين، ومفرج الكروب أن الأتراك كانوا رماة جيدين ماهرين وكان الفرنج الطامعون لا يرعبون ولا يخافون إلا منهم[10]، وقد ذُكر أن السهم والنبل

(1) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص172، هامش 2.

(3) القوس جمع أقواس وقسى، والقوس مؤنثة وتصغيرها قويس وجمعها أقوس وأقواس وقياس وقسى، لمزيد من التفاصيل عن نعوت القوس انظر ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص68، ابن سيده، المخصص، ج6، ص 37 -45، النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص222، القوس هى أعواد من الخشب اللين المتين، تقوس كالهلال وتثبت عليها أوتار من الجلد ترمى بها السهام، وكان للعرب بالقوس مهارة عظمى، لحدة إبصارهم نتيجة لسكنى البادية ولأنهم أحوج إليها من سائر الأسلحة، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص98، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ص192 -193.

(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص90 -91.

(5) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(6) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص128.

(7) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص73، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص90.

(8) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص279.

(9) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية بمدينة رشيد فى العصر المملوكى حتى عصر محمد على، القاهرة، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة 1991م، ص76، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص460، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص183.

والنشاب أسماء لشىء واحد[1]، وكان القوس يصنع من شجر جبلى صلب، عادة شجر المران، وكان ينبت فى دمشق على السفوح الغربية لجبل قاسيون، وإليه ينسب دير مران فى أعلى الجبل المذكور غربيه، فهو يصنع من قضيب من الخيزران أو الخشب أو القرون أو المعدن على شكل نصف دائرة ترمى بها السهام[2].

أجزاء القوس وتركيبها

أجزاء القوس هى القوس والوتر والسهم.

القوس: عند العرب هى الحنية من العود مغلقًا أو مفتوحًا[3].

الوتر: وهو الخيط الذى يصل بين نهايتى القوس، وكان يصنع من خيوط مفتولة أو من سير رفيع من جلد الحيوانات وخاصة حيوان الإبل، ثم صار يتخذ من عصب عنق البعير أيضًا، والوتر يفسد إذا تعرض لحرارة الشمس أو ماء المطر، ولذا كانوا يحفظونه فى كيس خاص يوضع فى الكنانة الخاصة بالسهام ولا يخرج إلا عند الرمى[4].

السهم[5]: وهو القسم الذى ينطلق باتجاه الهدف بينما يبقى القسمان الباقيان السابق ذكرهما فى يد الرامى، والسهم عبارة عن عود رفيع من شجر صلب فى طول الذراع تقريبًا يأخذه الفارس ينحته ويسويه ثم يفرض فيه فروضا دائرية ليركِب فى قمته نصلا من حديد مدبب[6]، هذا وقد ذكر «القلقشندى» أن موضع إمساك الرامى من القوس يسمى «المقبض»، ومجرى السهم فوق قبضة الرامى يسمى «كبد القوس»، وما يعطف من القوس يسمى «سن القوس»، وما فوق المقبض من القوس، وهو ما على يمين

(1) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص137.

(2) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص73.

(3) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، ص177، إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص98.

(4) عبد العزيز صلاح سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص47.

(5) السهم من آلات الرمى بالقوس وكانت تصنع من النبع والشوحط، وهو مستدير أو مصفح إذا كان عريضًا وله أنواع شتى، وتسمى أوعية السهام جعبة وجعبها جعباب (جعاب) جفير وهو أوسع من الكنانة، وتكون الجعبة تارة من جلد وتارة من خشب، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142، النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص235، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص90 -91، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص136.

(6) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور وتاريخها، القاهرة 1998م، ص177.

الرامى يسمى «رأس القوس»، وما أسفله وهو ما على يسار الرمى يسمى «رجل القوس»[1].

تركيب القوس

قيل عن تركيب القوس إنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع وهى العظم ونظيره فى القوس الخشب، واللحم ونظيره فى القوس القرون، والعروق والعصب ونظيرها فى القوس العقب، والدم ونظيره فى القوس الغراء[2]، هذا وقد أخذت القسى تتطور شيئًا فشيئًا، وتصنع بأشكال مختلفة، ونرى أن التطورات التى أدخلت على صناعتها بلغت مستوى عال جدًا لم تبلغها صناعه أى سلاح من الأسلحة الفردية الأخرى[3]، على أن أساس فكرتها ظلت كما كانت، ولقد كان السبب الأساسى فى صناعة وتطور القسى خاصة والأسلحة الإسلامية عامة هو الحروب الصليبية، فنحن نرى أن معظم أنواع القسى قد استعملت فى عصر الحروب الصليبية، لا سيما فى عصر «صلاح الدين الأيوبى»[4]، والدليل على استعمال هذه الأسلحة فى عهد «صلاح الدين» هو أن «الطرسوسى» المعاصر للسلطان «صلاح الدين» كان قد ذكر صنعها بالتفصيل .

وقد ذكر «الحسن بن عبد الله» أن أجود أنواع القسى ما كثر فوقها وقل خشبها وصح لجامها واشتد جفافها وثقل وزنها وقوى حبلها[5].

وذكر «العماد الأصفهانى» عند فتح السلطان «صلاح الدين» حصن صهيون 584هـ / 1188م، فقال عن السهم «توفرت سهام السهام من المقل»[6].

ثانيًا: الأسلحة الجماعية وفنون استخدامها: القسى الجماعية الثقيلة

أنواع القسى الإسلامية

قسى الزيار

هى من الأسلحة الجماعية، وقوس الزيار عبارة عن آلة ثقيلة تعمل على مبدأ القوة الدافعة

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص223.
(2) النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص229 –230، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص137.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص279.
(4) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(5) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص160.
(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص241.

كالقسى الأخرى[1]، أى قوة شد الوتر الضخم ثم تركه يعود إلى حالته الطبيعية قاذفًا ما يحمله إلى بُعد يتناسب مع قوة الشد أى مع تزيير الوتر (اعوجاج الوتر)[2]، ولهذا سمى بـ «قوس الزيار»، وكانت ترمى سهما هائل الحجم يتراوح طوله بين 60 و180 سم، ووزنه 2 -3 كجم، ويصف «الطرسوسى» هذا النوع من القسى بأنها أشد رميًا وأعظمها جرمًا وأنكأها سهمًا، ويحتاج إيتارها إلى عدد من الرجال وتنصب على الأبراج وما شاكلها ولا يستطيع أحد أن يقف لها[3]، وبعد وفاة «صلاح الدين الأيوبى» اقتبس الصليبيون هذا السلاح من المسلمين ونقلوه معهم إلى بلادهم، واستعملوه فى حروبهم فى منتصف القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى (637هـ/ 1239م)[4]، وكانوا قد أطلقوا عليه اسمًا شبيهًا بالاسم العربى هو «منجنيق السهام»[5].

وقد اعتبرت قوس الزيار أقوى أنواع القسى؛ لأنها قد بلغت من القوة بحيث بلغ «مقدار حيلها جر عشرين رجلاً يجرها بحيلة رجل واحد، ويرمى عنها أشد رماية وأنكأها ويأرتب حالة وأهنأها فيبلغ منها غاية الأرب وينتهى إلى نهاية الطلب»[6].

طريقة صنع قسى الزيار

إن صنع الزيار يكون بعمل قوس من صفحتين من خشب السنديان، طول كل صفحة منهما ستة أذرع وعرضها الأكثر شبر ونصف والأوسط شبر واحد والأصغر نصف شبر،

(1) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص123.
(2) إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) الطرسوسى، التبصرة، ص16.
(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص124.
(5) هو قوس آلى ميكانيكى معقد للإيتار والإطلاق، وهذا الجهاز عبارة عن قائمة طولانية، تركب عليها عارضة خشبية هائلة لها مسننات كبيرة وفوق هذه العارضة توجد عارضة أصغر منها ذات مسننات متعددة أيضًا، وفى أسفلها نتوء معدنى على شكل قفل يشبك به الوتر، ويمكن بهذه الطريقة جذب وتر القوس إلى الوراء حسب الطلب ووفق المدى المراد إطلاق السهم إليه، ويوضع السهم فى شق طولاى على امتداد العارضة الخشبية فيما يلى ذروة الوتر المشدود، فإذا أعطيت الإشارة بإطلاق السهم جذب الرامى المسمار الذى يثبت الوتر فينطلق السهم بقوة عظيمة إلى هدفه، وأهم التحسينات التى طرأت على منجنيق السهام هى اختصار حجمه وجعله صغيرًا، وهذا السلاح الجديد سمى باسم «قوس العقار»، لمزيد من التفاصيل انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص121، 124 – 126، انظر أيضًا محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص76.
(6) الطرسوسى، التبصرة، ص6.

ويكون رأس هذه الصفحة مقدار قيراطين[1]، وتبطن هاتان الصفحتان بالقرن والغراء فى زمن الخريف وتحزم كما تحزم القسى، ويترك إلى أن يستوفى وقتها، وبعد التأكد من أن القرن قد التصق بالخشب التصاقًا يؤمن عليه من الانقلاع، يحس الخشب وتزال فواصله ويطلى بالغراء ويترك ليبرد، وبعد ذلك يثقف بالمبرد، ويترك إلى أن تزول خشونتها ويستوى هندامها، ثم يدهن ويزوق[2]، يضيف «الطرسوسى» قوله «ثم يصنع وتران من الخشب السنديان لاصقان به أو مثبتان معه وينسبح على الضلع الأعلى والأسفل على مقدار الثلثين من الضلع الأوسط زيار معمول من شعر وإبريسم كل حبل فيها من غلظ إصبع الخنصر... فإذا كمل نسيج الزيار يدار بأوتاد الخشب... ثم تنـزع تلك الأوتاد وتجعل فيها صفحتى للقوس المذكورة»[3].

يذكر «العماد الكاتب» أن قسى الزيار كانت مستعملة فى عهد «صلاح الدين»، حيث يذكر أنه بعد فتح القدس عاد الملك «العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين» إلى مصر تاركا «خزانة سلاحه بالقدس كلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال وذخائر وافية وعددا وافية... وفيها آلات وزيارات»[4]، وذكر «ابن الأثير» و«ابن واصل» أن «صلاح الدين» حينما فتح حصن صهيون المنيع، وهو من أعمال حمص، حاصره «صلاح الدين» حصارًا شديدًا، «وكان معه من الرجال الجبليين كثير، وهم فى الشجاعة بالمنـزلة الشهيرة ودام رشق السهام، من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار»[5].

قسى الجروخ[6]

الجرخ آلة حربية شبية بالمنجنيق؛ لأنها ترمى السهام والنفط والحجارة[7]، ولكنها أخف

(1) القيراط، مقدار عرض الإصبع.
(2) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 78ب، نقلا عن محسن حسين، الجيش الأيوبى، ص281.
(3) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 80أ، نقلا عن محسن حسين، الجيش الأيوبى، ص282.
(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص144.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، حوادث سنة 584هـ، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص262.
(6) الجرخ، كلمة مأخوذة عن الفارسية تشرخ (Tcharkh) والجمع جروخ، وهى من أدوات الحرب ومعناها الفلك وتطلق على جميع الآلات التى تدور كالدولاب والبكرة وغيرهما ومنها جرخ بالتركية والكردية، السيد أدى شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، ص39، ميرفت محمد سالم، حصن الأكراد، ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة 1992م، ص87، نبيل محمد عبد العزيز، المجلة التاريخية، ص140.
(7) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص380، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص76، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص283، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص19، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، هامش 7، ص104.

منه[1]، هذا إلى جانب أنها كانت تصنع من القرن، وقد كانت تستعمل من داخل السور للدفاع عن قلاع المدينة المحاصرة، وقد ذكرت عند المؤرخين فقال «العماد الأصفهانى»: «الدبابات نظير من أوكارها عقبان الجروخ».

وفى كتاب الكامل لـ «ابن الأثير»: «الرماة الجرخية من الفرنج، وفى نهاية الأرب لـ «النويرى»: «رتب الفرنج فيه ألفًا وخمسين جرخيًّا»[2]، ومنها اشتقت كلمة جرخى "ERARBLIST".

وقد كان الصليبيون أكثر استخدامًا لهذا القوس لغرض الدفاع عن أنفسهم؛ لأن المسلمين هم الذين كانوا يفرضون الحصار على المدن والقلاع التى كان الصليبيون يحتلونها، باستثناء إنطاكية وطرابلس[3].

ومن المرجح أن يكون الصليبيون استعملوا قسى الجرخ[4]، وهم محاصرون داخل أسوار هذه المدن، ومن الجدير بالملاحظة أنها كانت تستخدم فى حالة الدفاع فقط ولم تستعمل فى حالة الهجوم[5].

وقد عرف المسلمون هذه القسى فى أيام الحروب الصليبية، عندما استخدمها الفرنج فى تصادمهم مع المسلمين؛ لأنها كانت معروفة عندهم قبل معرفة المسلمين بها، هذا بالإضافة إلى أن كلا من الصليبيين والمسلمين استعملوها فى الدفاع عن المدن.

وقد ذكر «ابن شداد» أن «صلاح الدين» حينما حاصر المدن الساحلية سواء بيروت[6] أو أنطرسوس التى دافعت عنها القوات الصليبية من الداخل «بجروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد»[7]، وعند حصار كوكب وفتحها عام 584هـ/ 1188م، ذكر «العماد الأصفهانى»:

---

(1) إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص127، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص16.

(2) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص19.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص283.

(4) هناك نوع من قسى الجروخ مستعملة فى مراكب البحر تصنع من الخشب؛ لأن هواء البحر يفسد القرن ويتلفه، هذا بالإضافة إلى أن الرامى كان لا بد أن يكون متقنًا وحاذقًا عند رمى هذه القسى، وقيل إن الفرنج يعانون قسى الجرخ وهى أكثر نفعًا من داخل السور، انظر الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص160.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص283.

(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص104.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص88.

«فقاتلوا أشد قتال، ونازلوا أحد نزال، وفوقوا الجروخ المصمية، وصوبوا الصخور المردية»[1]، وحينما تعرضت عكا لهجوم الصليبيين الذى أدى إلى وقوع جزء من سورها استعملوا الجروخ والمناجيق من داخل المدينة لحمايتها والحيلولة دون دخول الصليبيين إليها[2]، وفى حوادث (586هـ / 1190م) ذكر كل من «ابن شداد» و«أبى شامة»: «زحف العدو على عكا فى خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلين الذين فيه، وذوى الآراء المثقفة من مقدمى المسلمين فيه، حتى نشبت مخالب أطماعهم فى البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة، حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور، وتحصن منهم فى الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروخ وأحجار المناجيق وأقواس الرمى والنيران، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد، واستطاع الجيش الأيوبى من إلحاق الهزيمة بالعدو»[3].

الزنبورك[4]

نوع سميك من أنواع السهام[5]، فقد ورد عن «دوزى» DOZY نصًا يؤيد فيه كون الزنبورك نوعًا من السهام، إذ قال «الزنبورك سهم من سمك الإبهام[6] وفى طول الذراع وله أربعة أوجه (ذو أجنحة)[7]وطرفه من الحديد وهو مريش ليكون انطلاقه أكثر ثباتًا، وحيثما سقط فإنه مؤكد الإصابة، وقد يخترق فى رمية واحدة جسمى رجلين وقف أحدهما خلف الآخر، واخترق فى نفس الوقت درع الجندى وملابسه، ثم نفذ بعد ذلك واستقر فى الأرض، وقد يصيب كذلك أحجار الأسوار»[8]، ويضيف «دوزى» قائلاً

(1) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص273.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص283.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص163، ابن شداد، النوادر، ص142.

(4) الجمع زنبوركات وهو نوع من القسى التى ترمى عنها السهام وقد يعنى نوعًا من السهام ذاتها، انظر ميرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد، هامش 1، ص87.

(5) النويرى، نهاية الأرب، ج28، هامش 2، ص406.

(6) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص76.

(7) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص198 –199.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، هامش1، ص244، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص284، انظر أيضًا: نقلاً عن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص 284، Dozy, Supplement aux Dict, vol. 1, p605.

إن اللفظ قد يعنى «الزنبورك الصغير»[1]، وعلى حد قول «ابن الأثير» إن الزنبورك يرد ذكره بصفته أحد أنواع القسى وليس أحد أنواع السهام فى قوله «ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار، فخرج أكثر من بالحصن»[2]، فذكر الزنبورك بين الجرخ والزيار ـ وهما نوعان من القسى، لدليل على أنها أحد أنواع القسى وليس أحد أنواع السهام[3]، وذكر صاحب كتاب آثار الأول «أن الروم كانوا أهل صنائع وحرف وحكم، وفيهم صبر وخدمة، ولهم حيل فى السياسات ووضع آلات حربية، وحظهم فى الفروسية قليل ولهم ضرب بالسيف ورمى بالجرخ والزنبورك»[4]، بالإضافة إلى أن «أبا شامة» ذكر «الجروخ والزنبورك جنبًا إلى جنب»[5]، فى حين أن رواية «العماد الأصفهانى»، تربط بين «الزنبوركات والناوكات»[6]، هناك نوع آخر من الأقواس يسمى «القوس الإفرنجية»، وهى تتألف من عمود وقضيب وجوزة ومفتاح، ويقول إن العمود يسمى «المجرى»، وإنما سمى بذلك لجرى السهام، وكان مفتاحًا طالعًا من جهة الجوزة يرمى سهاما عديدة مشتملة[7]، وكانت هذه القوس تطلق السهام لمسافة بعيدة وبدقة متناهية مما يجعلها تشبه البندقية إلى حد ما[8]، والظاهر أن اختراع المجراة (الماسورة) كان البداية لاختراع القصبة (السبطانة) فى الأسلحة النارية، كما أن الأنواع التى صنعت فى أواخر القرون الوسطى من هذه القسى تشبه إلى حد بعيد «الغدارات النارية»[9].

(1) سمى كذلك للشبه بين الصوت الذى تحدثه تلك الحشرة وبين الصوت الذى يحدثه وتر القوس عند انطلاق السهم، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص285.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، حوادث سنة 584هـ.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص285.

(4) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص119.

(6) الناوكات، جمع ناوك وهو لفظ فارسى الأصل معناه السهم الصغير، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص163، هامش3، نقلا عن د/ مرسى محمد هنداوى، معجم الألفاظ الفارسية، ص321، ابن واصل، ج2، هامش1، ص244، أى أنهما ضربان من السهام، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص285.

(7) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص77، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص285.

(8) انظر: Oman (c . w), A history of the art of war in the Middl ages, new York, vol1, p330،

(9) الغدارات النارية أو ما يسمى Arab list الذى هو القوس المقذوف، فهو سلاح من أسلحة القرون الوسطى، كانوا يستخدمونه لقذف السهام والكرات والحجارة، هذا بالإضافة إلى أن الغدارات النارية هى تطوير لفكرة

هذا بالإضافة إلى ما شرحه «الطرسوسى» عن وجود قوس سماه «صفة المجراة»، وهو عبارة عن قوس ذى أنبوبة أو إن صح التعبير أنبوبية القوام، وتكون باتخاذ «مجراة آلية الوتر»، وبقفل معدنى من الحديد أو النحاس، يوضع فيه مسمار يتحرك صعودًا ونزولاً، فيغلق القفل بالمسمار «المفتاح» وإذا نزع عنه «ترك القفل إلى أسفل فينقلب الوتر ويدفع السهم فيخرج... وأيسر جذب ينـزعه من الكلاب وإن طال عن أن يصل إليه جعل فى طرفه ميقات (حبل) يجذب به عند الحاجة إلى إفلات السهم، ويثقب عرضًا ويجعل فيه ميلاً من حديد يثبت فى غلـظ الرمـح ونصـله، ويجعـل السهـم على المجراة فى الموضع الذى يفرض له فيها مقابل الوتر»[1].

وكما هو متوقع بل إنه من المؤكد أن التطور التقنى الذى حدث فى صناعة الأسلحة قد بلغ مرحلة متقدمة فى العصر الأيوبى، ولا أدل على ذلك من وجود هذه المجموعة من آلات إطلاق السهام التى كانت تطويرًا لفكرة الأقواس، إلا أن القوة المحركة الدافعة لهذا السلاح ظلت تعتمد على الطاقة البشرية من شد الوتر وتوتيره وتوجيهه وإطلاقه[2]، ومنها كما سبق ذكره صفة المجراة، والقوس الإفرنجية.

قسى الرجل

يكون توتير هذا النوع من القوس بدفع رجلى الإنسان مع جذب ظهره[3]؛ لأن جرها يحوج الإنسان أن يجعل فى وسطه حزامًا من الجلد البقرى الجيد الدباغ[4]، وفى طرفيه كلابان من الحديد بجعل وتر القوس فيهما، ويجعل الإنسان الرامى رجلين فى بطن القوس جاذبًا بظهره الحزام الذى فيه الكلابان إلى أن يحصل الوتر فى القفل الذى فى المجراة[5]، وينـزل

القوس الأنبوبية بعد اكتشاف البارود، وهذا السلاح عرفه الصليبيون واستعملوه فى معاركهم ضد المسلمين، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية، ص105.

Oman (c . w), op. cit, p330.

انظر أيضًا محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، هامش 3، ص286 -287.

(1) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 81ب، نقلاً عن محسن حسين، الجيش الأيوبى، ص287.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص285 -286.

(3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص77، نبيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح، المجلة التاريخية، ص139، الطرسوسى، التبصرة، ص8.

(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص106، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص201.

(5) الطرسوسى، التبصرة، ص8.

المفتاح عن القفل إلى بطن المجراة فيدور القفل؛ لأنه كالبكرة اللطيفة فى محور حديد مسمر فى جانبى فتح المجراة، فإذا أدار المفتاح عنه دارت البكرة وانفلت الوتر فيدفع النبلة فيخرج بحدة[1].

قسي الحسبان

قال عنها «الطرسوسى» إنها قوس عربية، تطلق سهامًا سريعة وصغيرة، وهى لهذا شبهت سهامها بالجراد[2]، وسرعتها متأنية من أنبوب القوس يسع مجموعة من السهام الصغيرة لا يقل عددها عن خمسة «فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر فى دفعة واحدة فشبهت هذه السهام بالجراد، وسميت القوس قوس الحسبان»[3]، ولم يكن لهذا النوع من القسى قفل أو جوزة، فقد كانت هذه القوس من القسى المفضلة عند الجيش الأيوبى، نظرًا لأنها سريعة الرشق، إلى جانب إطلاقها لعدد من السهام الواحدة تلو الأخرى من قبل رجل واحد فقط، لا يجاوز حجم الواحد منها حجم الإصبع الواحد[4]، ولعل سهام هذه القوس الصغيرة هى المنيعة بالناوكات التى يرد ذكرها فى مصادر هذه الفترة[5]، والتى تعنى بالفارسية «السهام الصغيرة»، ويسمى «ابن منكلى» هذه القوس بقوس «البنجكان» التى تعنى بخمسة أسهم «وهو الرمى الذى ليس وراءه رمى... وهو جيد للرمى على العدو فوق الأسوار»، «ويضيف «ابن منكلى» أن هذه القوس كانت موجودة منذ عهد قديم»[6].

قسى متعددة الاتجاه

هذه القوس لم تكن قوسًا واحدة، بل أربع قسى جرخ فى برج واحد له أربعة اتجاهات أو

(1) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص77.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص8 –9.

(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص107.

(5) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص163، يذكر الطبرى هذه الأقواس ضمن حوادث سنة 251هـ / 861م، فيقول «وأقبلت الرماة من بغداد بالناوكية فى الزواريق ربما انتظم السهم الواحدة عدة منهم فقتلهم».

(6) ابن منكلى، التدبيرات السلطانية، مخطوط مصور فى المجمع العلمى العراقى، ورقة 62، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص287 –288.

خمسة أو ستة أو أكثر حسب ما يصنعه الصانع، تنصب فى كل جهة قوس ولكل منها مجراة فيها ثلاثة سهام وأربعة، أى أن الأقواس الأربعة كانت من نوع قسى الحسبان أو «البنجكان» التى ترمى الناوكات، وحين يفتح الرامى القوس تنطلق منه مجموعة السهام بالاتجاهات الأربعة، وإذا كان البرج سداسيًا وضعت عليه ستة أقواس تطلق أربعة وعشرين سهمًا، هكذا تتضاعف السهام بتضاعف اتجاه البرج[1]، فيظن المقاتل أن فى البرج عدة رجال يرمون النشاب[2].

قسى قاذفة النفط

من خلال التطور الهائل للقسى وطريقة استخدامها فلم تعد القسى تقتصر على رامى السهام فقط، بل تطورت مهمتها إلى رمى النفط كذلك[3]، والقوس التى تقوم بهذا العمل شبيهة بقوس الرجل ولها مجراة مكملة بقفلها وجوزتها، وترتبط بها كفة نصف كروية على مثال نصف جوزة هندية، وتجوف تجويفًا تسع القارورة[4] التى يوضع فيها النفط وباستعمالها ترمى النفط المشتعل على العدو، وعلى حد قول «الطرسوسى»: «وتكسر ما تلاقيها من الأجسام وتحرق ما تماسه؛ لأن القارورة تخرج منها كالسهم بقوة قذفها»[5]، وقد كان للسهم دور مهم آخر كأداة من أدوات التخاطب لا سيما فى رمى الرسائل إلى المحاصرين داخل سور الحصن، فقد كانت هذه الرسائل تنشر الذعر والخوف بين سكان المدينة ومحاربيها، سواء كتب على السهم مباشرة أو من خلال ورقه مشدودة به[6]، وهذه الأخبار كانت كاذبة يخدعون بها العدو ليؤثروا على روحهم المعنوية وجعلهم يميلون إلى التسليم ثم ترمى إليهم، وقد يكون من فى الحصن يرغبون فى التسليم، فيكتبون طلبهم ثم يرمون به فى سهم إلى من فى الخارج[7].

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص10.
(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص288 -289.
(3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص78.
(4) الطرسوسى، التبصرة، ص10.
(5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، هذا يعنى أنهم كانوا يستعملون القوارير المملوءة بالنفط لقذفها على العدو، وهذه القوارير شبيهة بالقنبلة النفطية، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، هامش 3، ص289.
(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص289.
(7) عبد الرءوف عون، الفن الحربى فى صدر الإسلام، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة 1961م، ص141.

المنجنيق[1]

من أهـم أسلحـة القـتال الجماعـية، قـال عنـها صاحب آثار الأول «أعظم الآلات نكاية، وأشدها[2] فتكًا»[3]، وأبسط أشكال المنجنيق عـبارة عن قاعدة من الخشب[4] مربعة أو مستطيلة يرتفع فى وسطها عمود خشبى قوى، ثم تركـب فـى أعـلاه ذراع تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل وفى أحد طرفيها وعاء نصف كروى يتناسب حجمـه مـع هيكـل المنجنـيق توضع فيه المقذوفات مـن حجارة أو حديد أو أوعية النفط[5] وقدور فخارية أو زجاجية تملأ

(1) هو اسم أعجمى، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان فى كلمة عربية ويجمع على مجانيق ومناجيق، أصله من جه نيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى، قال ابن خلكان تفسيره من وتفسير جى إيش، وتفسير نيك جيد وكلمة منجك معناها الارتفاع إلى فوق، انظر القلقشندى، ج2، ص143 -144، د/ صلاح حسين، منجنيق من الحضر، مجلة سومر، تصدرها مديرية الآثار العامة، الجزء الأول والثانى، المجلد الثانى والثلاثون 1976م، ص122، المعرب للجواليقى، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة (1361هـ / 1966م)، ص305 -307، انظر أيضًا، أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، دراسة وتحقيق إحسان هندى، دمشق 1404هـ / 1984م، ص11، هو أيضًا آلة قاذفة ترمى بها الحجارة استخدمها الفينيقيون قديمًا، وأخذها عنهم اليونانيون ومن خلالهم انتشرت إلى بقية المناطق، استخدمها الفرس ثم العرب المسلمون، هذا وقد أرشد المسلمين إليها الصحابى سلمان الفارسى، وقيل إنه هو الذى صنعها بيده فاستخدموها فى حصار الطائف سنة (8هـ / 629م)، وهناك من يذكر أن المسلمين نقلوا المنجنيق عن البيزنطيين مباشرة وليس عن طريق الفرس، ولعل ما يؤيد اقتباس المسلمين من الفرس أن لفظ منجنيق فارسى، انظر ابن أرنبغا الزردكاش، (ت 867هـ)، الأنيق فى المناجيق، دراسة وتحقيق د/ إحسان هندى، دمشق (1405هـ / 1985م)، ص18، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، دكتوراه، ص71، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص196، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص144، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص234، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص141 - 142، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص201، عبد الرءوف عون، الفـن الحربى فى صدر الإسلام، ص162، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص146، الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص617، محمد سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص396، جزاوى شير، الألفاظ الفارسية، ص146،

انظر أيضًا: Oman (c . w), A history of the art of war, p21.

هذا وقد ذكر ابن شداد أن المنجنيق أو المنجنوق أو المنجميق والجمع مجانيق ومناجيق ومنجنيقات هى اسم واحد لآلة واحدة، انظر ابن شداد الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص85.

(2) أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، ص18، آثار الأول، ص191، عبد الرءوف عون، الفن الحربى فى صدر الإسلام، ص156.

(3) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص140.

(4) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص145، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص80، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص234.

(5) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص80.

بالنفط والزرنيخ وترسل على الأعداء[1]، وقيل إن هذه الآلة (المنجنيق) أشبه بالمقلاع تقذف منها الحجارة الكبيرة لتدك مواقع العدو[2]، وفى طرف الذراع الثانى يتدلى ثقل التوازن، هذا ويراعى أنْ يكون أحد الطرفين قصيرًا والآخر طويلاً وتثقل الجهة القصيرة، وتركب فى الجهة الطويلة الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقصف[3]، هذا وقد أفاض المؤرخون فى الحديث عن المنجنيقات وأنواعها من أمثالهم «الطرسوسى»، «الحسن بن عبد الله»، صاحب آثار الأول، «أرنبغا الزردكاش» مؤلف الأنيق فى المناجيق، هذا وقد تطور المنجنيق إلى آلة حربية معدة لدك الأسوار والقلاع والحصون بالمقذوفات سابقة الذكر، هذا وقد استخدمها العرب والفرنج على نطاق واسع أثناء الحصار[4].

ويذكر «الطرسوسى» فى حديثة عن المنجنيقات أنها مختلفة التركيب والأصناف والأنواع فمنها العربى وهو أتقن مصنوعاتها وأوثق معمولاتها، ومنها التركى، وهو أقلها كلفة وأحصرها مئونة[5] ثم الفرنجى، ثم يعاين نوع الخشب الجيد الذى يصنع منه، وخاصة خشب الجراسيا (القراسية) وخشب الأرز وما شاكله من الأخشاب التى تمتاز بصلابتها ويتقارب عقدها من بعضها[6]، وكانت ذراع المنجنيق تشد بحبال قوية متينة إلى مؤخرة القاعدة وتجذبها إلى الخلف، وعند الرمى يلف المنجنيقى العمود الخشبى بحبل الذراع فتجذب الذراع إلى الخلف، فيمتد الوتر الذى خلفها إلى نهايته، ثم توضع المواد المراد قذفها فى كفة الذراع، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة فيجذبها الوتر بقوة عند الكماشة فتصدم الذراع بالحائط الخشبى المثبت أمامها بقوة فترمى رميتها القوية[7].

(1) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص80.

(2) النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص162، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص72.

(3) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص145، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص141.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص81 –82، صلاح حسين، منجنيق من الحضر، مجلة سومر، ص124، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص302، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص201.

(5) الطرسوسى، التبصرة، ص16.

(6) الطرسوسى، المرجع السابق، ص16 –18.

(7) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص160.

المنجنيق العربى[1]

هذا وقد وصف «الطرسوسى» أنواع المنجنيقات، وذكر تفاصيل كل نوع على حدة، فقد تحدث عن المنجنيق العربى فقال «إنه يصنع من الخشب الجيد، ويكون على شكل مثلث متساوى الساقين، فتكون قاعدته دون الضلعين، ويركب فى أعلى المثلث آلة توازن الكفتين أو ما يسميها «الخنـزيرة»[2]، ويشد إليها سقف لحماية الرماة من إلحاق الأذى بهم من الأعداء، وفى أحد طرفى الكفة حبل مثبت فيه على مقدار ذراع والطرف الآخر يجعل عند وضع الحجر فى الكفة فى خطاف حديدى وثيق، وقد جعل هذا الطرف السهم ليخرج منه عندما نفلت الكفة فيقذف الحجر الذى فيه»[3].

المنجنيق الفارسى

يتحدث «الطرسوسى» عن المنجنيق الفارسى ويسميه بـ «التركى» أيضًا، وكان ينصب مائلاً ويجعل له قاعدة تمسكه فى ربع القائمة من الأعلى، ويركز فى الأرض منفرجًا عن القائمة لتمسكها ويجعل فى رأس العمود القائم موضع تركب فى الخنـزيرة[4]، وثمة منجنيق فارسى آخر يصفه «الطرسوسى» ويقول: إنه «شكله لى الشيخ «أبو الحسن ابن الأبرقى الإسكندرى» معاصره الذى كثيرًا ما أخذ «الطرسوسى» معلوماته عنه»، ويذكر أن معدل قوة هذا المنجنيق يكون جر خمسين رطلا، وفى أصل قائمته قوس جرخ يجذبه رجل واحد ويرمى عنه، فإذا جذب الرجل السهم حصلت القنابيب (الحبال) التى يجذب بها وتر القوس فى قفلة وأشغل الرجل الكفة فى حلقة قد ثبتت فى قاعدة تمسك السهم وأخذ القوس ورمى بها فأفلت السهم وقذف الحجر[5]، هذا إلى جانب وصفه للمنجنيق الفرنجى، ومن المرجح أن المسلمين تأثروا بالصليبيين فى صنعه،

(1) قيل إن أول من صنع المنجنيق جذيمة الأبرش، ملك الحيرة على العرب، وذكر الواحدى فى تفسير سورة الأنبياء أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يقدروا على القرب من النار ليلقوه فيها، اللعين إبليس علمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقذفوا به فى النار، فكان أول منجنيق عمل ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهى اللوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى الحجر، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص144.

(2) الطرسوسى، التبصرة، ص17.

(3) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويدل استعمال المسلمين لهذا المنجنيق على جملة التأثيرات المتبادلة بين القوتين المتعاديتين[1].

هذا وقد وصف صاحب آثار الأول المنجنيق اللولبى والدائرى وقال «وفيها ثقالات من الرصاص إذا دار فيها الرجال رفعت السهم، فإذا تركت رمت فلم تحتج إلى رجال كثيرين، ويتخذ بقسى كبار موتورة، وتجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة فى قواعد المنجنيق وفى أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق وتحرك بزيار فيخرج أشد ما يكون، وإذا أراد الرمى بقدور النفط أو العقارب أو ما شاء فعل فإن كان خفيفًا ثقله بالرصاص والأحجار، وإن كان من النفط أو النار اتخذ له كفة من الزرد وحبلا بسلاسل»[2]، هذا وقد تفنن الصناع إلى حد كبير فى صنع المناجيق، ولم يتوقفوا عن تطويرها خاصة المنجنيق الذى يرمى النار، حتى وصل المنجنيق إلى درجة كبيرة من الدقة، والدليل على ذلك أنه ذكر فى كتاب «الأنيق فى المناجيق»: «إذا أردت أن ترمى بعيدًا فإنك تضع الحجر فى المنجنيق وترمى به إلى مطلبك، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن إصبع المنجنيق بالزيت، فإن رميت به وبلغت ما تطلب وأردت أبعد من ذلك، فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع وبين الإصبع الحديد قطعة من المشاق وترمى به، فإن بلغت مقصودك فحسن، وإن أردت أبعد منه، فإنك تضع فى إصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمى به، فإنك تبلغ مقصدك، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى، فإنك تبلغ ما تطلبه»[3].

هذا وقد بلغت صناعة آلة المنجنيق فى عهد «صلاح الدين» مستوى جيدًا من الدقة والإتقان؛ لأن هذا العصر جربت فيه مختلف صنوف الأسلحة[4]، وحدث لها تطور والدليل على ذلك أنواع المنجنيقات السابق ذكرها التى وصفها «الطرسوسى»[5].

أنواع المناجيق

(1) **مناجيق قذف الحجارة:** هى أعظم الآلات الحربية القديمة وأشدها تأثيرًا لا سيما فى

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص305.
(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص191.
(3) سعاد ماهر محمد، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر 1967م، ص226، نقلاً عن الأنيق فى المناجيق، ورقة رقم 12.
(4) انظر: Parry and Yapp, war teahnology and society in the Middle east نقلاً عن حسين عليوة، السلاح المعدنى.
(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص304.

الحصار، وتشبه من حيث مهمتها مدفعية التدمير[1] فى عصرنا هذا، وتقذف هذه المناجيق قطع الحجارة الضخمة (الملاطيس) باتجاه العدو[2].

(2) **مناجيق قذف السهام:** تسمى باسم «قسى الزيار» أيضًا ومفردها «قوس الزيار»، وقوس الزيار هذا نوع من القوس الكبير الذى يرمى سهما هائل الحجم[3].

(3) **مناجيق قذف النفط والكرات النارية:** وهى مناجيق عادية مزودة بكفة من الزرد أو من صفائح الحديد ومعلقة بالذراع بواسطة سلاسل منعًا من الاحتراق، وكانت مقذوفاتها عبارة عن قدورة مليئة بالنفط توضع فى الكفة وترمى على العدو بعد إشعال النار فيها[4].

(4) **مناجيق قذف القنابل:** وتشبه مناجيق قذف الحجارة من حيث المبدأ، ولكن القذيفة هنا تكون عبارة عن قنبلة بدلا من الحجر العادى[5]، وأهم أنواع القنابل، قنابل النحاس، قنابل الزجاج، قنابل الغازات، القنابل المضيئة، القنابل الخانقة، القنابل المسيلة للدموع[6].

(5) **مناجيق قذف الأفاعى والعقارب:** إن هذا السلاح من أغرب الابتكارات الحربية فى ذلك الوقت، حيث كانوا يضعون الأفاعى والعقارب ضمن سلاسل من القش والعيدان أو داخل جرار من الفخار المخرم، ثم يربطون هذه الجرار أو السلاسل بقطع مناسبة من الرصاص لتصبح بالوزن الملائم لقذفها بالمنجنيق فإذا قذفت ووقعت على الأرض تهشمت وخرجت منها الأفاعى والعقارب[7].

(6) **مناجيق الرمم والقاذورات:** وهى مناجيق قوية المفعول ذات كفة ضخمة بسلاسل وكانت من أمضى أسلحة الحصار فى ذلك الوقت؛ لأنه يمكن بواسطتها قذف الرمم والحيوانات والقاذورات على جند العدو، مما يضايقهم ويمنعهم من أداء واجباتهم بشكل مرض وينشر جميع الأمراض والأوبئة[8].

---

(1) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص130، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص58 –59.

(2) أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، ص26.

(3) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص26، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص123 –138.

(5) إحسان هندى، المرجع السابق، ص135.

(6) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص27 –28، إحسان هندى، المرجع السابق، ص136.

(7) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص29، إحسان هندى، الحياة المرجع السابق، ص138.

(8) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، الصفحة نفسها، إحسان هندى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

العرادة[1]

هى من أنواع المنجنيقات سميت بـ«العرادة» وقد استعملت لإلقاء الحجارة[2]، وهى أشبه بالمدفعية الخفيفة[3] التى توجه قذائفها نحو مواقع العدو[4]، فاعتبرها المسلمون منجنيقًا صغيرًا[5]، فالعرادة أصغر من المنجنيق[6] تلقى بها الأحجار على مسافات طويلة بعيدة[7]، وفى العصور الأخيرة ألقت كلمة عرادة على عربة المدفع[8] والعروسك هو المنجنيق الصغير[9]، هذا ومن مميزاتها أنها صغيرة الحجم يسهل نقلها من مكان لآخر[10] أثناء الحصار[11]، وقد كانت طريقة نقلها إلى ميدان المعركة أنها كانت تنقل نقلاً كاملاً[12].

المنجنيق ودوره فى حروب الحصار الصليبية

لا نستطيع أن نغفل دور المنجنيق فى حروب الحصار الصليبية، حيث كان يحدث فجوة بقوة ضرباته فى الأسوار، ينفذ منها الجيش المهاجم، فقد كان بأنواعه السابقة يلعب دورًا مهمًّا بل جاسما فى الحصار[13]، والأمثلة كثيرة على ذلك منها ما ذكره «ابن الجوزى» و«الحافظ الذهبى»: «أنه فى عام (579هـ/ 1183م - 580هـ/ 1184م) نازل «صلاح الدين» الكرك، ونصب عليها المناجيق فجاءتها نجدات الفرنج (وطلبوا) وأجلبوا، فرأى أن حصارها يطول فتركها»[14].

(1) ذكر صاحب فقه اللغة أن العرادة شبه المنجنيق يرمى به، من عرد الحجر يعرده إذا رماه رميًا بعيدًا، انظر حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدى، الإفصاح فى فقه اللغة، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربى، ص617.

(2) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص167، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص234.

(3) عبد الرءوف عون، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) عبد الرءوف عون، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(5) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص132، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص40.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص62، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص156، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص40، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص401.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص62.

(8) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص40.

(9) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص95.

(10) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص401.

(11) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص132.

(12) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص306.

(13) أسامة سيد على، الظهير الشامى، ص324.

(14) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص79، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص382، سعد المومنى، القلاع فى الأردن، ص165.

هذا وقد ذكر «ابن الأثير» أنه فى عام 583هـ/ 1187م عند فتح بيت المقدس «نصب عليها المناجيق وآلة القتال وتعلق النقابون بالصور وقاتل الفرنج قتالاً شديدًا، فلما رأوا أن المسلمين قد ظهروا عليهم سقط فى أيديهم وأيقنوا بالخذلان فصاحوا بالأمان»[1]، فى العام نفسه أيضًا ذكر صاحب مرآة الزمان 583هـ/ 1187م «تقدم السلطان إلى طبرية فنصب عليها المناجيق ونقب أسوارها ففتحها يوم الخميس الرابع عشر ربيع الآخر»[2].

ويذكر صاحب مفرج الكروب «أن السلطان «صلاح الدين» سار إلى قلعة صفد سنة أربعة وثمانين وخمسمائة ونصب عليها المنجنيقات، وأدام الرمى ليلاً ونهارًا بالحجارة، وكان فتح صفد فى الرابع شهر شوال»[3]، بالإضافة إلى أنه عند فتح حصن صهيون 584هـ/ 1188م ذكر «العماد الأصفهانى» قوله عن المنجنيقات «وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور وأدامت إليهم المناجيق والجروخ والقسى الرمى المتدارك»[4].

وفى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأول سنة ستة وثمانين وخمسمائة عند حصار عكا ففى ذكر وصول «الكندهرى» إلى عكا نجدة للفرنج وما جدده من آلة الحصار... نصب المناجيق على عكا فحرقها المسلمون ثم نصب منجنيقين فأحرقا فى أول شعبان، وكان قد أنفق عليها ألف وخمسمائة دينار، وأسر من الفرنج سبعين فى هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون[5].

وفى أحداث عام 627هـ/ 1229م ذكر «النويرى» أن فى هذه السنة بعث الملك «الأشرف» صاحب دمشق أخاه الملك «الصالح إسماعيل» إلى بعلبك، فحاصرها ونصب عليها المناجيق ورماها بأحجارها[6]، وفى عام 646هـ/ 1248م رميت حمص بالمناجيق من قبل المصريين بعد أن تملكها الحلبيون[7].

وسائل الوقاية من المنجنيق

ويمكن القول إن المنجنيق كان أول سلاح فى حرب الأسوار وحصار المدن، ولم تكن

(1) مرآة الزمان، ج8، ق1، ص397، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص183، حوادث سنة 583هـ.
(2) مرآة الزمان، ج8، ق1، ص382.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص272.
(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص241.
(5) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص426 –427.
(6) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص659، النويرى، نهاية الأرب، ج29، 162.
(7) الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج3، ص79.

هناك أى حرب أو أى مجال من مجالات القتال إلا وكان هذا السلاح الفتاك بها، ونظرًا لفاعلية المنجنيق، فكر المسئولون بأمر الأسلحة فى التقليل من فاعليتها والأضرار المختلفة التى يلحقها هذا السلاح، وذلك بالحيلولة بين مقذوفاته وبين الحصون بحفر الخنادق الواسعة وملئها بالمياه لتمنع وصول المنجنيقات إلى أى جزء من أجزاء سور المدينة وإذا استطاع المهاجمون طم الخندق ووصلوا إلى الأسوار، عمد المدافعون عن المدينة إلى رمى المنجنيقيين بالسهام من خلال منافذ شرفات حصونهم وقلاعهم، لذا كان القائد المهاجم يضع أمام رماة المنجنيق جنودًا مدرعين يحمون تقدم مسير المواكب، وبيدهم التروس أو أن المهاجمين يحملون المنجنيق على عربة لها ستائر[1]، هذه الستائر تبطل فعل السهام الموجه إليهم من الحصن[2]، ومن وسائل الوقاية الأخرى من المنجنيق، تغطية الجزء العلوى من السور بالخشب الصلب، الذى لا تفتره الحجارة، كخشب العرعر[3] لأن خط رمى المنجنيق يشبه قوسًا شديد الانحناء على نحو ما هو حاصل فى قنبلة مدفع «الهاون» الذى هو أقرب المدافع شبهًا بالمنجنيق فى سهولة الرمى به وتقوس مرماه، فكانت هذه الأخشاب تحمى السور من حجارته إذا كسى بها[4].

---

(1) الستائر عبارة عن جدران من الخشب أو من الحبل المجدولة، يحتمى وراءها المدافعون عن حصن أو سور، وتوضع هذه الجدران أما فوق الأسوار لمنع حجارة المناجيق العدو من الوصول إلى داخل القلعة المحاصرة، أو أمام مرابض المناجيق وذلك للوقاية من أن تصل إليها حجارة المناجيق العدو، هذا وتتخذ هذه الستائر من الجلود واللباد وتبلل بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية والسفن من قذائف النفط، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص102، حاشية3، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص 428، هامش2، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص142، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص31، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص162، انظر عن حفر الخنادق وملئها بالمياه محمود أحمد سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص406، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص303 هامش5، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص158، هامش 3، قال عنها الطرسوسى «سترة للرجال الذين يستعضد بهم فى جر المنجنيق وما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق يقابله فيحمل عنهم مضرتها ويكفيهم سوء إصابتها، وإذا وقع عليهم الحجر بقوته لم يؤثر فيها، وفضته عنها نفضًا قويًّا تلقيه به إلى خلفه وتقى من هو تحتها عظيم بليته وشر إصابته»، انظر ابن أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، ص30.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص306 –307، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص161، نعمان ثابت، الجندية فى الدولة العباسية، ص158.

(3) أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، ص30، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص406.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص307، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص161.

عيوب المنجنيق

هذا ومن عيوب المنجنيق أنه من الصعب استخدامه فى الشتاء، إذا اتفق وقوع الأمطار والثلوج، إذ تحدث المقاساة بسبب جر العجل بواسطة الأبقار فالمسافة التى يستغرقها جر البكر (العجلات) على أرض جافة فى الأحوال الجوية العادية، تختلف عنها على أرض وحلة سببتها سقوط الأمطار[1]، هذا بالإضافة إلى أنه من الصعوبة أن يصل المنجنيق إلى ميدان المعركة سواء كان مفككًا أو كاملاً، نظرًا لصعوبة الطريق، وعدم تبليطه ليسهل سير العجلات ومرور السابلة عليه، وكذلك لصعوبة العبور على الممرات المائية[2]، أما الصليبيون فقد كانوا ينقلون معداتهم على عجلات[3] ويضعون آلاتهم الحربية عليها سواء كانت الدبابة[4] أو المناجيق.

آلات الحصار

الدبابة[5](البرج)

الدبابة من الآلات الجماعية التى يشترك فيها أكثر من شخص، وهذا نظرًا لصعوبة نقلها من مكان إلى آخر وثقلها الشديد، والدبابة من الآلات الهجومية الجماعية، وهى آلة متحركة تتخذ من الخشب السميك[6] وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة فى

(1) محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص204.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص306.

(3) يذكر ابن شداد أن الصليبيين قد استعملوا العجلات فى نقل قتلاهم أثناء المعارك فى ميدان القتال بواسطة العجلات، كذلك حمل الصليبيون الأبراج الثلاثة الهائلة على عجل، ولا شك أن العربة الحاملة لهذه الأبراج كانت ضخمة إلى حد كبير، انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، ص113، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص146.

(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص487.

(5) هى آلة قديمة جدًا استخدمها المصريون القدامى والآشوريون فاليونان والرومان والفرس والعرب المسلمون، حيث استعملوها فى حصار الطائف سنة (8هـ/ 629م)، وهى فى تركيبها أقل تعقيدا من المنجنيق، وقد كانت الدبابة تستعمل فى حرب الأسوار فقط، فهى آلة تتخذ للحرب، وباختراع المنجنيق صار استعماله مصاحبا لاستعمال الدبابة، والدبابة سلاح يشترك مع المنجنيق فى القيام بمهمته كما تتعاون المدفعية مع الدبابات الحديثة، لمزيد من التفاصيل انظر الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ج2، ص617، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، دكتوراه، ص88، قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص78، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص308، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص169، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص408.

(6) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص198، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص202.

الخل[1] لدفع النار[2] ووقايتها[3] من قذائف النفط والنار المشتعلة[4]، وهى شبه برج متحرك تتكون أحيانًا من أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد والنحاس[5] تتحرك على عجلات خشبية أو حديدية[6] مستديرة ليسهل دفعها أو سحبها[7]، ويستقر الجنود داخلها فى طبقاتها لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار[8].

أى أنه عند وصول الدبابة إلى الأسوار المراد تدميرها كان المحاربون يصعدون عليها أو يدخلون فى جوفها[9] وبيدهم الآلات التى سوف يهدمون بها السور[10]، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يستعملون الدبابة فى تسلق سور المدينة، أى أنهم جعلوها بمنزلة برج وسلم[11] فيصعدون أعلى السور وبيدهم النبال والرماح ويرمون بها جنود العدو داخل الحصن أو المدن المحاصرة[12]، هذا وقد وصف «العماد الأصفهانى» و«ابن واصل» دبابة للعدو، «كان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة، قد أظهرت لها فى الشر غائلة، ولها أربعة طباق، شدها على الارتباط باق... الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس... وفى طباقها سباع ضوار ...

(1) أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص323، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص240، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص202، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص13، سليمان عواد، الجيش والقتال، ص408.

(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص191، أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص323، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص171، ، صلاح حسين، منجنيق من الحضر، مجلة سومر، ص123، هامش 13، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص24 –25، سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص408.

(3) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص315.

(4) أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص323.

(5) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص62 –63، أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص320، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص105، هامش 4.

(6) العماد الأصفهانى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص143، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص88، أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص320.

(7) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص192، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص198، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص142 –143.

(8) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص315، حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص63، أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص322، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص145.

(9) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص143.

(10) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص24 –25.

(11) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص89.

(12) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص308 –309.

وكانت الدبـابة علـى العجل، ليقربوا بتقريبها أسباب الأجل، فباتت القلوب منها على الوجل»[1].

- **ملحقات الدبابة**

(أ) الكبش[2]

كان الكبش يركب على كتلة خشبية ضخمة مستديرة يبلغ طولها حوالى عشرة أمتار أو أكثر وتتدلى هذه الكتلة من سطح الدبابة محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب القلعة قربوا منه الدبابة، ثم وقفوا داخلها ويأخذون فى أرجحة رأس الكبش[3] للخلف والأمام، وهو معلق فى السلاسل ويصدمون به السور أو غيره عدة مرات، حتى تنهدم وتنهار حجارته[4] فيعملون على ثقبه وهدمه، أو يدخلون المدينة من بابها بعد أن استطاعوا تهشيمه[5].

هذا وقد كان يتم تجهيز الكبش من أكبر ساق لأكبر شجرة يمكن أن تقدمها منطقة الصراع، ثم يعلق ذلك الساق بعد أن يوضع فى مقدمته ثقل من الحديد، على نطاق وسط عمودين قصيرين ويجر الكبش على عجلات إلى القلعة، ويقوم فريق من الرجال وهم تحت غطاء سقيفة وقائية، بتوجيه الدعامة الخشبية الكبيرة، تجاه موضع فى الحائط وقع عليه الاختيار لإحداث الثغرة به[6]، ومما هو جدير بالذكر أن الصليبيين صنعوا كباشًا مخيفة فى محاولة منهم فتح عكا، هذا وقد وصف «العماد الكاتب» كبشًا مركبًا على دبابة ضخمة بقوله «واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، وفى رأسها شكل عظيم يقال له الكبـش، ولـه قـرنان فـى طـوله رمحان كالعمـوديـن الغليظين، فكم من سور إذا نطحته

(1) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص487، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص351 -352.

(2) لفظ الكباش مفردة وتجمع على كبوش واكبش وهو آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها وفتح باب الحصون، انظر صلاح حسين، منجنيق من الحضر، ص123، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص171، جميل خانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص146، أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، تحقيق إحسان هندى، ص17، هامش2.

(3) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص80.

(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص147.

(5) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص190، نعمان ثابت، الجندية، ص185، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص313، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص95.

(6) انظر:
Fedden (Robin), crusades castles, p38, Archer (T.A), kingsford (cil), the crusades, London, 1919, pp352-353.

طحنته»[1]، هذا إلى جانب أن الدبابة متينة، وكما أشار «الأصفهانى»: «فقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وكملوا لها أسباب الإحكام الشديد ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البأس فلم يبق للنار إليها سبيل ولا للعطب عليها سبيل»[2].

وقد وصف «ابن شداد» الدبابة وصفًا شاملاً بكبشها قائلا «إنها آلة عظيمة مخيفة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك به من الداخل وفيها المقاتلة، حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهى تسمى «كبشًا»، ينطح بها السور بشدة عظيمة؛ لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها»[3]، وذكر صاحب آثار الأول عن آلات الحصار «أن الأسوار المحكمة تقابل بالمنجنيقات إذا كانت مرتفعة، وإذا كانت مرجلة فبالكباش والدبابات»[4].

وفى أثناء تأدية الدبابة عملها كان يرافقها الجنود التى كانت مهمتهم تسهيل سير الدبابة، حتى إذا اعترضها خندق وضعوا بعض الأخشاب عليه، فتكون بمنزلة جسر تعبر عليه الدبابة[5].

(ب) سلالم الحصار

السلم من آلات الحصار وهو يساعد المحاصر على اعتلاء الأسوار والأماكن المرتفعة وفتح مغاليق الحصون[6]، وهى تصنع من الخشب والحديد[7] بارتفاع السور وتسند إليه من

(1) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص432، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص164، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص48.

(2) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص432، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص164.

(3) ابن شداد، النوادر، ص140، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص162، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص334.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص188.

(5) الحسن بن عبد الله، المرجع السابق، ص192، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص145، حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص63، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص199.

(6) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص173، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص89.

(7) كانت سلالم الحصار تصنع أول الأمر من الحبال التى تنتهى بخطافات يسهل تعليقها بحجارة السور ثم أصبحت تصنع من الحبال والخشب معًا، ثم من الخشب والحديد فى العصور المتأخرة، كما كانت تزود فى بعض الأحيان بعدة عجلات أو بكر ليس نقلها من مكان لآخر، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص149، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص89، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص411.

مكان آمن فيتسلقه المقاتلون ويقتحمه المدافعون والرماة، وكان للسلم فى الحملات الصليبية أهمية تعادل أهمية الدبابة أو المنجنيق، إذ يعتبر سلم تسلق الأسوار (السلالم المتحركة) أبسط طريقة للهجوم المباشر، بيد أنه يكلف الجيش المحاصر العديد من الأرواح، إذ يسهل بعدد ملائم من حامية القلعة (الحصن) صد الهجوم ولكن إذا كانت الهجمات مكثفة متوالية، فإنها تعطى أملا فى اقتحام الحصن، وإذا كان الغرض الرئيسى من السلم المتحرك، هو وصول الجيش المهاجم إلى مستوى حاجز شرفة الحصن، ففى الإمكان الاستعاضة عنه بطريقة معقدة، تتمثل فى تكديس الأتربة على جدار السور، حتى يتكون منحدر كبير تستطيع القوة المهاجمة أن تتقدم فوقه[1].

عيوب هذه السلالم

على أن هذا الأسلوب يعرض الجند المتقدمين على المنحدر الترابى لخط النار المدمرة التى تلقى عليهم من شرفات الحصن، مما يؤدى إلى كوارث فادحة، بالرغم من أن الجيش المهاجم كان يستعين بالسواتر النقالة المغطاة بجلد الحيوان[2]، هذا بالإضافة إلى أن السلم المتحرك (سلالم الحصار) عرضة للكسر أحيانًا[3]، وقد استخدمت هذه السلالم فى الحروب الصليبية أيام السلطان «صلاح الدين الأيوبى».

اهتم المسلمون بالسلالم فطوروها وأدخلوا عليها التحسينات، فصارت تصنع على قاعدة خشبية واسعة تساعد على ثباته، وأحيانًا كانت تصنع من سلمين يلتقيان فى ذروتها يدعم كل منهما الآخر، كما أدخلوا على القاعدة بكرات من الخشب أو عجلات ثابتة ليسهل نقلها من موضع إلى آخر[4]، كما أكثروا من السلالم فى حملاتهم لاسترداد ما احتله الفرنج من المدن والحصون[5].

---

(1) انظر:

Fedden, crusades castles, p37,

انظر أيضًا أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص323.

(2) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص202.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص353، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص162، ابن شداد، النوادر، ص141.

(4) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص149.

(5) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص77.

(جـ) الضبر[1]، السفود[2]

هذا وقد استعمل الجيش الأيوبى سلاح الدبابة منذ أن بدأ بهجومه على المدن الحصينة، والقلاع، هذا بالإضافة إلى أن الصليبيين استعملوه فى حصارهم الطويل لمدينة عكا، التى دافع عنها المسلمين بكل ما عندهم، فقد ذكر «ابن كثير»: «أن الصليبيين نصبوا ثلاثة أبراج مصنوعة من الخشب والحديد على عكا، ومغطاة بالجلود ومسقاة بالخل، وذلك حتى لا تحترق، وقد كان يسع كل منها خمسمائة مقاتل، ومركب على عجل بحيث يديرونها إلى الاتجاه المطلوب»[3]، هناك كثير من الأمثلة توضح استخدام الدبابة منها.

أنه قد استعلت الدبابة من جانب الصليبيين أثناء حصارها، فذكر «سبط ابن الجوزى» أن «ابن ملك الألمان (فريدريك بارباروسا) أعد دبابة عظيمة دخل تحتها ألوف الناس لها رأس عظيمة برقبة طويلة إذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته، إلا أن المسلمين تمكنوا من حرق هذه الدبابة الهائلة[4]، وهناك أيضًا معركة حدثت فى رمضان 586هـ / 1190م، أوقع المسلمون الهزيمة بالعدو» وهجموا على كبشهم وألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حرقه لهرب المقاتلين عنه... وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل وسرت نار الكبش بوقتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة فى السلاسل فسحبوه، وهو يشتعل حتى حصلوا عندهم فى البلد، وكان مركبًا من آلات هائلة عظيمة وألقوا الماء عليه حتى برد حديده، وبلغنا كما يقول «ابن شداد» من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد فكان

(1) هناك من يذكر أن الدبابة والضبر شيء واحد، إذ أن الضبر يصنع من الخشب المغطى بالجلد فيمكن فيها المهاجون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها وهى أشبه بالسيارات المدرعة اليوم، انظر تاج العروس، الإمام اللغوى، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنى الواسطى الزبيدى الحنفى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج3، ص347، الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ص617، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص143، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص38.

(2) السفود أو سفور، هى حديدة ذات شعب معقفة يشوى بها اللحم، وهى مصنوعة من الحديد أو الفولاذ، وهى تختلف عن الكبش فى أن رأسها محدد، على شكل السكة التى يحرث بها، فى حين أن رأس الكبش مدور، وهذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها، وقيل إن السفود ينطح به فيهدم ما يلاقيه وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام، وذكر ابن واصل أنه فى عام 586هـ فى حرق برج الذبان «وسرت نار الكبش إلى السفود، فاحترق حريقًا شنيعًا»، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص203، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص334 –337، ابن شداد، النوادر، ص141، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص162، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص89.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335.

(4) ابن سبط الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص404.

مائة قنطار بالشامى، ثم أنفذ رأس الكبش إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهده «ابن شداد»، وقال إن شكله على شكل السفود الذى يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام[1].

وقد زاد اعتماد المسلمين على استخدام الدبابة فى عمليات حصار القلاع والحصون وخاصة فى مرحلة الاقتحام، حيث نجدهم يمهدون أولاً برمى المناجيق ثم يوعزون للدبابة بالاقتحام[2]، وقد كان للبرج الصليبى نصيب من الوصف، حيث ذكر أنه مكون من الأخشاب وقطع الحديد فكانت كأنها أطواد تشرف على ارتفاع سور البلد، كذلك ووصف بعض المؤرخون المسلمون البرج بأنه يتكون من خمس طبقات، وفى نهايته فناء متسع يستطيع حمل ما يزيد عن خمسمائة رجل من المقاتلة[3].

مساوئ استخدام (الدبابة) الأبراج

ومن مساوئ استخدام هذه الأبراج فى القتال ما تتطلبه من نفقات باهظة فى صنعها، بالإضافة إلى عدم دراية الصليبيين بصنعها، كما لم يكن فى الإمكان بناء العديد من الأبراج طول الواحد منها ما بين أربعين وستين ذراعًا، وثمة صعوبة أخرى تمثلت فى كيفية إحضار برج الحصار وتقريبه من الحصن، إذ كان المحاصرون يحفرون الخنادق حول الحصون لمنع تقدم الأبراج، وكان على الجيوش المهاجمة ردم جزء كبير من الخندق وهو عمل شاق مرهق يتطلب كثيرًا من الوقت والجهد ويؤثر فى إنجاز المهام العسكرية بسرعة[4].

أيضًا من مساوئ تلك الأبراج أنها لا تستطيع العمل إلا على أرض مستوية، بالإضافة إلى أن المدافعين يمكنهم استكشافها بسهولة[5].

النار اليونانية[6]

لا شك أن للحروب الصليبية الدور الكبير فيما هو جديد من حيل الحروب وتطورها بما

(1) النويرى، نهاية الأرب، ص428 –429، ابن شداد، النوادر، ص142، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص163.

(2) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص64 –65.

(3) انظر: Fedden, op.cit, p38.

(4) أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص320.

(5) أسامة احمد، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) النار اليونانية هى سائل سريع الالتهاب، يزيد اشتعاله بالتماس مع الهواء ولا ينطفئ حتى بإلقاء الماء عليه، انظر أرنبغا الزردكاش، الأنيق فى المناجيق، هامش3، ص17، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص152.

فيها من طرق الهدم ووضع الألغام واستخدام أنواع السهام والمناجيق والكبوش والاعتماد على أنواع مختلفة من أسلحة الدفع القوية والمواد القابلة للاشتعال[1]، وقد ورد فى معظم كتب المؤرخين أن أول من استعمل النار الإغريقية هم المشارقة وينسب اختراعها إلى رجل مصرى[2] أو سورى[3] يسمى «كالينكيوس» [4] skoniCalli عاش فى بعلبك فى منتصف القرن السابع الميلادى، وقد استخدمه المشارقة فى حروبهم[5].

مكونات النار الإغريقية

تتكون هذه النار من مواد سريعة الاشتعال ممزوجة مع بعضها البعض، مثل الكبريت[6] والنفط[7] وبعض الراتنجات[8] والأدهان فى شكل سائل يطلقونه من أسطوانة نحاسية[9] مستطيلة تسمى «زراقات»[10] أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع الكتان المشبع بالنفط[11]، وقد اشتهرت هذه القذائف بقوة فعلها وأضرارها البليغة لما

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص291.
(2) البستانى، موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى 1418هـ / 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكرى، ج9، ص75، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص 231.
(3) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص152، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص59، أمين الخولى، الجندية والسلم، ص33، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقى، قدم له وزوده عبد الرحمن زكى، مكتبة النهضة المصرية 1956م، ص55، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص192، د/ جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبى، على مصر، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط1 1969م، ص157، قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.
(4) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص80، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص96، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص59، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص152.
(5) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.
(6) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص73، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص96، قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.
(7) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.
(8) مادة صمغية قابلة للالتهاب تنضجها بعض الأشجار مثل الصنوبر والبطم والأرزية والمصطقى، انظر الخوارزمى، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة 1342هـ، ص149، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص291، قيل أيضًا إن الراتنجات صمغ الصنوبر وهو رايتانج بالفارسية، انظر أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص70.
(9) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص59، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص96.
(10) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص152.
(11) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص59، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص192، نعمان ثابت، الجندية والسلم، ص146.

لها من الفعل وقوة الاشتعال فى الماء والهواء[1]، ويقال إنها إذا اشتعلت أحرقت الحديد والحجر[2] ولا تطفئ إلا باللبود المبللة بالخل[3] والشب والنطرون[4]، أما الماء فإنه يزيدها اشتعالاً، وقد اقتبس الإغريق من المشارقة هذه النار، ثم أخذها العرب المسلمون من الإغريق[5] بعد أن اطلعوا على سرها وأطلقوا عليها اسم «النار الإغريقية»، أما عن الآلة التى يرمى بها النفط والمحروقات فكانت تسمى «النفاطة»[6] أو «الزراقة»[7]، إلا أنهم ساروا يطلقون هذه المواد بالسهام أو المجانيق؛ لأنها ترمى إلى مسافات أبعد، ويكون تهديفها صحيحًا وأضبط، أما قاذفها يسمى بـ «النفاط»[8] أو «الزراق»، وكان يتم ارتداء ثوب خاص غير قابل للاشتعال كان يطلق عليه «لباس النفاطين»[9]، كما كانت هناك تجافيف أى دروع واقية يغطى بها الفرس التى تحمل النفاط كى لا تتضرر من قطرات النفط التى تسقط عليها[10]، وقد كانت النار الإغريقية شديدة النكاية بالصليبيين الذين كانوا يجهلون استعمالها، فاقتصر استعمالها على الجانب الإسلامى[11].

هذا وقد ذكر Oman تعريب أن النار الإغريقية تبدو قليلة الاستعمال جدًّا فى الغرب فلم

(1) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.

(2) البستانى، دائرة المعارف، ج9، ص705، وهى بهذا تشبه زجاجات مولوتوف (كوكتيل مولوتوف) وهى زجاجات حارقة استعملت فى الحرب العالمية الثانية ضد آليات ودبابات الألمان، وما زالت تستعمل إلى اليوم، انظر قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.

(3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص80، قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص80.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص197.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص292.

(6) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص60.

(7) هى آلة من النحاس لقذف النفط، انظر الفتح القسى، هامش 5، ص105، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص150.

(8) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص151، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص96، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص30.

(9) قيل إن مخترع هذا الثوب مسلم اسمه معد بن يزيد ارتداه عندما اقتحم مدينة هيرقلية بعد وقوعها فى يد جيش هارون الرشيد، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص151، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص60، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص96.

(10) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص151.

(11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص292.

يكونوا متأكدين من تركيبها[1]، وقد استمر جهلهم إلى ما بعد انتهاء العهد الأيوبى، وقد وصف الفارس «دى جوانفيل» فى كتابه «ذكريات عن الحروب الصليبية» النار الإغريقية التى كان المسلمون يرمون بها الجيش الصليبى فى معركة دمياط (المنصورة)[2] (646هـ / 1248م)، التى كانت فى عهد الملك الأيوبى «الصالح نجم الدين أيوب»[3]، وتحدث هذا الكاتب عن الذعر الذى استولى على الصليبيين... حتى الملك «لويس التاسع» نفسه لم يكن أقل جزعًا من جيشه.

وقد تحدثت «أنا كومينا» ابنة الإمبراطور البيزنطى «الكسيوس كومنينوس» الذى حدثت فى عهده الحرب الصليبية الأولى، فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها فصورتها حين تعلو فى الجو وحين تشتعل ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس شيًّا، وتتركهم مع متاعهم رمادًا تذروه الرياح...

هذا وقد أشارت الأميرة إلى تركيبها الذى يشبه التركيب الذى أورده «الطرسوسى»، وقالت إن هذا المزيج النارى يعبأ فى أنابيب، ويقذف على العدو، فيصليه نارًا حامية، إذ ينفجر بقوة الاصطدام، فيندفع منها لهيب لا يمكن لمخلوق أن يخمده، وتنتشر شرارته فى كل جانب فتجعل ما جواليها أتونًا متلظيًا[4] فكأنها جهنم وبئس المصير[5].

وقد ذكر كل من «العماد الأصفهانى» و«جوانفيل» ما يطول شرحه عن هذه النار التى لها صوت كصوت الرعد القاصف، وحينما تندلع النار فى الأبراج الخشبية، فإن ألسنتها تمتد وتصل إلى أى مكان، ويذكر «العماد الكاتب» أن المسلمين حين بدءوا بقذف الأبراج التى نصبها الصليبيون على سور عكا، بقدور تحوى المواد الحارقة، أصابتهم الدهشة «من البلل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل»[6]، وقد بلغت صناعة هذا السلاح المهم مستوى متقدمًا، حيث كانت تكبس فى أوانى فخارية وتوضع فى كفة المنجنيق لرميها على العدو، وقد تم التوصل إلى نوع من القنابل أو قوارير النفط التى هى قدور يجعل فيها النفط ويرمى بها على

(1) انظر: Oman (c . w), Op. Cit, P72.
(2) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص153.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص293.
(4) جوزيف نسيم، العدوان الصليبى، الإسكندرية 1969م، هامش 2، ص156.
(5) ديفيز (دوين جونز)، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل، ترجمة زكى شنودة، ص75 –76.
(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص371.

الحصون والقلاع للإحراق[1]، على أن القوارير فى اللغة اسم للزجاج وإنما استعيرت فى آلات مجازًا[2].

تذكر بعض المصادر مثل «ابن كثير» وغيره «أن الملك «عز الدين مسعود بن مودود» ـ صاحب الموصل ـ أرسل أحمالاً من النفط إلى السلطان «صلاح الدين» فى عام (585هـ/1189م)، مع أنواع من الأسلحة الفاخرة كجزء من المعونة التى كانت الموصل تبعثها إلى السلطان فى جهاده»[3].

«الطرسوسى» يتحدث عن طرق تحضير النار الإغريقية:

فى موضع ما يتحدث «الطرسوسى» عن سر تحضير النار فيقول «إن تحضير النار كان من الأسرار التى ينبغى الحيلولة دون تسربها إلى العدو، وجعلها مستورًا إلا لمن يرضونه من الفضلاء (العلماء)»[4]، يتحدث «الطرسوسى» عن طرق تحضير المواد الحارقة «المكونة من نفط وكبريت ومسحوق نورة غير مطفأة وزيت الأترج[5] والكتان، ودقيق التبن ونخالة الحنطة ودهن البلسان[6] الراتينج[7] وقشر التوت وقشر البيض، وتمزج هذه المواد (تخلط) بطرق

(1) استخدمت قوارير النفط الحارقة فى حروب الأيوبيين الخارجية، واعتبرها القلقشندى إحدى آلات الحصار وأسلحته، والقوارير فى اللغة اسم لآنية من زجاج واستعير اللفظ لآنية النفط مجازًا، وتتخذ قارورة النفط شكل رمانة مدببة قليلاً من أسفل ولها فوهة ضيقة فى أعلاها لا يتجاوز قطرها 3سم، وكانت تصنع فى الغالب من فخار سميك، وكانت تملأ بمواد قابلة للاشتعال أهمها النفط والصبر ونشارة الخشب وزرنيخ وبذور القرطم أو القطن أو السمسم، وتوضع هذه المواد فى القارورة على هيئة مسحوق أو على هيئة سائل يتم مزجه وطبخه على النار، ثم يصفى ويبرد ويوضع فى القوارير، وتزود القارورة بفتيل وعند إلقائها يشعل الفتيل ثم ترمى على الهدف ويؤدى انكسارها عنده إلى اشتعال النار فيه ولا يمكن إطفاؤها إلا بالخل، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145؛ أبو الفرج العش، الفخار غير المطلى من العهود العربية الإسلامية فى المتحف الوطنى بدمشق، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 1، 1961م، ص150، حسين عليوة، السلاح المعدنى، دكتوراه، ص62، نقلاً عن محمد بن منكلى، كتاب الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب (مخطوط مكتبة أياصوفيا بإستانبول، مؤرخ سنة 757هـ رقم 3086، ص165) ، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص81.

(2) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145.

(3) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص350؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، 307؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص148؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335، حوادث سنة 586هـ.

(4) الطرسوسى، التبصرة، ص23.

(5) الأترج، من جنس الليمون، وتسميه العامة الكبار، ومذاقه مر، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص295.

(6) البلسان، شجر له زهر أبيض بهيئة العناقيد يستخرج منه دهن عطر، وهو من فصيلة البخوريات وكان كثير الوجود فى مصر، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص295، هامش2.

(7) الراتينج، صمغ من شجر صنوبرى، محسن حسين، الجيش الأيوبى، هامش 4، ص295.

خاصة وأوزان معينة وهذا الخليط المركب له قوة هائلة فى الإحراق، ويوضع فى قرعة ويركب عليه الأنبيق (آلة التقطير) وتؤخذ وصلة (قطعة قماش) وتوقد تحته نار قوية إلى أن يقطر جميعه، ثم يؤخذ الزيت القاطر وتضاف كمية أخرى من مسحوق نورة غير مطفأة وتضاف إلى الزيت، ويضاف إليه أيضًا ربع مقدار من النفط، ويستعمل فى أنه يحرق إحراقًا قويًّا لا مثيل له»[1].

وقال تؤخذ أترج صغير، ويقشر قشرة الأعلى ويترك إلى أن يذبل ويعصر زيته، ثم يطبخ على النار لمرات عديدة، ويضاف إليه دهن البلسان ويستعمل، فإنه من العجائب[2]، أضف إلى ذلك أن هذه النار «كلما أصابها الماء أو التراب ازدادت وقودا»[3]، فقد كان هذا دليلاً على مدى التطور الحاصل فى تركيب النار، بل إنهم أوجدوا مزيجا يشتعل ويرمى لحرق المراكب فكان يمشى على الماء دون أن تنطفئ ناره، هذا وقد استعملها العرب المسلمون فى بعض التراكيب، هذا ولا ننسى أن نذكر أنهم اكتشفوا مواد تستعمل فى طلاء الأجسام دون احتراقها فكانوا يأخذون ملابس وقاية الجسم من النار (التجافيف)[4].

استعمال النار الإغريقية فى الجيش الأيوبى

استعمل الجيش الأيوبى النار فى مناسبات عديدة سواء فى قذفهم الحصون والمدن التى يحتلها الصليبيون أو فى دفاعهم عن مدينة عكا وحرقهم مناجيق العدو وأبراجه[5]، وأخطر ما فعله الجيش الأيوبى فى حروبه استخدام هذه النار فى حرق دبابة ابن ملك الألمان وقد «دخل تحتها ألوف الناس، وكان لها رأس عظيم برقبة طويلة»[6]، هذا وقد كان للإفرنج ثلاثة أبراج من الخشب والحديد وألبسوها جلود البقر المسقاة بالخل والخمر لئلا تعمل فيها النار وطموا خندق عكا[7] وسحبوا الأبراج على العجل إلى السور فأقبلت مثل الجبال وأشرفت على البلد وفى كل برج خمسمائة مقاتل[8].

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص20.

(2) عن الطرق الأخرى لتحضير النار الإغريقية، انظر الطرسوسى، التبصرة، ص20 -23، فهناك أربع وعشرون طريقة لتحضير النار الإغريقية لا نستطيع الإسهاب فيها.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص23.

(4) عن التجافيف انظر أغطية الجسم من هذا الفصل.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص298.

(6) الجوزى، المرجع السابق، ج8، ق1، ص404.

(7) الجوزى، المرجع السابق، ج8، ق1، ص402.

(8) الجوزى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وفى ربيع الأول عام 586هـ / 1190م، أحرقت هذه النار أبراج العدو الثلاثة المخيفة التى نصبوهـا على أسوار عكا، وذلك بالمادة التى أحضرها وركبها «ابن عريف النحاسين الدمشقي»[1]، وما جلبه من أوعية النفط التى هيأها لإحراقها[2]، هذا وقد سلم «الدمشقى» تركيبة النفط إلى المسئولين عن المنجنيق، وطلب منهم رمى أحدها إلى البرج الأول فالتهبت فيه النيران[3]، ثم قذفوا بوعاء ثان على طبقة البرج الوسطى، فضج المسلمون بالتكبير والتهليل[4] وانتقل وعاء آخر إلى الثالث فأحرقه[5]، وذكر «الأصفهانى» فى ذلك قائلا «وما كان ذلك بصنعه منه بل لأن الله وفقه، وما زالت تحترق الثالثة وتتقد اتقادًا، حتى عاد جمرها رمادا، وبياض نارها واحمرارها فى السماء على الأرض سوادا، واحترقت المناجيق والستائر التى كانت بقربها»[6]، كل هذا والفرنج يتعجبون ويفزعون ولا يدرون ما وراء هذه الشعل، وبعد ذلك أطلقوا النار على البرج من طرفيه الأدنى والأعلى، فقد كانت هذه النار تحرق البرج بأكمله ولا ينجو منه أحد الصليبيين فيحترقون بسيوفهم ودروعهم وينقلب البرج عليهـم كالجحـيم[7]، وفى أحـداث سنة 614هـ / 1217م فى ذكر قتال الفرنج عند الطور ذكر «ابن الجوزى»: «قاتلهم المسلمون قتالا لم يجر فى الإسلام مثله، ودخلت رماح الفرنج من المرامى من كل ناحية فضرب بعض الزراقين السلم بالنفط فأحرقه»[8].

الأسلحة الدفاعية فى الجيش العربى (أغطية الجسم والرأس):

الأسلحة الدفاعية هى أسلحة وقاية الجسم، وهى التى يضعها الجندى على جسده حتى

(1) ابن عريف النحاسين هو شاب نحاسى من دمشق يعرف بعلى بن عريف النحاسين، والتزم بإحراقها فأخذ النفط الأبيض وخلطه بأدوية يعرفها هو وغلى ذلك فى ثلاثة قدور من نحاس حتى صار نار تتأجج ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا فاحترقت الأبرجة الثلاثة، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335، حوادث سنة 586هـ الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص402، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، حوادث سنة 586هـ، ابن شداد، النوادر، ص120–121، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(5) ابن واصل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص371.

(7) ابن شداد، النوادر، ص121، الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص402، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص37.، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335.

(8) الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص584.

يقى بها جسده ويتفادى الإصابات من ضربات العدو، وهى الأسلحة التى يمكن أن نسميها «الأسلحة الدفاعية».

أولاً: أغطية الرأس

هناك نوعان من الأغطية التى كانت تلبس على الرأس لوقايتها[1] وهى المغفر والبيضة:

المغفر[2]

هو عبارة عن زرد أو حلقات الدرع ينسج على قدر الرأس[3] وهو نسيج من الحديد[4] ويتدلى جزء منه على الوجه لحمايته، ويكون للمغفر فتحة أمام العينين[5] ويلبس المغفر تحت القلنسوة[6] (البيضة)، فى الحرب لحماية الرأس[7] والمغفر عادة يكون متصلاً بالجوشن نفسها[8].

البيضة[9]

وهى من الأسلحة الدفاعية[10] وهى تستخدم لوقاية الرأس[11]، وهى عادة تكون فوق

---

(1) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص92.

(2) المغفر بكسر الميم، وهو كالبيضة إلا أن فيه أطراف مسدولة على قفا اللابس وأذنيه، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضًا وقد تكون من زرد أيضًا، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142، ابن سيده، المخصص، ج6، ص72، وقيل فى موضع آخر الغفارة بالكسر زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس يحمى الرأس «فلولا المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله»، انظر أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص368، حاشية1، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص380، هامش5.

(3) الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص615.

(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص385.

(5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص86، هامش 4، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص380، هامش 5، ابن سيده، المخصص، ج6، ص72.

(7) النويرى، نهاية الأرب، ج28، هامش5.

(8) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص178، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص65.

(9) سميت البيضة بهذا الاسم لأنها على شكل بيضة النعام، وتجمع على بيضة ويقال ابتاض الرجل أى لبس البيضة، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص393- 394، 396، تاج العروس، ج5، ص11، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، 142.

(10) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص92.

(11) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المغفر ويضعها المقاتل على رأسه كغطاء من الحديد أو الفولاذ[1] أشبه بالخوذة[2] وعلى البيضة تلبس العمامة أو القلنسوة[3].

ومن أسماء أجزاء البيضة، سابغ[4] وقونس[5] ومواثمة[6] ويقال للبيضة أيضًا خوذة، وهى غطاء الرأس للجند وقوادهم، حيث كان الفرسان يتحصنون بها ضد ضربات عدوهم فوق الرأس بلبس الخوذات، وكان النوع المبكر من الخوذة الإسلامية عبارة عن قلنسوة متناسبة الطول مخروطية الشكل[7].

ثانيًا: أغطية الجسم

الدرع[8]

ذكر «القلقشندى» أن الدرع هو جبة من الزرد[9] المنسوج يلبسها المقاتل فى الحرب لتغطية

(1) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص184، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص384.
(2) هى بيضة الحديد التى تغطى الرأس والقفا ويسمى مقدمها القونس ومؤخرها الدائرة، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص63 -64، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص178.
(3) تاج العروس، ج5، ص11.
(4) السابغ هو الذى يستر العنق، انظر النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص240 -241.
(5) القونس فى اللغة مقدم الرأس وقونس البيضة من السلاح مقدمها وقيل أعلاها أو السنبك أو الحديدة الطويلة التى كانت تعلو جمجمة البيضة، وربما أطلق القونس على أحد أنواع الخوذ من باب تعميم اسم الجزء على الكل، انظر لسان العرب، ج8، ص66 -67، حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص346، هامش 3، ابن سيده، المخصص، ج6، ص73.
(6) من المناسبة أو الموافقة، والموأم يعنى راس، وكانت اللفظة تطلق على البيضة التى لا جمجمة لها أى التى لا ترتفع فوق الرأس، وإنما تتخذ هى شكل الرأس نفسه كالطاقية مثلاً، ومع هذا فإن لفظ الخوذة كالبيضة والمغفر والقونس والموائمة، انظر لسان العرب، ج8، ص67، ج16، ص113 -114، حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص346.
(7) أبو الحمد محمود محمد فرغلى، تصاوير المخطوطات فى عصر الأيوبيين، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، القاهرة 1401هـ/ 1981م، ص209.
(8) الدرع فى اللغة لبوس الحديد تذكر وتؤنث والجمع أدرع وأدراع ودروع، وأدرع أو تدرع بالدرع أى لبسه ويقال للدرع أيضًا زرد أو زردية، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص435، بن سيده، المحكم، ج2، ص7، ابن سيده، على بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، الطبعة الأولى 1958م، مطبعة البابى، ج2، ص7.
(9) الزرد هو حلق الدرع الذى يتداخل بعضه فى بعض مكونًا الدرع المزرودة والزراد صانعها، ويقال إن الزاى حلت محل السين فى السرد والسراد والسرد هو ثقب الحلقة والسراد صانعها، وهو ثوب ينسج من الحديد يلبس فى الحرب وقاية من سلاح العدو، تعريب زره الذى بمعناه وزرخ لغة فارسية، والدرع لغة فى الزرد وقالوا فيها زرد وزرديّة وزراد ودرع وادرع وتدرع ومنه زرخ بالتركية، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص177، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص77.

الصدر والظهر ونصف الذراعين تقريبا، وذلك لوقاية مرتديها من ضربات السيوف وطعنات الرماح[1] وتأثير السهام[2]، هذا بالإضافة إلى أن الدرع[3] غطاء واق لأجزاء من جسم الخيل[4]، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فكرة الدرع مقتبسة من الدروع الطبيعية التى تكسو أجساد بعض الحيوانات كالسلاحف وما إليها[5]، هذا وقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن داود ـ عليه السلام ـ أنه ألين له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: 11]، وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80]، ولذلك تنسب الدروع القائمة إلى نسيج داود ـ عليه السلام[6]، هذا ويعتبر الدرع السلاح الرئيسى للدفاع، بالإضافة إلى أنه من أهم وسائل الوقاية للمقاتل[7].

سأل على ـ رضى الله عنه ـ أعرابيًا عن سبب لبس الدرع فأجاب أقى نفسى وأثبت به جنانى وأقوى قلبى[8]، هذا وقد حذر «الحسن بن عبد الله» أن يضرب المقاتل بسيفه درع خصمه فيقول «ولا تضرب الخصم إلا فى المكان الذى لا سلاح فيه، وعليك بالأطراف، فقليل الجراح فيها كثير، ولا تضع الضرب فى الدرق أو التروس، فربما نبا السيف أو نشب أو التوى»[9].

وترجع أهمية الدرع الوظيفية إلى كونه رداءً حربيًا كان يلبسه المحارب طوال اشتراكه فى القتال وفى الحراسة أو عند خروجه فى المواكب المختلفة، ولذا تميز الدرع بملازمته للمحارب، بمعنى عدم إمكانه الاستغناء عنه فى وقت القتال، إذ أنه من الممكن مثلاً أن يستغنى المحارب عن ترسه، ويكتفى بالدرع الذى يرتديه، وعلى الرغم من تعدد أنواع

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142.

(2) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص61.

(3) لم يقتن الدروع من العرب غالبا إلا الفرسان، وهى من صنع الروم أو الفرس على الغالب، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص61، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص195.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص69، 80.

(5) قتيبة الشهابى، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(6) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142.

(7) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص370.

(8) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص370 – 371.

(9) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص161.

الـدروع فإنها جـميعًا كانت تقوم بوظيفة واحدة، وهى وقاية المحارب من ضربات خصمه[1].

مكونات الدروع الكاملة (المركبة)

هذا ومن مكونات الدروع الكاملة (المركبة) الجوشن الذى يقى الصدر، البيضة أو الخوذة، المغفر وهى الأجزاء التى تقى الرأس وقد سبق الحديث عنها، ثم أجزاء أخرى لوقاية الساعديـن والسـاقين والكفين[2] ولكل منها اسم خاص[3]، ويطلق على الدروع كلمة «لبوس»، وكلمة «لاءمه»[4].

الجوشن[5]

فهو عبارة عن نسيج من حلقات حديدية معدنية[6] رفيعة[7] تشبه فى نسجها إلى حد ما «الشبكة» التى يضعها رجال الفرسان فى بعض الجيوش على أكتافهم[8]، هذا إلى جانب أن حلقاتها كان تنسج مزدوجة، وتسمى «الدروع المضاعفة»[9] لتزداد إحكامًا[10] ومنعة[11]، فالجوشن درع مكون من صدر لا ظهر له ولا أكمام، وكان يصنع من ألواح صغار من

(1) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص338.

(2) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص27، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص195، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص61.

(3) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص93.

(4) لأمه والجمع لأم ولؤم، الدرع أو السلاح بوجه عام، يقال استلاءم الرجل أى لبس اللاءمة وهى ما عنده من عدة رمح وبيضة ومغفر وسيف... لمزيد من التفاصيل انظر ابن سيده، المخصص، ج6، ص70، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص308، هامش 4، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص61، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص50.

(5) لفظة فارسية معربة، تعنى الصدر أو الجزء العريض من وسط الصدر، وتطلق اللفظة على الحديد الذى يلبس لوقاية الصدر، كما تطلق على الدرع أو الزرد المصنوع من حديد لوقاية الصدر، ويتميز الجوشن عن الدرع بتزويده بصفائح معدنية لتقويته، انظر لسان العرب، ج16، ص239 –240، القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص473، الطرسوسى، التبصرة، ص16، حسين عليوة، السلاح المعدنى، هامش 1، ص376.

(6) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص308.

(7) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص177.

(8) تاج العروس، ج9، ص161، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص319.

(9) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص178.

(10) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص61.

(11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص319.

الحديد، أو الحديد الممزوج بمسحوق القرن ويلبس حول الجزء الأوسط من الجسم فوق الثياب، ويبدو أن الجوشن يدل على بطولة صاحبه فى القتال، فقد سئل على ـ رضى الله عنه ـ لمثل هذا الدرع فأجاب: «إذا استمكن العدو من ظهرى فلا يبقى»[1]، وقد تحدث «الطرسوسى» عن الجواشن فقال: «وصفة عمل الجواشن والخوذ لا تنفذ السهام ولا تعمل فيه سنان و لا حسام»[2].

هذا وقد بلغت صناعة الدروع أقصى ازدهارها عند المسلمين فى فترة الحروب الصليبية فيذكر «الطرسوسى» لدى كلامه عن صناعة الدروع «أن الجواشن كانت تصنع من قطع صغيرة من الحديد تارة، ومن القرن تارة، ومن الجلود تارة أخرى»[3]، وقال أيضًا «كانوا يركبون أخلاطًا إذا عجنت واتخذت جواشن منعت السهام أن تنفذ فيها، وأثنت السيوف بل فللتها وكسرتها»[4].

وتحدث «الطرسوسى» عن صفة عمل جواشن أخرى لا تعمل فيه السيف ولا النشاب فقال «تؤخذ جلود الإبل فتنقع فى اللبن والقلى إلى أن ينقشر شعرها ويبيض لونها وترفع وتفصل عن الجواشن وتترك فترة... ثم تعمد إلى نوع من الزجاج ثم تسحق سحقًا ناعمًا ويخلط مع برادة النحاس الأحمر ومواد أخرى فتؤخذ من كل واحد جزء وتعجن بالغراء... ثم تترك لتجف فإذا كمل فيبس بالدهن ودهن الأصباغ على أى لون شئت وتذهب وتدهن بدهن الفراغ على ما جرت به العادة فإنه لا تؤثر فيه السيف»[5]، هذا وقد كانت ضربة الرمح أو السيف أو الفأس تحطم الزرد، فتخترق حلقاته المتشابكة جسد المحارب وتصيبه وتشتد خطورته إلى حد بالغ، لهذا فقد كان ضروريًّا أن يلبس تحت الزرد ثوب سميك محشو أو ملبد، هذا مما يعوق المحارب أيضًا؛ لأنه يغدو إنسانًا مدرعًا ثقيلاً يفقد حرية الحركة وسرعة الالتفات[6].

عيوب الدروع المعدنية

على الرغم من أن الدروع لها مزاياها الدفاعية، إلا أن عيوبها تظهر عند الاستعمال فمن عيوبها:

(1) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص381.
(2) الطرسوسى، التبصرة، ورقة رقم 117 أ، ب، نقلاً عن محسن حسين، ص319.
(3) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 116ب، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص18.
(4) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 116ب، عن محسن حسين، ص319 –320.
(5) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 118أ، عن محسن حسين، الجيش الأيوبى، ص321.
(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص321.

ثقل وزنه لأنه مصنوع من الحديد[1]؛ لأن القميص المزرود كان ثقيلاً على الكتفين، وقد كان ثقيلاً جدًّا بحيث يتعذر استخدام السيف فى قوة ويسر[2]، هذا بالإضافة إلى طول الدرع الذى كان يصل فى بعض الأنواع إلى الركبة أو إلى أسفل منها[3]، مما كان يسببه ذلك أحيانًا من تقييد لحركة المحارب[4].

أضف إلى ذلك أن من عيوب الدرع سخونته فى الصيف وبرودته فى الشتاء وتعرض لابسه عند القتال للإصابة بجروح عند كسر بعض حلقاته ونشوب حديدها فى جسمه، مما يتسبب عنه أضرار جسيمة[5].

ويمكن القول إنه أمكن التغلب على هذه العيوب بارتداء ثياب من قماش سميك تحت الدرع المعدنى وفوقه، حيث كانت الأردية بمنزلة عازل بين جسم المحارب والدرع، كما كانت الأردية تساعد على تقليل أثر الضربات التى تصيب المحارب[6]، هذا وقد تطورت هذه الواقيات وأصبحت أكبر وأكثر وأخف وزنا وإعاقة[7]، وقد وردت إشارات عديدة عند المؤرخين حول استعمال هذه الدروع والكزاغند[8] أيام الحروب الصليبية الذى هو ثوب مبطن بالحرير يلبس أيام القتال[9]، وهو يشبه الكبر أو الكبورة الذى هو قباء محشو يتخذ

(1) Wilkinson, Let's look at arms and armour, .p19.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص321.

(3) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ، ص314.

(4) انظر: Wilkinson, Ibid, p19, Robenson ,oriental Armour, p7

(5) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص343. Wilkinson, op.cit, pp19-20

(6) نجم الدين الأحدب، كتاب نهاية السؤل والأمنية، نقلاً عن حسين عليوة، «السلاح المعدنى»، ص343.

(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص321.

(8) الكزاغند أو القزغند، هو رداء من صفائح وحلق من المعدن ولكنه مغشى من الداخل أو الخارج بطبقة سميكة من الديباج الأحمر أو الأصفر، هذا وتدلنا المصادر التاريخية المعاصرة على أن القرقل عرف بهذا الاسم فى القرن 9هـ / 630م، وأنه كان يعرف قبل ذلك فى العصر الأيوبى وأوائل عصر المماليك باسم قزاغند أو كزاغند وقد استمر استخدام التسميتين حتى أواخر عصر المماليك.

لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص142، ج3، ص473، ج4، ص11 – 209، المقريزى، السلوك، ج1، ص253– 690، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج12، ص207، الحاشية، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص659.

(9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص321.

للحرب[1]، ويبدو أن الكبورة كان يلبسها الفرسان والمشاة معًا أيام «صلاح الدين»، فقد ذكر «ابن شداد»: «أن الرجالة كان عليهم الكبورة الثخينة»[2]، وقيل إن «صلاح الدين» كان يلبس المغفر الكزاغند بصوره دائمة أثناء المصادمات[3].

فذكر «ابن الأثير»: «بينما «صلاح الدين» يومًا فى خيمة لبعض أمرائه يقال له «جاولى» وهو مقدم الطائفة الأسدية، إذ وثب عليه باطنى فضربه بسكين فى رأسه فجرحه، فلولا المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك «صلاح الدين»، يد الباطنى بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضربًا ضعيفًا فبقى الباطنى يضربه فى رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع فى زيق الكزاغند فتقطعه والزردية تمنعه من الوصول إلى رقبته»[4].

هـذا وقـد ذكر «ابن واصل» و«ابـن شـداد» أنـه فى عام 589هـ/ 1193م قبل وفاة «صلاح الدين» بفترة قصيرة «فلم أجد عليه كزاغنده، وما كـان لـه عـادة يركـب بدونه... فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه وحدثته فى إهمال هـذا فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند...»[5].

الترس[6]

كانت الترس إحدى أسلحة الدفاع التى استخدمها المحارب المصرى منذ أقدم العصور[7] وهو ما يستتر به المحارب ويتوقى بها عدوه[8] ويقى بها نفسه[9] وجسده من

(1) الجواليقى، المعرب، ص252، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص322.

(2) ابـن واصـل، مفـرج الكـروب، ج2، ص365، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص190، ابن شداد، النوادر، ص 179.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص322.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص138، ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص29، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص44 -45، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص86، هامش10، نهاية الأرب، ج28، ص380.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص415، ابن شداد، النوادر، ص242 ص243.

(6) الترس فى اللغة السلاح الذى يستخدم فى الوقاية، ويجمع على أتراس وتراس وتروس، ويقال تراس لصاحب الترس أو لابسه، والتترس أو التتريس بالترس يعنى التستر به (الوقاية)، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص330، ابن سيده، المخصص، ج6، ص74.

(7) Wilkinson, Arms and armour pp 9-10, Saxtorph , warriors and weapons of early times (Bland ford press), London, 1972 p 142 .

(8) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص135.

(9) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص186.

ضربات السيف والرمح والسهم والحجارة[1] وغيرها، هذا ويطلق على الترس أسماء أخرى كالدرقة[2] والحجفة[3] والجنوية[4].

هذا وقد أشار «الحسن بن عبد الله» إلى أهمية التروس بقوله «لا ينبغى أن يدخل فى حرب بسيف إلا ومعه ترس إلا عن ضرورة»[5]، وعلى هذا فقد كان يطلق لفظ «أكشف» على من ليس معه ترس فى القتال[6].

صناعة التروس

اتخذت التروس ابتداء من درق السلاحف الكبرى نظرا لقوة تحمله العالية، ثم أصبحت تتخذ من جلود بعض الحيوانات كالإبل والبقر، حيث كان يطلق عليها فى هذه الحالة اسم «الحجف أو الدرق»، كما سبق أن ذكرنا[7]، وقد يصنع الترس من الخشب ويطلق عليه فى هذه الحالة «القفع»، ويستعمل فى وقاية المقاتلين الزاحفين نحو الحصون، وما شابهها من الحجارة خاصة، ويبدو أن الخشب الذى يستخدم لهذه الغاية يختار من النوع القوى الذى يحتمل

(1) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص387، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص135.

(2) ضرب من الترس الواحدة (درقة) تتخذ من الجلود غير الدرقة الحجفة وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب والجمع درق وأدراق ودراق ودروق، وهى مصنوعة من عيدان مضمومة بعضها إلى بعض بخيط القطن ونحوه فإن كانت من جلد قيل لها درقة، لمزيد من التفاصيل انظر لسان العرب، ج11، ص384، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص143، النويرى، ج6، ص239 –240، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص68، المخصص، ج6، ص74.

(3) حجفة هى الترس الصغير وجمعها حجف ومحاجف وهو صاحب الحجفة فى القتال، والحجفة هى التروس من جلود بلا خشب ولا عقب ولها أشكال مختلفة تختلف بحسب الأماكن والبلاد، يقال رجل تراس – صاحب ترس – وتجمع الترس على تراس وتروس وأتراس وترسة، وتجمع الحجفة على حجف، لمزيد من التفاصيل انظر لسان العرب، ج15، ص383، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص143، ابن سيده، المحكم، ج3، ص63، ابن سيده، المخصص، ج6، ص74، النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص239 –240، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص135 –136، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص16 – 17.

(4) الجينة، يسمى الجنة أيضًا أخذا من الاجتنان، وهو الاختفاء ما اتقى بها كالترس، والبيضة، والدرع، فأما الترس فمن أسمائه بصيرة ترس، جوب، جُنَّة، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص143، النويرى، نهاية الأرب، ج6، ص239 –240.

(5) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص161.

(6) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص388.

(7) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ضربات السلاح، كخشب الجوز مثلاً، وقد يلصق على سطح الترس جلد مساو له فى المساحة، وقد تتخذ التروس من الحديد والفولاذ[1].

أصناف الترس وأنواعه: كان الترس عند العرب[2] على أصناف، ولقد تعددت أنواع التروس نظرا لتعدد طرق استعمالها والحاجة إليها فكان منها:

الترس المسطح

والذى يستعمل لاتقاء طعنات الرماح[3] وضربات السيوف وسهام القسى، غير أنه لا يستعمل لاتقاء الحجارة، وينظر من جانبه حين الاستعمال[4].

الترس المستطيل

المحفر الوسط[5] ويستعمل فى اتقاء النشاب خصوصًا من قبل الفرسان، إذ أن طوله يعمل على حماية الفارس وفرسه[6].

الترس المقبب

الترس المقبب المنحنى الأطراف[7] إلى الخارج، وهذا النوع لا يتقى به الرمح؛ لأنه قد يثبت فيه، وإنما يستعمل لاتقاء ضربات السيف والنشاب ويكون مبسوط الأطراف، وفيه تقبيب قليل، فتتقى به ضربات جميع الأسلحة على أنواعها[8].

---

(1) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص389.

(2) غنم العرب من الصليبيين بعضا من أتراسهم التى كانت تسمى «الجنويات»، وهى أتراس مستطيلة أو بيضوية يمكن نصبها لتقف على الأرض، فيستخدمها الرجال فى القتال وتكون بذلك للصف كالحصن المانع الذى يقيه من النبال، كما ويمكن حمل الجرحى عليها عند اللزوم، انظر إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص71.

(3) آثار الأول، ص161، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص188، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص195، نعمان ثابت، الجندية، ص179.

(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص391 –392.

(5) عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص187، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص69، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص16– 17.

(6) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص391 –392.

(7) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص195.

(8) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الترس المستدير (المدور المعدنى)[1]

ويكون منحنى الأطراف من جهة حامله له قمة بارزة إلى الخارج تسهل انزلاق الرمح عنه إذا أصابه ويستعمل الترس باليد اليسرى[2].

وذكر «الطرسوسى» عن التروس «هى أصناف كثيرة وأنواع ولها أشكال متباينة وأوضاع فمنها المدور اللطيف والواسع التدوير ومنها المستطيل فى تدويره المستحسن التقدير، وكل منها مستجد فى دفنه ونافع فيما يراد من ستره وكنه»[3]، ومن معدات وقاية الجسم الأخرى، ما كان يلبس سواء منها فى الرأس أو فى الصدر و الظهر، وكذلك الذراعين، وحتى الركبتين، وكان ارتداؤها ضروريًّا للحد من تأثير الأسلحة، لا سيما السلاح الأبيض كالسيف والرمح والسهام.

هذا ونرى أن صنع معدات وقاية الجسم المعدنية كان يكلف الكثير من المال والجهد والوقت، لهذا فإن ارتداءها اقتصر على القادة وأمراء الدروع والملابس، فقد كان من الصعب توفيرها لكافة المحاربين، فى وقت كان استخراج المعادن ومنها الحديد، وتصفيتها وصبها فى قوالب خاصة[4] أو تقطيعها وتركيبها على شكل مناسب للجسم، أو أحد الأطراف من العمليات الشاقة وتجرى فى ظروف صعبة وبطريقة بدائية، جعلت توفير المعدات لكافة المحاربين أمرًا غير ممكن، هذا وقد تحدثنا عن الأغطية الحديدية التى كانت تلبس على الرأس وسائر أجزاء الجسم[5].

ويمكن القول إن الترس الذى استعمله المسلمون فى الحروب الصليبية كان مستدير الشكل[6]، ونجد أن الصناع المسلمين كانوا قد تفننوا فى صنع الأتراس ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار[7].

(1) أبو الحمد فرغلى، تصاوير المخطوطات فى عصر الأيوبيين، ص216.

(2) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص391 – 392.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص12.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص318.

(5) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) هذا ما ذكره محسن حسين فى أن التروس المعروضة فى متحف دمشق الحربى مستدير الشكل، ص316، هامش2.

(7) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص69، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص187، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص16.

عيوب الترس

هذا وقد كان من عيوب الترس أنه كان كبيرًا وكان يضايق المحارب ويشل استخدام ذراعه اليسرى التى تمسك به، إلا أنه كان مريحًا أكثر للمشاة فكان على الفارس أن يحمل ترسًا خفيفًا ليكون أكثر قدرة على الحركة[1]، هذا وقد حدث تأثر بين المسلمين والصليبيين أثناء المعارك الحربية التى دارت بين الفرقين بالمعدات الحربية ومنها الترس فصار المحارب المسلم يستعمل الطارقيات[2].

الحسك الشائك[3] (مثلثات)

أصل الحسك

هو نبات له ثمرة خشنة «شوكية» ذات ثلاث شعب[4] تتعلق بصوف الغنم[5] ووبر الإبل[6] فى مراتعها[7] وهى شوكة صلبة معروفة[8]، إلا أن اللفظ سار يطلق على آلة صغيرة تصنع من

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص316.

(2) الطارقيات، هى التروس التى كان يستعملها الفرنج والروم، وكانت الطارقيات مستطيلة فى شكلها بحيث تستطيع أن تستر جسم الرجل أو الفارس، انظر التبصرة، ورقة 109ب، نقلاً عن محسن حسين، الجيش الأيوبى، ويرى دوزى أن أصل الطارقة مأخوذة من الكلمة اللاتينية تاركا (Targa)، دوزى، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص316، وقيل فى موضع آخر إن الطارقة هى عبارة عن شبه عباءة كان يستخدمها الجندى لوقايته، وذكر النويرى «وأمر السلطان بالطوارق والجفاتى فصفت وجعل الرماة وراها»، وقد استعمل الصليبيون الطوارق، وذكر فى الفتح القسى النص الآتى: «كانوا الصليبيون للطوارق حاملين وللحملات مطرقة، وفى موضع آخر: لمعت بوارق ببارقة وراعت طوارق طوارقة»، انظر عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص39، وذكر ابن الأثير «أن المسلمين رموا الصليبيين بالطارقيات عند فتح حصن برزية المنيع» فى جمادى الآخر سنة 584هـ/ 1188م، انظر ابن الأثير، الكامل، ج9، ص193.

(3) ذكر ابن سيده فى المحكم أن الحسك هى عشبة تضرب إلى الصفرة ولها شوكة تسمى «الحسك»، ابن سيده، المحكم، ج3، ص24، وقيل فى موضع آخر إن الحسك من أدوات الحرب، وربما اتخذ من حديد وألقى حول العسكر، وربما اتخذ من خشب فنصب حول الدبابة، انظر ابن سيده، المخصص، ج6، ص74، ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص292 –293.

(4) تاج العروس، ج7، ص119، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص154، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص195.

(5) ابن سيده، المحكم، ج3، ص24.

(6) تاج العروس، ج7، ص119، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص39–40.

(7) تاج العروس، ج7، ص119.

(8) الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ص617.

الحديد أو الخشب[1] ذات أطرف شوكية على هيئة مثلث مستدق الأطراف شبيه بأشواك الحسك الإبرية، ترمى فى طريق خيول العدو لتنشب فى حوافرها وتمنعها من الحركة[2]، وهى من أسلحة الحرب الدفاعية[3] التى كـان لها شـأن خطـير فـى الحـروب القديمـة[4]، وقد يجعـلون للحسك أكثر من ثلاث قوائم، كأن تكون ذات قوائم (شعب)[5]، وعندئذ يكون للحسك ثلاث شوكات قائمة على وجه الأرض وتتعزز فى الأرض ثلاث شوكات الأخرى[6].

هذا وقد أشاد «الطرسوسى» الذى كان معاصرًا لـ «صلاح الدين» والعصر الأيوبى بهذه الآلة إلى جانب أنه قد يمتدح نكايتها ويصفها بأنها من ألطف الآلات «جمعت بين المحاسن والكفاية، وأنها أبدع المصنوعات وأسرعها تأثيرا فى النكاية»[7]، وهى مكيدة ترمى فى الأرض التى تعلم أن العدو يسلكها إليه... فإذا ساقت الخيل عليها ووطيت على شوكتها القائمة فيها عقرتها أشد عقر وأثرت فيها أعظم أثر فتسقط الخيول بمن عليها وتهلك بها أصابها من تلك النكاية وما لذ بها[8].

استعمالات الحسك الشائك

كان الحسك الشائك يستعمل أو يستخدم فى الحالات الآتية:

(1) لاستدراج العدو وإيقاعه فى كمائنهم المنصوبة، وذلك بخدع العدو بالدخول معه فى معركة وهمية، ثم التظاهر بالهزيمة، وعندما تبدأ قوات العدو بمطاردتهم ينثرون الحسك فى طريقها، فينشب فى أرجل الخيل فلا تتقدم ولا تتراجع، عندها يبرز رجال الكمين، ويحاصرون العدو ويرمون بالسهام ويقضون عليه[9].

(1) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص154، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص394، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص144.

(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص194، إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب، ص154 –156، عبد الرءوف عون، الفن الحربى، ص196، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص395.

(3) المحكم، ج3، ص24، محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص394.

(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص95 –96.

(5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص395.

(6) الطرسوسى، التبصرة، ص19 –20، أمين الخولى، الجندية والسلم، ص42.

(7) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص194.

(9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص325.

(2) في فترات توقف القتال اليومي، إذ كانوا يدخلون معسكرهم ويفرشون الأراضي التي يحتمل أن يتقدم عسكر العدو منها بالحسك لكي يحتاطوا من مفاجأته لهم ليلاً، وكان هؤلاء الفعلة من المتدربين يتقنون مهمتهم هذه بشكل جيد[1]، هذا وكان من الضروري أن تحدد شوكات الحسك وتبرد وتسقى بالسموم[2]؛ لأن هذه الآلات كما يذكر «الطرسوسي» إذا سقيت قتلت[3].

الأسلحة الدفاعية للخيل: «اللجام، السرج، الحذوة، التجفاف»:

اللجام:

يتخذ من الحديد أو الخشب أو الحبال حيث يدخل في فم الدابة ويلزمه إلى قفاه، ويتكون من:

الشكيم

وهو حديدة تعترض في فم الفرس ويتوسطها ما يسمى «الفأس»، ويثبت الشكيم بشكل مستعرض بين حديدتين ممتدتين طوليا تدعيان «المسلحين»[4].

الحكمة

وهي حديدة اللجام تكون على أنف الفرس، وتحيط به وتمنعه من مخالفة راكبه.

العنان

وهو سير جلدي كذلك تمسك فيه الفرس، حيث يعترض سيراه على صفحتي العنق من يمين وشمال، ويبدو أنه كان يتخذ من حبال يضفرونها مع بعضها البعض .

الغدار

وهو ما وقع من اللجام على خدي الفرس، ويتخذ من سيور جلدية يجتمع طرفاه عند القفا[5].

---

(1) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص169.
(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص325.
(3) الطرسوسي، التبصرة، ص19 –20.
(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص419.
(5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص421.

السرج

يوضع على صهوة الفرس ليقعد عليه الفارس، وفيها أماكن لتعليق الفئوس والدبابيس، ويعلق على السرج ركابان، كانا يتخذان من الخشب ثم أصبحا يصنعان من الحديد، ويبدو أنه كان هناك اتجاه لعدم الاستناد عليهما فى المعركة[1].

الحذوة

تلبس حوافر الخيل بالنعال (الحذوة)، وكانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، ووظيفة (الحذوة) حماية حافر الفرس مما يعترضه أثناء السير، لذا كان بعض الفرسان يفضل الحافر الصلب لقلة تأثره إذا ما اختفى، وتتخذ الحذوة من الحديد، وقد تتخذ الحذوة من الجلد البقرى المدبوغ[2].

التجفاف[3]

هو من الأسلحة الدفاعية[4] وهو عبارة عن لباس يرتديه الفارس[5] وكذلك حصانه، للوقاية من الإصابة بالنار، هذا وقد ذكر «ابن شداد» أن التجفاف كان لباسًا واقيًا خاصًّا بالمحاربين الفرسان، عندما تحدث عن عدد أفراد جيش إحدى الحملات الصليبية، وقال: كان عددهم «اثنين وأربعين ألف مجفف، وأما الرجال فلا يحصى عددهم»[6]، وقد شرح لنا «الطرسوسى» طريقة صنع التجافيف، وهو أن تؤخذ تجافيف مبطن باللبود فيكسى بها الخيل بعد أن تطليها بالطلاء المانع من إحراق النار[7]، هذا ويشرح «الطرسوسى» طريقة تحضير المواد التى تطلى بها الملابس الواقية، ويقول إنها مكونة من الطلق المحلوب والصمغ العربى والجبس والدقيق وبياض البيض وغيرها، ثم تعجن هذه المواد «بخل خمر قد مزج بالماء حتى

(1) محمود سليمان عواد، الجيش، المرجع السابق، ص422.
(2) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص425 –426.
(3) جمعها تجافيف، والتجفاف هو لفظ فارسى أصله (تن بناه) أى حارس البدن، وفى موضع آخر ذكر صاحب الإفصاح فى فقه اللغة أن التجفاف هو آلة للحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه فى الحرب، وقيل جفف الفرس أى ألبسه التجفاف، لمزيد من التفاصيل انظر أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص34، الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص618، الجواليقى، المعرب، ص191، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص18.
(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص92.
(5) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص17.
(6) ابن شداد، النوادر، ص126.
(7) الطرسوسى، التبصرة، ورقة (145ب)، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص323.

انكسرت حموضته عجنا شديدا وتلطخ بذلك التجافيف لطخًا جيدا»، ثم يقول «وتشدها فى مقدم الفرس وفى مؤخرته وهو الكفل، كل ذلك على التجافيف، أما المحارب فيلبس درعًا من خيش مبطن باللبود وسراويل، وقد أشبعت جميع ذلك الطلاء المذكور... وكذلك تطلى بها القلنسوة المصنوعة من اللبود»[1] أما «ابن منكلى»: «فيجعل التجافيف لباسًا يغطون به جسم الفرس»[2]، وقيل إن الأمراء الفرسان المسلمين استخدموا التجافيف لوقاية خيل الجهاد[3].

الخيل ودوره فى المعارك

من المؤكد والمتعارف عليه فى حروب العصور الوسطى أنها لا تكاد تخلو معركة من المعارك من استخدام الخيل، نظرا لأنها تلعب دورًا مهمًّا فى المعركة، وطوال فترة العصور الوسطى فى زمن السلم والحرب معا، ولم يكن فى الإمكان استخدام أى فرس للقتال؛ لأن فرس الحرب يختلف عن الفرس العادى، فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك، ولهذا كان غالى الثمن، من الصعب استبداله، هذا ومن أهم الصفات التى تميز بها فرس الحرب سرعة اندفاعه فى الهجوم إذا لمست أصابع الفارس سيور اللجام لمسًا خفيفًا من خلف درعه، وفى العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته على الرغم مما كان يسببه من إزعاج فى المعركة، هذا ومن الأمور التى كانت تعيب الفارس، أن يعتلى صهوة جواد غير مدرب على الأساليب الحربية، هذا وقد فطن «نور الدين محمود» إلى ضرورة تدريب الخيل بمزاولة لعبة للكرة التى كان مولعًا بها، كى يتعود الفرس أسلوب الكر والفر[4].

النظم الحربية

يرى البعض فى الحروب الصليبية أنها كانت فصلاً من فصول الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وكان اللقاء الحربى أحد وجوه ذلك الصراع بين الفريقين الإسلامى والصليبى، ففريق أتى بقصد الغزو والاستيطان، وفريق آخر وقف موقف المدافع

(1) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص323.
(3) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص27.
(4) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص168.

عن أرضه وتراثه، وبين هذا وذاك ظهرت صور الفنون الحربية ونظم كل منها فى بلاد الشام[1]، والذى يدرس الحروب الصليبية خاصة الحملة الصليبية الأولى التى انتهت باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (493 هـ / 1099م) يلمس أنها حملة إقطاعية بكل ما انطوت عليه، قامت على أساس النظام الإقطاعى الغربى الذى ساد أوروبا أواخر القرن الحادى عشر، إذ أن الخدمة الحربية هى الأساس الأول لحيازة الإقطاع عند الصليبيين، وهو ما يتفق مع النظام الإقطاعى فى الغرب الأوروبى، فإننا نجد نفس الأمر عند المسلمين فى الشام، على زمن الحروب الصليبية[2]، ومما هو جدير بالذكر هنا أن النظام الإقطاعى الحربى انتقل كاملاً إلى الدول التى نبتت وتفرعت فى أحضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد، وهذه الدول هى الدولة الزنكية والدولة الأيوبية ثم دولة المماليك[3]، هذا وقد وضع نظام الملك وهو وزير الدولة السلجوقية (ملك شاة) نتيجة لاتساع الدولة وصعوبة السيطرة عليها وكثرة النفقات المالية الباهظة، حيث كانت تعطى المحاربين مرتباتهم نقدًا، ذهب الوزير بالتفكير إلى إعطائهم إقطاعات من الأرض بدلاً من المرتبات النقدية حتى سار الإقطاع الحربى هو القاعدة[4]، ويمكن القول إن الوجود الإسلامى امتاز باتساع رقعته وطول خطوط مواصلاته المتصلة شرقًا وغربًا، ففى الشمال حلب وحماة، وإلى الشرق منها الموصل وقلاع الجزيرة، وفى الغرب مصر وما وراءها غربًا وجنوبًا، ثم إن القاهرة غدت فى عصر الأيوبيين قاعدة للتدريب والتموين[5].

فئات الجيش الإسلامى

وطالما نتحدث عن أدوات القتال والمعارك الحربية فلا بد من الحديث عن الجيش الإسلامى فى عهد «صلاح الدين» والذى بلغ قمة نشاطه وتطوره وتنظيمه، هذا ويمكن القول إن هناك لفظين وردا فى الكتب التاريخية دون تحديد، ألا وهما العسكر والجند، فالمقصود بالعسكر فى عهد «صلاح الدين» الجيش النظامى، أما الجند فهم الجيش الاحتياطى أو الجيش الإقليمى[6]، ومهمة الجيش النظامى أو الثابت الخدمة الحربية بصفة دائمة

(1) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص149.
(2) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص150.
(3) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص151.
(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص2 -3.
(5) نظير سعداوى، المرجع السابق، ص173.
(6) نظير سعداوى، جيش مصر فى عهد صلاح الدين، ص8.

ويتقاضون راتبًا منتظمًا، ولا يفارقون السلطان، وأحيانا يكلفون بحراسة القلاع والحصون والدفاع عنها، وجعل «صلاح الدين» هذا الجيش من الأكراد والترك والتركمان وهم الذين اعتادوا حياة التقشف والخشونة[1] ويطلق عليهم «الفرسان»[2].

أما الجند فهم فى الحقيقة عساكر الأمراء أو مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء، فكان على كل أمير أن يشترك فى الحرب بجنده، وبمجرد أن تنتهى الحرب عادوا إلى مراعيهم وخيامهم، وهم لا يتناولون أجرًا ثابتًا مثل العسكر[3]، ولكنهم يأخذون نصيبهم من الأسلاب والغنائم[4]، هذا بالإضافة إلى فرق المتطوعين وهم الذين تطوعوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيش حبًّا فى الجهاد فى سبيل الله[5]، هذا وقد كان من واجبات الجند المتطوعين هى الإغارة على العدو قبل نشوب الحرب لإزعاجه فى قواعده وعرقلة تجمعاته وتخريب قواعد تموينه ومواصلاته، وقد تناط إليهم مهمة مطاردة العدو عند تقهقره، ويمكن القول إن المتطوعين يعوزهم التدريب والمطاولة والصبر فى القتال، ولكن قد يظهر بينهم من هو فارس أو يجيد الرمى أو يمتاز بخفة الحركة[6]، ولكنهم نظرًا لجهلهم بأساليب وحيل الحروب كثيرا ما كانوا يندفعون بحماسة دون روية فيسببون الارتباك والفوضى فى صفوف الجيش[7]، هذا بالإضافة إلى البدو الأعراب الذين حاربوا ببسالة فى المعارك وحرب العصابات والغارات المفاجئة، فضلاً عما قاموا به كأدلاء فى الصحارى لمعرفتهم بالدروب[8]، واستخدمهم «صلاح الدين» فى مواضع كثيرة، على أن البعض منهم لم يكن مخلصا للجيوش الإسلامية، ففى عام 578هـ/ 1172م، توجه «صلاح الدين» من مصر بغرض محاصرة الكرك والشوبك فوجد جماعة من البدو نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج[9]، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين[10]، وبذلك طعنوا المسلمين من الخلف وآذوهم فى خطوط

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص154.
(2) نظير سعداوى، جيش مصر فى عهد صلاح الدين، ص8 ، 10.
(3) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص154.
(4) نظير سعداوى، جيش مصر فى عهد صلاح الدين، ص12.
(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص157.
(6) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص158.
(7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص159.
(8) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص155.
(9) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص156.
(10) الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ص293.

تموينهم وطرق مواصلاتهم طمعًا فى المال[1]، ومهما يكن من أمر، فقد قسم «صلاح الدين» جيشه إلى عدة فرق، وتنسب كل واحدة منها إلى سلطان سابق، فيقال المماليك النورية نسبة إلى السلطان «نور الدين محمود»، أو تنسب إلى أحد القواد العظام السابقين، فيقال المماليك الأسدية نسبة إلى «أسد الدين شيركوه» عم «صلاح الدين»، أما مماليك «صلاح الدين»، فأطلق عليهم عدة أسماء فيقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه الملك «الناصر»، وقد تنسب الفرقة إلى جنسية أفرادها، هذا بالإضافة إلى طوائف أخرى مثل الأكراد وغيرها[2].

خطط وأساليب القتال

لا شك فى أن الجيش لا يستطيع أن يشترك مع العدو ويخوض معركة دون أن يكون قد رتب أموره، بحيث تتضح معالم الخطوات التى يتخذها وينبغى على الجيش ألا يتصرف بعشوائية تؤدى إلى اضطراب صفوفه، ولكن بالمقابل كان لروح الجهاد الفائقة التى امتلأت بها قلوب أكثر المحاربين المسلمين فى جيش «صلاح الدين» أثرها الفعال فى اندفاعهم نحو قتال العدو[3]، وكان لهذه الروح القوية قوة فاقت أثرا قوة التنظيم[4]، فقد كان الهدف الأساسى للجيش الأيوبى فى قتاله هو طرد المحتلين واستعادة الأراضى التى يحتلها المعتدون، ومن أجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الإسلامية مختلف السبل وشتى الأساليب، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، أو عن طريق إضعافه اقتصاديًا ومعنويًا وحصره فى نقاط الارتكاز التى حصنها، فالمسلمون لا سيما فى عصر «صلاح الدين» اتبعوا مختلف التكتيكات للإيقاع بالصليبيين، فالتكتيك فن القيادة فى ميدان المعركة، والتكتيك هو أيضًا فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة وطريقة تنظيمها فى حالة الهجوم والدفاع تبعا للخطة الموضوعة بمعرفة القيادة العامة[5]، والخطة العسكرية لم يكن يضعها «صلاح الدين» وحده بل كان له مجلسه الاستشارى الذى يأخذ رأيه ويعينه، ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من أن قيادة الجيش المركزية ظلت بيد

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص156.
(2) محمود الحويرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص205 – 206.
(4) جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص67.
(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص207.

صلاح الدين، والنجاح فى الغالب يكون مضمونا إذا حافظ القائد على التعرف الدائم بأحوال الأعداء[1].

هذا وقد كان اليزك[2] (الفرق الاستطلاعية) يقوم بدور أساسى فى هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو، هذا ومن الأساليب التى استعملها الجيش الأيوبى نجد أن هناك عددًا من الأعمال والإجراءات التى يمكن إدراجها تحت اسم «الأعمال التكتيكية»، ومن هذه الأعمال أنه فى موقعة بيت الأحزان أوعز إلى جنده بقطع كروم ضياع صفد فى غور الأردن وأمر بحصد غلاتهم، وقد قصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو حتى لا يستفيد من الكروم وأخشابها وذلك فى عام (575هـ / 1179م)[3]، هذا بالإضافة إلى أن لتكتيك قطع الماء أثره العميق فى إضعاف العدو وهزيمته، فالمعروف أن سيطرة الجيش الأيوبى على منابع المياه يوم حطين كان أحد أسباب هزيمة العدو كما ذكرنا فى فصل سابق، هذا وفى عام 587هـ لجأ الجيش الأيوبى إلى إفساد مياه بعض ينابيع القدس (587هـ / 1191م)، وذلك عن طريق إلقاء الزرنيخ أو طرح الجيف فيها[4]، وذلك لمنع وقوع هذه المدينة بأيدى الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة فى عكا[5].

ومن الخطط التى اتبعها تطبيقه لأسلوب الحرب الخاطفة ومباغتة العدو، والانتصار عليه قبل أن يستطيع تجميع قواه، وذلك يظهر بوضوح فى سنتى (583هـ/ 1187م و584هـ/ 1188م)، حيث لم يكتف بالانتصار الحاسم فى حطين بل اتبع انتصارات سريعة خاطفة فاستولى على عكا وصفورية والناصرة وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعًا، وحين استعصت عليه صور بسبب تحصينها اضطر إلى تركها وتوجه إلى بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ففتحها[6]، أضف إلى ذلك أن «صلاح الدين» نفذ خطته بنجاح فائق،

---

(1) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص207 –208.

(2) اليزك مصطلح فارسى يعنى مقدمة العسكر أو البصاص، والاستعمال العسكرى الأيوبى لهذه الكلمة بمعنى فرقة عسكرية تختص أساسًا بأعمال المخابرات الحربية وتمارس مهامها فى مقدمة الجيش الأيوبى ومهمتها الأساسية هى جمع المعلومات عن الأعداء أثناء المعارك، لمزيد من التفاصيل عن اليزك ومهامهم انظر د/ صلاح الدين البحيرى، المخابرات الإسلامية فى مواجهة الصليبيين، المجلة المصرية التاريخية، ألقى هذا البحث فى ندوة حطين التى نظمتها الجمعية المصرية الدراسات التاريخية عام 1988م، ص26، 31.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص208.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص191.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص389.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص209 –210.

وهى خطة القتال بالتناوب وذلك بأن قسم عسكره إلى ثلاثة أقسام يقاتل كل قسم منها فترة محددة ثم يستريح ليواصل القتال القسم الثانى ثم الثالث[1]، وكان الغرض من هذا الأسلوب هو إنهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، ولكن هذا الأسلوب اصطدم بمتانة أسوار صور بالإضافة إلى وضع المدينة الطبوغرافى[2]، وبالإضافة إلى ذلك نجد أن من الإجراءات الحكيمة التى لجأ إليها «صلاح الدين» هى إضعاف العدو اقتصاديًّا ومن هنا قام بتوطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية وقد كان لهذه الاتفاقية أهميتها من حيث ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجارى، فحصل على حاجاته من الحديد والخشب والشمع بالإضافة إلى إضعاف تجارة الصليبيين لا سيما إذا عرفنا أن «صلاح الدين» كان يسيطر على البحر الأحمر، ولا شك أن هذه التجارة أدت إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول الإسلامى الأيوبى[3]، ومن الخطط الحربية التى نفذها «صلاح الدين» بعد استشارة أخيه الملك «العادل» وأكابر أمرائه هى تخريب المدن التى يريد الصليبيون أن يستولوا عليها وعجز جيشه عن الدفاع عنها ويخشى أن يستولوا عليها، هذا وقد حدث تخريب لمدينة عسقلان المفتاح الجنوبى لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة إلى مصر وحصن الرملة[4] وحصن النطرون وجزء من سور يافا[5] وغزة[6] واللد[7] وحصن سرمينية الذى هدم عام 584هـ / 1188م، وتم تسويته بالأرض وعفى أثره[8]، ومما يدخل ضمن خطط «صلاح الدين» الإستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام والذى تبلغ المسافة بينهما مسيرة حوالى ثلاثين يومًا، ويبدو أنه أدرك وهو فى طريقه إلى الكرك والشوبك عن طريق أيلة منذ أن كان نائبًا لـ «نور الدين محمود» فى مصر أن الضرورة الحربية تقضى بتطهير شبه جزيرة سيناء من البدو التى ممكن أن تلعب دورًا تخريبيًّا وتعوق سلامة الطرق، فطهر الوديان ومعابر الطرق منهم ورأى من الحكمة أن يشيد قلعة فى قلب شبه جزيرة سيناء، هذا وقد شيد «صلاح الدين» القلاع والمنازل وأقام الحراس على طول الطريق بين مصر

(1) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص249.
(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص210.
(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص211.
(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص551، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص199، النجوم الزاهرة، ج6، ص47.
(5) الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ص410.
(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص213.
(7) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص551، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص213.
(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص264.

والشام فأعاد الأمن والسلامة إلى سيناء[1]، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بتحصين مدينتى مصر والقاهرة وثغور الديار المصرية ومداخلها وأهمها الإسكندرية ورشيد ودمياط وعيذاب وتنيس، وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الأحمر، وذلك لمحاولة الصليبيين مد نفوذهم إلى جهاته[2].

أرض المعركة

لا شك أن الأرض التى كانت تجرى عليها المعارك كان لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التى كان يضعها «صلاح الدين» مع مستشاريه، وكانت نتائج المعركة تتوقف أحيانًا على الأرض التى يختارها هذا الجانب أو ذاك، وكان نجاح القائد يظهر من حسن اختيار المواقع، بحيث يكون جيشه فى موقع حصين يضمن سلامته فى حالة الهجوم والدفاع ويضمن سهولة الحصول على المؤن والعتاد والرجال، ومن ثم المحاولة لجعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا بقدر المستطاع.

والواقع أنه لم تكن هناك أرض معينة يلتقى فيها الطرفان بشكل دائم، بل كانت المعارك تنتقل من أرض إلى أخرى، حتى إن أرض الشام كانت مسرحًا لكافة معارك «صلاح الدين» ضد الصليبيين منذ أن ترك أرض مصر عام (570هـ / 1173م)، ومما هو جدير بالذكر أن معارك هذا القائد كانت مضطربة، لا تسير على نظام على الرغم من معرفة «صلاح الدين» بطبيعة الأرض التى يحارب عليها، لذا طبق خططًا مختلفة تطلبتها طبيعة الأرض التى يحارب عليها[3]، لذا نلاحظ أن «صلاح الدين» طبق خططًا مختلفة تطلبتها طبيعة الأرض فى كل منطقة من مناطق بلاد الشام، فهو يطبق خطة فى أرض لا يطبقها فى أرض أخرى، ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة فى معظم الأحيان، لا سيما حينما كان الجانب الصليبى هو الذى يقرر موعد المعركة ويختار مكانها، أو أنهم يجلبون معهم الآلات الضخمة عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الأيوبى وتضطره إلى تغيير خططه وأساليبه[4].

طريقة القتال ووقته

فى الحرب وعندما تبدأ كان فرسان المسلمين يهاجمون من على ظهور خيولهم وفى أيديهم

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص214.
(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص215.
(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص217.
(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص217.

الرماح، وتميزت الخيول التى استخدموها فى القتال بصغر حجمها عن خيول الفرنج، هذا بالإضافة إلى أن الفارس المسلم تميز بخفته فى المعركة، فإذا تحرك وهو على فرسه فى المعركة مسيطرًا على فرسه سريع الالتفاف يحس مواطن الخطر فى وقتها، والسلاح الرئيسى الذى استخدمه المسلمون كان القوس بالإضافة إلى حملهم للدرع والحربة والسيف[1]، وغير ذلك من أدوات القتال، هذا ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين استغلوا مقدرتهم الفائقة على التحرك السريع فى تطويق العدو والالتفاف حوله كما يفعل النحل بالضبط وإذا لم يتمكنوا من ذلك يتفادونه، ومن المؤكد أن هذا التكتيك يحتاج إلى تفوق عددى، غير أنهم حرصوا على استخدامه دومًا مهما قل عدد المحاربين، حتى فى حالة التقهقر فإن رماة السهام كانوا قادرين على أن يلتفوا إلى الخلف بغتة من فوق صهوات خيولهم، ويصوبوا سهامهم تجاه مقتفى أثرهم من العدو[2]، هذا ويفضل المسلمون خوض المعارك الحربية ضد العدو فى فصل الربيع لاعتدال مناخه بعكس الشتاء الذى يشتد فيه هطول الأمطار، الأمر الذى يبعث الضجر فى نفوس العسكر وحدوث الأوحال التى تعوق السير[3]، هذا بالإضافة إلى أن «صلاح الدين» كان يتفاءل بيوم الجمعة للقاء العدو عند الصلاة تبركًا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر[4]، هذا وقد جرت العادة أن تبدأ المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين فى الصباح الباكر وتنتهى عند المساء، هذا وإن كان البعض يفضل أن تدور المعركة ليلاً، فقد كانت الأوامر تعطى بدق الطبول ثم النفخ بالبوق، ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الأعداء، وعند الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند أهبتهم بخيولهم وأسلحتهم[5]، وعند الضربة الثالثة يمتطون صهوات جيادهم ثم ينتظرون بقية الأوامر الصادرة إليهم ويعتبر التكبير بصوت عال من الصفات الحربية عند المسلمين والتى أفزعت الفرنج وحازت إعجابهم فى آن واحد[6]، هذا وقد جرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف الغرض منها الوقوف على حجم جيش العدو والتعرف على تحركاته، هذا وتعرف حركة الاستكشاف كما ذكرنا سابقًا فى مصطلح الدولة الأيوبية باليزك[7].

---

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص160.
(2) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص161.
(3) محمود الحويرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص221.
(5) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص161.
(6) محمود الحويرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(7) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص163.

هذا ويمكن القول إن السلاح بمختلف أنواعه وأشكاله وطرق صناعته لعب دورًا مهمًّا فى المعارك الحربية منذ أقدم العصور وعلى مختلف العصور نفسها قبل الإسلام وفى صدر الإسلام وبعد الإسلام، وذلك من أجل التوسع والاستيلاء على أماكن مختلفة ذات قيمة وثراء شديد، هكذا كان الاهتمام بالأسلحة وصناعة السلاح.

المبادئ التى كانت تخضع لها صناعة الأسلحة

تخضع صناعة الأسلحة كغيرها من الصناعات لمبادئ ومواصفات عامة، ومن أهمها أن تكون صناعة السلاح متوافية ومتوافقة مع وظيفته وكيفية استخدامه بمعنى أن يكون كل جزء من أجزاء السلاح كفئًا لوظيفته، وعلى سبيل المثال كان يراعى فى صناعة الخوذة أن تكون مقدمتها أكثر سمكًا من مؤخرتها، وذلك لتعرض المقدمة للضرب أكثر من المؤخرة والجنبين، وقد روعى الشىء نفسه فى صناعة الدروع، إذ كانت الصفائح الأمامية فى دروع الجوشن تصنع أكثر سمكًا وأكبر حجمًا من تلك التى كان يزود بها ظهر الدرع نفسه[1]، أما السيف فهو من الأسلحة الهجومية، مثلا يزود بواقية عرضية تعلو المقبض لوقاية يد حامله من الإصابة فضلاً عن وظيفتها فى المساعدة على إحكام القبض على السيف[2]، كما كانت يد الدبوس أو الطبر أو الرمح تتخذ هيئة تتناسب فى الطول والثقل مع حجم النصل فى كل منها وثقله، وقد أجمع مؤلفو كتب الفروسية والحروب وأسلحتها على أن السلاح خفيف الوزن أفضل من السلاح الثقيل لسهولة حمله واستخدامه، كما كان يعد من الصفات اللازمة للأسلحة الجيدة القطع أن تكون نصالها مستوية السطح معتدلة القد، بحيث لا يكون فيها موضع داخل وموضع خارج ولا موضع أثخن من موضع وأن يكون حدها رقيقًا قدر شعرة.

هذا وقد شهدت الفترة التى قام فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين أساليب متعددة من أدوات القتال، هذا وقد أظهر المسلمون تفوقًا واضحًا على الصليبيين فى أساليب الحرب والقتال، وهذا ما لاحظناه فى الكثير من المعارك الحربية المختلفة بل ظهرت فى كل معركة من المعارك الأسلحة التى كانت تستخدم من داخل الاستحكامات (الحصون ـ القلاع)، وأهمها المنجنيق الذى كان له الدور الفعال بل الفتاك فى المعركة الحربية.

أضف إلى ذلك الدور المهم الذى قامت به الأسلحة النارية وأهمها النار الإغريقية التى

(1) Wilkinson.lets us look at arms and armour, p32.، نقلا عن حسين عليوة، السلاح المعدنى.
(2) Hoffmeyer. Islamic swords of the middle age, p78، نقلا عن حسين عليوة، السلاح المعدنى.

كانت سرًّا من أسرار الأسلحة المرعبة الفتاكة التى أودت بحياة الصليبيين، هذا إلى جانب استخدام الأسلحة التقليدية الأخرى، والتى تتكون من أسلحة الحصار فى العصور الوسطى من الدبابات وأبراج الحصار المتحركة وسلالم تسلق الأسوار وغيرها من الأسلحة (أدوات القتال).

ومما هو جدير بالإضافة، الأسلحة الدفاعية التى كان يستخدمها المحاربون فى المعركة مثل الأسلحة الدفاعية الخاصة بالصدر أو اليد أو الأرجل، كما رأينا فى الدروع والتروس والجواشن، بالإضافة إلى أسلحة الرأس الدفاعية التى تقيها ومنها الخوذة والمغفر والبيضة.

ومما هو جدير بالذكر أن للحيوانات هى الأخرى أسلحة دفاعية مثل الفرس الذى كان يحتمى بالتجفاف واللجام والسرج والحذوة كما سبق أن ذكرنا، كل هذا التنوع فى الأسلحة أدى إلى انتصار المسلمين على الصليبيين فى معظم معاركهم الحربية، هذا وقد قيل إنه من أهم الأسس التى يجب مراعاتها عند استخدام هذه الأسلحة أنها يجب أن تحفظ غالبية الأسلحة فى جعاب أو حقائب جلدية حتى لا تحدث خشخشة أو أصوات يستدل منها الأعداء على أماكنهم[1].

(1) إبراهيم خميس خليل، الحيل والخدع العسكرية الإسلامية منذ بداية الغزو الصليبى حتى وفاة نور الدين محمود، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس والثلاثون 1988م، ص170.

■ الفصل الخامس

الأسطول ودوره فى العصر الأيوبى

مقدمة

لا شك أن البحرية فى مصر كانت قد تبوأت مركز الصدارة فى العصور الفرعونية القديمة، فقد كان لمصر مركز الصدارة فى سيادة البحار، وفى أحضان وادى النيل، وعلى ضفاف نهره المبارك صنعت أول السفن التى صعدت إلى أعالى النيل وانحدرت إلى أسفل أرجائه، ولم تكتف بهذا المجال الضيق، فخرجت بسم الله مجراها ومرساها تمخر عباب البحار والمحيطات وتجوب الثغور الدانية والموانى القاصية، حتى تبوأت مصر مركز الصدارة فى سيادة البحار بين شعوب العالم القديم[1]، وقد جاء نشاط حركة السفن فى عهد الدولة القديمة[2]، ولقد أعقب الحكم الفرعونى ثم الحكم البطلمى ثم الحكم الرومانى ثم جاء العرب وتم فتحها على أيديهم فى القرن السابع الميلادى، فدخلت مصر فى طور جديد من تاريخها المجيد الرائع استعادت فيه ماضيها المجيد، وبلغت فيه أساطيلها البحرية درجة أرهبت أعداءها ودعمت استقلالها، ثم جعلت منها إمبراطورية مترامية الأطراف[3].

الأسطول فى العصر الإسلامى

عندما ظهر الإسلام[4] وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر، رأوا سفن

(1) لقد استطاعت مصر أن تحافظ على هذا العصر الذهبى المرموق فى سيادة البحار قرابة سبعة آلاف عام، رغم ما قاسته من المحن وما لاقته من صنوف العذاب من الدول الأجنبية التى توالت على حكمها فى فترات ليست بالقليلة، لمزيد من التفاصيل: انظر سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتب العربى للطباعة والنشر سنة 1967م، ص15، انظر أيضًا سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية، وضع فصوله نخبة من الأساتذة المتخصصة بجامعة الإسكندرية سنة 1973م، المقدمة، ص ظ .

(2) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص18، سعد زغلول، تاريخ البحرية المصرية ج1، ص ط

(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) لم يركب العرب البحر قبل الإسلام، إلا ما كان من سفائن حمير وسبأ فى أيام التبابعة؛ لأنهم كانوا أهل تجارة فى البر والبحر، أما عرب الحجاز فإنهم كانوا يخافون البحر وذلك شأن البدو إلى هذا اليوم، لمزيد من التفاصيل انظر، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، وزارة الدفاع السلاح البحرى الملكى، القاهرة 1948م، أيضًا انظر جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، الجزء الأول، طبعة جديدة، راجع عليها الدكتور حسين مؤنس، دار الهلال، ط1 1920م، ط2، 1958م.

الروم وشاهدوا حروبها فتاقت أنفسهم للغزو وإنشاء السفن الحربية[1]، وقد كان أول من ركب البحر من المسلمين هو «العلاء بن الحضرمى»[2] خليفة «عثمان الثقفى» فى ولاية البحرين أيام الخليفة «عمر بن الخطاب»، إلا أن حملته قد باءت بالفشل[3] وفقد المسلمون سفنهم[4].

فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على «العلاء» غضبًا شديدًا؛ لأنه قام بها دون إذن منه، ولأن «عمر» كان يكره ركوب البحر[5]، وشدد «عمر» فى منع المسلمين من ركوب البحر[6]، وكان من «معاوية بن أبى سفيان» أن كتب إلى «عمر بن الخطاب» يستأذن فى ركوب البحر فرفض «عمر»[7] وراجعه «معاوية» فى ذلك وألح عليه[8]، لكن «عمر بن الخطاب» كتب إلى «عمرو بن العاص» عامله على مصر يطلب إليه أن يصف له البحر[9]، فكتب إليه «عمرو»: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركد حزن القلوب وإن زل أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»[10]، فلما جاء «عمر» هذا الكتاب كتب إلى «معاوية» يمنعه من ركوب البحر قائلا «لا والذى بعث «محمدًا» بالحق لا أحمل فيه مسلمًا

(1) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص213.

(2) المقريزى، الخطط، ج2، ص189، جميل خانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص115، ذكرت الدكتورة سعاد ماهر أن أول من قام بغارة بحرية هو عثمان بن العاص الثقفى والى البحرين وأوردت فى هامش أن كثيرًا من المؤرخين مثل ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 211، البلاذرى، فتوح البلدان، ص464، الموردى، الأحكام السلطانية، ص 194، 196، أن أول من ركب البحر فى الإسلام هو علاء بن الحضرمى.

(3) جرجى زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص213. سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63.

(4) على محمد فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص280 .

(5) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص62.

(6) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص213.

(7) على محمود فهمى، التنظيم البحرى الإسلامى فى شرق المتوسط، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى 1997، ص61، قاسم عبده قاسم، التنظيم البحرى الإسلامى، ص61.

(8) جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص116– 117.

(9) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ط1، ص211، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص214، على محمد فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص279.

(10) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ط1، ص211، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص214، جميل الخانكى تاريخ البحرية المصرية، ص116– 117، على محمد فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص280، وضع فصوله نخبة من الأساتذة بجامعة الإسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية بجمهورية مصر العربية، 1973م، ص 279 .

أبدًا، أما قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطوال شيء على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب فيغرقها، وتالله لمسلم واحد أحب إلى الله مما حوته الروم، فإياك أن تعرض لى، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقى «العلاء» منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك»[1]، هذا وقد كان لعهد «معاوية» إذن للمسلمين فى ركوب البحر والجهاد على أعواده[2]، وقد كان أعظم انتصار للعرب فى العصر الإسلامى فى الحروب البحرية موقعة «ذات الصوارى» التى كانت أهم المواقع الحربية البحرية التى كانت بين الأسطول البيزنطى وبين أسطولى مصر والشام متحدين تحت قيادة «عبد الله بن أبى السرح»[3] (34هـ/ 654م)، وهى الموقعة التى عرفت باسم موقعة أو غزوة «ذات الصوارى» لكثرة ساريات السفن التى التحمت فى القتال، وقد كانت موقعة ذات الصوارى ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين؛ لأنها إلى جانب أنها تعتبر جزءًا من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامة شواطئهم على البحر المتوسط، فإنها جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها[4]، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل فى سيادة ذلك البحر، وفى العصر العباسى[5] زاد الاهتمام بالأسطول نتيجة الغزوات البحرية التى شنها الروم على مصر، هذا بالإضافة إلى اهتمام الطولونيين بتدعيم قوتهم البحرية وإنشاء القواعد البحرية فى دمياط والإسكندرية إلى جانب اهتمامهم ببناء دور الصناعة التى تصنع السفن[6]، وفى منتصف القرن العاشر الميلادى عنى «محمد بن طغج الإخشيد» بإنشاء المراكب الحربية[7]، ونقل جزءًا من دار صناعة السفن

---

(1) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63، جرجى زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص214، جميل الخانكى، ص117، المقريزى، الخطط، ج2، ص19، جامعة الإسكندرية: تاريخ البحرية المصرية ص279.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ط1، ص211.

(3) على محمد فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص286، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص285 .

(4) وفى العصر الأموى بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وصار خليفة العالم الإسلامى بدأ استعداداته بحرا وبرا لحملة ضد العاصمة البيزنطية، وتطلب مشروع كهذا أسطول قام معاوية بتجهيزه وقام بحملتين الأولى سنة 48هـ/ 668م والثانية سنة 54هـ/ 673م، أما الحملة الثالثة فكانت سنة 98هـ/ 717م، بدأ فى تجهيزها الخليفة الوليد بن عبد الملك واستكملها أخوه سليمان بن عبد الملك، وقد استطاعت الحملات الثلاث أن تحقق أهدافًا واسعة برغم عجزها عن الاستيلاء على القسطنطينية، إذ جعلت البيزنطيين يتخلون عن مشاريعهم وأحلامهم فى استعادة مصر والشام وأن يدركوا أن جيوش الإسلام باتت قوية .

(5) فى العصر العباسى نتيجة لأن العباسيين نقلوا عاصمتهم من سوريا إلى العراق بعيدة عن الأراضى البيزنطية، وبهذا توقفت المشاريع البحرية الكبرى التى كانت توجه من سوريا ومصر ضد القسطنطينية، فالعباسيون الأوائل لم يقوموا بأى مشروع بحرى ذى قيمة، انظر تاريخ البحرية المصرية، ص297 .

(6) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص91.

(7) جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص141.

من جزيرة الروضة إلى الفسطاط فى دار عرفت باسم «دار صناعة السفن»، وأصبحت السفن الحربية والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة[1]، وفى صناعة الجزيرة تارة أخرى.

الأسطول فى العصر الفاطمى

كان للفاطميين دور مهم فى تاريخ الأسطول سواء خلال حكمهم ببلاد المغرب أو بمصر[2]، غير أن الذى يهمنا هو الفترة المصرية فعندما انتقل حكم مصر للفاطميين انتقل إليها نشاطهم البحرى أيضًا لحماية شواطئهم الطويلة، فقد سيطر الفاطميون على شواطئ الإسلام من إنطاكية إلى الإسكندرية وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله «وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدوم «المعز لدين الله» وإنشاء المراكب البحرية، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد، واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعسقلان»[3]، ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة «المعز لدين الله» أنشأ دارًا ضخمة لصناعة السفن بالمقس[4] بنى فيها ستمائة مركب، ووصفها المؤرخ «عز الملك المسبحى» بقوله «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرًا ووثاقة وحسنًا»[5]، بالإضافة إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة ودار صناعة الفسطاط[6] التى أنشأت السفن الحربية كالشوانى

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص94، جميل الخانكى، المرجع السابق، ص141 .

(2) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو 1951، ص104-105.

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص193، محمد كرد على، خطط الشام، ج5، دمشق 1346هـ/ 1927م، ص41- 42.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص475، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص97، إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى حوض المتوسط مكتبة نهضة مصر، القاهرة سنة 1963م، ص164، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص142، على إبراهيم حسن، مصر فى العصور الوسطى، ص322، المقس: ضيعة كانت تعرف باسم أم دنين واقعة على ساحل النيل وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا، وأنشأ بها الخليفة الحاكم «جامع المقس»، وقد عرفت فى أول الأمر باسم «المكس» لإقامة صاحب المكس، والعشار بها ثم قلبت الكاف (قاف) فقيل المقس، وهى محله بظاهر القاهرة على شاطئ النيل ومكانها اليوم محطة باب الحديد وشارع كلود بك إلى حديقة الأزبكية، انظر أيضًا أحمد مختار العبادى، البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك ضمن تاريخ البحرية المصرية، ص549، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص316.

(5) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص316.

(6) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية البحرية، ص1، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص316، كانت تصنع فى هذه الدور المراكب على أنواعها منها النيلية والحربية، فالنيلية كانوا يصنعوها لتمر فى النيل من أعلى الصعيد إلى مصاب النيل لتحمل الغلال وغيرها، والحربية هى مراكب للحرب لحمل المقاتلين للجهاد، والتى يقال لمجموعها الأسطول، لمزيد من التفاصيل انظر، المقريزى، الخطط، ج2، ص189. جرجى زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص219، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص497.

والشلنديات والمسطحات[1]، واستطاع «المعز» بفضل أسطوله الجديد أن يتابع فتح الشام[2] وإيقاف الأخطار التى تواجهه، أيضًا استطاع خلفاء «المعز» ومنهم «العزيز» إمداد قواته فى الشام بالأساطيل الحربية وحمايتها وتدعيم فتوحاتها[3]، وعمروا أنواعًا مختلفة من السفن الحربية كالشوانى... وغيرها[4]، هذا إلى جانب إنشائهم ديوانًا خاصًا للأسطول عرف باسم «ديوان الجهاد»[5]، غير أن الدولة الفاطمية لم تلبث أن ضعفت فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى[6]، وذلك بسبب اضطراب بلاد الشام[7]، ومما هو جدير بالإضافة أن البحرية الفاطمية تقلصت بسبب الانقسامات الداخلية[8] حينما تنازع الوزيران «شاور» و«ضرغام» على السلطة، وحرق «شاور» الفسطاط وأضرم النار بها[9]، كما أحرق مراكب الأسطول[10]، فاحترقت السفن التى كانت ترابط بصناعة مصر وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى، ولم يبق لها سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية فى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعيذاب[11].

البحرية زمن الأيوبيين

من الضرورى أن نعلم أن البحرية فى عهد «صلاح الدين الأيوبى» إنما هى استمرار للبحرية الفاطمية التى بذلت أقصى جهدها فى الدفاع عن السواحل المصرية والشامية التى

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص477.
(2) إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى البحر المتوسط، ص138.
(3) إبراهيم العدوى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، مطبعة الكيلانى الصغير، ص165.
(5) اختص ديوان الجهاد بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها، لمزيد التفاصيل انظر: المقريزى، الخطط، ج2، ص193، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990، ص79، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص104، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص474.
(6) ارشيبالد.ر.لويس، القواعد البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط(500–1100)، ترجمة أحمد عيسى، مراجعة وتقديم، محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، نيويورك، ص383.
(7) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية، المقدمة، ص 1–2.
(8) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، المقدمة، ص، 1–2.
(9) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص99، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص141.
(10) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص477، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص83.
(11) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص491، 493.

كانت تابعة للفاطميين فى وقت سابق[1]، وعندما بدأت الدولة الأيوبية تتحمل عبء الدفاع عن مصر ثم الشام، كانت البحرية المصرية قد ضعفت إلى درجة كبيرة سواء فى مصر أو فى بلاد الشام خاصة بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان وصور وعكا[2] وغيرها من القواعد البحرية فى الشام وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالإسكندرية ودمياط وتنيس، وقد ذكرت بعض المصادر والمراجع أن بلغت عدة الأسطول الفاطمى «ثمانين شوانى وعشر مسطحات وعشر حمالة»[3]، وازداد حال الأسطول سوءًا، عندما توجه الصليبيون إلى مصر بقيادة ملكهم «أمورى»، وليست هذه بالمرة الأولى فى عهد وزارة «شاور»، فقد كان «شاور» قد أمر بإشعال النار فى الفسطاط[4] وإحراق مراكب الأسطول[5] وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى، ولم يبق لها سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية فى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعيذاب[6]، من هنا كان على الدولة الأيوبية حينها قامت أن تبدأ دورًا جديدًا فى إنشاء أسطول ضخم جديد حتى تستطيع الصمود فى مواجهة الأخطار التى ستواجهها[7].

الإصلاحات التى قام بها «صلاح الدين» فى مجال البحرية

من هنا بدأ «صلاح الدين» فى إحياء البحرية المصرية وتجديد الأسطول وإصلاح مراكبه[8] بعمل العديد من الإصلاحات المختلفة التى كان من أهمها:

أولاً: أفرد «صلاح الدين» للبحرية ديوانًا خاصًّا للإنفاق عليه[9] عرف بـ«ديوان

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج3، ص519، ابن القلانسى (أبى يعلى حمزة بن القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق تتلوه نخبة من تواريخ ابن الأزرق الفارقى) وسبط بن الجوزى والحافظ الذهبى، طبع فى بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين، 1908م، ص179 –180.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص331 .

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص193، ارشيبالد.ر.لويس، القوة البحرية و التجارية فى حوض البحر المتوسط، ص383، السيد الباز العرينى، المرجع السابق، مطبعة الكيلانى الصغير، ص165، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص331 .

(4) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص99، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص141.

(5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص477، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص83.

(6) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص493.

(7) أنور عبد العليم، الملاحة وفنون البحار عند العرب، ص97.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 572هـ، ج12، ص 296.

(9) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص575.

الأسطول»[1] 572هـ/ 1171م وخصص للصرف عليها خراج الفيوم[2] وأعمالها وخراج البرين الشرقى والغربى[3] وغيرها من الإقطاعات، كذلك خصص حصيلة النطرون[4]، التى بلغ مقدار ضمانها يومئذ ثمانية آلاف دينار فى السنة، مضافًا إلى ذلك ما يحصل عليه من مال الزكاة فى مصر، والذى بلغ أكثر من خمسين ألف دينار[5]، هذا إلى جانب أجرة المراكب الديوانية (الحكومية)[6]، وأضيف إلى تلك المتحصلات المخصصة لديوان الأسطول حصيلة قريتى[7] أشنين وطنبدى التابعتين لعمل البهنسا محافظة[8] المنيا الحالية، وفى عام (587هـ/ 1191م) عين «صلاح الدين» أخاه «العادل» رئيسًا عامًّا لديوان الأسطول[9]، فعين «العادل» «صفى الدين بن شكر» نائبًا فى ديوان الأسطول[10]، وقد منح «صلاح الدين» صاحب الأسطول صلاحيات واسعة لتنفيذ المهمات الخاصة بالبحرية[11]، هذا بالإضافة إلى أنه كتب إلى سائر البلاد[12] المصرية

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، جرجى زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص217، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص144– 145، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص83، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى، الطبعة الأولى دار العارف بمصر ص66، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبية، ص71، نظير سعداوى التاريخ الحربى المصرى، ص25، السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص175.

(2) حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبية، ص71، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى، ص67.

(3) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، انظر أيضًا نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص25، المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 2.

(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص25، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539.

(5) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304 – 317، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص71، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص395، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص333– 334.

(6) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبية، ص71.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 2.

(8) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 3، حسين ربيع، النظم المالية، ص71.

(9) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص72، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص317، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539، ص575، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص144 – 145.

(10) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص73، 103، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539، 575.

(11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص335.

(12) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

والشامية[1] «القول قول صاحب الأسطول، وألا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر»[2].

ثانيًا: لإحياء البحرية المصرية عمل «صلاح الدين» أيضًا على الاهتمام بالغابات فقد جعل الغابات من اختصاص الدولة أى ملكًا خاصًا لها ولم يسمح لأحد بالتصرف بالأشجار[3]، وذلك بالانتفاع بأخشابها، وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به إلى أواخر الدولة الأيوبية فى مصر، وبهذا الصدد ذكر «عثمان بن إبراهيم النابلسى» المعاصر للدولة الأيوبية فى مصر: «أن الحراج (الغابات) حكمها حكم المعادن وهى لبيت مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»[4]، وصار هذا القانون على المواد التى تستوردها الدولة من الخارج وخاصة الحديد والخشب الضروريين لقيام صناعة السفن[5]، بالإضافة إلى أنه كان يوجد ديوان سمى بـ «المتجر السلطانى» كان مقره الإسكندرية[6]، وكان اختصاصه هو شراء البضائع المستوردة التى تحتاجها الدولة للأغراض العسكرية خاصة فى بناء السفن[7]، وكان المشرفون على المتجر يشترون هذه البضائع بأموال الخمس التى تفرض على التجار[8]، ومما هو جدير بالذكر أن «صلاح الدين» استفاد فى بناء أسطوله بالحصول على أخشاب الصنوبر والأرز التى تنبت فى غابات لبنان[9]، هذا إلى جانب عقد «صلاح الدين» معاهدات تجارية مع الجماهيريات الإيطالية، حصل بمقتضاها على الحديد والخشب والشمع اللازمة لبناء السفن[10]، كذلك اهتم «صلاح الدين» برجال البحرية

---

(1) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1 ق1 ص690 (حوادث سنة572 هـ)، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبية، ص71، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص575.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص332.

(4) عثمان النابلسى، لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية، ص48.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص332، على محمود فهمى، تاريخ التنظيم البحرى فى شرق الأوسط، ص88، إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى البحر المتوسط ص165.

(6) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص575- 576.

(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص333.

(8) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص327، حسنين ربيع، النظم المالية، ص51.

(9) إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى البحر المتوسط ص165، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص575-576.

(10) السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص172.

والعاملين فى صناعة السفن برفع المستوى المعيشى لهم وتحسين أوضاعهم[1] وتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية[2] والعمل فى الأسطول[3].

وفى عام (567هـ/ 1171م) تقرر أن يكون دينار الأسطول نصف وربع الدينار (¾ الدينار)[4] بعد أن كان (8/5)[5] الدينار على عهد الفاطميين «أى بزيادة 17.5٪ من قيمة الدينار الفاطمى»[6].

ويبدو أن قيمة ذلك الدينار اختلفت باختلاف درجات الأسطول[7].

ثالثًا: أيضًا فى مجال إصلاح البحرية فى العصر الأيوبى فقد قام «صلاح الدين» بتشجيع الناس على الالتحاق بصفوفها من خارج مصر[8].

وقد نجح «صلاح الدين» فى ذلك ببث روح الجهاد فى نفوس المسلمين وحثهم على التطوع للعمل فى الأسطول حتى صار «خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك بدعائهم»[9]، ومع هذا ظل الأسطول يعانى من نقص الأيدى الفنية العاملة فيه ومن قلة البحارة على عكس الأسطول الصليبى[10]، كذلك اهتم «صلاح الدين» بتحصين ثغور مصر، وتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظرة الممتدة على طول سواحل مصر والشام، فحشد فيها الأجناد

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى لمصر فى عهد الأيوبيين، ص26.
(2) السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص 171.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص334.
(4) حسنين ربيع، النظم المالية، ص72، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، 334، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539، ص577.
(5) حسنين ربيع، النظم المالية، ص72، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ص194، ، المقريزى، الخطط، ج2، ص194 .
(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص45، حسنين ربيع، النظم المالية، ص72، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539.
(8) كان للملاحين المغاربة دور كبير فى اعتماد الأسطول عليهم، إذ كانوا أول العناصر التى اعتمدت عليهم الفاطميون فى تأسيس الجيش الفاطمى فضلاً عن أن المغاربة لهم معرفة جيده بشئون البحر، هذا إلى جانب انضمام الملاحين المهرة فى شمال إفريقيا إلى صفوف بحارة الأسطول المصرى، وقد أشاد المؤرخون أمثال ابن جبير والنويرى السكندرى لشجاعتهم فى هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك، لمزيد من التفاصيل انظر، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577، السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص171، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص335، 338.
(9) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص339.
(10) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

البطالين[1]، بعد عودة «صلاح الدين» من رحلته إلى بلاد الشام 572هـ / 1176م خرج ليتفقد أحوال عمليات التحصين والبناء الجارية فى الثغور المطلة على البحر المتوسط منها الإسكندرية ودمياط وتنيس[2]، وفى عام (577هـ/ 1181م)، رتب «صلاح الدين» المقاتلة على البرجين الواقعين على طرف المدينة من جانب البحر، وأمر بشد المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها المدافعون عنها إذا استطاع العدو من الدخول بين البرجين[3]، ويضيف مؤرخنا «المقريزى» قائلاً عن سلسلة ثغرة دمياط أيام «صلاح الدين»: «إن برج دمياط كان برجًا منيعًا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل»[4]. هذا وقد زار «صلاح الدين» الإسكندرية ثلاث مرات الأولى (عام 566هـ/ 1170م) حينما كان «صلاح الدين» وزيرًا للخليفة «العاضد» وفيها أمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها[5]، ثم قام بزيارته الثانية للإسكندرية أوائل سلطنته وبها استجد السور الدائر وأتم الثغور وأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه وشحنة بالرجال وولى فيه أحد أصحابه وأمره ألا يبارح البحر وأن يغزو جزائره[6] (572هـ/ 1176م)[7]، وفى الزيارة الثالثة عام (577هـ/ 1181م) شاهد «صلاح الدين» الأسوار والتجديدات بها وأمر بالإتمام والاهتمام[8]، وكان «صلاح الدين» قد أمر والى

(1) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة، راجع المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص73، هامش 4، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، هامش6، ص576.

(2) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

(3) السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص175، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص335- 336.

(4) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص318.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق1، ص486، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص199، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى ص65 -66، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577، الأبدان: جمع بدنة وهى الستارة البنائية من السور الواقعة بين برجين، انظر، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص237.

(6) أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص689-690، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 572هـ ج12، ص 296، أبو شامة الروضتين، ج2ص689، المقريزى، السلوك، ج1، ص63، السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص171، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص66، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص336، لم يمض عام واحد على تعمير الأسطول حتى أصبح للإسكندرية أسطول ضخم أضيفت إليه قطع جديدة صنعت بدار صناعة الإسكندرية بأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب .

(8) جمال الدين الشيال، المجمل فى تاريخ دمياط، ص18، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

المدينة «فخر الدين قراجا» بكسر أربعمائة عمود رومانى كانت تحيط بعمود السوارى، وإلقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها، أو لكسر حدة الأمواج على سور الإسكندرية[1].

وبعد عهد «صلاح الدين» صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبى على السواحل العربية، ففى أيام السلطان «الكامل محمد» وولده السلطان «الصالح أيوب»، شهدت مصر اهتمامًا بالأسطول الأيوبى نتيجة للحملات الصليبية التى هاجمت السواحل المصرية بقيادة «جان دى برين» صاحب عكا و«لويس التاسع» ملك فرنسا، ويظهر لنا هذا الاهتمام أيضًا فى الوصية التى كتبها «الصالح أيوب» قبل وفاته لابنه وولى عهده «توران شاه» ويقول فيها «واحفظ يا ولدى ما أقوله لك فهذا جميعه ما عرفنى به الأخ «فخر الدين» وأخبرنى أنه وقف على كتاب بخط «صلاح الدين» أن الفيوم وسمنود والسواحل والحراج للأسطول، فالأسطول أحد جناحى الإسلام فينبغى أن يكونوا شباعا، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهما مستمرة راتبه، جاءوا من كل فج عميق»[2].

مراكز صناعة السفن فى مصر فى عصر الأيوبيين

أما عن مراكز صناعة السفن فى عصر الأيوبيين فمنها دار صناعة الجزيرة[3] أى جزيرة مصر التى تعرف اليوم بـ«الروضة»[4] الذى كان قد جددها «ابن طولون» فجدد عمارتها، وقد

(1) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص577، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص337، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى، ص67.

(2) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج27، ص62-91، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص540، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص73.

(3) لفظ الصناعة بكسر الصاد مأخوذة من قول صنعه يصنعه صنعًا فهو مصنوع وصنيع عملة، فالصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن ووحدتها سفينة، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج2، ص189، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص311.

(4) أنشئت فى مصر أول دار لصناعة السفن فى العصر الإسلامى 54هـ/ 674م فى عهد وليها مسلمة بن مخلد من قبل الخليفة معاوية بن أبى سفيان وهى «صناعة الروضة لأن مقرها جزيرة الروضة، والأمر الذى جعل المسلمين يلجئون إلى تشييد دار صناعة السفن فى جزيرة الروضة هو نـزول الروم (البيزنطيين) بالبرلس عام 53هـ/ 673م، هذا بالإضافة إلى انه قد أقيمت بالإسكندرية دار أخرى لصناعة السفن فى عهد الوالى عبد الله ابن سعد»، لمزيد من التفاصيل محمد جمال الدين الشيال، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثانى، أكتوبر 1949م، ص14، انظر أيضًا عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع 1995، ص247، انظر على محمود فهمى، قاسم عبده قاسم، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط، ص39، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص104، على فهمى، تاريخ البحارين المصريين المقدمة (ن) ص346، إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى حوض البحر المتوسط، ص152.

سميت فى العصر الفاطمى بدار صناعة الروضة نسبة إلى البستان الذى عمره الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش «بدر الجمالى» فى شمال الجزيرة 490هـ/ 1096م، وكانت هذه الدار تختص بصناعة الحراريق والشلنديات[1]، إلا أن هذا المركز لم يعد يتمتع بأهميته السابقة فى العصر الأيوبى، وذلك لأن صناعة السفن تمركزت فى الفسطاط بمدينة مصر، هذا ومن الملاحظ أن صناعة السفن فى مصر اقتصرت على مدينتى مصر والقاهرة، ولم تكن هناك دور صناعة فى الجهات الساحلية، عكس ما كانت عليه الحال فى بلاد الشام وإفريقية الشمالية والأندلس، ولعل هذا يرجع إلى سهولة إرسال السفن من الداخل إلى الساحل عبر نهر النيل[2].

أما بالنسبة للعصر الأيوبى فمراكز صناعة السفن لم تهتم بذكرها المصادر ولم تلق الضوء الكافى باستثناء دار صناعة الفسطاط بمدينة مصر التى كانت مركزًا لهذه الصناعة منذ أن تولى «محمد بن طغج الإخشيد» حكم مصر عام (324هـ/ 935م)[3]، وظل هذا المركز تصنع فيه السفن فى العهد الفاطمى والأيوبى والمملوكى، وظلت دار صناعة مصر تصنع فيها السفن التى تحتاج إليها دولة «صلاح الدين»، ومنها أرسلت الأساطيل للدفاع عن البحر الأحمر أو البحر المتوسط أثناء احتدام الصدام بين العدو الصليبى، وكذلك أرسلت منها الحملات إلى بلاد اليمن، فكانت هذه الدور تشحن بآلات الحرب والمقاتلة، ثم تقلع فى نهر النيل إلى ثغور مصر كالإسكندرية ودمياط أو تنيس للدفاع عن ساحل مصر، وهناك مراكز أخرى لصناعة السفن منها مركز صناعة المقس على شاطئ النيل بالقاهرة، الذى أنشأها «المعز لدين الله الفاطمى» وقد احترقت عام (386هـ/ 996م)[4] وأتت النار على جميع ما فى الأسطول من

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص196.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص340.

(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) لجأ الروم إلى بعض أساليب الغدر لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية، ومن ذلك أن الخليفة العزيز أمر عام 386هـ/ 996م بإعداد أسطول عظيم فى دار صناعة المقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام لكن ما كادت دار الصناعات تفرغ من بناء السفن حتى شبت فيها النار واحترقت غالبيتها واتهمت السلطات الفاطمية تجار الروم وعملائهم من مدينة «أما لفى» بتدبير هذا الحادث، ولا سيما أنهم كانوا يقيمون فى إحدى الفنادق المجاورة لدار الصناعة البحرية ولم تتأثر البلاد بهذا الحادث إذ أمر الخليفة العزيز عيسى بن نسطروس بجمع الأخشاب من سائر أنحاء البلاد وبناء أسطول آخر وظلت المقس ثغرًا مهمًّا للقاهرة، كما ظلت دار صناعة تعمل حتى بداية العصر الأيوبى، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص549، لمزيد من التفاصيل انظر، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص98، إبراهيم العدوى قوات البحرية فى حوض المتوسط، ص 139.

العدة والسلاح، فأحرقت خمس عشاريات وأتت على جميع ما فى الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لا شىء فيها[1].

أنواع المراكب البحرية الأيوبية

زخرت المصادر والمراجع بأسماء العديد من أنواع السفن المختلفة[2]، وقد كانت السفن والمراكب أنواعًا تتفاوت شكلاً وحجمًا وقوة[3]، وكان لكل منها استعماله الخاص، فالسفن أنواع، منها الحربية والتجارية، ومنها ما هو للرحلة والنـزهة فقط[4]، ولعل «ابن مماتى» هو أبرز من تحدث عن أنواع سفن الأسطول وأسماء مراكبها إلا أن حديثه لم يكن وصف السفن والتحدث عنها[5].

والقرآن الكريم ملىء بذكر البحر فى مناسبات لا حصر لها وأتى بأسماء للمركب ومن هذه المسميات، الفلك والجارية والسفينة[6] وذات الألواح والدسر[7]، وفى قوله ـ تعالى ـ ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [الإسراء: 66]، وقد

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص195.

(2) تحدثت سعاد ماهر عن العديد من أنواع السفن حتى إنه بلغ عدد السفن 157 نوعًا من المراكب، لمزيد من التفاصيل انظر ص328-373، كما قام الدكتور درويش النخيلى بجمع أسماء السفن الإسلامية من المراجع والمصادر فى كتاب السفن الإسلامية على حروف المعجم.

(3) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص327، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص219.

(4) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص560 – 561.

(5) كانت السفن البحرية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغربة والبطسات والأعواديات والشلنديات، والحراقة... لمزيد من التفاصيل انظر الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، ص339، محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص43، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص341.

Dozy,supplement, pp659-660

(6) لغة والجمع سفن وسفائن وسفينة وهى الجارية من المراكب الكبيرة، من سفن الشىء سفنًا يسفن أى قشرها والسفينة: الفلك لأنها تسفن وجه الماء أى تقشره وقد ورد صانعها السفان وحرفته السفانة، وقد ورد اللفظ فى قوله تعالى ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ [العنكبوت 15] لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف الإسكندرية، الطبعة الثانية سنة 1979م، ص65 ، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص166، على محمود فهمى، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط، ص130، على فهمى، تاريخ البحرية الإسلامية، ص399، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص 121.

(7) الدسر: ألواح مصنوعة من الخشب والمسامير، على فهمى، تاريخ البحرية الإسلامية، ص271.

ذكر «المقريزى» أن السفن وهى بمصر على قسمين نيلية وحربية[1]، لكن الذى يخصنا هنا هى المراكب الحربية وأنواعها .

أنواع سفن الأسطول الحربى

الشينى أو الشونة

والشينى هو الأصل الذى يتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقها والجمع شوانى وشون[2]، وقد كانت من أهم القطع التى يتألف منها الأسطول الإسلامى[3]، فكل سفينة حربية شينى تحمل اسما معينا يدل على وظيفتها، وقيل إنها المركب المعد للجهاد فى البحر[4] فمنها الغراب[5] والجفن[6] والطريدة والحراقة، وتمتاز الشينى بالطول وكبر الحجم وحمل المقاتلين[7] وتجدف بمائة وثلاثة وأربعين مجدافًا[8]، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم[9] حتى صارت أشبه بالقلاع البحرية، تحاصر العدو وترميه بالنفط[10]، بالإضافة إلى

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص189، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص11، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، موسوعة عالم المعرفة، يناير سنة 1979م، ص110 .

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص 56، هامش 7، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص83– 84،

Dozy, Supplement aux Dictionaires Arabes، , ome1, p812.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص306 هامش 2، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص352، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص498.

(4) الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص616.

(5) الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، ص339، عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1974، ص259.

(6) عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص259.

(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص342.

(8) أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص598، إبراهيم العدوى، قوات البحرية المصرية، ص 167.

(9) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص13، هامش1، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص120، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص219، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص83، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية ص498، عبد الرحمن زكى، السلام فى الإسلام ص36، عبد الحميد زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص 83، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص352، أحمد الزيات، ومحمود ماهر، مجلة عالم الآثار، العدد الأربعون أكتوبر 1987، ص5، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، ص109.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص13، هامش 1، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص405، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص36.

أنها كانت تزود بالآلات المقاتلة مثل الأحجار والرماح والقسى وسائر الأسلحة المقاتلة[1].

ومما هو جدير بالذكر، أنها كانت من أقدم السفن الحربية فى مصر وأكثرها استعمالاً[2]، ويذكر «أبو شامة» فى حوادث عام (569هـ/ 1173م - 570هـ/ 1174م) حينما نزل أسطول صقلية على الإسكندرية أنهم كان معهم مائتا شينى فى كل شينى مائة وخمسون رجلاً[3]، كذلك احتوت تلك الشوانى على مخازن للقمح وصهاريج لخزن المياه العذبة[4] حتى تساعد بحارتها وجندها على البقاء أطول مدة ممكنة فى عرض البحر[5]، وحدث فى أواخر عام (586هـ/ 1190م) مناوشة بين الأسطول الأيوبى والأسطول الصليبى، فذكر «العماد الكاتب» أنه خرج الأسطول الأيوبى «بشوانه المعجبة المحسنة، ليكبس شوانى الفرنج وإحراقها، بقوارير النفط... ونالت من الظفر ما نالت وأحرقت للفرنج شوانى برجالها وعرفت بأبطالها»[6].

الطريدة

طريدة وطريد وجمعها طرائد[7]، وهو نوع من المراكب الحربية[8] صغيرة الحجم سريعة السير[9]، وهى أكثر شكلاً بالبراميل[10] منها بالسفينة الحربية[11] وهى بدون سطح، وتكاد

(1) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص259.

(2) المقريزى، الخطط، ج2، ص194- 195، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج29، هامش 2، ص101.

(3) سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص126.

(4) درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص83-84، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ، ص259، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص405.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص259.

(6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص463.

(7) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص256، وذكر أيضًا أن الطريدة هى السفينة.

(8) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص56، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص353، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص19.

(9) جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص121، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص168، انظر أيضا، الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط1، ص616.

(10) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص56، هامش 4، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية ص 406، إبراهيم العدوى قوات البحرية فى البحر المتوسط، ص168، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية، ص110.

(11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص260.

تكون خالية من المسامير، ولهذا فإن ألواحها الخشبية رقيقة وصلبة[1] وكانت تستخدم فى نقل الخيل وحملها ومنها نوع يستخدم لمطاردة العدو لسرعتها[2]، وقد استعملها «صلاح الدين الأيوبى»، ويذكر أنه فى عام (569 هـ/ 1173م -570هـ/ 1174م) جاء الأسطول الصقلى[3] ونـزل فى الإسكندرية وكان معه ستة وثلاثين طريدة[4] تحمل الخيل[5]، ويتحدث «ابن مماتى» عـن الطـريدة ويقـول «فـأما الطـريدة فإنها برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسًا»[6]، وقيل إنها تفتح عادة من الخلف بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب[7].

البطسة

جمع بطس يقال أحيانًا بطشة[8]، وهى من أشهر أنواع السفن فى أيام الحروب الصليبية[9]، وهـى مركب كبير الحجم[10] عظيم البناء[11] يتكون من عدة طبقات أخذت عن الصليبيين[12]

---

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص56 هامش 4. النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج28، هامش 2 ص 392، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص121، على فهمى، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط، ص139، أنور عبد العليم، الملاحة وفنون البحار عند العرب، ص111، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص84-85، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص109، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، ص5.

(2) عبد العزيز، الأحكام، ص260 .

(3) أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص598، Lane – pool (s), Saladin, pp126-127.

(4) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص12-13.

(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص55 -56.

(6) الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، ص339، المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص56 هامش 4، المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، ص315، هامش 3، ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص12 هامش 3، أبو شامة الروضتين، هامش 3، ص598.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص261، أنور عبد العليم، الملاحة وفنون البحار عند العرب، ص111.

(8) Dozy,Supplement aux Dictionaires ‹pp94-95.

(9) درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص14.

(10) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، النويرى (شهاب الدين أحمد نهاية الأرب فى فنون الأدب)، ج28 هامش2، ص395، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص578، أنور عبد العليم، الملاحة وفنون البحار عند العرب، ص112، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص500، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، ص5.

(11) إبراهيم العدوى، القوات البحرية فى البحر المتوسط، ص168

(12) تنوعت سفن الأسطول الصليبى التى اعتمدت عليها فى نقل الجنود والعتاد وكان أهم أنواع السفن الصليبية الغلايين، الرماح، الحمام، إلى جانب الدريموند (Dromonds) التى كانت تستخدم فى نقل السلاح والطعام لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص159-160.

يشغل كل طبقة منها فئة من الجند بأسلحتها[1]، وتستخدم فى نقل الأزواد والميرة وآلات الحرب[2] والحصار وأعداد من المقاتلة تصل إلى سبعمائة[3]، وهى سفينة كثيرة القلوع تصل إلى أربعين قلعًا[4]، وقد كان العمل الأصلى للبطس هو القتال فى البحر[5]، ويذكر «النويرى» فى معرض حديثة عن الأسطول ومحاصرة «صلاح الدين» لعكا عام 585هـ حينما وصل الأسطول المصرى فى خمسين قطعة ومقدمهم «حسام الدين لؤلؤ»، وكان شهمًا شجاعًا، خبيرًا بقتال البحر، فوصل بغتة فوقع على بطشة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ ما فيها من الأموال الكثيرة والميرة وعبر ذلك إلى عكا، وقال «العماد» إنه ظفر ببطشتين[6].

الشلندى

الجمع شلنديات[7] وشلندية[8] من المراكب الحربية الكبيرة[9] لا تقل أهمية عن الشوانى والحراريق[10].

وقد قال عنها «ابن مماتى»: «إنها مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحتهم»[11] .

وهى عبارة عن سفينة مسطحة يقاتل عليها الجنود بينما يكون المجدفون قائمين بتحريك

(1) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص331، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص168، الخانكى، ص123.

(2) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص13.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص500، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص500، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية ص109، الخانكى، ص123، النخيلى، ص14.

(5) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص14.

(6) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص305، النويرى نهاية الأرب، ج28، ص 420، ولمزيد من التفاصيل عن البطس وأمثله لها، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث عام 578هـ، 585هـ، 586هـ درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص14– 15.

(7) على محمود فهمى، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط، ص134.

(8) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص78–79.

(9) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص352، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص168، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 111.

(10) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص78– 79.

(11) الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، ص339 .

المجاديف أسفلهم[1]، فالشلندى بهذا المعنى كان يتكون من طبقتين على غرار المسطح[2]، وهى مخصصة لنقل المقاتلة والأسلحة[3] والبضائع[4].

ويذكر مؤرخنا «المقريزى» فى حوادث 565هـ أنه حينما نـزل الفرنج إلى دمياط فى مستهل صفر بألف ومائة مركب ما بين شينى ومسطح وشلندى وطريدة[5].

الحراقة

جمعها حراقـات[6] وحراريق، استعمل هذا النوع من السفن لأغراض النـزهة والنقل[7] فى مياه الأنهار مثل النيل ودجلة وشط العرب. فقد كان للخليفة العباسى الأمين خمس حراقات فى نهر دجلة ببغداد صنعت كل واحدة منها على هيئة حيوان هو الأسد والعقاب والحية والفيل والفرس[8]، أيضًا كانت تستخدم فى الحفلات الرسمية والاستعراضات البحرية[9]، ولكـن تطـور شكـل الحـراقة فصـارت تستعمـل فى القـتال فأصبحـت مـن السفـن الحربيـة متوسطة الحجم[10]، وسميـت الحراقـة بهذا الاسـم؛ لأنها كـانت تحمـل الأسلحـة النـارية كـالنار الإغريقية[11] والنفـط الذى يرمى بالمنجنيقات[12] أو بالسهام أو فى

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص499، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص403.

(2) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص340، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص346.

(3) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص352، الخانكى، ص121، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص36، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220.

(4) حسين مؤنس المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة المصرية التاريخية، ص109.

(5) المقريزى، حوادث 565هـ، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص81.

(6) إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى حوض المتوسط، ص167.

(7) المقريزى، خطط، ج2، ص194–195، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص 101–102.

(8) قال المقريزى عن الحراقة إنها أقل حجمًا من الذى، ويجدف بيائة مجداف ويلحق بهذا النوع من السفن الشلندى، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص339، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص344.

(9) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص340، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص21.

(10) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص111، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص84–85.

(11) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، هامش2، ص306، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص339، الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص121، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص21.

(12) إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص167، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص84–85.

القوارير[1] لترمى بها على الأعداء لإحراق سفنهم[2] أى سفينة فيها مرمى نيران يرمى بها العدو[3].

ووصفها «ابن مماتى» وحدد عدد مجاديفها وذلك بعد ذكره الشينى فى قوله «الحراقة مختصرة وربما كانت مائة وحوالى ذلك»[4]، وقد ذكر «ابن شداد» فى معرض حديثه على محاولة إدخال المسلمين الميرة والأقوات فى بطسة إلى عكا المحاصرة، وذلك فى شهر رجب عام (586هـ/ 1190م) «وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم فى الحراقات...»[5].

ويذكر «ابن واصل» فى حوادث عام 647هـ/ 1249م وهو يتكلم عن حملة «لويس التاسع» على مصر «وجاءت الشوانى والحراريق وفيها العدد الكاملة، والمقاتلة، فأرسلوا قدام السور أى سور المنصورة»[6].

المسطح

جمعها مسطحات[7] وهى مراكب ضخمة مسطحة[8] كانت تحمل أسلحة الأسطول[9]، وهى أكبر سفن الأسطول الإسلامى[10] وهى شبيهة بالبطسة كانوا يجرونها فى البحار وقت الحرب خلف المراكب الأخرى من مراكب الأسطول خشية أن تغرق فى واديها[11]، وذكره

(1) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص109، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة الآثار، ص5.

(2) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص407، على محمود فهمى، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط، ص137، السيد سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص498 .

(3) الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص616.

(4) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص340.

(5) ابن شداد، ص135، ابن واصل، ج2، ص331.

(6) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص33، على لسان ابن واصل.

(7) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص368، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص52.

(8) الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص123، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص499، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112 Dozy, Supplement, p652.

(9) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص499، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112.

(10) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص109.

(11) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص368، الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص123، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص141، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص52.

«ابن مماتى» ضمن قطع الأسطول الأيوبى «أن المسطح هو فى معناه»[1]، ولعله أراد أن يقول أن المسطح شبيه بالشلندى الذى ذكره قبل المسطح أى أن المسطح سفينة ذات طابقين مسقفين يقاتل الغزاة على ظهرها والجدافون يجدفون تحتها[2]، هذا وقد ذكر «ابن شداد» فى حوادث عام 587هـ/ 1191م أن هذا النوع من المراكب كان يسع خمسمائة راكب أو يزيد فقال «ولما كان يوم السبت خامس شوال، وصل الخبر أن الأسطول الإسلامى قد استولى على مراكب الفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزاد على ذلك»[3].

ويتحدث «ابن واصل» أيضًا فى حوادث عام 647هـ/ 1249م وهو يتكلم عن الحملة الصليبية السابعة على مصر وفى يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج سبعة وأربعون رجلاً وأحد عشر فارسًا، وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح لهم من الفرنج.

الحمالة

جمعها حمالات[4] من سفن الأسطول الخاصة بحمل الغلة[5]، وغير ذلك مما يحتاج إليه الجيش ورجال الأسطول من المئونة والأزواد[6] والذخيرة[7]، وهناك ما يدل على أن الحمالة كانت تستعمل فى حمل الخيول، فقد ذكر «ابن واصل» بعد استيلاء الفرنج على عكا فى عام (587هـ/ 1191م) على لسان «صلاح الدين» فى رسالة له حملها «شمس الدولة بن منقذ» - سفيره - إلى ملك «يعقوب بن عبد المؤمن»... «فانبرى فى هذه السنة ملكًا «إفرنسيس» (فيليب أوجست)، وإنكلتير (ريتشارد قلب الأسد) وملوك آخرون فى مراكب حربية وحمالة، حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة...»[8]، ويذكر «أبو شامة» فى حوادث عام

---

(1) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص340.

(2) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج3، هامش3، ص315، محسن محمد حسين الجيش الأيوبى، ص345.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص196.

(4) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص40-41، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص340.

(5) المقريزى الخطط، ج2، ص194، ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص339، محسن محمد حسين الجيش الأيوبى، ص345.

(6) الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص124، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، ص340.

(7) إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص168، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، ص109.

(8) مفرج الكروب، ص361-362.

(569هـ/ 1173م) وكانت عدة المراكب برسم الأزواد والرجال أربعين مركبًا وفيها من الرجال المتفرقة وغلمان الخيالة...»[1].

غراب

والجمع أغربة وغربان[2] من أقدم أنواع السفن الحربية[3]، إذ كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان[4] وظلت معروفة طوال العصور الإسلامية، وسميت بهذا الاسم لأن مقدمها يشبه رأس الغراب أو الطائر[5] وتطلى بالقار وكانت رقيقة وطويلة[6] لها قلاع بيضاء، مما يجعلها تشبه الغراب، واشتهرت هذه السفن بالبأس الشديد وإنزال الرعب فى قلوب الأعداء[7]، وكان الغراب يسمى أيضًا بالشينى، جفن، وهو معد لحمل الغزاة[8]، ويسير بالقلع كما كان يسير بعدد من المجاديف لا يتجاوز 180 مجدافًا[9]، هذا وقد تحدث «العماد الكاتب» فقال عنها «فكأنها الأسوار السود ركبتها الأسود من كل أفعوان يحمله أفعوان وشجاع امتطته شجعان، وغراب بشتات العدى ناغق وسحاب بوميض الهدى بارق فيا لها من أغربة دارت بعقبان وأجنحة طارت بظلمان...»[10].

هذا وقد أمدتنا الدكتورة «سعاد ماهر» نقلاً عن «ابن شداد» فى كتابة النوادر السلطانية «أن من خصائصه أنه كان مزودًا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية»[11].

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص334، ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص13-14.

(2) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص101، Dozy, Supplememt, tome2, pp204 -205.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص86.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359-360، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص123، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص86.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359، إبراهيم العدوى، القوات البحرية، ص167، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية ص109، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص42، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص123، على فهمى، تاريخ البحرية، ص405.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263.

(7) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص104، إبراهيم العدوى، القوات البحرية، ص167، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، ص109.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263

(9) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص42.

(10) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص61-62.

(11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359-360، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص42، على فهمى، تاريخ البحرية، ص405.

العشارى أو العشيرى

يقال لها عشاريات[1] وهى نوع من السفن الصغيرة المسطحة الضخمة[2]، التى تسير فى البحر المتوسط والبحر الأحمر، وكانت تستخدم فى نقل البضائع والرجال من ساحل إلى آخر[3]، كما تستخدم فى الأسطول الحربى لنقل المقاتلة والعتاد[4] من الساحل إلى السفن الكبيرة التى تقف فى وسط الماء لكونها وإذا نطحت قاع البحر انكسرت لثقلها[5] وكان هذا النوع يجر بعشرين مجدافًا[6]، وتذكر الدكتورة «سعاد ماهر» ما ذكره «المقريزى» نقلاً عن «ابن منظور»: «أنها من توابع الأسطول، وكان يسار بها فى النيل، منها ما كان برسم الخليفة (فى عهد الدولة الفاطمية) وهى الدواميس ومفردها ديماس، يخرج بها أيام الخليج وغيرها، ومنها ما هو برسم ولاة الأعمال، وهى بقية العشاريات والدواميس وللمشارفين الأعمال (أى المفتشى) عشاريات دون ذلك»[7]، وقد أعطانا المؤرخ «عبد اللطيف البغدادى» الذى زار مصر فى نهاية القرن الثانى عشر وصفًا مسهبًا عن العشاريات جاء فيه «أما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه «العشرى»، شكله شكل شبارة داخلة، إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هندامًا وشكلاً وقد سطح بألواح من خشب ثخينة محكمة، وأخرج منها أفاريز كالرواشن»[8].

البركوش أو المركوش أو البركوس

الجمع براكيس[9] وهى من السفن الصغيرة، ومهمتها الأساسية هى نقل الماء

---

(1) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، ص110، Dozy, Supplement, p131 .

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص347.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص262، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص356، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص42.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص122، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص356، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص402.

(7) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص41.

(8) الرواشن: مفردها روشن (كلمة فارسية) ومعناها ما نتأ أو برز عن الحائط، سعاد ماهر، هامش2 ص356، نقلا عن عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص262، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص356، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص122.

(9) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص12 .

لخفتها[1]، قال عنها «ابن مماتى»: «أن المركوش لطيف لنقل الماء لخفته، يدخل على المواضع ويكون وسعه دون مائة أردب»[2]، ويفهم من كلام المصادر المختلفة مثل «ابن شداد» و«العماد الكاتب» وغيرهما أن البركوس كانت تستعمل لركوب الجند والناس.

وقد ذكر «ابن شداد» أن السلطان استأمن من الفرنج خلقًا عظيمًا لجئوا إلى المعسكر الإسلامى بسبب الجوع وعرضوا على السلطان فكرة القيام باقتناص مراكب الصليبيين، وقالوا «نحن نخوض البحر فى براكيس، ونكسب منها العدو، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين»[3]، فأذن لهم فى ذلك، وأعطاهم بركوسًا وهو المركب الصغير، فركبوا به وظفروا بمراكب التجار من العدو، وكان معدل حمولة البركوس حوالى خمسة وعشرين رجلاً[4]، هذا وقد ذكر «ابن شداد» أثناء القتال حول عكا فى شهر ذى الحجة عام 586هـ/ 1190م فقال: «نحن نخوض البحر فى براكيس... فإذا لهم فى ذلك، وأعطاهم بركوسًا وهو المركب الصغير»[5].

الأعزازى

هو مركب خاص يحمل المئونة والأزواد[6]، وقد ذكر «ابن مماتى»: «أن الأعزازى من توابع الأسطول تحمل فيه الأزواد»[7]، قالت عنه «سعاد ماهر»: «هى سفينة صغيرة من سفن الأسطول المصرى مخصصة لحمل المؤن والأزواد»[8].

ابكترا وسبيكلا تورى

وقد ظلت مستعملة حتى العصور الوسطى وخاصة فى الحروب الصليبية[9]، وقد لعبت السيكلا تورى دورا لا يستهان به فى الحروب الصليبية[10].

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص194، ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص339، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص331، السيد سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص500، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص345.
(2) ابن مماتى، المرجع السابق، ص339–340.
(3) ابن شداد النوادر السلطانية، ص154، العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص460، أبو شامة الروضتين، ص181–182، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص347.
(4) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص460.
(5) أبو شامة الروضتين، ج2، ص187، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص12.
(6) المقريزى، خطط، ج2، ص194.
(7) الأسعد بن مماتى، قوانين الدواوين، ص339.
(8) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص329.
(9) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص328.
(10) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص347.

فاسلى Phaseli

سفينة خاصة بنقل الركاب من مكان إلى آخر، وقد استعمل هذا النوع من السفن فى الحروب الصليبية كوسيلة سريعة فى نقل قواد الأساطيل والنجدات من المقاتلين من جميع دول أوروبا[1].

أعوادى

الجمع أعواديات، وذكره «الحموى» على أنه نوع من السفن ولم يشرح، وهو كما شرحه «ابن مماتى» سفينة تتبع الشينى وتحمل فيه الأزواد، وقد أخطأ «عزيز سوريال عطية» فى قراءته عند نشره لكتاب قوانين الدواوين لـ «ابن مماتى» ذكره الأعزازى[2]، وقد أوردت الدكتورة «سعاد ماهر» اللفظين أعزازى وأعوادى على أنهما نوعان من السفن فأثبتت الأول، كما جاء فى نشر «عطية ثم عرفت الأعوادى بأنه من السفن الصغيرة التابعة للأسطول المصرى»[3].

سفرى، سفرية، أو مسافرة

المقصود بالمركب السفرى، أو السفينة السفرية[4] أو المركب المسافرة، تلك التى تستعمل كمراكب أو مركب لنقل المتاجر[5]، ولكن معظم المصادر تذكر هذا النوع من السفن إلا وتقرنه بنوع آخر وهو المراكب الحربية، ومن هنا ذهبت د/ «سعاد ماهر»: «أن هذا النوع من السفن ما هو إلا نوع من المراكب الحربية لا تسير إلا فى فصل الربيع»[6]، ويذكر «أبو شامة» عند كلامه عن حملة فرنج صقلية على ميناء الإسكندرية فى عام (569هـ/ 1173م)، «وجدفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم المسلمون إليها فخسفوها وغرقوها»[7].

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص361-362.
(2) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص5.
(3) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص329.
(4) Dozy, Suppleinent, P335
(5) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص64.
(6) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص346.
(7) أبو شامة الروضتين، ج1، ص235، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص14.

القرقور

جمعها قراقير وقراقر[1]، وهى ضرب من السفن الكبار[2] التى كانت تستعمل فى تمويل الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة[3]، وتسمى «النقالات»[4]، ومن القرار نوع مسطح أى ذات سطح ضخم وهو فى معنى الشلندى تقاتل الغزاة على ظهرها، بينما يكن المجدفون قائمين بالتجديف أسفلهم[5].

وكان الاستعمال الأول للقراقر هو نقل البضائع للتجار ولكن كانت القراقر تستخدم أيضًا فى الحرب لنقل المواد التموينية الخاصة بالجنود الغزاة، وفى هذه الحالة يطلق عليها «قرقورة حربية» بمعنى سفينة نقل[6].

مرمة

والجمع مرمات، نوع من السفن الحربية الكبيرة[7] فى العصور الوسطى ويظهر أنها من أصل إيطالى meramma، وهى اسم ناصية فى إيطاليا[8]، وقد ذكر «ابن الأثير» مرمة فى حوادث عام 615هـ/ 1218م فقال «فعملوا ـ أى الفرنج ـ آلات ومرمات وأبراجًا يزحفون بها فى المراكب»، وقال أيضًا «وصل مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى «مرمة»، وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة الميرة والسلاح، وما يحتاجون إليه، فوقع عليه شوان المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها»[9]، «وفى سنة سبعة وأربعين وستمائة احترقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر»[10].

(1) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص120. Dozy, Suplement,tome2, p335
(2) ابن سيده، المخصص، ج10، ص26.
(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص266، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص363، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص120، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص124، أحمد الزيات، محمود ماهر مجلة عالم الآثار، ص5، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، ص109، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص47.
(4) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص86.
(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام ، ص266.
(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(7) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص124، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص52، المقريزى، السلوك، ج 1، ق1، ص189، هامش1 .
(8) درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص140.
(9) ابن الأثير، ج9، حوادث سنة 615 هـ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260، ج1، ق2، ص 348، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص348.
(10) المقريزى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

معدات السفن الحربية

لعل من دواعى استكمال الحديث عن الأسطول أن نتحدث عن معدات السفن الحربية، والتى اقتصر استعمالها على المعارك الحربية[1]، فقد استعملت فى السفن آلات حربية كانت من ملحقات الأسطول، هذا بخلاف أسلحة القتال المعروفة التى استخدمتها فى مختلف المعارك سواء البرية أو غيرها، وقد كانت الأسلحة البحرية التى تزود بها سفن الأسطول عديدة، تشبه الأسلحة التى استخدمتها القوات البرية عدا تعديلات تجعلها تتفق مع حرب البحار[2]، وكان من معدات السفن الحربية[3] الكلاليب، والباسليقات، والتوابيت، اللجام... وغيرها.

الكلاليب

زودت كل سفينة من سفن الحرب بنوع من الكلاليب[4]، وهى نوع من الخطاطيف[5] الكبيرة الحجم[6] مربوطة فى نهاية سلاسل قوية معقودة[7] كانت تلقى على مراكب العدو فتوقفها، ثم يشدونها إليهم وينصبون عليها ألواحًا خشبية عريضة كالجسور[8] يمرون فوقها ليقاتلوا جند العدو[9]، وإن كان العدو قويًّا أبطل فعل الكلاليب بفأس ثقيل من الفولاذ يضربون به الكلاليب فتنقطع[10] ويبطل عملها[11] وللوقاية كانوا يستعملون الستائر[12].

(1) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص347.
(2) إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص177.
(3) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220.
(4) على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص324.
(5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص502، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص114.
(6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30.
(7) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص197، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص347.
(8) الحسن بن عبد الله، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، سعاد ماهر، البحرية، ص204، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص221، إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.
(9) على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص324.
(10) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص221، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.
(11) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص197، سعاد ماهر، البحرية، ص204.
(12) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، الستائر هى من الآلات الواقية من الطوارئ بها يستر به على الأسوار والسفن، القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145، وتتخذ الستائر من الجلود واللباد وتبلل بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية من قذائف النفط، انظر النويرى، نهاية الأرب، ج28، هامش2، ص428.

الباسليقات

وهى عبارة عن سلاسل تنتهى رءوسها برمانة من الحديد[1] كانت تستخدم فى القتال على سطح السفن[2]، وتستخدم فى محاولة خرق مركب العدو عن طريق قذفها إلى مركب العدو عدة مرات حتى يتحقق الغرض[3].

التوابيت

جمع تابوت[4] كان يوجد فى أعلى صوارى[5] السفن صناديق مفتوحة من أعلاها تسمى «التوابيت»[6]، إذ يصعد عليها الرجال قبل الاقتراب من سفن العدو[7] ومعهم حجارة صغيرة فى مخلة معلقة بجانب الصندوق[8]، ثم ترمى سفن الأعداء بهذه الحجارة على حين يحتمى رجالها بجوانب الصندوق[9]، فإن دهمهم العدو صعدوا إليها متترسين[10]، وقد يحملون معهم قوارير النفط ليحرقوا سفن العدو[11] أو جرار النورة[12] المسحوقة غير

(1) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص502، سعاد ماهر، البحرية، ص203، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220.

(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص196، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص114، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص502، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص348.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص502.

(5) الصوارى:جمع صارى وهو العمود الذى ينصب فى المراكب لتعليق القلوع، لمزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص21، هامش3، ق2.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220-221، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29.

(8) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص196، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220-221.

(9) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132-133، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.

(10) متترسين: أى حاذقين فى الاحتراز على أنفسهم عن طريق استعمال الترس، انظر الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص161.

(11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29.

(12) جرار النورة من بين طرق الحرب أنها كانت تملأ بالجير الحى وتلقى بنفس الطريقة فإذا انفجرت خنقت العدو وأعمته وبذلك تجعله فى عجز تام، لمزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص326، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص502.

المطفأة[1] فإنها تعميهم بغبارها وتلتهب عليهم[2] وكذلك يرمون عليهم النفط، وكانوا فى بعض الأحيان يرمون عليهم بقدور من الفخار يضعون فيها حيات وعقارب فتنكسر وينتشر ما فيها[3].

وقد كان ضيق السفينة عاملاً مهمًا فى فعل هذه الأشياء إلى جانب أنهم يرمون عليهم قدور الصابون اللين الذى يزلق أقدامهم فوق خشب السفن الناعم[4] كل هذا يجعلهم يعلنون استسلامهم.

اللجام، الفأس، المتناطح

كان الجنود يجعلون فى مقدمة المراكب أداة كالفأس يسمونها «اللجام»[5]، وهى أداة من حديد طويلة، محددة الرأس جدًا، أسفلها مجوف كسنان الرمح[6] تدخل فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدمة المركب يقال لها «الأسطام»[7]، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارزة من مقدم المركب، يستخدم فى مهاجمة مركب العدو عن طريق الطعن أو النطح[8] وكانوا يضربون بها جانب مراكب العدو بقوة فيخرقونها فيمتلئ المركب بالماء فيطلب أصحابه الأمان خشية الغرق[9] .

اللتوت والدبابيس والمستوفيات

وهناك أنواع من الأسلحة كان يتسلح بها البحريون المقاتلة.

(1) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص348. (غير المطفوء أى الجير الحى).
(2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29.
(3) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص349، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص324.
(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص29.
(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30، سعاد ماهر، البحرية، ص203، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص133، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.
(6) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص221، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص349، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178.
(7) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص221، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص333، سعاد ماهر، البحرية، ص203–204، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص133، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص133.
(8) سعاد ماهر، البحرية، ص203–204، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص133، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص349.
(9) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص197، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص30، سعاد ماهر، البحرية، ص203، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص133.

اللتوت

وهى عمد من الحديد[1] لها رءوس مستطيلة الشكل مضرسة[2] مصنوعة من الحديد أيضًا، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير[3]، وكان خرزتها فى هذه الحالة من الحديد، وتلبس فى المقبض، وقد تضرس تدوير الخرزة أو تسنن، وكانت تستخدم فى تهشيم الخوذات المعدنية[4].

أما الدبابيس

فلا تختلف عن اللتوت إلا فى رءوسها فهى مدورة مضرسة[5]، وتستخدم فى تهشيم الخوذات المعدنية[6].

أما المستوفيات

فهى عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين وله مقبض مستدير، وتستخدم أيضًا فى تهشيم الخوذات المعدنية[7].

الرماح والسيوف والفئوس

الرماح: منها القصيرة والطويلة[8]، وكانت مخصصة للطعن[9].

السيوف: من أهم أسلحة البحرين[10] فهى أنواع منها الصماصم المصقولة، ومنها السيوف المحدبة.

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص501، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص113.
(2) السيد سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، أنور عبد العليم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(3) السيد سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، أنور عبد العليم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص113.
(5) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص501.
(6) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص501، أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص113، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص26، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص88، معركة المنصورة، ص143-144.
(7) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص501، أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص113.
(8) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص113.
(9) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص140، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص222، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص501-502.
(10) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص501-502، ولمزيد من التفاصيل انظر الفصل الرابع فى أدوات القتال (السيوف).

الفئوس: هى سلاح لها رأس نصف مستديرة مبطط حاد النصل مستدير، وأغلبها يتخذ من الحديد، وتسمى الفأس أحيانًا «بلطة» أو «طبر»[1].

القسى: مفردها قوس، وأجودها ما كثر فوقها وقل خشبها [illegible] عظامها و[illegible] [illegible]افها، وثقل وزنها وقوى حبلها[2] وأنواعها كثيرة منها قوس الزيار، وقوس العقار، والجرخ، وقوس الرجل[3].

الأسلحة المحرقة

وهى أخطر الأسلحة فى قتال البحر، لما تسببه من إشعال النيران فى مراكب العدو، ويزيد من خطورتها الزفت والقار الذى كانت تطلى به المراكب[4].

ومن هذه الأسلحة ما يلى:

السهام النارية

وهى عبارة عن سهام عادية ملفوف على نصلها فى مشاقة كبريت وراتينج، ونورة وشحم الكلس «وتشتعل عن طريق حمرة لطيفة أو إحراق طرفه، تستخدم فى الرمى على مراكب الأعداء، فإذا واجهت الهواء تشعل نارًا عظيمة تحرق كل ما تصيبه»[5].

الزراقة

وهى أنبوبة من النحاس تستخدم فى قذف مزيج من المواد الملتهبة، مما يطلق عليها «النفط»، وكان يقذف مشتعلاً فتبعث ناره[6]، «بإرعاد ودخان شديد فتحترق السفن»[7]، وكانت توضع فى مقدم المركب والمؤخر وكذلك فى الجانبين وفوقها ستائر خشبية[8]، يتكون

(1) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص76-77، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص501- 502.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص15، ق2، هامش 2 .

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص6-8، الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص160، عبد الرحمن زكى، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى، ص90.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص197.

(5) الطرسوسى، التبصرة، ص21، نقلا عن عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص31، انظر أيضًا هامش 3، ص18.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص31.

(7) الطرسوسى، التبصرة، ص20-21.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص31 .

من ألواح مشققة مسيحة فوقها بألواح أخرى يقف فوقها الزراقون واختلفت التركيبات التى يتكون منها المقذوف، فمنها ما يشعل نارًا ولا تنطفئ ولو أقامت شهرًا وأكثر من ذلك إلا أن تتخذ لها ما يطفئ بها، وهو سر أخفاه الحكماء[1]، ومنها ما يشتعل فوق الماء «ما شئت لم يطفئ وهو من أصلح النفوط لحرق المراكب»[2].

السفن الإسلامية والنار الإغريقية

مما لا شك فيه أنه من يقرأ عن المعارك الحربية البحرية يعلم أن أهم سلاح فى المعارك البحرية هو النار الإغريقية[3]، ولم يعرف العرب سر هذه النار فى بداية قتالهم فى البحر المتوسط[4]، فقد استخدمت هذه النار ضد السفن فى البحار، ولم تطفئها المياه التى لجأ إليها العرب[5]، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء[6]، أى أنها تزداد اشتعالاً فى الماء والهواء[7] كالنفط وتدمر ما تنصب عليه، ولذا سميت أيضًا «النار البحرية»[8]، واستطاع الروم الاحتفاظ بسر هذه النار التى نسبت إليهم، وقد أمدت الروم حلفاءها بقذائف النار البحرية دون أن تطلعهم على سر تركيبها[9]، وقد أدخل المسلمون كثيرًا من التحسينات على النار اليونانية بعد أن توصلوا إلى سر تركيبها[10]، غير أن النار التى زودت بها السفن الحربية، كانت عبارة عن

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص23.

(2) الطرسوسى، المرجع السابق، ص21.

(3) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص130.

(4) يرجع اكتشاف النار اليونانية إلى كالينكوس من بعلبك-الذى كان مهندسا فى هيلوبوليس فى سوريا، ويظهر أنهم استخدموها لأول مرة بشكل ما فى حصار القسطنطينية عام 54هـ / 674م، لمزيد من التفاصيل انظر جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص130، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص324، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص178- 181.

(5) إن أهم ما يميز النار الإغريقية عن المواد المحرقة فى ذلك الوقت وجود الحجر الجيرى الحى الذى عرف أنه يحدث حرارة شديدة إذا اتصل بالماء، لمزيد من التفاصيل انظر على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص325.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص130.

(7) جميل الخانكى، المرجع السابق، ص132.

(8) سعاد ماهر، البحرية، ص132.

(9) العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص181.

(10) لم يقف العرب أمام هذا السلاح الجديد حتى توصلوا إلى سر تركيبة «تتكون هذه النار من حامض الطرطريك والصمغ الفارس والقار الخام والنترات، ثم يمزج الخليط معا، وغمست فى هذا الخليط نسيج الكتان ثم يشعل فيه النار فى الحال، ويطفئ هذه النار الرمل فقط أو الخل» لمزيد من التفاصيل عنها انظر الطرسوسى، التبصرة، ص20، العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص181.

أنابيب من النحاس تقذف من مقدمة المركب[1] فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المدهون بالنفط فيقع على السفن ويحرقها[2]، وعند إضافة الصموغ لها كانت تزيدها اشتعالاً[3]، وكانت توضع على مقدمة السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية[4]، وقد كانت المراكب تحتمى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى «لبوس» عليه غطاء يسمى «لبود» من جلود البقر الطرية، أو من البسط، على حين يحتمى رجال الأسطول من الحريق بدهن أجسادهم بالبلسان[5]، وعادة ما يزود المقاتلة بالدرع المبطنة والتراس الواقية[6].

المناجيق

ومن معدات السفن الحربية ذات الأهمية والتى زودت بها السفن المنجنيق، وهو آلة من الخشب لها جانبان بينهما عمود طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف[7]، وفيه كفة الإمكانات التى توضع فيها الحجارة أو المواد التى يراد قذفها على العدو[8]، ويعمل هذا العمود بواسطة حبال لولبية[9]، حيث يشد طرف العمود الذى به الكفة، مما يؤدى إلى اندفاع الحجارة أو غيرها من المواد الحارقة كالنفط، جرار الزيت المغلى أو القلفونية اندفاعًا شديدًا صوب العدو فتحرقه وتقضى عليه.

فالمنجنيق هو أول سلاح يستعمله الأسطول فى الهجوم قبل أن تقترب مراكبه بمراكب أسطول العدو، ويكون القتال فى هذه الحالة بالسلاح الأبيض: كالسيوف، والبلطة... وغيرهما، والمناجيق من الآلات الحربية التى لا يمكن الاستغناء عنها فى البر والبحر على السواء[10]، إن كانت الضرورة إليها فى البحر أشد وأكثر.

(1) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص114-115.
(2) الخانكى، البحرية المصرية، ص130، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، ص111 .
(3) سعاد ماهر، البحرية، ص233.
(4) العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص182.
(5) البلسان: شجر لا يعرف نباته اليوم بغير مصر خاصة بالموضع المعروف منها بعين شمس، مزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، هامش7، ص53.
(6) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص114.
(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، هامش1، ق2، ص43 .
(8) العدوى، قوات البحرية فى المتوسط، ص177.
(9) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص114.
(10) سعاد ماهر، البحرية، ص221، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ق2 هامش1، ص43.

هذا إلى جانب العرادة

وهى أصغر من المنجنيق وترمى بالحجارة أو السهام المرمى البعيد، وقد تستخدم لقذف قدور النفط أو العقارب أو نحوها من آلات الأذى، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص، وإن كانت من السوائل كالنفط ونحوه اتخذوا لها كافة كالكأس وعلقوها بالسلاسل[1].

خطورة الأسلحة النارية والتزام الجند بالحذر والحيطة

كان لرجال الأسطول دور كبير فى إحراق المراكب الكبيرة باستخدام القطع البحرية الخفيفة الحركة السريعة الدوران المتمكنة من الكر والفر بخفة الشيطى، الكاشير، الزورق[2]، ويستخدم الرماة هذه القطع الصغيرة لرمى العدو بالسهام النارية وغيرها من وسائل الإحراق[3]، وكانت هناك أنواع أخرى من النفط يرمى بالنشاب، أو بالقوارير أو بالمناجيق وغيرها[4].

ونظرًا لخطورة الأسلحة المحرقة اجتهد الغزاة فى دفع خطرها بوسائل عدة، من ذلك أنهم كانوا يعلقون حول مراكبهم من الخارج الجلود أو اللبود المبللة بالخل والشب والنطرون لدفع أذى النفط، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون والخطمى المعجون بالخل[5]، فإن هذه المواد لها خاصية مقاومة فعل النفط[6]، وكان يجب على الجند التزام الحذر والحيطة عند استعمال هذه الأسلحة خصوصًا وقت هبوب الريح، فربما تعود النيران على المقاتلين ساعة الإطلاق، ولذلك كان الواجب على الرجال الذين يعملون بالأسلحة النارية[7] أن يغطوا أيديهم بخيش مطلى بالطلاء الذى لا تحرقه النار[8]، وكذلك يلبسون ثوبًا لا يحترق حتى لا يصاب الرجال من حر النار[9].

(1) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص132.
(2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص31.
(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص314.
(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص32.
(6) الحسن بن عبد الله، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص197.
(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص32.
(8) الطرسوسى، التبصرة، ص23.
(9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص32.

نشاط البحرية الأيوبية

بادئ ذى بدء يجب أن أوضح أن دولة «نور الدين محمود» كانت تفتقر إلى قيام أسطول؛ لأن الصليبيين كانوا قد احتلوا الساحل الشامى من الشمال إلى الجنوب، أما مصر فكانت تحت حكم الفاطميين، وعندما أتيحت الفرصة لـ «صلاح الدين» أن يتولى حكم مصر بعد وفاة عمه «شيركوه» وجد أن حالة الأسطول سيئة للغاية[1]، وقد كان نتيجة لسوء حال الأسطول أن انتهز الصليبيون هذه الفرصة فتحالفوا مع الروم البيزنطيين[2] وقاموا بهجوم مشترك على دمياط، وبعد قيام الهجوم البيزنطى على مصر ظهرت حاجة البلاد واضحة إلى وجود أسطول قوى يدفع عنها عادية هؤلاء المغيرين[3]، فما كان من «صلاح الدين الأيوبى» إلا القيام بالإصلاحات البحرية المختلفة كما ذكرنا سابقًا فصار للدولة الأيوبية أسطول قوى اعتبارًا من عام (565 هـ / 1168م-1169م)، واستمر الأسطول ينمو نموًّا كبيرًا.

فإذا جاء عام (575هـ/ 1179م) وتضاعفت قوة الأسطول وزادت عدته حتى بلغت «ستين شينيا وعشرين طريدا، فسارت الشوانى خاصة، فدخلت البلاد الرومية، ودوخت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علج أحضرتهم أسرى فى قيد الإسار، وقت الرفاق الكبار»[4].

وقد نال الأسطول الأيوبى من النصر المبين ما تتوج به رأس مصر والإسلام بأكاليل العز والفخر وسطره له التاريخ بحروف من ذهب[5].

المراحل التى مر بها الأسطول الأيوبى

مر الأسطول الأيوبى (البحرية الأيوبية) بثلاث مراحل نوجزها فيما يلى:

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص351.
(2) عبد العزيز عبد الدايم، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة 1991م، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، مطبعة هيئة الآثار المحلة سنة 1991م، ص130.
(3) السيد الباز العرينى، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ص175.
(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص11.
(5) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص144-145.

مرحلة التمهيد

وهى المرحلة التى يمكن تسميتها بمرحلة الإعداد ووضع الأساس لقيام أسطول أيوبى قوى فى مصر، هذه المرحلة قام فيها «صلاح الدين» بإصلاحات مختلفة[1].

ويمكن اعتبار عام (575هـ/ 1179م) نهاية لهذه المرحلة، حيث سار الأسطول الأيوبى يقوم بنشاط مؤثر فى مياه البحر المتوسط، فالمعروف أن كلا من الصليبيين والبيزنطيين والصقليين فشلوا فى إيجاد موطئ قدم لهم فى مصر[2] رغم قوة أسطولهم الحربى وضخامته، ولا يمكن اعتبار الانتصار الذى أحرزه «صلاح الدين» عليهم فى دمياط (565هـ/ 1169م)، وفى الإسكندرية (569هـ/ 1173م) انتصارًا بحريًّا إذ لم يجر صدام بحرى بين الطرفين على الرغم من أن الاحتلال الصليبى الصقلى لدمياط دام خمسة وخمسين يوما استعملوا خلالها مختلف أنواع الأسلحة سواء للهجوم أو الحصار، إلا أنهم اضطروا أمام المقاومة إلى الانسحاب من هذا الثغر، «ورحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مناجيقهم ونهبت آلتهم وقتل منهم خلق عظيم وسلم البلد»[3]، «وحدث مثل ذلك فى الإسكندرية فى عام (569هـ/ 1173م)، ونزل الفرنج عسقلان فى عشر حراريق على تنيس عام (575هـ/ 1180م) يريدون خربها ولكنهم أخفقوا فى عملهم هذا»[4].

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص352، ومما يجدر ذكره هنا أنه كان للخليفة العباسى دور كبير فى تشجيع صلاح الدين على الاهتمام بالأسطول فى مصر، فقد تضمن التقليد الذى بعثه الخليفة العباسى بمصر بعد قطع خطبة الفاطميين وإقامتها للعباسيين الحث على الاهتمام بالأسطول. فقد قال فى التقليد «وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى.. فلا بد من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده، فإنه العمدة الذى تستعين بها على كشف العلماء» انظر: عبد الله سعيد محمد الغامدى، صلاح الدين والصليبيون (استرداد بيت المقدس)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة سنة 1951م، ص147. هذا ويمكن القول إنه بمجىء صلاح الدين إلى السلطة فى مصر سنة (565هـ/ 1169م- 569هـ/ 1173م)، وقد تميزت البحرية المصرية فى هذه الفترة بالضعف الشديد نتيجة التدهور الذى حل بالدولة الفاطمية فى أواخر أيامها، ذلك التدهور الذى أدى إلى سيطرت الصليبيين على السواحل الشامية واعتداءاتهم المتكررة على السواحل المصرية انظر الغامدى، صلاح الدين والصليبيين (بيت المقدس ص147).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص42-43، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق1، ص456، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص179-180.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص457، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص183، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج4، ص189، ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، ص144، حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص134-135، ثم قام صلاح الدين بتحصين تنيس ففى عام 577هـ/ 1182م عمل صلاح الدين على عمارة قلعتها وتجديد الآلات فيها عندما اشتد خوف أهلها من الإقامة بها، هكذا سارت هذه المرحلة مرحلة الاستعداد وزيادة قوة الأسطول.

(4) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص352-353.

الأسطول المصرى يغزو ميناء عكا 575 هـ/ 1179 م

سار الأسطول المصرى يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم، وكانت قوة الأسطول قد زادت إلى درجة كبيرة فى هذه السنة، واستخدم فيها عساكر بحرية مغربيين ممن سبق لهم غزو الإفرنج، وكذلك رجال المصريين الأقوياء المعروفين بالشهامة والقوة، ومراكبهم كانت كنائن إلا أن تمزق مروق السهام، ورواكد هى مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب أن تسمى «غربانًا»، وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى «جوارى»، وكم يسر مجراها من النصر فوصلت فى الأحد حادى عشر جمادى الأول عام 575هـ/ 1179م ميناء عكا، وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين، ومراكب التجارة، فاستولى الأسطول على عدة مراكب من المراكب تحطيمًا وتكسيرًا وأخلى الميناء من الباقى.

وهذا مما أن يعهد من أسطول إسلامى سالف الدهر، ومما يذكر أن عساكر الأسطول قتلوا بعض رجال عكا رميا بالسهام من بعد كبير[1].

مرحلة قوة الأسطول الأيوبى فى مصر

تبدأ هذه المرحلة من عام (575هـ–1179م) إلى عام (579هـ– 1183م) أى أنها استمرت حوالى أربع سنوات[2].

وفى هذه المرحلة استطاع الأسطول الأيوبى القيام بأعمال هجومية حربية ضد الأسطول البحرى الصليبى، وأن يتصدى للأعمال العدوانية التى قام بها العدو بعد أن قويت عدة الأسطول واستغرقت فيها عزائم الجهاد[3]، وكانت أولى المعارك البحرية الناجحة التى قام بها الأسطول الأيوبى هى صدامه مع الصليبيين فى معركة بحرية عام (575هـ/ 1180م)، وهى موقعة مرج عيون وأحرز النصر عليها وكسر الصليبيون وظفر الأسطول الإسلامى بطسة صليبية، فى الوقت الذى أحرز فيه الأسطول الأيوبى انتصارًا بحريًا، أحرز الجيش الأيوبى انتصارًا فى البر فى موقعة بيت الأحزان فعم النصر وتساويا فيها البر والبحر[4].

ولم يكتف «صلاح الدين» بالانتصار على العدو، وتدمير بيت الأحزان، والإغارة على صور وصيدا وبيروت بل إنه أمر الأسطول بالخروج من ثغور مصر للهجوم على عكا،

(1) سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص140.
(2) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبى، ص353.
(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص13–14.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص302، أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص9.

واستطاع أسر مراكب صليبية عديدة وهذا إلى جانب تحطيم وتكسير المراكب[1]، وانتصار «صلاح الدين» هذا سجله فى كتابه إلى وزير بغداد بخط القاضى «الفاضل» ولم يعهد للأسطول الإسلامى بهذه الحالة «لا فى حالة قوة إسلامية، ولا فى حالة ضعف كفر»[2].

موقعة الحوراء البحرية

لعل الانتصار الأكبر الذى أحدثه الأسطول الإسلامى عام (578هـ / 1182م) فى البحر الأحمر (بحر القلزم) والمعروف بـ«موقعة الحوراء البحرية» (578هـ/ 1182م)، ففى شعبان (578هـ/ خريف 1182م) استغل الأمير الصليبى المعروف «أرناط» (رينو دى شاتيون) صاحب حصن الكرك[3] انشغال «صلاح الدين» بحصار الموصل فقام «أرناط» بمشروع خطير كان يريد منه السيطرة على البحر الأحمر[4] باحتلال قلعة أيلة[5] على خليج العقبة، وعيذاب على الساحل المصرى الجنوبى الذى يشرف على البحر الأحمر، إلى جانب محاولته إقناع مملكة الحبشة بالعمل على المشاركة فى حروبه[6] أيضًا محاولته الاعتداء على مكة المكرمة وإخراج الرسول ﷺ من ضريحه[7].

بدأ «أرناط» بتنفيذ خطته بقطع غابات إقليم الكرك إلى جانب نخيل العريش[8] وحوله إلى حصن الكرك منذ نوفمبر عام 1181م، وهناك عهد إلى دير الرهبان بصنع بعض المراكب،

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين، ص121.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص14.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، الدواداري، كنز الدرر وجامع مع الغرر، ج7، ص71-72، سنة1972م، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص14، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص105-106، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص85-86، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص567، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص297، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، ص119.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) لم ينس أرناط أهمية أيلة العسكرية وضياعها على الصليبيين، لا سيما وقد توالت عليه نكايات الحامية المصرية المرابطة بحصن أيلة الواقعة وسط البحر ولا سبيل للصليبيين إليها، لمزيد من التفاصيل انظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ص240، جرجى فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص48.

(6) نظير سعداوى، التاريخ الحربى، ص144.

(7) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص98.

(8) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص74

كما عهد إلى «صليب عسقلان» بصنع البعض الآخر حتى توافر لديه خمس سفن حربية كبيرة[1] وعدد كبير من المراكب الخفيفة ونقلها جميعا مفككة على جمال[2] البدو إلى الساحل بعد أن أغراهم بالمال[3]، وتم تركيب المراكب ودهنها وشحنها بالرجال وآلات القتال وأوقف منها مركبين على جزيرة قلعة أيلة[4] تمنع أهلها استيقاء الماء، ومضى الباقون فى مراكبهم إلى عيذاب[5]، أما فى البر فسير «أرناط» جيشه إلى بلاد تبوك[6] للحيلولة دون وصول أى مدد عسكرى قد يطلبه نائب من الشام إلى مصر[7].

اتخذ «أرناط» سبيله فى البحر وتوجه إلى أيلة وانطلق ببقية سفن الأسطول للإغارة على الساحر الإفريقى، وأخذوا يغيرون على كل ما صادفهم فى طريقهم حتى وصلوا إلى عيذاب، وقد فزع المسلمون حين شاهدوا مراكب الصليبيين تجوب عباب البحر الأحمر؛ لأنهم «لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيًّا قط ولا تاجرًا ولا محاربًا»[8] ارتكب الصليبيون من خلالها حوادث شنيعة فأحرقوا مراكب المسلمين، هذا فضلاً عن حوادث القتل والأسر والتنكيل التى ارتكبوها فى البر والبحر[9]، وصلت أنباء ما فعله «أرناط» فى رسالة بعث بها نائب قلعة أيلة إلى «صلاح الدين» وهو على الموصل، فبعث «صلاح الدين» إلى أخيه ونائبه بمصر الملك «العادل أيوب»[10] بتعمير الأسطول فى مصر والإسكندرية[11]، وتذكر بعض المصادر إلى أن

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى، ص140، ، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص125.

(2) سعاد ماهر، البحرية، ص105-106، ، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص567.

(3) جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص48.

(4) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، 4 مجلدات فى جزأين، ص65، سعاد ماهر، البحرية، ص106، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص149.

(5) أبو الفدا، المختصر، ص65، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص106، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص150-151، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص140، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص79.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص357، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص140.

(7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها، نظير سعداوى، المرجع السابق، ص141.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، أبو الفداء، المختصر، ص65.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ص79، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص127.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص359.

(11) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص79، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، سنة 1970، ص129.

الملك «العادل» استعد لتلك المهمة قبل أن يصله طلب أخيه السلطان «صلاح الدين»[1]، سافر «العادل» إلى السويس[2] بعد أن عهد إلى قائد الأسطول الحاجب «حسام الدين لؤلؤ»[3] بحمل المراكب مفككة على الجمال إلى تلك المدينة، وهناك أشرف على تركيبها فى يناير 579 هـ/ 1183م وتعميرها بالرجال ذوى الخبرة والتجربة فى شئون البحر بصحبة المحاربين المغاربة[4] الذين قاموا بتركيب أجزاء المركب.

بدأ «حسام الدين لؤلؤ» بتقسيم أسطوله إلى قسمين سارت الفرقة الأولى إلى قلعة أيلة واستولت على مراكب العدو برمتها[5] وقتلت وأسرت من بها، أما الفرقة الثانية فذهبت إلى عيذاب[6] ولم يجدوا فيها أحدًا منهم فقاموا بتعقب أسطول العدو فوجدوا السفن راسية عند ساحل الحوراء[7] ولحق بهم أسطول المسلمين بقيادة «لؤلؤ» واقتتلوا قتالاً شديدًا[8] وقتل منهم الكثير، ثم أخذ لؤلؤ الأسرى إلى الإسكندرية، وأمر «العادل» بضرب رقابهم، وتصادف أن كان موسم الحج فساق المسلمون معهم بعضًا من الأسرى إلى منى، «لذبحهم كما تنحر البدن ـ الذبائح»[9]، أما «أرناط» فقد استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنه بالكرك،

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص128.
(2) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص311 حوادث عام 578، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص85-86، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص297، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568، الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين ص179، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-142، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص129، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص71-72، جرجى فام ميخائيل، الأحول السياسية لمملكة بيت المقدس، ص49، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص79.
(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142.
(5) نظير سعداوى، المرجع السابق، ص142-143، نفس الكلام عند العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568.
(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص127، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568.
(7) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص71-72، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص85-86، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143.
(8) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص71-72.
(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص79، ابن خلدون، ج5، ص656، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص128، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص86، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص140، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص107، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، ص119.

لكن «صلاح الدين» أعلن بأنه لن يغفر له محاولته فى انتهاك الحرمين ونذر نفسه للانتقام منه[1]، وامتازت هذه المرحلة بقوة الأسطول الأيوبى، إلا أنها لم تصل بالطبع إلى مستوى انتصارات معارك «صلاح الدين» وفتوحاته البرية الشهيرة[2].

لكن نلاحظ أنه من عام (579هـ/ 1183م - 582هـ/ 1186م) أى طيلة أربع سنوات حدث للأسطول الإسلامى فترة ركود لم يقم من خلالها بأى نشاط بحرى يذكر، لكننا نجد أن الأسطول المصرى ساهم فى موقعة حطين، إذ خرج الأسطول المصرى فى خمس عشرة شينًا بقيادة الأمير «حسام الدين لؤلؤ» إلى الإسكندرية استعدادًا للجهاد[3]، هذا إلى جانب أن الأساطيل المصرية فى موانى دمياط والإسكندرية رهن إشارة «صلاح الدين» لتخرج إلى مياه الشام تساعده فى إحكام الحصار على مدينة ساحلية أو تخفف وترفع الحصار عن مدينة أخرى تعرضت لهجوم الصليبيين[4].

مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة (583 هـ/ 1187 م - 588 هـ/ 1192 م)

فإلى جانب «صلاح الدين» وجيشه فى القتال البرى فى الجبهات المختلفة، نجد أن نشاط الأسطول ظل دون المستوى المطلوب فى العمل الحربى، إلا أن للأسطول مساهمات مختلفة لمعاونة جيش «صلاح الدين» فى فتح صور[5]، هذا وقد بلغ الأسطول ذروته فى منتصف ذى القعدة (585هـ/ 25ديسمبر1189م)، ففى هذا العام وصل إلى مياه عكا حسب طلب السلطان الأسطول المصرى بقيادة «حسان الدين لؤلؤ»[6]، وبه خمسون قطعة من الشوانى[7] اعترضتها قطع الأسطول الصليبى الموجود فى المنطقة، وتصادم الطرفان فى معركة قصيرة واستطاعت مراكب الأسطول الإسلامى أن تنتصر فى البداية، ولكن جاءت الأقدار بما لم يكن فى الحسبان، حيث إنه أثناء ما كانت خمس قطع من الأسطول الأيوبى تقوم بالحراسة ليمعنوا الصليبيين من الخروج من صور والدخول إليها تصوروا أنهم قد سيطروا على الوضع فأمن

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2، ق2، ص72، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص185، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص77.
(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص361.
(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص63.
(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الجبهة الصليبية فى معركة حطين، مجلة المؤرخ المصرى، دراسات وبحوث تاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير 1988، العدد الأول، يصدرها قسم التاريخ، ص25-52.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص186، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص362.
(6) الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص184، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص153.
(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص101.

الحراس وناموا وقت السحر[1]، وقد كان «عبد السلام المغربى» هو مقدم شوانى المسلمين، المعروف بالشجاعة والإقدام، فما شعروا إلا بشوانى الصليبيين نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم وقتل الصليبيون من أرادوا قتلهم، وأخذت خمس شوانى من المسلمين بما فيهم وأدخلوها ميناء صور وكان قبل أن يحدث كل هذا كان المسلمون قد ظفروا ببسطتين كبيرتين للفرنج بما فيها من أموال ورجال وغلال[2].

ظل الأسطول الصليبى هو المسيطر على البحر المتوسط وعلى السواحل الشمالية، حتى بعد أن خسروا أكثر من نصف السواحل فكان ما عندهم من قطع بحرية يزيد على ما كانت تملكه البحرية الإسلامية[3].

واقعة عكا البحرية

. فى مستهل حصار عكا اجتمع ما لا يقل عن أربع وخمسين وخمسمائة سفينة صليبية منها خمسمائة سفينة إسكندنافية وأربع وخمسين من بيزا وجنوة والبندقية، وكان هذا العدد يفوق ما لدى «صلاح الدين» من قوة بحرية[4]، ومن الجدير بالذكر أن أبرز العمليات البحرية ما حدث فى جمادى الأول عام (586هـ/ 1190م)، إلا أن الصليبيين عمروا أسطولاً قام بمواجهة الأسطول الإسلامى وحاول السلطان أن يمنعهم من ملاحقة الأسطول فقام بهجوم برى على الصليبيين المحاصرين لعكا لإشغالهم عن قصد أسطوله، لكن الصليبيين ردوا على «صلاح الدين» بالمثل «والتقى الأسطولان فى البحر والعسكران فى البر»[5]، وسميت هذه المعركة بواقعة عكا البحرية وكان يومًا مشهودًا لم يؤرخ مثله حسب قول «ابن الأثير»، وانتهى الصدام البحرى بوصول الأسطول الإسلامى إلى عكا[6]، بعد أن كسب كل فريق مركبًا للفريق الآخر، إلا أن القتل فى الفرنج كان أكثر منه فى المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامى

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص363.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص333، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص148، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص102، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص153.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص365.

(4) Grousset, Histoire des croisades, ، vol III, P23

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص204، العماد الكاتب، الفتح القسى، ص 385، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص154، نفس الكلام عند ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص336، حوادث عام 586هـ جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص152، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص108، نقلا عن سيد الحريرى.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص152، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص365.

سالمًا[1]، وقد لجأ المشرفون على شئون عكا إلى استخدام الحيل لوصول المواد التموينية إليهم، وحينما ظهرت الشكاوى من قلة الذخيرة وعدم وصول البطس المستدعاة من مصر بالمؤن الغذائية كتب إلى والى بيروت «عز الدين أسامة»[2] أن يجهز بطسة كبيرة كانت قد أخذت من الصليبيين ويملؤها بالميرة والسلاح والرجال، ولإدخال الحيلة والخداع والتمويه على الصليبيين طلب القائد «أسامة» من البحار أن يرفعوا على قلاع المركب صليبًا[3] وأن يحملوا بعض الخنازير على ظهر البطسة[4]، وأن يلبسوا زيًّا فرنجيًّا ويحلقوا لحاهم على طريقة الأوروبيين، بل إنهم أشركوا معهم بعض المستأمنين من الفرنجة لكى يتحدثوا مع أفراد العدو بلغتهم إذا اعترضوا سبيلهم[5].

ومن هذه الحيلة استطاع رجال الأسطول الإسلامى إيصال المؤن والغذاء إلى عكا وكان فرحًا عظيمًا، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[6]، وكانت هناك ثلاث بطس قادمة من مصر إلى عكا، وكان بها ما يحتاج إليه الأسطول فى الحصار من أقوات وأدام ومير[7]، لكن تأخر وصولها، وكان «صلاح الدين» قد أمر بتجهيزها وشحنها بالأقدام والمير وجمع ما تحتاج إليه المدينة، بحيث تكفيها طوال موسم الشتاء[8]، واتجهت هذه السفن إلى عكا لكن الأسطول الصليبى لم يدعها أن تصل بل اعترض طريقها عندما اقترب من المدينة وجرى قتال بينهما، كل هذا والسلطان «صلاح الدين» والعساكر الإسلامية يشاهدون ما يحدث فأخذوا يبتهلون إلى الله ـ عز وجل ـ إلى أن أزاح الله هذه الغمة[9]، ووصلت البطس إلى عكا رغم الصعوبات التى اعترضتها[10].

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص206.
(2) العماد الكاتب، الفتح القسى، ص417.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص366.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص337-338، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص187.
(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص118، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص337.
(6) ابن شداد، النوادر، ص135، الفتح القسى، ص418، أبو شامة، الروضتين، ص160-161، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص330-331.
(7) سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص188.
(8) ابن شداد النوادر، ص138، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص161.
(9) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص188.
(10) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص367.

حرق برج الذبان

ومن ناحية أخرى، أراد الصليبيون إحكام الحصار على المدخل الجنوبى لعكا والسيطرة عليه برًّا وبحرًا لمنع المسلمين من الاتصال بالمدينة، ومنع دخول أى شئ إليها، وعندما عجزوا عن تحقيق ذلك حاولوا حرق برج الذبان[1]، ذكر عنه «العماد الأصفهانى»: «هذا البرج يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه وبالجرخية والرماة والرزاقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته إياه عصمناه وكلاءناه»[2]، ولحرق «برج الذبان» جهز الصليبيون لهذا الغرض ثلاث بطس ضخمة وضعوا فى الأولى حطبًا ونفطًا، وفى الثانية كمية كبيرة من الحطب والوقود[3]، لرميها على البرج[4]، أما الثالثة فجعلوها على هيئة قبو[5] يختفى تحته المقاتلة بحيث لا يصل إليها نشاب المسلمين أو أى سلاح من جانبهم[6].

ظل كل من المسلمين والصليبيين يفعل ما عليه على أكمل وجه، لكن دائمًا تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن فقد سقطت وبسقوطها انتهت مهمة الأسطول الأيوبى فى مياه البحر المتوسط، وأصبح عملها قاصرًا فى الدفاع عن الثغور المصرية، وظلت السيطرة للأسطول الصليبى الذى ظل مسيطرًا على تلك المياه، وكان للأسطول أهمية قصوى بالنسبة للصليبيين، والدليل على ذلك أن الحملة الصليبية الثالثة كانت حملة بحرية بقيادة ملوك أوروبا، «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا و«فريدريك بارباروسا» إمبراطور ألمانيا الذى عرف ولم يصل إلى عكا، وكانت نتيجة الحملة هى سقوط عكا ثم عقد صلح الرملة 21 شعبان 588هـ/ أول سبتمبر عام 1192م[7].

(1) هو برج فى وسط البحر، مبنى على الصخر على باب عكا تحرس منة الميناء، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، النوادر السلطانية ص138، الفتح القسى، ص211، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص162، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص336، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، ص165، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص189، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج1، ق1، ص404.

(2) العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص 211.

(3) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص189 .

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص335–336، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص369.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، الجزء والصفحة أنفسهما، محسن محمد حسنين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص335–336.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص182، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص348، العماد الكاتب، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص463–464.

وحدث فى أواخر عام 586هـ بداية 1191م، صدام بحرى بين الشوانى الأيوبية والصليبية، لكن المسلمون استطاعوا الصمود والوقوف فى وجه العدو وإحراق بعض سفنه، وعند عودة المسلمين تأخرت إحدى الشوانى الأيوبية وكان يقودها الأمير «جمال الدين محمد ابن أركَكز» وظل يقاتل إلى أن استسلم حينما عرضوا عليها الأمان، فسلم القائد نفسه وقال له لن أضع يدى إلا فى يد أميركم (مقدمكم)، فجاء إليه أميرهم وعانقه «ابن أرككز» بقوة ولم يتركه إلا وأوقعه معه فى البحر وغرقا معا[1].

ضعف البحرية الأيوبية بعد «صلاح الدين»:

هذا وقد ضعفت البحرية الأيوبية بعد «صلاح الدين»، فاستغل الصليبيون هذا الضعف[2] واستطاعوا إعادة سيطرتهم على بعض ثغور الشام، فقد هاجموا بيروت واستولوا عليها عام (593هـ/ 1197م)، بعد أن أظهر صاحبها «عز الدين أسامة» إبداء المقاومة فسلمها دون قتال، وقد أثارت هذه الحادثة استياء المسلمين فمن قال إنه تجبن وتجنب، ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل إن رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ما أجابوا حتى نظم بعضهم هذه الأبيات:

سلم الحصن ما عليك ملامة ... ما يلام الذى يروم السلامة

فعطاء الحصون من غير حرب ... سنة سنها ببيروت «سامة»[3]

فلا شك أن هذا يلقى الضوء على الوضع الذى ترتب على وفاة «صلاح الدين»، حتى «قل الاهتمام بالأسطول، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه»، ويضيف «المقريزى» قائلا إن وضع رجال البحرية فى مصر بعد «صلاح الدين»: «إذا دعت الضرورة إلى تجهيز الأسطول طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهارًا، وسحبوا فى الليل، حتى لا يهربوا ولا يصرف لهم الشىء قليل من الخبز ونحوه وربما أقاموا الأيام بغير شىء كما يفعل بالأسرى من العدو، فسارت الخدمة فى الأسطول عارًا يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى غضب غضبًا شديدًا، بعد ما كان من خدام الأسطول يقال لهم: المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس»[4].

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص 369.
(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص372.
(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص233.
(4) المقريزى، الخطط، ج2، ص194.

دور الأسطول فى الحملة الصليبية الخامسة

فى بداية الحديث عن الحملة الصليبية الخامسة يجب أن نذكر أن دعاة هذه الحملة والمتحمسين لها وصلوا فى نهاية القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر إلى نتيجة حاسمة، وهى أن مفاتيح بيت المقدس توجد فى القاهرة، وأن عليهم البدء بمصر أولاً بوصفها الطريق الطبيعى - الذى لا طريق - للوصول بهم إلى بيت المقدس، وظهرت هذه العقدة فى أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها، فهم يشبهون مصر أنها رأس الأفعى وأحيانًا يشبهونها بالقلب فى الجسم[1]، من هنا وجه البابا «أنوسنت الثالث» دعوته للقيام بحملة صليبية جديدة، ثم تعهدها من بعده البابا «هنريوس الثالث» وكان قائدها هو «حنا دى برين»[2] ملك بيت المقدس وكان شيخًا كبيرًا، وله من التجارب وبعد النظر ما جعله يؤمن بفكرة مهاجمة مصر[3]، قصد الصليبيون دمياط فوصلوها فى عام 614هـ/ 1218م[4]، وكان أسطولهم يتكون من نحو 70.000 فارس، 400 ألف رجل فخيموا تجاه دمياط فى البر الغربى[5]، وحفروا حول معسكرهم خندقًا، وأقاموا عليه سورا وشرعوا فى الهجوم على برج دمياط المنيع[6]، وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينًا قويًا، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل مآصر[7]، إلى جانب ذلك البرج (برج السلسلة) وهو بمنزلة الحصن الذى بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها[8].

ذكر «ابن الأثير» فى حوادث سنة 614هـ «وقد بنى فى النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص920.

(2) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص921.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص924.

(5) سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص232، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153.

(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص188-189، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص108-109، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص20ص22، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153.

(7) هى «سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من عبور أرض مصر»، لمزيد من التفاصيل انظر ميخائيل عواد، المآصر فى بلاد الروم والإسلام، المقتطف، ج23، المجلد الرابع بعد المائة، ص40-44.

(8) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص104 هامش1، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص552-553، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص232.

سلاسل حديد غلاظ»[1]، ومدوها فى النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر، فى ذلك الوقت كان الملك «الكامل» ينوب عن أبيه السلطان «العادل» فى حكم مصر، وعندما علم بنـزول الصليبيين فى مواجهة دمياط، أسرع على رأس جيشه[2]، وأمر والى الغربية بجمع العربان وسار فى جمع كبير وخرج الأسطول، ونصب الكامل معسكرة جنوبى دمياط عند منـزلة العادلية[3]، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى[4].

لم يلبث أن أدرك الصليبيون فداحة الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية الواقعة عليها مدينة دمياط، مما جعلهم فى مشكلة كبيرة وهى كيفية عبور النيل بالإضافة إلى أنهم أضاعوا وقتًا كثيرًا فى النزول، وهذا أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد «حتى سار عند «الكامل» من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده»[5]، وقضى الصليبيون ثلاثة أشهر يهاجمون برج السلسلة عن طريق «آلات ومرمات وأبراج يزحفون بها إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه»[6]، وفعلاً تم لهم الاستيلاء على برج السلسلة بعد أن أقاموا برجًا ضخمًا على بطسة كبيرة[7]، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية والاستيلاء على برج السلسلة[8]، وقطع المآصر التى كانت تعترض مجرى النهر[9] وتحول دون دخول الصليبيين فيه[10].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ، المقريزى، الخطط، ج1، 215، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص188–189.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925.

(3) شيَّد العادل 613هـ/ 1217م مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل، وشحنها بالمقاتلة خشية قدوم الصليبيين إلى مصر من جهة البحر فأصبحت من ذلك الحين مدينة جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص189، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص189.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص104، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص189.

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص188–189، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص87–88.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص103 هامش6، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925.

(10) نقلاً عن سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص925 Eracles, pp327-328

ومما هو جدير بالذكر أن سقوط برج السلسلة فى أيدى الصليبيين[1]، وتحطم تلك المآصر التى تحمى مجراة جاء خسارة كبيرة، إذ اعتبر المحاصرون ذلك البرج «قفل الديار المصرية»[2].

وعندما علم الملك العادل بذلك الخبر «دق بيده على صدره ومرض مرض الموت[3]، ولم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام»[4]، خلف «الكامل» فى ملك مصر أباه «العادل»، وبدأ «الكامل» كفاحه ضد الصليبيين بسد مجرى النيل فى وجههم، وذلك بمحاولته إقامة جسر عظيم بعرض المجرى لكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر[5]، وعندئذ لجأ «الكامل»: «إلى عدة مراكب وملاها وخرقها فى النيل»[6]، لتعوق تقدم السفن الصليبية[7]، لكن الصليبيين تغلبوا على تلك الصعوبة فلجئوا إلى خليج هناك يعرف بالخليج الأزرق[8]، كان النيل يجرى فيه قديمًا[9]، فحفروه حفرًا عميقًا وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط، وبذلك تمكّنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة[10]، يقابل منـزلة العادلية، حيث كان يقيم «الكامل»[11]، ومن هنا أصبح فى استطاعة الصليبيين مهاجمة المعسكر الأيوبى عن طريق البحر[12].

كل هذا فى الوقت الذى عرض فيه «الكامل» الصلح على الصليبيين مقابل أن يترك لهم بيت المقدس وجميع فتوح «صلاح الدين» بالساحل ما عدا الكرك، لكنهم رفضوا ذلك وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضًا عن تخريب القدس ليعمره بها، فلم يتم الاتفاق بينهم وقالوا لا بد من الكرك[13].

(1) النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص87-88.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص79، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص109، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص552-553.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص79، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص109، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص103 هامش6، أنور عبد العليم، الملاحة عند العرب، ص100.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22.
(5) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153.
(6) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(7) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(8) جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22-23.
(9) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(10) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(11) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص195، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22-23.
(12) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص926.
(13) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315.

بعد ذلك توالت الأحداث وشرع الصليبيون فى الزحف على القاهرة فتقدم الجيش الصليبى وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هى بحيرة المنـزلة شرقًا وفرع دمياط غربًا والبحر الصغير جنوبًا، ثم إن السفن الإسلامية وقفت لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم فى دمياط «ومنعوهم أن تصل إليهم الميرة من دمياط»[1]، وكان أن وصل الصليبيون إلى المكان الذى أطلق علية المؤرخ «أبو المحاسن» اسم «رأس الجزيرة»[2].

وكان الوقت وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل[3]، ولم يلبس أن قطع المسلمون السدود، فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت الأرض المحيطة بهم[4]، بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقة إلى دمياط[5]، ولكن «الكامل» أنـزل عنـد شار مساح (شربين) ألفى فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج ودمياط[6]، وبذلك قطع المسلمون خط الرجعة على الصليبيين «وملكوا الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص»[7].

هكذا ساء موقف الصليبيين فى دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور، وأخيرًا لم يبق أمام الصليبيين إلا الصلح بعد أن عاينوا الهلاك فأرسلوا للسلطان «الكامل» فى (618هـ- 1221م) يعرضون استعدادهم لترك دمياط والجلاء عن البلاد، مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذى وقعوا فيه وتركهم ليعودوا إلى بلادهم سالمين[8]، «وفيها أى سنة (618 هـ- 1221م) طلب الفرنج على أن يسلموا دمياط إلى «الكامل» فأجابهم إلى طلبهم»[9]، بشرط أن يبعثوا برهائن من ملوكهم لا من أمرائهم[10] يبقون لديه حتى يسلموا

(1) أبى المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.
(2) هى نقطة تفرغ البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط، وتمثل رأس المثلث يحيط بها المياه من ثلاث جهات، انظر أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.
(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص207.
(4) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109-110، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص554.
(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص203، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص154-155.
(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ.
(8) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص554-555.
(9) العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج5، ص79، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص155.
(10) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص940، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109-110.

دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم وعلى رأسهم «حنا دى برين» نفسه و«بلاجيوس» مندوب البابا فى حين بعث الكامل إليهم مقابل ذلك ابنه «الصالح نجم الدين» ومعه جماعة من خواصه .

وأخيرًا تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى سنة 618هـ/ 1221م بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة التى كان متوقعًا لها النجاح وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصه الحصول على بيت المقدس وتوابعها من المدن والحصون مقابل الجلاء عن دمياط، وفى مقابل ذلك يذكر «ابن الأثير» أن «الله تعالى آتى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسبانهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها...»[1].

سبب فشل الحملة الصليبية الخامسة

يرجع فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى حدوث اضطراب ظاهر فى عملياتهم الحربية، فى الوقت الذى بدا من الممكن أن يتقدم فيه الصليبيون فى عملياتهم الحربية ضد المسلمين بفضل قيادة «حنا دى برين»، فبعد سقوط برج السلسلة، اعتقد كثير من الصليبيين أن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وكان على «حنا دى برين» أن ينتظر وصول إمدادات جديدة.

بالإضافة إلى أنه فى سبتمبر عام 1218م[2] وصلت الإمدادات بصحبة الكاردنيال «بلاجيوس» مندوبًا عن البابا وقائدًا أعلى للصليبيين فى حملتهم على مصر، لكن هذا الازدواج فى القيادة أنـزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة بل إنه أدى إلى فشلها[3].

أثر الأسطول ودوره فى الحملة الصليبية السابعة: 647 هـ/ 1249 م

تعتبر الحملة الصليبية السابعة حملة بحرية بالدرجة الأولى جاءت عن طريق البحر، واعتمدت على الأسطول فى الاحتفاظ بصلتها بمنبعها وبالقوى المسيحية المساندة لها، كما اشترك أسطولها بنصيب كبير فى المعارك التى دارت فى دلتا النيل، وتمثل هذه الحملة أول تجربة حربية مرت بها فرقة المماليك البحرية الناشئة، ومن هنا كان اهتمام المماليك بالأسطول[4]، كان

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث عام 614هـ .
(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص926.
(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص105-106.
(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ق1، ص44.

سلطان مصر فى ذلك الوقت هو السلطان «الصالح نجم الدين أيوب»، وعندما سمع بخبر حملة «لويس التاسع» أمر نائبه فى القاهرة «حسام الدين بن أبى على الهذبانى الكردى»[1] أن يجهز السفن الحربية من الشوانى والأغربة والطرائد والحراريق فى دار صناعة مصر ويعمرها بالرجال والعتاد[2] لتكون مانعًا ضد أى حركة صليبية فى النيل[3].

هذا إلى جانب إسراع السلطان «نجم الدين أيوب» وعسكر فى بلد أشموم طناح وإصدار أوامره بتحصين دمياط، وتزويدها بالذخائر والأسلحة كما وضع فيها حامية من عرب كنانة للدفاع عنها[4]، هذا بالإضافة إلى إرسال «الصالح أيوب» جيشًا إلى دمياط بقيادة الأمير «فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ»[5]، وأمر أن ينـزل فى البر الغربى لدمياط ليحول دون نـزول العدو إلى الشاطئ[6]، قاد هذه الحملة «لويس التاسع» ملك فرنسا الملقب بـ «القديس لويس»، ومهما يكن من أمره فقد بارحت حملة «لويس التاسع» أوروبا[7] لتصل إلى ميناء ليما سول[8] جنوبى قبرص فى عام (646 هـ- 1248م)[9]، حيث مكثت الحملة هناك نحو تسعة أشهر تستعد لغزو مصر، وبعد أن تجمعت الحملة واستعدت استعدادًا كاملاً فى (21 مايو 1249م)[10] تحركت نحو السواحل المصرية فيما يقرب من 1800 سفينة مختلفة الأحجام[11]، وفى (20 صفر647هـ/ فى4 يونيو 1249م)، ورغم كل الاستعدادات السريعة التى اتخذها المسلمون، فقد استولى الصليبيون على دمياط دون مقاومة تذكر[12]؛ لأن الرعب استولى على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم هاربين، بعد أن أشعلوا النار فى سوق المدينة بل إن بعض عرب

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ق1، الصفحة نفسها.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231-232، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص333، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص44.

(4) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص555-556.

(5) العبادى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231-232، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1007.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص110-111، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص59.

(9) Joinville, the life of saint lowis, p197

(10) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص555.

(11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص99.

(12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44.

كنانة الذين عهد إليهم «الصالح أيوب» بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار أيضًا وتركوا أبواب المدينة مفتوحة[1] وفاتهم أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل[2].

هكذا صارت مدينة دمياط مفتوحة خالية من وسائل الدفاع، فدخلتها جيوش «لويس التاسع» فى سهوله بالغة فى 6 يونية 1249م، وأجمع المؤرخون «أنه تملكها بغير قتال ولا ضربة ولا طعنة»[3].

وقبل الزحف على القاهرة كانت هناك آراء مختلفة منها أن الحملة تتجه إلى الإسكندرية[4] على أن فريقًا آخر من الصليبيين وعلى رأسهم أخو الملك «لويس» «روبرت كونت ارتوا» الذى فضل النزول على القاهرة مباشرة لطعن مصر فى قلبها[5]، لكن «لويس التاسع» اقتنع بالرأى الأخير، ولكن لم يستفد من خبرة الصليبيين السابقة، والذين قاسوا كثيرًا من حملة «حنا دى برين»، ومن الضفة الشرقية للنيل شرع الصليبيون فى زحفهم نحو القاهرة فى (11 شعبان 647هـ/ 20 نوفمبر 1249م)[6]، وصل الصليبيون فى نهاية زحفهم ناحية الجنوب عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط فاستقروا بمنـزلتهم هذه، وخندقوا عليهم خندقًا وأداروا سورًا وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين ونـزلت السفن الصليبية من شوان وطرائد وشلنديات وبطس بقواتهم فى بحر النيل، ووقفت سفن المسلمين من الأنواع المماثلة بإزاء المنصورة، ووقع القتال بين الفرقين برًّا وبحرًا[7]، وكان ينبغى على القوات المتجمعة فى المنصورة أن تظل تقاوم وهى فى أماكنها ضد الزحف الصليبى؛ لأنه على حد قول «ابن واصل»: «إذا قدر لهذه القوات أن تتقهقر ولو لمرة واحدة،

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1012، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص555-556.

(2) أبو الفدا، المختصر، حوادث سنة 647هـ، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111.

(3) العماد الحنبلى، شذرات الذهب ج5، ص237، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، 452، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص106-107، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص336، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1012، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111.

(4) Grousset, hist, de croisades, p448 .

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، 45، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص556.

(6) Stevenson, the crusades, p326 ،Joinville, op.cit, p100

(7) المقريزى، السلوك، ج1، ص347، عبد الرحمن زكى، الجيش المصرى، ص185، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص133، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص556.

ملكت ديار مصر أجمعه فى أسرع الأوقات»[1]، ودارت اشتباكات بين الأسطولين المصرى والصليبى، استولت فيها البحرية المصرية على بعض السفن الصليبية، من ذلك أنه فى يوم الأربعاء 7شوال 647هـ/ 12يناير 1250م، استولت البحرية المصرية على سفينة صليبية من النوع المعروف باسم «الشينى»، وعليها نحو مائتى راجل على رأسهم كونت كبير[2]، كما تمكنت البحرية المصرية من إحراق عدة سفن صليبية[3]، وذلك أنه فى يوم الخميس 22 شوال 647هـ ـ 27 يناير 1250 م احترقت للفرنج سفينة من النوع الذى يسمى «مرمة»[4].

ويتحدث «ابن واصل» فى حوادث 647هـ عن مهارة المسلمين فى فن القتال البحرى وحسن استغلال النيل فى مقاتلة الصليبيين[5]، فيذكر أن الحرافشة[6] «كانوا يعبرون النيل وهم يسبحون ويهاجمون المعسكر الصليبى، وإذا ما شعر الصليبيون بهم ألقوا أنفسهم فى الماء، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين»[7]، ومن الأحداث الأخرى التى تدل على براعة المسلمين فى القتال البحرى، ما ذكره «المقريزى» من أن مجاهدًا من المسلمين[8] أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نـزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين[9]، كان على القوات الصليبية أن تعبر بحر أشموم طناح حتى تستمر فى زحفها جنوبًا، واستعد «لويس التاسع» لبناء جسر ثابت من الطين والخشب، إلا أن الأعمال البطولية التى قام بها المصريون منعته من بناء الجسر، وظلت القوات الصليبية فى أسوأ حال حتى دلهم البدو على مخاضة سلمون، والتى عن طريقها عبرت القوات الصليبية بحر أشموم طناح خلسة[10]، واشتبكت

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث سنة 614هـ.

(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص348، العبادى، عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص46.

(4) المرمة نوع من المراكب الحربية التى كانت مستعملة فى العصور الوسطى، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260، المقريزى، السلوك، ج1، ق1، ص77، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص46.

(6) الحرافش: جمع حرفوش وهو الرجل من الطبقة السفلى، انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص46، هامش 3.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث سنة 647، المقريزى، السلوك، ج1، ص348، ابن أيبك الدواداری، كنز الدرر ج7، ص376

(8) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص556- 557.

(9) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص348، جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، ص153.

(10) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص46.

مع فرقة صغيرة من الخيالة المصرية، وقتل فى هذا الاشتباك الأمير «فخر الدين»[1]، انهارت المقاومة المصرية وتقهقرت القوات المصرية إلى معسكر المنصورة وتولى الأمير «بيبرس البندقدارى» الذى تولى قيادة فرقة المماليك البحرية الصالحية[2]، ووضع خطة مضادة لهجوم الصليبيين على معسكر المنصورة التى انتهت بهزيمة القوات الصليبية فى 4 ذى القعدة سنة 647هـ/ 8 فبراير سنة 1250م[3]، وبعد ذلك وصل «توران شاه» بعد وفاة والده السلطان «الصالح نجم الدين أيوب»[4] إلى معسكر المنصورة فى (21ذى القعدة سنة 647هـ/ 25فبراير سنة 1250م)[5]، وضع «توران شاه» خطة حربية[6] بهدف منع وصول الإمدادات والمؤن إلى الصليبيين فى معسكرهم ليقطع مواصلاتهم فى النيل مع دمياط، ولتحقيق هذا الهدف صنع المسلمون عدة مراكب من النوع المعروف باسم الحراريق وحملوها على ظهور الإبل إلى بحر المحلة[7]، حيث تم تركيبها وشحنها بالمقاتلة[8]، ووقفت هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية التى تحتوى على المؤن التى يعتمد عليها الصليبيون وسارت هذه السفن المصرية فى بحر المحلة بحذر شديد ولكن سفن الحراسة الصليبية فيما بين المنصورة ودمياط كشفت هذه المراكب المصرية القليلة العدد، فهاجمتها واستولت على سبع منها[9] بعد أن أفلت بحارتها خشية الوقوع فى أيدى الصليبيين[10]، وسرعان ما اكتمل تركيب المراكب المصرية فى المحلة[11] وزادت أعدادها وكان بينها مراكب من النوع المعروف باسم «شوانى»، الذى عسكر منها عند بحر المحلة، فى انتظار قافلة ضخمة من سفن المئونة الصليبية التى بارحت دمياط وقتذاك[12].

وخرجت السفن المصرية عليها وقاتلتها، وفى الوقت نفسه كما ذكر المؤرخون «قدم

(1) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص349، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص336.
(2) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص112، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص557.
(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص350-351، المقريزى، خطط، ج1، ص219-222.
(4) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص155.
(5) المقريزى، الخطط، ج1، ص219، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص353، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص366، حوادث سنة 647هـ.
(6) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص557.
(7) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص298-299.
(8) ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر، ج3، ص377، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص353.
(9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص47.
(10) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص354، زيادة، حملة لويس التاسع، ص179.
(11) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص298-299.
(12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص47.

أسطول المسلمين من جهة المنصورة»[1] ليحيط بالأسطول الصليبى وينهى تلك المعركة النهرية بالاستيلاء على السفن الصليبية وعدتها اثنتين وخمسين (52) سفينة، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات وأخذ رجالها أسرى، وعدتهم نحو ألفى رجل، وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة[2]، بعد ذلك حدثت هزيمة أخرى نهرية للصليبيين عند مسجد النصر على مسافة سبعة كيلومترات شمالى المنصورة[3]، حيث حدثت معركة نهرية بين السفن الصليبية المحملة بالحبوب والأعلاف والمؤن وكانت عدتها اثنتين وثلاثين[4] سفينة منها سبع شوان صليبية حربية للحراسة[5]، التى حاولت اختراق خط الشوانى المصرية ولكن المعركة انتهت بأسر السفن الصليبية كلها[6]، عدا سفينة صغيرة واحدة أفلتت فى الظلام ووصلت إلى المعسكر الصليبى الشمالى على النيل[7]، وأخبرت المعسكر باستيلاء الشوانى المصرية على القافلة كلها[8]، وذلك فى يوم الثلاثاء 9 ذى الحجة سنة 647هـ/ 15 مارس سنة 1250م[9].

ومن الجدير بالذكر أن لهذه الانتصارات المتتابعة أثرها فى إضعاف قوة الصليبيين وحرمانهم من الأقوات والميرة، فطلب الصليبيون عرض هدنة على أساس الجلاء من دمياط مقابل إعادة بيت المقدس وبعض مدن الساحل إلى الصليبين[10] «فلم يجابوا إلى ذلك»[11]، وعندما رفض «توران شاه» شروط الهدنة المقترحة من جانب الصليبيين، أمر «لويس التاسع» بإشعال النار فى أخشاب المعسكر وأسواره ليعلن بذلك للصليبيين استحالة البقاء فى المعسكر الصليبى وينذرهم بضرورة الانسحاب[12].

(1) الدواداری، کنز الدرر، ج7، ص378، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص353.
(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص364، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص367، حوادث سنة 647هـ العينى عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ، زيادة، حملة لويس التاسع، ص299.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص367.
(4) جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص155.
(5) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص300.
(6) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص3354، المقريزى، الخطط، ج1، ص221.
(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.
(8) زيادة، حملة لويس التاسع، ص300.
(9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.
(10) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(11) المقريزى، الخطط، ج1، ص221، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص354.
(12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.

وفى الأربعاء 3 محرم 648 هـ/ 5 إبريل 1250م بدأ الصليبيون يتراجعون هاربين[1] بحذا الضفة الشرقية للنيل، فى حين حمل المرضى والجرحى فى السفن «فركب المسلمين أقفيتهم»[2] من الجسر الذى قد أقامه الصليبيون على بحر أشموم، وكان الملك «لويس التاسع» قد كلف جماعة من الصليبيين بإتلافه «فسهوا عن قطعه»[3] وأحاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب، وكان لهبوب رياح عكسية فى تلك الليلة أن قللت كثيرا من سرعة السفن الصليبية، سواء كانت حربية أو غير حربية، وفجأة وجدت السفن الصليبية نفسها أمام المراكب الأيوبية، وهى على استعداد للقتال وفى محاذاتها على الشاطئ فئة من الخيالة والرماة المصريين المزودة والتى يقع على عاتقها حراسة السفن المحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين واتخذت سبيلها فى النيل نحو الشمال طلبًا للنجاة، على حين نشبت معركة بين السفن الصليبية المحملة بالمرضى والجرحى، وبين القوات المصرية الأيوبية سواء كانت فى البر أو البحر (النهر) وسرعان ما انهالت القذائف المصرية على السفن الصليبية فى أثناء تلك المعركة من رماة فى البر ورماة فى البحر[4]، وتم الاستيلاء عليها فى سهولة ويسر وسرعة[5]، وعند فارسكور فى (يوم الأربعاء ثالث المحرم سنة 648هـ/ سنة 1250م)، شنَّ المسلمون هجومًا على الصليبيين، حيث وقع الجيش الصليبى بأجمعه تقريبًا بين أسرى وجرحى وقتلى، وكان من جملة الأسرى «لويس التاسع»[6] نفسه الذى سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة فى حراقة وأحدقت به نحو مائتى قطعة من مراكب المسلمين من الشوانى والغربان والحراريق تضرب بالطبول، حيث سجن فى الدار التى كان ينـزلها كاتب الإنشاء «فخر الدين بن لقمان»[7]، وذلك فى يوم الإثنين (28 محرم سنة 648هـ/ 2 مايو سنة 1250م)[8]، ومن هنا كان لهذا الانتصار أثره فى شعور

(1) الدواداری، كنـز الدرر، ج7، ص379.
(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص355.
(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص264، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1073.
(4) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص49.
(5) زيادة، حملة لويس التاسع، ص190-191.
(6) جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص155.
(7) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص366، المقريزى، السلوك، ج1، ق2، ص355، الدواداری كنـز الدرر، ج7، ص366، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص109، سعيد عاشور، ج2، ص1024، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص558، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص151، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص100.
(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام ، ق1، ص49.

المماليك بمدى قوتهم ولم يقبلوا سياسة «توران شاه»، فاتفقوا على قتله، بعد أن بلغ كل منهم «عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه»[1].

وعقب مقتل «توران شاه» حدث تطور خطير فى تاريخ الشرق الأدنى وهو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك فى حكم مصر والشام[2].

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181.
(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية.ج2، ص1025.

الخاتمة وتتضمن أهم نتائج البحث

لا شك أن البحث حمل كثيرًا من النتائج التى قد توصلت إليها فى نهاية هذا البحث، وأهم النتائج ما يلى:

1- أوضحت الدراسة أهم الأخطار الداخلية والخارجية التى واجهت الدولة الأيوبية، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على الانقسامات التى حكمت العلاقات بين القوى الإسلامية، سواء كانت الخلافة العباسية فى بغداد من ناحية، والخلافة الفاطمية فى القاهرة من ناحية أخرى، وهذه الأحداث كان لها أكبر الأثر فى إضعاف العالم الإسلامى ونجاح الصليبيين فى حملتهم الصليبية الأولى.

2- أوضحت الدراسة أيضًا مرحلة القوة والجهاد التى بلغت ذروتها فى العصر الأيوبى بوصول «صلاح الدين» إلى السلطة واتخاذه جميع الاحتياطات، سواء لقضائه على الأخطار الداخلية أو الاستعداد للدخول فى الحرب مع الصليبيين بكافة الأشكال.

3- أشارت الدراسة أيضًا إلى انتصارات «صلاح الدين» التى توجها بإنقاذ بيت المقدس وتخليصه من السيطرة الصليبية، مما أصاب الوجود الصليبى بانهزام وانكسار.

4- تعرض خلفاء «صلاح الدين» لثلاث موجات من الغزو الصليبى تعرف أولها بالحملة الصليبية الخامسة التى انحصرت فى الفترة بين (615هـ/ 1218م –618هـ/ 1221م) وقد كان هدفها مصر، ودارت معاركها فى المناطق الشمالية الشرقية من الدلتا، أما الموجة الثانية من الغزو وهى الحملة الصليبية السادسة التى اتجهت إلى جنوب الشام حيث الموطن والمكان الذى حقق فيه «صلاح الدين» انتصاراته، ومن أبرز الإنجازات التى حققتها هذه الحملة نجاحها فى الاستيلاء على بيت المقدس وذلك 626هـ/ 1228م.

أما الموجة الثالثة وهى الحملة الصليبية السابعة والأخيرة التى قادها «لويس التاسع» ملك فرنسا والتى اتجهت إلى مصر فى سنة 647هـ/ 1249م، ودارت معاركها فى المنطقة التى كانت مسرحًا لمعارك الحملة الصليبية الخامسة.

5- أيضًا أوضحت الدراسة الظروف والأسباب التى دعت إلى تشييد القلاع العديدة أو إضافة الترميمات فى بعض القلاع الأخرى، نظرًا للظروف العديدة التى أحاطت بالأيوبيين ودعتهم إلى بناء قلعة وترميم الأخرى، وهذا ينطبق على مصر وبلاد الشام بدليل قلعة الجبل بالقاهرة وأسوار «صلاح الدين»، وترميم أسوار الإسكندرية والاهتمام بتحصين الثغور المصرية، حتى إنه لم يترك شبه جزيرة سيناء التى غدر أهلها البدو به فقام بتحصينها وتحسينها حتى يأمن غدرهم وشرهم، ويؤمن هذه المنطقة حتى لا يدخلها أى عدو .

6- أوضحت الدراسة المقومات المعمارية فى تحصينات الحربية بالإضافة إلى إلقاء الضوء على مميزات العمارة الحربية فى العصر الأيوبى .

7- ألقت الدراسة الضوء على أن منشآت العصر الأيوبى الحربى اتسمت بالبساطة والمتانة والتقشف؛ لأن موارد الدولة كانت تنصب فى تجهيز الجيوش وإعدادها وتسليحها، مما أدى إلى انعكاس هذه الظروف على مبانيهم ومنشآتهم بكافة أنواعها وزخارفها.

8- هذا بالإضافة إلى إلقاء الضوء على التأثيرات المختلفة التى تأثر بها الأيوبيون فى منشآتهم الحربية من الصليبيين والتأثيرات التى تأثر بها الصليبيون وأخذوها عن المسلمين (الأيوبيين) .

9- أوضحت الدراسة الأدوار المختلفة التى كانت تقوم بها القلاع سواء كان منها الدور الاقتصادى فى حفظ المواد التموينية (الغذاء) وحفظ المياه فى الخزانات والصهاريج وغير ذلك، بالإضافة إلى الدور الاجتماعى، وقد قامت القلاع أيضًا بدور مهم بوصفها محطات بريدية سواء بالحمام الزاجل أو الخيول السريعة .

10- ألقت الدراسة الضوء على السلاح بمختلف أنواعه وأشكال وطرق صناعته، حيث إنه لعب دورًا مهمًا فى المعارك الحربية منذ أقدم العصور فى صدر الإسلام وبعد الإسلام، بالإضافة إلى أهمية السلاح كحد فاصل فى المعارك الحربية التى يدخلها المتحاربون من الطرفين سواء المسلمون أو الصليبيون .

11- تميزت الدولة الأيوبية بطابع حربى غلب على معظم مظاهر حضارتها، إذ أن هذه الفترة شهدت صراعًا دائمًا بين المسلمين والصليبيين، فقد كان لكل منهم أسلحته الخاصة وأدوات قتاله المميزة التى استطاع كلٌّ منهم أن يطورها ويستخدمها قدر استطاعته، إذ أنه بدون أدوات القتال لا يستطيع المحارب أن يدخل المعركة وينتصر على أعدائه .

12- ألقت الدراسة الضوء على الأسلحة الهجومية والرشيقة والأسلحة الجماعية وفنون استخدامها، بالإضافة إلى آلات الحصار، وأغطية الجسم من درع وترس وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الدفاعية للخيل التى كان لا بد أن يرتديها؛ لأن الخيل عنصر أساسى فى الدفاع بأى معركة، إذ كان لا بد أن يرتدى هو الآخر أسلحة دفاعية تقيه من أى ضربة تصدر من العدو، فقد كان يرتدى اللجام والشكيم والحكمة والعنان والغدار إلى جانب السرج والحذوة والتجفاف وغير ذلك .

13- ألقت الدراسة الضوء على النظم الحربية وفئات الجيش الإسلامى، هذا بالإضافة إلى الخطط وأساليب القتال بالإضافة إلى طريقة القتال ووقته .

14- أوضحت الدراسة إدراك المسلمين لأهمية الحروب البحرية ويظهر ذلك فى اهتمام الخلفاء بإنشاء السفن المختلفة، وقد ظهر اهتمامهم بإنشاء دور الصناعة وتطويرها وتجديدها سواء كان ذلك فى عهد الطولونيين أو الإخشيديين، وظهر الاهتمام الأكبر من جانب الدولة الفاطمية؛ لأنها واجهت أخطارا قوية ممثلة فى الصليبيين والبيزنطيين، فكان لا بد من قوة بحرية ضخمة وكبيرة إلى جانب القوة البرية لتدعم كلٌّ منهما الأخرى... لكنها ضعفت فى نهاية الدولة الفاطمية .

15- ألقت الدراسة الضوء على نشاط البحرية الأيوبية مرة أخرى بعد أن أصابها الضعف والعجز نتيجة للانقسامات الداخلية التى حدثت فى نهاية الدولة الفاطمية فتقلص نشاط البحرية، لكن كان على «صلاح الدين» أن يحشد قواته البرية إلى جانب قواته البحرية حتى يستطيع أن يواجه الأخطار الخارجية الممثلة فى العدوان الصليبى، سواء على مصر أو بلاد الشام، فكان الاهتمام بالأسطول وإصلاحاته المختلفة التى سبق ذكرها حتى يجذب إلى الجهاد البحرى جميع المسلمين .

16- أوضحت الدراسة اختلاف أنواع السفن والمراكب البحرية الحربية، فقد كانت تتفاوت شكلاً وحجمًا وقوة، وقد كان لكل منها اسم خاص بها إلى جانب اختلاف غرض ووظيفة كل منهما، فمنها ما كان مخصصًا لحمل الجنود وأسلحة القتال المختلفة البحرية

مثل الشينى أو الشونة، ومنها ما هو مخصص لنقل الخيل كالطريدة، ومنها ما هو مخصص لنقل الأزواد والميرة وآلات الحرب كالبسطة والمسطح والشلندى أيضا، هذا إلى جانب العديد من أنواع السفن الحربية البحرية الأخرى.

17- أوضحت الدراسة أنه كى تُتم السفن الحربية عملها على أكمل وجه فقد كان لا بد أن تزود السفن نفسها بأسلحة للقتال تجعلها تتفق مع حرب البحار، فاختلفت أنواع أسلحة القتال حسب نوع ووظيفة واسم كل منها فقد كان منها الكلاليب والباسليقات والتوابيت واللجام وغيرها من أسلحة القتال الفتاكة والتى لعبت أهم الأدوار فى حرب البحار.

هذا وقد ألقت الدراسة الضوء على أن أهم أسلحة القتال والتى لعبت دورًا خطيرًا فى حرب البحار هى النار الإغريقية التى عرف العرب سرها وطوروها إلى الحد الذى تبيد به أعداءهم وتفتك قواهم.

18- ألقت الدراسة الضوء على معظم المعارك الحربية التى دخلها المسلمون مع الصليبيين واعتبرت مرحلة القوة هى التى مر بها الأسطول من سنة 575 هـ/ 1180م، واستطاع الأسطول أن يحقق الانتصارات المختلفة فى موقعة مرج عيون، وبيت الأحزان، وموقعة الحوراء البحرية التى حقق فيها انتصارًا رائعًا على الصليبيين.

وإلى جانب نشاط الأسطول فى البحر الأحمر فقد كان للأسطول دور كبير فى فتح صور وحصار عكا سنة 585هـ/ 1189م، ولعبت البطس دورًا مهمًا فى حرق برج الذبان وفشل الصليبيين فى الاستيلاء عليه.

أضف إلى ذلك أهمية الأسطول أيضًا بالنسبة للصليبيين فى معظم عملياتهم الحربية المختلفة والدليل على ذلك الحملة الصليبية الثالثة التى كانت حملة من الدرجة الأولى جاءت عن طريق البحر وقادها ملوك أوروبا العظام.

19- أوضحت الدراسة أنه بعد وفاة «صلاح الدين الأيوبى» قل الاهتمام بأمر الأسطول، ولكن زاد الاهتمام به مرة أخرى فى عهد خلفائه.

هذا وقد ظهرت أهمية العامل البحرى فى الحملة الصليبية الخامسة والسابعة والتى كان محورها الأساسى هو البحر والأسطول، ومن هنا كان الإحساس بأهمية الأسطول لحماية الدولة الإسلامية والدفاع عن شواطئ الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى.

20- لعب الأسطول دورا مهمًّا فى مختلف نواحى الحياة سواء منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحربية، هذا بالإضافة إلى دوره فى عملية النـزهة والفجة وحمل المسافرين من مكان لآخر .

هكذا ساهمت البحرية النيلية بدور إيجابى فى القضاء على المعتدى الصليبى .

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: قائمة المصادر العربية

(1) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المتوفى سنة 697هـ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، خمسة أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول، سنة 1953م.

(2) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمى محمد، راجعه محمد مصطفى زيادة، القاهرة سنة 1962، الجزء الأول القسم الثانى.

(3) ابن العديم: كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن القديم (588هـ/ 660هـ) زبدة الحلب من تاريخ حلب، 3 أجزاء نشر وتحقيق د/ سامى الدهان، دمشق الشام سنة 1954م.

(4) الحنبلى: أحمد بن إبراهيم الحنبلى، (ت 876 هـ/ 1471م)، شفاء القلوب فى مناقب بن أيوب، تقديم وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوى، سنة 1415هـ/ 1996م.

(5) ابن خَلِّكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الشافعى، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، محمد محيى الدين عبد الحميد، 6 أجزاء، سنة 1367 هـ/ سنة 1948م.

(6) المقريزى: تقى الدين أحمد بن على المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914م (جزأين) الجزء الأول ثلاثة أقسام، الجزء الثانى قسمان.

(7) المقريزى: تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية سنة 1270هـ .

(8) المقريزى: تقى الدين أحمد بن على المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد، 3 أجزاء، القاهرة سنة 1393هـ/ 1973م .

(9) أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة 1348هـ/ 1929م الطبعة الأولى، 12 جزءًا.

(10) ابن الأثير: أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين، المتوفى سنة 630هـ، الكامل فى التاريخ، 9 أجزاء، إدارة الطباعة الميترية سنة 1348هـ.

(11) ابن الأثير: على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى (555هـ/ 630م)، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، ملتزم الطبع والنشر، دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة 1382هـ، 1963م.

(12) ابن إياس: أحمد بن إياس الحنفى المصرى، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور، الطبعة الأولى، بولاق سنة 1311هـ .

(13) الحافظ الذهبى: مؤرخ الإسلام 748هـ / 1373م، العبر فى خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان .

(14) العماد الحنبلى: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحى العماد الحنبلى، المتوفى سنة 1089م، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، 5 أجزاء، عنيت بنشرة مكتبة القدس سنة 1350م .

(15) أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبى الفدا، (تاريخ أبو الفدا) المختصر فى أخبار البشر، 4 مجلدات فى جزأين، دار الطباعة للطباعة والنشر ببيروت، لبنان، وهناك 4 أجزاء فى مجلد واحد، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسنية المصرية سنة 1325هـ .

(16) أبو الفدا: السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، كتاب تقويم البلدان، طبعه وصححه رينو مدرس العربية، والبارون مارك كوين دبسلان، طبع فى مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية 1840م مسيحية.

(17) الأسعد بن مماتى الوزير الأيوبى: المتوفى سنة 606هـ/ 1209م، كتاب قوانين الدواوين، جمعة وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر سنة 1943م، طبع الجمعية الزراعية الملكية سنة 1898م، بإشارة الأمير عمر طوسون .

(18) الحموى: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى، معجم البلدان 5 مجلدات، بيروت سنة 1956م/ 1375هـ .

(19) القلقشندى: أبى العباس على القلقشندى سنة 821هـ/ 1418م، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء 14 جزءًا ، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر .

(20) القزوينى: زكريا بن محمد بن محمود القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت .

(21) النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة 1345هـ/ 1926م، 31 جزءًا.

(22) ابن الطوير: أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى، نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد، سنة 1412هـ/ 1992م .

(23) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد المحسن بن عبد الكريم بن محمد هرون بن محمد هرون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه، آثار الأول فى ترتيب الدول، ابتداء تأليف عشية السبت ثالثة عشر شوال سنة ثمانية وسبعمائة .

(24) ابن أرنبغا الزردكاش: سنة 867هـ، الأنيق فى المناجيق، دراسة وتحقيق د/ إحسان هندى، دمشق سنة 1405هـ/ 1985م

(25) ابن القلانسى: أبى يعلى حمزة بن القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق تتلوه نخبة من تواريخ ابن الأزرق الفارق – وسبط بن الجوزى – الحافظ الذهبى طبع فى بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1908م .

(26) ابن شداد: عز الدين محمد على إبراهيم، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، جزء يتكون من قسمان، تحقيق يحيى زكريا عبادة دمشق سنة 1991م .

(27) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع، المتوفى سنة 632هـ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق: جمال الدين الشيال الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة 1964م .

(28) ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى، المتوفى سنة 774هـ، البداية والنهاية فى التاريخ، 14 جزءًا، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة 1358هـ.

(29) ابن الأثير: أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الوهاب الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين سنة 630هـ، الكامل فى التاريخ، 9 أجزاء.

(30) الشافعى: شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى، الروضتين فى أخبار الدولتين، طبعة جديدة بمطبعة وادى النيل القاهرة سنة 1287هـ.

(31) ابن جبير: أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى الرحلة، كتاب راحلة بن جبير، الشركة العامة للكتاب ش.م. ل.

(32) ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

(33) أسامة بن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، و.ف مطبعة برنستون، الولايات المتحدة سنة 1930م.

(34) الدوادرى: أبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدر وجامع الغرر، الدر المطلوب شرحه أخبار ملوك بنى إياس، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، 9 أجزاء، القاهرة 1392هـ/ 1972م.

(35) العينى: بدر الدين محمود العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د/ محمد محمد أمين، 4 أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1407هـ/ 1987م.

(36) العمرى:شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى (701هـ/ 1301م-749هـ/ 1349م)، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه د/ أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.

(37) ابن الجوزى: شمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى المشهور بسبط بن الجوزى المتوفى 654هـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعلام، الطبعة الأول 1371هـ/ 1952م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن/ الهند.

(38) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر الخضرمى الإشبيلى الأصل التونسى ثم القاهرى (ت 808هـ/ 1405م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، 7 أجزاء، منتصف تمام تسعة وسبعين وسبعمائة.

(39) البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى، كتاب فتوح البلدان، 3 أقسام نشره ووضع ملاحقه وفهارسه د/ صلاح الدين المنجد، ملتزمة النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية 1957م.

(40) الأنصارى الدمشقى: نخبة الدهر شرحه عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد، 1923م.

(41) الداعى إدريس عماد الدين المتوفى 872هـ/ 1488م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق / محمد اليعلاوى، دار الغرب الإسلامى الطبعة الأول 1985م.

(42) المقدسى: أحسن التقاسم فى معرفة الإقاليم، طبعة ليدن، إبريل 1906م.

(43) ابن هذيل الأندلسى: حلبة الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، القاهرة 1959م.

(44) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة 1342هـ.

(45) السيد أدى شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان بيروت سنة 1990م .

(46) ابن منظور: العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقى المصرى الأنصارى الخزرجى، لسان العرب، الطبعة الأولى المطبعة الأمير ببولاق مصر المحمية سنة 1301هـ، 20 جزءًا.

(47) الإمام اللغوى: محب الدين أبى الفيض السيد محمد مرتضى الحسن الواسطى الزبيدى الحنفى، تاج العروس من جواهر القاموس، 10 أجزاء .

(48) الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى معجم البلدان، 5 مجلدات، دار صادر بيروت سنة 1374هـ، 1955م .

(49) ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، النجوم الزاهرة فى ملوك القاهرة، 12 جزءًا، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية سنة 355هـ/ 1936م

(50) ابن سيده: أبى الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المعروف بابن سيده المرسى، المخصص، 17 جزءًا، الطبعة الأول، المطبعة الأمير ببولاق مصر المحمية سنة 1318هـ .

(51) ابن سيده: على بن إسماعيل بن سيده، المتوفى سنة 458هـ، المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، الطبعة الأولى سنة 1377هـ/ 1958م، 6 أجزاء .

(52) ابن عبد ربه: أبى عمر أحمد بن محمد عبد ربة الأندلسى، كتاب العقد الفريد شرحه ورتبه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى، 7 أجزاء، الطبعة الثانية، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1367هـ/ 1948م .

(53) حسين يوسف موسى: عبد الفتاح الصعيدى، الإفصاح فى فقه اللغة، الطبعة الأول الثانية، جزءان، دار الفكر العربى، الجزء الأنيق .

(54) عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى، المتوفى سنة 1143هـ، الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد د/ أحمد عبد المجيد الجوهرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1986م .

(55) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى، بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة 1301هـ، 20 جزءًا.

(56) عثمان بن إبراهيم النابلسى، لمع القوانين المضية فى شرح دواوين الديار المصرية، طبعة المعهد الفرنسى، دمشق 1961م.

(57) غريغوريوس أبى الفرج بن هرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى تاريخ مختصر الدول وقف على طبعة الأب أنطون صالحى اليسوعى، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين فى بيروت سنة 1890م .

(58) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية د/ نبيه فارس منير البعبلكى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأول، 1948م.

(59) الطرسوسى: مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى، المتوفى سنة 589هـ ألفه لصلاح الدين الأيوبى عنى بتحقيق ونشرة كلود كاهين، تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعنية على لقاء الأعداء .

ثانيًا: قائمة المراجع العربية

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى، الطبعة الأولى 1961م، دار المعارف بمصر.

(2) السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينه صيدا فى العصر الإسلامى، 1970م.

(3) السيد الباز العرينى، دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة 1956م.

(4) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسة فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1999م.

(5) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب، الكويت، المحرم، صفر 1399هـ/ يناير (كانون الثانى) 1979م.

(6) أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، الطبعة الأولى 1960م، المطبعة الجديدة دمشق (داخل محطة الحجاز).

(7) أحمد الأبيش، د/ قتيبة الشهابى، معالم دمشق التاريخية، دراسة تاريخية ولغوية عن أحيائها ومواقعها القديمة تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها، دمشق 1996م .

(8) أحمد شلبى، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، الطبعة السابعة 1984م، الجزء الرابع مكتبة النهضة المصرية.

(9) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية، 1986م.

(10) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، 1397هـ، 1977م.

(11) الفارس دارفيو، وصف دمشق فى القرن السابع عشر من مذاكرات الرحالة الفرنسى دارفيو ترجمة وتعليق أحمد أيبش، الطبعة الأولى، دمشق 1403هـ/ 1982م.

(12) أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها (دراسة لغوية) منشورات كلية العلوم والأدب، الجامعة الأمريكية فى بيروت 1956م.

(13) أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الطبعة الأولى، القاهرة 1997م.

(14) أبو الحمد محمود فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، 1409هـ/ 1989م.

(15) أمين الخولى، الجندية والسلم موقع ومثال، دار المعرفة، القاهرة 1960م.

(16) أرشيبالد.ر.لويس، القوى البحرية التجارية فى حوض البحر التوسط (500-1100م) مراجعه وتقديم: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة نيويورك).

(17) نعوم بك شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى، 1411هـ/ 1991م.

(18) أبو الحمد محمود فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقطبية فى القاهرة، القاهرة (1409هـ/ 1989م).

(19) إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية 1990م دار المعرفة الجامعية.

(20) إحسان هندى، الحياة العسكرية عند العرب (الجيش العربى فى ألف عام) دمشق 1964م.

(21) بيج (جون بيرتون): البرج فى العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبنانى، بيروت 1402هـ/ 1981م.

(22) تاريخ البحرية المصرية، وضع فصوله نخبة من الأساتذة المتخصصين بجامعة الإسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية بجمهورية مصر العربية 1973م.

(23) توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة (العصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية)، الجزء الثانى، يوليو 1969م.

(24) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثانى العصران الأيوبى والمملوكى، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م.

(25) جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط سياسيًا واقتصاديًا، مطبعة دون بوسكو بالإسكندرية 1949م.

(26) جميل خانكى، تاريخ البحرية المصرية، وزارة الدفاع، السلاح البحرى الملكى، القاهرة 1948م.

(27) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، الجزء الأول، طبعة جديدة راجعها وعلق عليها د/ حسين مؤنس، دار الهلال، 1920م طبعة أولى، 1958م طبعة ثانية.

(28) جان سوفاجييه، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر نقلها إلى العربية فؤاد أفرام البستانى، ظهرت فى مجلة الشرق، المطبعة الكاثوليكية بيروت 1936م.

(29) جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقى، قدم له وزوده عبد الرحمن زكى، مكتبة النهضة المصرية، 1956م.

(30) جوزيف نسيم، العدوان الصليبى، الإسكندرية 1969م.

(31) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الثقافة والنشر، 1404هـ/ 1984م.

(32) حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول الطبعة الأولى 1420هـ/ 1999م، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع خمسة مجلدات.

(33) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة 1981م.

(34) حسين مؤنس، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الطبعة الأولى، القاهرة 1378هـ- 1959 م.

(35) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى 1407هـ/ 1987م، الزهراء للإعلام العربى.

(36) حسنين محمد ربيع، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة 1990م.

(37) حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ دولة البيزنطيين، 1403هـ-1983م، دار النهضة العربية.

(38) درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف الإسكندرية الطبعة الثانية 1979م.

(39) ديفيز (دوين جوتز)، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل، ترجمة زكى شنودة بدون سنة .

(40) رسالة الكندى فى جواهر السيوف، باعتناء رانام بن إحسان إلهى مطبعة بنجاب بلاهور، رسالة إسحاق بن يعقوب إسحاق الكندى إلى بعض الخلفاء فى جواهر السيوف.

(41) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى 1998م.

(42) سعاد ماهر محمد، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر 1967م.

(43) سيد كريم، القاهرة عمرها ألف سنة، القاهرة 1999م.

(44) سامية توفيق عبد الله، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية من الحكم الفاطمى حتى نهاية العصر المماليكى، القاهرة 1983م.

(45) سوسن سليمان يحيى، آثارنا الإسلامية، (العمارة فى صدر الإسلام والعصر العباسى الأول) دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، 1420هـ/ 2000م.

(46) سليم عادل عبد الحق، نزهات آثارية فى سوريا، المؤتمر الأول للآثار فى البلاد العربية، طبع فى مطبعة الترقى بدمشق 1366هـ/ 1947م.

(47) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، جزءان، الطبعة الثالثة 1978م. مكتبة الأنجلو المصرية.

(48) سعد محمد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن (فى الفترة الأيوبية المملوكية دراسة تاريخية أثرية إستراتيجية)، دار البشير 1987م.

(49) سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، تحقيق د/ عصام محمد شبارو، الطبعة الأولى، 1988م.

(50) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د/ السيد الباز العرينى - دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية 1980م.

(51) صالح أفندى مجدى، ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والمقلاع، دار الطباعة المصرية، ببولاق القاهرة المعزية (أوائل شهر ربيع الأول أحد شهور السنة الخامسة والسبعين من القرن الثالث عشر).

(52) صالح أفندى مجدى، المطالب المنيفة فى الاستحكامات الخفيفة، 1278هـ.

(53) صالح لمعى مصطفى، التراث الإسلامى المعمارى فى مصر، دار النهضة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1984م.

(54) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر (دمياط والمنصورة)، مطبعة النيل القاهرة، 1364هـ- 1945م.

(55) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة 1951م.

(56) عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، تأليف حسن الباشا وآخرون.

(57) عبد الرحيم أحمد، تاريخ الفن فى العصور الإسلامية (العمارة وزخارفها)، الطبعة الأولى 1989م، مكتبة عالم الفكر.

(58) عبد الرحيم غالب، (جروس برس)، موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى 1408هـ/ 198م بيروت.

(59) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن فى العصور الإسلامية (العمارة وزخارفها) الطبعة الأولى 1989م، مكتبة عالم الفكر.

(60) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة وآثارها فى الحروب الصليبية، إبريل 1960م.

(61) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية (الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة) القاهرة 1970م.

(62) عبد الرحمن زكى، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك 969هـ / 1517م أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس – إبريل 1969م، الجزء الثانى مطبعة دار الكتب 1971م.

(63) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور تاريخها وآثارها، مركز الكتاب للنشر القاهرة 1998م.

(64) عبد العزيز محمود عبد الدائم، بيت المقدس فى العصر الأيوبى، القاهرة 1989م.

(65) عبد العزيز صلاح سالم، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى، الجزء الأول، القاهرة 1998م.

(66) عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبى، مكتبة الأنجلو المصرية 1958م.

(67) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1966م.

(68) عبد العليم عبد الرحمن خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس، السعودية، 1981م، 1401هـ مطبعة سحر.

(69) عبد اللطيف حمزة، صلاح الدين بطل حطين، دار الفكر العربى، 1958م.

(70) عبد النعيم محمد حسنين، دولة السلاجقة، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية 1975م.

(71) عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، النهضة المصرية 1959م.

(72) عبد الله سعيد محمد الغامدى، صلاح الدين والصليبيون (استرداد بيت المقدس)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة 1985م.

(73) على محمود فهمى، التنظيم البحرى فى شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادى ترجمة د/ قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى 1997م.(عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية) العربية، القاهرة 1990م.

(74) على حسن الخربوطلى، مصر العربية الإسلامية، 1963م.

(75) الإسلامى منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، الجيزة 1963م.

(76) عمر الإسكندرى وا.ج سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى مع نبذه فى أخبار الأمم التى ارتبطت بمصر إلى ذلك 1410هـ/ 1990م.

(77) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م.

(78) عمر صالح البرغوثى وخليل طوطح م.ع كولومبيا نيويورك، تاريخ فلسطين، عنى بنشره بولس وديع سعيد، مطبعة بيت المقدس فى القدس 1923م.

(79) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور / كمال اليازجى، أشرف على مراجعته وتحريره د/ جبرائيل حبور دار الثقافة، بيروت 1959م.

(80) فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة)، المجلد الأول الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970م.

(81) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى من سقوط الطاهريين إلى بداية الغرنويين، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1988م.

(82) فرحات الدشراوى، الخلافة الفاطمية بالمغرب، نقله إلى العربية حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994م.

(83) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، الطبعة الثالثة، بيروت 1985م.

(84) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، 3 أجزاء، دمشق 1990م.

(85) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق 1996م

(86) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية (مستخرج نصوص المؤرخين العرب والأجانب، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية)، دمشق 1998م.

(87) قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1994م.

(89) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1381هـ/ 1961م.

(90) محمد عبد الله عنان المحامى، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1352هـ/ 1934م

(91) محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى 1945م القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1953م - 1954م.

(92) موسوعة العالم الإسلامى، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامى تصدر عن دار الرأى العام، إعداد / مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام، الإشراف العام/ عبد الحميد حجازى، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1397هـ/ 1977م.

(93) محمد عبد الهادى شعيرة، دراسات فى الآثار الإسلامية، من تاريخ التحصينات العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة، الطبع بوحدة الإنتاج بإدارة التوثيق والمعلومات اليكسوا.

(94) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت 658هـ/ 1260م، دراسة فى الجيشين المملوكى والمغولى، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1989م .

(95) محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1346هـ/ 1927م، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(96) محمد عبد العزيز مرزوق، بين الآثار الإسلامية فى العالم، الإسكندرية 1372هـ/ 1953م.

(97) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، 1947م.

(98) محمد مصطفى زيادة، عبد الحميد العبادى، إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية من تاريخها وحضارتها، الطبعة الثالثة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1958م.

(99) محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، 1979م.

(100) محمود أحمد محمد سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى 1407هـ/ 1987م.

(101) محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى.

(102) محمد محمود إدريس، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى 1983م، دار الثقافة والطباعة والنشر.

(103) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ/ 1986م .

(104) نظير حسان سعداوى، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، مكتبة النهضة المصرية، 1961م.

(105) نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.

(106) نعوم بك شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى، 1411هـ/ 1991م.

(107) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى 1994م.

(108) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د/ حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950م.

(109) نعمان ثابت، الجندية فى الدولة العباسية، الطبعة الثانية، مطبعة أسعد 1956م.

(110) هاشم عثمان، الأبنية والأماكن الأثرية فى اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1996م.

(111) وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د/ حسن حبشى، الجزء الرابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م.

(112) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع فى بيروت فى المطبعة العمومية الكاثوليكية 1983م، 8 أجزاء.

ثالثًا: قائمة الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه)

(1) أسامة سيد على، الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبى رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس سنة 1996م.

(2) إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها فى العصر الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 1412هـ- 1992م.

(3) أبو الحمد محمود فرغلى، تصاوير المخطوطات فى عصر الأيوبيين، رسالة ماجستير، القاهرة، سنة 1401هـ — 1981م.

(4) أجفان الصغير، القلاع فى بلاد الشام، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة دمشق، سنة 1995م.

(5) أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وآثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1992 .

(6) أمل محفوظ أحمد جمعة، العمائر الحربية فى عصر محمد على بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1999م.

(7) جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها الخارجية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق سنة 1989م، 1410هـ .

(8) عبد العزيز صلاح سالم، المعادن الأيوبية فى مصر والشام، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1998م.

(9) حسين عبد الرحيم عليوة، السلاح المعدنى للمحارب المصرى فى عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، سنة 1994م.

(10) سرور على عبد النعيم، الدور السياسى لحصن شقيف آرنون فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة طنطا سنة 1997م.

(11) سهير محمد إبراهيم، جبلة ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة 1994م.

(12) عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر مع دراسة عن فن القتال البحرى فى عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1974م.

(13) كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها فى الحرون الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين شمس، سنة 1991م.

(14) محمود درويش، الاستحكامات الحربية بمدينة رشيد فى العصر المملوكى حتى عصر محمد على، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة سنة 1991م.

(15) منى فريد مصطفى عثمان، حماه فى العصر الأيوبى، رسالة ماجستير، كلية البنات جامعة عين شمس، سنة 1995م.

(16) مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م.

(17) مرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م.

(18) مصطفى عبد العزيز العسقلانى، عسقلان ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م .

(19) محمد عبد العزيز السيد، جزيرة الروضة وآثارها الدارسة حتى نهاية العصر المملوكى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1977م.

رابعًا: قائمة المجلات العلمية

(1) أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، العدد الأربعون، أكتوبر سنة 1987م يحررها خبراء هيئة الآثار المصرية بالتعاون مع مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، (مقال عن الترميم الدقيق للمتحف الحربى بقلعة صلاح الدين).

(2) أحمد فكرى، أبحاث الندوة الدولية التاريخية القاهرة (مارس- إبريل الجزء الأول)، مطبعة دار الكتب، سنة 1997م.

(3) الجيش والبحرية، مجلة فنية علمية شهرية، السنة الأولى، مطبعة جريدة نهضة الشرق بالإسكندرية، سنة 1927م.

(4) إبراهيم العدوى، الحمام الزاجل فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثانى، العدد الأول، سنة 1949م.

(5) أسامة زكى زيد، الخوارزميون ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد الثلاثون، سنة 1956م .

(6) الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلة تبحث فى آثار الوطن العربى وتاريخة تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية، المجلد الثالث والثلاثون (الجزء الأول)، سنة 1983م.

(7) إبراهيم خميس إبراهيم، الحيل والخدع العسكرية الإسلامية منذ بداية الغزو الصليبى حتى وفاة نور الدين محمود، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس والثلاثون، سنة 1988م.

(8) القلاع، مقال بدائرة المعارف السعودية (الفيصل)، مجلة ثقافية شهرية العدد 152، السنة الثالثة عشر، سبتمبر سنة 1989م .

(9) جوزيف نسيم، سيناء كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربى، العدد الرابع، مطبعة الجامعة ببغداد، سنة 1977م.

(10) حسنين محمد ربيع، البحر الأحمر فى التاريخ والسياسية الدولية (ندوة تاريخ البحر الأحمر) جامعة عين شمس، سنة 1979م.

(11) سوسن سليمان يحيى، تجديد صلاح الدين الأيوبى للعمائر الإسلامية فى بيت المقدس، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة العدد الخامس، سنة 1991م.

(12) سعيد عبد الفتاح عاشور، صور من مجتمع القاهرة فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن عشر سنة1971م، مطابع سجل العرب.

(13) سعيد عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس عشر، سنة 1969م.

(14) سعيد عبد الفتاح عاشور، الجبهة الصليبية فى معركة حطين، مجلة المؤرخ المصرى، دراسات وبحوث تاريخية، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1988م.

(15) سعد أبو دية، قلعة الربض (عجلون)، المتحف العربى، السنة الثانية، العدد الثالث جامعة اليرموك، الأردن، سنة 1407هـ/ 1987م.

(16) صلاح الدين البحيرى، الإعداد المعنوى للحروب الصليبية المضادة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادى والعشرون، سنة 1974م.

(17) صلاح حسين، منجنيق من الحضر، مجلة سومر، تصدرها مديرية الآثار العامة، الجزء الأول والثانى، المجلد الثانى والثلاثون، سنة 1976م

(18) عبد الرحمن زكى، مقال عن السيف فى الشرق الأدنى، مجلة الكتاب المجلد الأول، الجزء الخامس، السنة الأولى، سنة 1946م.

(19) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، القاهرة، سنة 1969م.

(20) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، المجلة، العدد الخامس سنة 1376 هـ/ 1957م.

(21) عبد الرحمن زكى، صناعة السيوف الإسلامية فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس سنة 1956م .

(22) عبد الرحمن زكى، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب سنة 1971م.

(23) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم (البيزنطية)، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع مطبعة هيئة الآثار المصرية، القاهرة 1991م.

(24) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادى، العدد الرابع سنة 1995م.

(25) عدنان البنى، قلعة دمشق، مقال بمجلة الحوليات الأثرية السورية سنة 1985م.

(26) كمال الدين سامح، القلاع الإسلامية، مجلة المتحف العربى، السنة الثانية، العدد الثالث، سنة 1407هـ/ 1987م.

(27) مصطفى حسن محمد الكنانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثانى، سنة 1990م.

(28) ميخائيل عواد، المآصر فى بلاد الروم والإسلام، المقتطف، ج3، من المجلد الرابع بعد المائة، سنة 1944م/ 1363هـ . انظر أيضًا ج4، من المجلد الرابع بعد المائة، 1944م/ 1363هـ.

(29) مصطفى حسن محمد الكنانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثانى، سنة 1990م .

(30) موسوعة العالم الإسلامى، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامى تصدر عن دار الرأى العام، إعداد مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام، الإشراف العام، عبد الحميد حجازى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 1977م.

(31) مجلة المجمع العلمى العربى (دمشق)، الجزء الأول والثانى من المجلد السادس كانون الثانى وشباط سنة 1926م.

(32) محمد جمال الدين الشيال، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثانى، أكتوبر سنة 1949م.

(33) محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربي، العدد الثاني، سنة 1407هـ/ 1986م.

(34) موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى سنة 1418هـ/ 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكري.

(35) بيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية الثالث والعشرون، سنة 1976م.

خامسا: أسماء المراجع الأجنبية

1) Amin Maalouf, the Crusades through Arab eyes, Translated by Jon Rothschild, 1983.
2) Archer (T.A), kings ford (cl, the crusades, London, 1919.
3) Benvenisti, The crusades in the Holy land Jerusalem, 1970.
4) Deschamps (p), les chateaux des croises en terre sainte le crac chevaliers, etude historique et Archeologique, 2 Tomes, paris, 1934 .
5) Deschamps (p), les chateaux des croises en terre sainte, la defense du Royaume de Jeruslalem etude Historque,Geographique et Monumentel, paris, 1939.
6) Fedden (Robin): crusades castles, London, 1950 .
7) Grousset, Histoire des croisades, paris, 1935 .
8) Heinrich von sybel, History and literature of the crusades, translated from the German and edited by Lady Duff Gordon with an index, London, new york, 1861 .
9) Hoffmeyer, (Ada Bruhn), Islamic swords of the Middle age. Koben hagen, 1956.
10) Joshua prawer, Histoire Du Royaume latin De Jerusalem, second edition, TomeII, paris, 1970
11) K.A.C cresweel, A short Account of early Muslim Architecture, pelican, 1958 .
12) K.A.C. creswell, fortification in Islam Before A.D 1250, The proceedings of the British A Cademy (XXXVIII), London, 1952.
13) Lane – pool (s), Saladin and the Fall of King dome of Jerusalaem, Beirut, 1964 .

14) Lane-pool (s): Saladin, (put nan), London, 1926 .

15) Max van Bercham, corpus inscription un (Jerusalem ville), le caire, 1922.

16) Max van Bercham, voyage en Syrie, collection memories de l'institut francais D'Archeologie orientale 1914

17) Nasser .o . Rabbat, The citadel of cairo (A New Interpretation of Royal Mamluk Arehitecture) leiden – New York 1995.

18) Oman (c . w), A history of the art of war in the Middl ages, New York, 2vols, 1953.

19) Parry and yapp, war teahnology and society in the Middle east .

20) Ray (G), Etudes sur les Monuments de l'architecture militaire de croses en Syrie et dans l'Me de chypre, paris, 1871 .

21) Robinson (H . Russell), oriental Armour (Arms and Armour series, Herbert jenkins) London, 1967 .

22) R.DOZY, Supplement aux Dictionaires Arabes, liban, Beyrouth, 2vols, 1968.

23) Saouaf, Alleppo past and present, alleppo, 1965 .

24) Saxtorph, warriors and weapons of early times, London, 1972, (Bland ford press) .

25) Souvaget .J, citadelle de Damas Syrie (XI), 1930 .

26) Steven Runciman, Ahistory of the crusades, 3 vols, Combridge, 1951 .

27) Villehardouin and de Joinville, Memoirs of the crusades, London, new york, 1908 .

28) W.B Stevenson, The Crusaders in the east, combridge, 1907 .

29) Wiet, L' Egypt Arabe, History de la Nation Egyptinne, paris, 1937 .

30) Wilkinson (Fredrick Muller), let's look at Arms and Armour, London, 1968

31) Zoe oldenBourg, The crusades, Translated from the French by anne carter, new york (without date) .

